كازو إيشيغورو
الحائز على جائزة نوبل للآداب

مكتبة

كلارا والشمس

رواية

المركز الثقافي العربي

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

كازو إيشيغورو

كلارا والشمس

الكتاب

كلارا والشمس

تأليف

كازو إيشيغورو

ترجمة

زياد حسُّون

الطبعة

الأولى، 2023

الإيداع القانوني:
2023MO0017

الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9920-657-51-8

جميع الحقوق محفوظة
© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 303339 0522 ـ 307651 0522
فاكس: 305726 522 212+
Email: markaz.casablanca@gmail.com

العنوان الأصلي للرواية:

Kazuo Ishiguro
Klara and the Sun

© Kazuo Ishiguro, 2021
All rights reserved

مكتبة
t.me/soramnqraa

كازو إيشيغورو

مكتبة
t.me/soramnqraa

كلارا والشمس

رواية

ترجمة: زياد حسّون

المركز الثقافي العربي

إلى ذكرى والدتي

شيزوكو إيشيغورو

(2019-1926)

القسم الأوّل

مكتبة
t.me/soramnqraa

حين كنّا لا نزال جديدتين، كنتُ أنا وروزا في وسط المتجر من جهة طاولة المجلّات، وكان يمكننا من هناك أن نرى ما يزيد عن نصف النافذة. وهكذا استطعنا أن نتفرّج على الخارج - عمّال المكاتب يهرولون، سيّارات الأجرة، العدّاؤون، السيّاح، الرجل المتسوّل وكلبه، والقسم السفلي من مبنى RPO. سمحت لنا المديرة حالما بِتنا أكثر استقراراً بالسير إلى الأمام وصولاً إلى وراء نافذة العرض مباشرة، وعندها أمكننا رؤية كم كان مبنى RPO عالياً. وإذا كنّا هناك في الوقت المناسب، فكنا نرى الشمس(*) أثناء رحلته وهو يعبر بين قمم المباني من جهتنا وصولاً إلى جهة مبنى RPO.

حين كنتُ محظوظةً بما يكفي لرؤيته على هذا النحو، كنتُ أميل بوجهي نحو الأمام كي أمتلئ بأكبر قدرٍ ممكن من غذائه، وإذا كانت روزا معي، فكنت أطلب منها أن تفعل الشيء نفسه. كان علينا العودة

(*) استخدم الكاتب في النص الأصلي - عمداً وعلى نحوٍ متكرّرٍ - صيغة المفرد المذكّر العاقل للإشارة إلى الشمس. ورأينا أن من واجبنا الالتزام بالخطّ الذي انتهجه الكاتب حتى لو كان ذلك على حساب الوقوع في مطبّات نحويّة - المترجم.

إلى مواقعنا بعد دقيقة أو دقيقتين، وإذ كنّا ما نزال جديدتين، فلطالما كنّا نقلق من أنّنا سوف نصبح أضعف فأضعف نظراً لعدم قدرتنا على رؤية الشمس في كثيرٍ من الأحيان من وسط المتجر. أخبرَنا الصبي ص. ا. ريكس الذي كان بجانبنا في ذلك الوقت أنّه ما من داعٍ للقلق، وأنَّ لدى الشمس طرقاً للوصول إلينا أينما كنّا. أشار إلى ألواح الأرضية وقال: «ذلك نسَق للشمس هناك. إذا شعرتِ بالقلق، يمكنكِ أن تلمسيه فحسب وسوف تعودين قويّةً مجدّداً».

حين قال هذا لم يكن هناك زبائن في المتجر، وكانت المديرة مشغولة بترتيب شيءٍ ما فوق الرفوف الحمراء، ولم أرغب في إزعاجها بطلب الإذن. وهكذا نظرتُ إلى روزا، وحين نظرتْ إليَّ نظرةً خاليةً من التعبير، تقدّمتُ خطوتين إلى الأمام، قرفصتُ ومددتُ كلتا يديّ إلى نسق الشمس على الأرض. لكنَّ النسق تلاشى بمجرّد أن لمستْهُ أصابعي، ورغم أنّي حاولت كلَّ ما في وسعي - أخذتُ أربّتُ على البقعة التي كان فيها، وحين لم ينفع ذلك، رحتُ أفرك بيديَّ فوق ألواح الأرضية - إلّا أنّ النسق لم يرجع أبداً. قال الصبي ص. ا. ريكس لمّا نهضتُ واقفة:

- «كان ذلك جشعاً، يا كلارا. أنتنَّ فتيات ص. ا. جشعاتٌ دائماً».

رغم أنّني كنتُ جديدةً في ذلك الوقت، فقد خطر لي على الفور أنَّ ذلك ربّما لم يكن خطئي؛ ليس خطئي أنَّ الشمس سحب نسقه بالصدفة في اللحظة التي كنتُ ألمسه فيها. لكنَّ وجه الصبي ص. ا. ريكس ظلَّ جدّياً.

- «لقد أخذتِ كلَّ الغذاء لنفسك، يا كلارا. انظري، لقد أظلمتْ تقريباً».

من المؤكّد أنَّ الضوء داخل المتجر أصبح قاتماً للغاية. وحتّى في الخارج على الرصيف، فقد بدت لافتة منطقة عدم الوقوف على عمود الإنارة رمادية وباهتة.

- «أنا آسفة»، قلتُ لريكس ثمَّ التفتُّ إلى روزا: «أنا آسفة، لم أقصد أن آخذ كلَّ شيءٍ لنفسي».

- «بسببكِ سوف أصبح ضعيفاً بحلول المساء» قال الصبي ص. ا. ريكس.

- «أنتَ تمزح. أعرف أنّكَ تمزح»، قلتُ له.

- «أنا لا أمزح. قد أمرض في الحال. وماذا عن تلك الص. ا. في القسم الخلفي من المتجر؟ هناك في الأساس شيءٌ ليس على ما يرام فيهم. لا بدَّ أنَّ حالهم ستزداد سوءاً الآن. لقد كنتِ جشعةً، يا كلارا».

- «أنا لا أصدّقك»، قلتُ له، لكنّني لم أعد متأكّدةً تماماً. نظرتُ إلى روزا، لكنَّ نظرتها كانت لا تزال خاليةً من أيِّ تعبير.

- «أشعر بالمرض بالفعل»، قال الصبي ص. ا. ريكس وارتخى منحنياً إلى الأمام.

- «لكنّكَ قلتَ بنفسك للتوّ أنَّ لدى الشمس دائماً طرقاً للوصول إلينا. أنتَ تمزح، أعرف أنّكَ تمزح».

في النهاية توصَّلتُ إلى إقناع نفسي بأنَّ الصبي ص. ا. ريكس كان يضايقني فحسب. لكنَّ ما لمسته في ذلك اليوم، هو أنّني جعلتُ عن غير قصد الصبي ص. ا. ريكس يشير إلى شيءٍ غير مريح، شيءٌ فضّل معظم الص. ا. في المتجر عدم الحديث عنه. بعدها ليس بوقتٍ طويل، حدث هذا الشيء للصبي ص. ا. ريكس، الأمر الذي

جعلني أعتقد أنّه حتّى لو كان يمزح في ذلك اليوم، فإنَّ جزءاً منه كان جادّاً أيضاً.

كان صباحاً مشرقاً، وريكس لم يعد بجانبنا الآن، لأنَّ المديرة نقلتْه إلى الكوّة الأمامية. لطالما قالت المديرة إنَّ كلَّ موقعٍ كان محدَّداً بعناية، وإنّه من المرجّح أن يتمَّ اختيارنا سواءً كنّا نقف في هذا الموقع أو ذاك. مع ذلك، كنّا جميعاً نعرف أنَّ عين الزبون الذي يدخل المتجر ستقع أوّلاً على الكوّة الأمامية، وكان ريكس بطبيعة الحال سعيداً بأخذ دوره هناك. راقبناه من وسط المتجر، يقف مرفوع الذقن، ونسق الشمس يغطّيه بالكامل. مالت روزا مرّةً نحوي لتقول «أوه، إنّه يبدو رائعاً بالفعل! لا بدَّ أنّه سيعثر على بيتٍ قريباً!».

في ثالث أيّام ريكس في الكوّة الأمامية، جاءت فتاةٌ مع والدتها. لم أكن بارعةً في تحديد الأعمار آنذاك، لكنّني أتذكّر أنّي أعطيتُ الفتاة ثلاثة عشر عاماً ونصف، وأعتقد الآن أنّه كان تقديراً صحيحاً. الأمُّ كانت عاملة مكتب، ومن حذائها وبذلتها يمكننا القول إنّها كانت رفيعة الشأن. اتَّجهت الفتاة مباشرة نحو ريكس ووقفتْ أمامه، بينما أخذت الأمُّ تتجوَّل قريباً منّا، نظرت إلينا، ثمَّ ذهبت إلى الخلف حيث كان اثنان من الص. ا. جالسَين فوق الطاولة الزجاجية يؤرجحان أرجلهما بحرّية كما طلبتْ منهما المديرة أن يفعلا. في مرحلةٍ ما نادت الأمُّ على ابنتها، لكنَّ الفتاة تجاهلتْها وواصلت التحديق في وجه ريكس. ثمَّ مدَّت الطفلة يدها وراحتْ تمرِّرها فوق ذراع ريكس. لم يقل ريكس شيئاً بالطبع، ابتسم لها فحسب وظلَّ ثابتاً بلا حراك، تماماً كما قيل لنا أن نفعل عندما يبدي أحد الزبائن اهتماماً خاصّاً.

- «انظري!» همستْ روزا. «سوف تختاره! إنّها تحبّه. هو محظوظٌ جدّاً!» لكزتُ روزا بعنفٍ كي أسكتَها، إذ يمكن سماع صوتنا بسهولة.

الآن كانت الفتاة هي التي تنادي الأمّ، وسرعان ما كانت كلتاهما تقفان أمام الصبي ص. ا. ريكس، ترمقانه من أعلى لأسفل، وكانت الفتاة في بعض الأحيان تتقدّم وتلمسه. تشاورت الاثنتان بأصوات رقيقة، وسمعتُ الفتاة في وقتٍ ما تقول: «لكنَّه مثاليٌّ يا أمّي. إنّه جميل»، وبعدها بلحظةٍ قالت الطفلة: «أوه، لكن أمّي، أرجوكِ».

بحلول هذا الوقت كانت المديرة قد انسلّتْ بهدوء لتستقرَّ خلفهما. في النهاية التفتت الأمُّ إلى المديرة وسألتْها:

- «أيُّ طرازٍ هذا؟».

- «إنّه طراز B2»، قالت المديرة. «الجيل الثالث. سيشكّل ريكس رفيقاً مثالياً للطفل المناسب. أشعر على وجه الخصوص أنّه سيحفّز السلوك الجادّ والملتزم، وسيشجّع على العمل الدؤوب فيما يخصّ الدراسة لدى الشباب».

- «حسنٌ، إنَّ هذه الشّابة هنا يمكنها بالتأكيد الاستفادة من ذلك».

- «أوه، أمّي، إنَّه مثاليّ».

ثمَّ قالت الأمّ: «B2، الجيل الثالث. ذاك الذي يعاني مشاكل في امتصاص الطاقة الشمسية، أليس كذلك؟».

قالتها هكذا ببساطة أمام ريكس، وابتسامتها لا تزال تعلو وجهها. حافظ ريكس على ابتسامته أيضاً، لكنَّ الفتاة بدتْ محتارة ونقلتْ عينيها من ريكس إلى أمّها.

- «هذا صحيح»، قالت المديرة. «عانى الجيل الثالث من بعض المشكلات البسيطة في البداية. لكنَّ تلك التقارير مبالغٌ فيها إلى حدٍّ كبير. إذ لا توجد أيُّ مشكلةٍ على الإطلاق في بيئةٍ تحظى بمستوياتٍ طبيعية من الضوء».

- «سمعتُ أنَّ سوء امتصاص الطاقة الشمسية يمكن أن يؤدّي إلى مزيدٍ من المشاكل، حتّى السلوكية منها»، قالت الأم.

- «مع فائق الاحترام، سيّدتي، لقد جلبتْ نماذج الجيل الثالث سعادةً عظيمة للكثير من الأطفال. وما لم تكوني تعيشين في ألاسكا أو في قاع منجم، فليس هناك ما يدعو للقلق».

واصلت الأم النظر إلى ريكس، ثمَّ هزّتْ رأسها أخيراً. «أنا آسفة يا كارولين. أتفهّم إعجابكِ به، لكنّه ليس لنا، سنجد لكِ واحداً مثالياً».

واصل ريكس الابتسام حتّى بعد مغادرة الزبونتين، وحتّى بعد ذلك، هو لم يُظهر أيَّ علامةٍ تدلُّ على أنّه حزين. لكنّني تذكّرتُه عندئذٍ وهو يلقي تلك الدعابة، وبتُّ متأكّدةً أنَّ تلك الأسئلة حول الشمس، ومقدار ما يمكننا أن نحصل عليه من غذائه، كانت في ذهن ريكس منذ بعض الوقت.

أدركُ اليوم بالطبع أنَّ ريكس لم يكن الوحيد. لكن رسميّاً، تلك لم تكن مشكلةً على الإطلاق - فلكلٍّ منّا مواصفات تضمن عدم تأثّرنا بعوامل مثل كيفية تموضعنا في غرفةٍ ما. ومع ذلك، فإنَّ الص. ا. سيشعر بالخمول بعد بضع ساعات بعيداً عن الشمس، ويبدأ بالقلق من أنَّ هناك شيئاً ليس على ما يرام به - أنَّ لديه مشكلةً فريدةً به، وإذا أصبحت هذه المشكلة معروفةً، فلن يعثر على بيتٍ أبداً.

كان هذا أحد الأسباب التي لطالما دفعتنا إلى التفكير كثيراً في التواجد في النافذة. وُعِد كلٌّ منّا بدوره، وكان كلٌّ منّا يتوق إليه. وكان جزءٌ من هذا التوق بسبب ما أطلقت عليه المديرة «الشرف الاستثنائي» في تمثيل المتجر في الخارج. أيّاً يكن ما قالته المديرة، كنّا أيضاً بالطبع نعلم أنَّه من المرجّح أكثر أن يقع علينا الاختيار أثناء تواجدنا في النافذة. لكن الشيء المهمّ الذي فهمناه جميعاً كان الشمس وغذاءه. أثارت روزا الأمر معي ذات مرّة بصوتٍ خافت، قبل أن يأتي دورنا في النافذة بوقتٍ قصير.

- «كلارا، هل تعتقدين أنّه بمجرّد أن نصبح في النافذة، فسوف نتلقّى الكثير من الخير لدرجة أنّنا لن نخمل مرةً أخرى أبداً؟».

كنتُ لا أزال جديدةً آنذاك، لذا لم أكن أعرف كيف أجيب، رغم أنَّ السؤال نفسه كان في ذهني.

ثمَّ جاء دورنا أخيراً، وصعدتُ ذات صباح مع روزا إلى النافذة مع حرصنا ألّا نصطدم بأيٍّ من المعروضات كما فعل الزوج الذي كان قبلنا في الأسبوع الفائت. بالطبع، كان المتجر لا يزال مغلقاً، واعتقدتُ أنَّ الشبكة المعدنية ستكون مسدَلَةً بالكامل. لكن وبمجرّد جلوسنا فوق الأريكة المخطّطة، رأيتُ فراغاً ضيّقاً على طول القسم السفلي من الشبكة - لا بدَّ أنَّ المديرة كانت قد رفعتْها قليلاً حين كانت تتأكّد أنَّ كلَّ شيءٍ جاهزٌ من أجلنا - وكان ضوء الشمس تحت تلك الفجوة يرسم مستطيلاً ساطعاً فوق الأرضية وينتهي بخطٍّ مستقيم أمامنا مباشرةً. احتجنا أن نمدَّ أرجلنا قليلاً فقط كي نضعها في دفئه. علمتُ حينها أنّه مهما تكن الإجابة على سؤال روزا، فنحن على وشك أن نحصل على كلِّ الغذاء الذي سوف نحتاجه في المستقبل

القريب. وحالما لمست المديرة المفتاح وارتفعت الشبكة المعدنية إلى أعلى سكّتها، أصبحنا مغطّاتَين بالضوء الساطع.

يجدر بي الاعتراف هنا أنّه لطالما كان هناك سببٌ آخر لرغبتي في أن أكون في النافذة، سببٌ لا علاقة له بتغذية الشمس أو بأن يختارني أحدٌ. على عكس معظم الص. ا.، على عكس روزا، كنت أتوق دائماً إلى رؤية المزيد من الخارج - رؤيته بكلِّ تفاصيله. لذا وبمجرّد أن ارتفعت الشبكة، أدركتُ أنَّه لم يعد بيني وبين الرصيف سوى الزجاج، وأنّني أملك حرّيةَ رؤيةٍ، عن قرب وبالصورة الكاملة، أشياء كثيرة كنتُ قد رأيتُها من قبل كحوافّ وزوايا فقط، وأصابني هذا بالحماس لدرجة أنّني نسيتُ للحظة الشمس وكرمه معنا.

استطعتُ لأوّل مرّة أن أرى أنَّ مبنى RPO كان في الواقع مصنوعاً من قطع طوبٍ منفصلة، وأنَّه لم يكن أبيض اللون كما ظننتُ دائماً، بل هو أصفرُ باهت. استطعت الآن أن أرى أيضاً أنّه كان أطول ممّا كنتُ أتخيّل - اثنان وعشرون طابقاً - وأنَّ كلَّ نافذةٍ مكرَّرةٍ فيه كانت محدَّدةً بحافَّتها الخاصّة. ورأيتُ كيف رسم الشمس خطّاً قطرياً عبر واجهة مبنى RPO، بحيث بدت جهةٌ منه على شكل مثلّث أبيض اللون تقريباً، بينما الجهة الأخرى كانت معتمةً جدّاً، رغم أنّني أعرف الآن أنّه كان بأكمله باللون الأصفر الباهت. لم أكن أستطيع أن أرى كلَّ نافذةٍ وصولاً إلى السطح فحسب، بل استطعت أيضاً في بعض الأحيان رؤية الأشخاص في الداخل، واقفين، جالسين، أو يتجولون في الأرجاء. وفي الشارع، أمكنني رؤية المارَّة، وأنواع أحذيتهم المختلفة، وأكوابهم الورقية، وحقائبهم، وكلابهم الصغيرة، وأمكنني إن أردت أن أتابع أيّاً منهم بعينيّ على طول ممرِّ المشاة إلى ما بعد لافتة منطقة عدم الوقوف الثانية. كنتُ أستطيع رؤية سيّارات

الأجرة من الداخل حين تبطئ لتسمح للمارّة بالعبور - يدُ السائق تنقر على عجلة القيادة، أو قبّعةٌ يرتديها الراكب في الخلف.

مضى اليوم، أبقانا الشمس دافئتَين، وأمكنني رؤية أنَّ روزا كانت سعيدةً جدّاً. لكنّني لاحظتُ أنّها تكاد لا تنظر إلى أيِّ شيء، كانت عيناها مثبّتتين طوال الوقت على لافتة منطقة عدم الوقوف الأولى التي أمامنا مباشرةً. كانت تدير رأسها فقط عندما أشير لها إلى شيءٍ ما، لكنّها تفقد الاهتمام بعد ذلك بلحظات، وتعود للنظر إلى الرصيف واللافتة.

فقط عندما كان أحد المارّة يتوقّف أمام النافذة، كانت روزا تنظر في اتّجاهٍ آخر وتأخذ كلّ الوقت المطلوب في ذلك. كنّا في هذه الحالات نقوم بما علّمتنا المديرة فعله: نرسم ابتساماتٍ «محايدة»، ونثبِّتُ نظرنا على نقطةٍ في منتصف المسافة صعوداً إلى أعلى مبنى RPO. كان النظرُ عن قربٍ إلى أحد المارة الذين يتوقّفون عند النافذة مغرياً للغاية، لكنَّ المديرة أوضحت أنَّ التواصل البصري في لحظةٍ كهذه كان سلوكاً مبتذلاً جدّاً. كان مسموحاً لنا أن نبدي استجابة فقط عندما يشير أحد المارّة إلينا على نحوٍ محدَّد، أو يتحدّثُ إلينا من خلال الزجاج، لكن ليس قبل ذلك أبداً.

تبيّن أنَّ بعض الأشخاص الذين توقّفوا أمام النافذة لم يكونوا مهتمّين بنا على الإطلاق، أرادوا فقط خلع أحذيتهم الرياضية وفِعل شيءٍ ما بها، أو أرادوا أن ينقروا على ألواحهم المستطيلة. لكن جاء بعضهم إلى الزجاج مباشرةً وحدّقوا نحو الداخل. كثيرٌ منهم كانوا أطفالاً في نفس العمر الذي كنّا مناسبين له، وبدوا سعداء لرؤيتنا. كان الطفل يقترب بحماس، وحيداً أو برفقة شخصٍ بالغ، ثمَّ يشير إلينا، يضحك، يرسم ملامح غريبة، ينقر على الزجاج، ويلوّح.

سرعان ما تحسَّنتُ في مراقبة هؤلاء الذين يقفون عند النافذة في الوقت الذي أبدو فيه أنّني أنظر إلى مبنى RPO. يأتي بين الحين والآخر طفلٌ ليحدّق بنا، وسيكون ثمّة حزنٌ في وجهه، أو غضبٌ في بعض الأحيان، كما لو أنّنا ارتكبنا خطأً ما. يمكن لطفلٍ مثل هذا أن ينقلب بسهولة في اللحظة التالية ويبدأ في الضحك أو التلويح مثل بقيّة الأطفال، لكن بعد يومنا الثاني في النافذة، تعلّمتُ بسرعة تمييز الفَرق.

حاولتُ أن أتحدَّث مع روزا حول هذا الأمر في ثالث أو رابع مرّة جاء إلينا طفلٌ على هذه الشاكلة، لكنّها ابتسمت وقالت: «كلارا، أنتِ تقلقين كثيراً. أنا متأكّدةٌ أنَّ تلك الطفلة كانت سعيدةً تماماً. كيف لا تكون كذلك في يومٍ كهذا؟ المدينة بأكملها سعيدةٌ جدّاً اليوم».

لكنّني أثرتُ الموضوع مع المديرة في نهاية يومنا الثالث. كانت تمدحنا قائلةً أنّنا بدونا «جميلتين وفريدتين» في النافذة. كانت أنوار المتجر قد أصبحت خافتة بحلول ذلك الوقت، وكنّا مستندين إلى الحائط في الجزء الخلفي من المتجر، حيث كان بعضنا يتصفّح المجلّات المشوِّقة قبل نومنا. كانت روزا بجواري، واستطعتُ أن أرى من وضعية كتفيها أنَّها كانت نصف نائمة بالفعل. لذا انتهزتُ الفرصة عندما سألتني المديرة إن كنتُ قد استمتعتُ بيومي، لأخبرها عن الأطفال الحزينين الذين جاؤوا إلى النافذة.

- «كلارا، أنتِ استثنائيةٌ حقّاً»، قالت مع الحرص على إبقاء صوتها ناعماً حتّى لا تزعج روزا والآخرين. «أنتِ تلاحظين وتستوعبين الكثير». هزّتْ رأسها وكأنّها تشعر بالدهشة. ثمَّ قالت: «ما يجب أن تفهميه هو أنّنا متجرٌ خاصٌّ جدّاً. هناك الكثير من

الأطفال الذين يحبّون أن تكون لديهم القدرة على اختياركِ، أو اختيار روزا، أو اختيار أيّ واحدٍ منكم هنا. لكنَّ هذا غير ممكن. أنتم بعيدو المنال بالنسبة لهم. لذا هم يأتون إلى النافذة كي يحلموا بامتلاككم. لكنّهم عندئذٍ يشعرون بالحزن».

- «أيّتها المديرة، هل لطفلٍ مثل هذا أن يمتلك ص. ا. في البيت؟».

- «ربّما لا. بالتأكيد ليس واحداً مثلك. لذا، إن نظر إليكِ طفلٌ ما بطريقةٍ غريبة، بمرارةٍ أو حزن، أو قال شيئاً مزعجاً عبر الزجاج، فلا تلقِ بالاً للأمر. تذكّري فحسب أنَّه من المرجح جدّاً أن يكون طفلٌ كهذا محبطاً جدّاً».

- «طفلٌ كهذا؛ من دون ص. ا.، سيكون بالتأكيد وحيداً».

- «نعم، هذا أيضاً صحيح» قالت المديرة بهدوء. «نعم، وحيد».

صمتتْ وأخفضتْ عينيها، فانتظرتُها. ثمَّ ابتسمتْ فجأة، ومدّت يدها لتبعد بلطفٍ من قبضتي المجلّة المشوّقة التي كنتُ أتصفَّحها.

- «ليلة سعيدة، كلارا. كوني رائعةً في الغد بقدر ما كنتِ اليوم. ولا تنسي: أنتِ وروزا تمثّلاننا في الشارع بأكمله».

■

كنّا تقريباً في منتصف صباح اليوم الرابع في النافذة حين رأيتُ سيّارة الأجرة تتباطأ، وسائقها يمطُّ نفسه خارج شبّاك السيارة كي تسمح له السيّارات الأخرى بالعبور فوق خطوط الشارع وصولاً إلى الرصيف أمام متجرنا. كانت عينا جوزي عليَّ إذ نزلتْ إلى الرصيف. شاحبةٌ وهزيلة، وإذ اقتربتْ منّا، أمكنني رؤية أنَّ مشيتها لم تكن مثل

غيرها من المارَّة. ليست بطيئةً بالضبط، لكن بدت وكأنّها تجري تقييماً بعد كلِّ خطوة لتتأكّد أنّها لا تزال بأمان ولن تسقط. قدَّرتُ عمرها بأربعة عشر عاماً ونصف.

توقّفتْ وابتسمتْ لي حالما أصبحتْ قريبةً كفاية بحيث أصبح جميع المارّة يعبرون من خلفها.

- «مرحباً»، قالت عبر الزجاج. «هيه، هل يمكنكِ سماعي؟».

واصلت روزا التحديق مباشرةً إلى مبنى RPO كما كان يُفترَض بها أن تفعل. أمّا أنا فقد تمّت مخاطبتي للتوّ، لذا كان يمكنني أن أنظر إلى الطفلة مباشرة، وأن أردّ لها الابتسامة، وأعطي إيماءةً مشجِّعة.

- «حقّاً؟»، قالت جوزي - رغم أنّني لم أكن بالطبع أعرف آنذاك أنّ هذا هو اسمها. «أكاد لا أستطيع سماع نفسي. هل يمكنكِ حقّاً سماعي؟».

أومأتُ برأسي مرّةً أخرى، وهزّتْ هي برأسها كما لو أنّها في غاية الانبهار.

- «واو!». نظرتْ من فوق كتفها - حتّى هذه الحركة أدّتْها بحذر - إلى سيّارة الأجرة التي نزلت منها للتوّ. كان بابها ما يزال مفتوحاً كما تركتْه، وكان هناك شخصان لا يزالان في المقعد الخلفي، يتحدّثان ويشيران إلى شيءٍ ما بعد معبر المشاة. بدت جوزي سعيدةً لأنَّ البالغَين لم يكونا على وشك الخروج، وأخذت خطوةً أخرى للأمام حتّى كاد وجهها يلمس النافذة.

- «لقد رأيتكِ بالأمس»، قالت لي.

استرجعتُ يومنا السابق، لكنّني لم أجد أيّة ذاكرة تخصّ جوزي، فنظرتُ إليها بدهشة.

- «أوه، لا تشعري بالتقصير أو أيِّ شيء، لا يمكن أن تكوني قد رأيتِني. لقد مررتُ بسيارة أجرة، ولم تكن تتحرك ببطء. لكنّني رأيتكِ في نافذتك، ولهذا السبب جعلتُ أمّي تتوقّف هنا اليوم». نظرتْ إلى الوراء مجدّداً بذات الحذر. «واو! ما زالت تتحدّث إلى السيّدة جيفريز. إنّها طريقةٌ مكلفة للكلام، أليس كذلك؟ فعدّاد سيّارة الأجرة هذا يواصل التسجيل فحسب».

حين ضحكتْ، استطعتُ عندئذٍ أن أرى كيف أنَّ وجهها كان يشعُّ باللطف. لكنّني وعلى نحوٍ غريب تساءلتُ في تلك اللحظة نفسها إذا كانت جوزي واحدةً من أولئك الأطفال الوحيدين الذين تحدَّثتُ عنهم مع المديرة.

نظرتْ إلى روزا - التي كانت لا تزال تحدّقُ بإخلاصٍ في مبنى RPO - ثمَّ قالت: «صديقتكِ لطيفةٌ حقاً». كانت عينا جوزي قد عادتا إليّ بالفعل حين قالت ذلك. واصلتْ النظر إليَّ بهدوءٍ لعدَّة ثوانٍ، وبدأتُ أشعر بالقلق من أن يخرج كبيراها من السيارة قبل أن تتمكّن من قول أيِّ شيءٍ آخر. لكنّها قالت عندئذٍ:

- «أتعرفين شيئاً؟ ستكون صديقتكِ رفيقاً مثالياً لأحدٍ ما. لكنّنا بالأمس مررنا بالقرب من هنا ورأيتكِ أنتِ، وفكّرتُ «تلك هي»، الص. ا. التي كنتُ أبحث عنها!». ضحكتْ مجدّداً. «أنا آسفة. ربّما بدا ذلك قليل الاحترام». استدارت مرّة أخرى نحو سيّارة الأجرة، لكنَّ الطيفين هناك لم يُظهرا أيَّ علاماتٍ على الخروج. «هل أنتِ فرنسية؟» سألتْني. «تبدين فرنسية».

ابتسمتُ وهززتُ رأسي.

- «هناك تلك الفتاتان الفرنسيّتان اللتان جاءتا إلى اجتماعنا الأخير. لكلتيهما شعرٌ قصيرٌ وأنيق مثلكِ. لقد بدَتا لطيفتين» قالت

جوزي. نظرتْ إليَّ بصمتٍ للحظةٍ أخرى، وظننتُ أنّي رأيتُ مسحةً أخرى صغيرة من الحزن على وجهها، لكنّني كنتُ لا أزال جديدةً تماماً في ذلك الوقت، ولم يكن بوسعي التأكّد من ذلك. ثمَّ أضاء وجهها وهي تقول:

- «هيه، ألا تشعرون بالحرِّ هناك يا رفاق وأنتم تجلسون على هذا النحو؟ ألا تحتاجون شيئاً لتشربوه أو ما شابه؟».

هززتُ رأسي ورفعتُ يديَّ وراحتيّ إلى الأعلى كي أشير إلى سحر غذاء الشمس الذي ينسكب علينا.

- «آه، أجل. لم أكن أفكّر في ذلك. أنتم تحبّون التواجد في ضوء الشمس، صحيح؟».

استدارت مجدّداً، هذه المرّة كي تنظر نحو قمم المباني. كان الشمس في تلك اللحظة في جوف السماء، وقد تأذّت عينا جوزي في الحال، فاستدارت نحوي من جديد.

- «لا أعرف كيف تفعلين ذلك. أعني مواصلة النظر هكذا دون أن يصيب عينيك الانبهار. لا أستطيع القيام بذلك ولو لثانية واحدة».

وضعت يدها على جبينها واستدارت مجدّداً، لم تنظر هذه المرّة إلى الشمس، بل إلى مكانٍ ما قرب أعلى مبنى RPO. بعد خمس ثوانٍ، عادت إليَّ مجدّداً.

- «أخمّنُ أنّه من حيث أنتم يا رفاق فإنَّ الشمس ينبغي أن يغيب خلف ذلك المبنى الكبير، أليس كذلك؟ وهذا يعني أنَّه لا يتسنَّى لكم أبداً رؤية أين يغيب حقّاً. لا بدَّ أنَّ ذلك المبنى يحجب الرؤية دائماً». ألقت نظرةً سريعة لتتحقَّق من أنَّ الكبار لا يزالون داخل سيّارة الأجرة، ثمَّ تابعت: «حيث نعيش، ليس هناك شيءٌ يحجب

الرؤية. من غرفتي في الأعلى، يمكنكِ أن ترَي أين يغرب الشمس بالضبط؛ المكان الذي يذهب إليه في الليل بدقّة».

لا بدَّ أنَّني بدوت مندهشة. وأمكنني عند الطرف البعيد من مجال رؤيتي أن أرى كيف نسيت روزا نفسها، حيث كانت تحدّق في جوزي بذهول الآن.

- «مع ذلك، فأنا لا أستطيع رؤية من أين يبزغ في الصباح»، قالت جوزي. «هناك أشجارٌ وتلال تقف في الطريق وتحجب الرؤية. شيءٌ مثل الوضع هنا على ما أظن. هناك دائماً أشياء تقف في الطريق. لكنَّ المساءات مسألةٌ أخرى. تلك الجهة التي تطلُّ عليها غرفتي، إنّها واسعةٌ وفارغة. إذا جئتِ للعيش معنا، فسترين بنفسك».

خرج شخصٌ بالغ من سيّارة الأجرة إلى الرصيف، ثمَّ خرج شخصٌ آخر. لم ترَهما جوزي، لكنّها ربّما سمعتْ شيئاً ما لأنّها بدأت تتكلّم بوتيرةٍ أسرع.

- «أقسم أنّي أقول الحقيقة. يمكنكِ أن تري المكان الذي يغيب فيه بالضبط».

كان الكبيران امرأتين، كلتاهما ترتديان ملابس مكتبية راقية. خمّنتُ أنَّ الأطول بينهما هي الأم التي ذكرتْها جوزي لأنَّها ظلّت تراقب جوزي حتّى وهي تتبادل قبلات الوجنتين مع رفيقتها. ثم ذهبت الرفيقة واندمجت بحشد المارّة الآخرين، واستدارت الأم استدارةً كاملةً نحونا. ولثانيةٍ واحدة فقط، لم تعد نظرتها الثاقبة موجّهةً إلى ظهر جوزي، بل إليَّ أنا، فنظرتُ بعيداً على الفور، إلى أعلى مبنى RPO. لكنَّ جوزي كانت تتحدّث مجدّداً عبر الزجاج، كان صوتها منخفضاً لكنّه لا يزال مسموعاً.

- «يجب أن أذهب الآن. لكنّني سأعود قريباً. وسوف نتحدّث أكثر».

ثمَّ قالت بصوتٍ خافت كدتُ لا أسمعه: «لن ترحلي، أليس كذلك؟».

هززتُ رأسي وابتسمتْ.

- «هذا جيّد. الوداع الآن إذاً. لكنَّه وداعٌ مؤقَّتٌ فحسب».

كانت الأم واقفةً خلف جوزي الآن. شعرها أسود، نحيلة، وإن لم تكن نحيلةً مثل جوزي أو بعض العدّائين. الآن باتت أقرب، واستطعتُ رؤية وجهها على نحوٍ أفضل، فرفعتُ تقديري لعمرها إلى الخامسة والأربعين. كما قلتُ سابقاً، لم أكن دقيقةً تماماً في مسألة الأعمار آنذاك، لكنَّ الوقت كان كفيلاً بتأكيد صحة ذلك التقدير زيادةً أو نقصاناً. حين كانت بعيدة، ظننتُ أنّها امرأةٌ أصغر سنّاً، ولكن حين أصبحت أقرب تمكّنتُ من رؤية الشقوق العميقة حول فمها، وما يشبه الإنهاك الحانق في عينيها. لاحظتُ أيضاً أنّه عندما مدَّت الأم يدها نحو جوزي، تردّدت ذراعها الممدودة في الهواء، وكادت أن تسحبها قبل أن تمدّها أكثر لتستريح على كتف ابنتها.

دخلتا في تيّار المارّة المتّجهين نحو لافتة منطقة عدم الوقوف الثانية. جوزي بمشيتها الحذرة، وذراع أمّها تلفّها بينما هما تمضيان مبتعدتين. قبل أن تخرجا من مجال رؤيتي، نظرت جوزي إلى الوراء، ولوّحتْ لي لمرةٍ أخيرة، رغم أنّه كان عليها أن تفسد إيقاع سيرهما كي تفعل ذلك.

■

في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم، قالت روزا :«كلارا، أليس ذلك مضحكاً؟ كنتُ أعتقد أنّنا سنرى الكثير من الص. ا. هناك في

الخارج بمجرد وصولنا إلى النافذة. كلُّ أولئك الذين عثروا على منازل بالفعل. لكن ليس هناك الكثير منهم. أنا أتساءل أين هم».

كان هذا أحد الأشياء العظيمة في روزا. قد تفشل في ملاحظة الكثير من الأمور، وحتّى حين كنتُ ألفتُ انتباهها إلى شيءٍ ما، كانت تظل عاجزة عن رؤية ما المميز أو المثير للاهتمام بشأنه. لكنّها بين الحين والآخر كانت تدلي بملاحظة مثل هذه. حالما قالت ما قالته، أدركتُ أنّني كنتُ أيضاً أتوقّع أن أرى عبر النافذة العديد من الص. ا. يسيرون سعداء مع أطفالهم، بل وحتّى يهتمّون بشؤونهم بأنفسهم، وأدركتُ أنّني حتّى إن لم أعترف بذلك لنفسي فلقد فوجئتُ وشعرتُ بقليلٍ من خيبة الأمل حيال ذلك.

- «أنتِ على حقّ»، قلتُ وأنا أنظر من اليمين إلى اليسار. «الآن بالضبط، وبين كلِّ هؤلاء المارّة، لا يوجد حتّى ص. ا. واحد».

- «ذاك واحدٌ هناك، أليس كذلك؟ ذاك الذي يتجاوز المبنى ذي سلالم النجاة من الحريق؟».

نظرتْ كلتانا بانتباه، ثمَّ هززنا رأسينا في نفس الوقت.

رغم أنّها كانت هي مَن طرح هذا السؤال حول الص. ا. في الخارج، فقد كان شيئاً عادياً أن تفقد كلَّ اهتمامها بالأمر بعد وقتٍ قصير. ولمّا رصدتُ صبيّاً مراهقاً والص. ا. خاصّته يمشيان قرب كشك العصير على جهة مبنى RPO، بالكاد نظرتْ روزا في اتّجاههما.

لكنّني واصلتُ التفكير فيما قالته روزا، وكلّما مرَّ ص. ا.، كنتُ أحرص أن أراقبه عن كثب. وسرعان ما لاحظتُ شيئاً مثيراً

للفضول: كان الص. ا. دائماً ما يُرون في جهة مبنى RPO أكثر ممَّا يُرون في جهتنا. وفي الغالب، إذا حدث أن أتى من جهتنا ص. ا. سائراً مع طفلٍ نحو لافتة منطقة عدم الوقوف الثانية، فكانا يستخدمان ممرَّ المشاة ولا يعبران من أمام متجرنا. لطالما تصرَّف الص. ا. على نحوٍ غريب حين كانوا يمرّون أمامنا، إذ أسرعوا في المشي، وأشاحوا بوجوههم. تساءلتُ ما إذا كنّا ربّما نمثّل - المتجر بأكمله - مصدر إحراجٍ بالنسبة إليهم. تساءلتُ أيضاً إن كنتُ أنا وروزا سنشعرُ بالإحراج، حالما نجد منازلنا، من أن يتمَّ تذكيرنا بأنّنا لم نكن دائماً نعيش مع أطفالنا، بل كنّا نعيش في متجر. لم أستطع مهما حاولت أن أتخيّل أنّني أو روزا قد نشعر هكذا حيال المتجر أو المديرة أو الص. ا. الآخرين.

وبينما استمررتُ في مراقبتي للخارج، خطر لي احتمال آخر: لم يكن الص. ا. يشعرون بالحرج، بل كانوا خائفين. كانوا خائفين لأنّنا كنّا نماذج جديدة، وكانوا يخشون أنّه لن يمرّ وقتٌ طويل حتّى يقرِّر أطفالهم أنّه حان الوقت للتخلّص منهم كي يتمَّ استبدالهم بص. ا. على شاكلتنا. لهذا السبب كانوا يجرجرون أنفسهم على نحوٍ محرجٍ جداً، رافضين النظر إلينا. ولهذا السبب كان يمكن رؤية القليل جدّاً من الص. ا. من نافذتنا. على حدِّ علمنا، فإنَّ الشارع التالي - الذي خلف مبنى RPO - كان مكتظّاً بهم، وقد فعل الص. ا. الذين في الخارج كلَّ ما في وسعهم كي يسلكوا أيَّ طريقٍ غير الطريق الذي يمرُّ أمام متجرنا، لأنَّ آخر شيءٍ كانوا يريدونه هو أن يرانا أطفالهم ويأتوا إلى النافذة.

لم أشارك روزا في أيٍّ من هذه الأفكار. كنتُ بدلاً من ذلك أتساءل بصوتٍ عالٍ كلّما رصدنا ص. ا. في الخارج عمّا إذا كانوا

سعداء مع أطفالهم وفي بيوتهم، وقد أسعد هذا روزا دائماً وأثار حماستها. اعتبرت الأمر كنوعٍ من اللعب، فكانت تشير وتقول: «انظري هناك! هل ترين يا كلارا؟ ذاك الصبي يحبُّ الص. ا. خاصّته حقّاً! أوه، انظري كيف يضحكان معاً!».

من المؤكّد أنَّ كثيراً من الأزواج بدوا سعداء معاً. لكنَّ روزا فوَّتت الكثير من الإشارات. غالباً ما هتفتْ بسرور لدى مرور أحد الأزواج، فكنتُ أنظر وأدرك أنّه وعلى الرغم من أنَّ فتاةً كانت تبتسم للص. ا. خاصّتها، إلّا أنّها في واقع الأمر كانت غاضبةً منه، وربّما كانت تجول في ذهنها في تلك اللحظة بالذات أفكارٌ قاسيةٌ بشأنه. لاحظتُ أموراً كهذه طوال الوقت، لكنّني لم أقل شيئاً، وتركت روزا تصدّق ما تصدّقه.

ذات مرّة، في صباح يومنا الخامس في النافذة، رأيتُ سيّارتَي أجرة على جانب مبنى RPO، كانتا قريبتين جدّاً إحداهما من الأخرى وتتحرّكان ببطءٍ شديد حتّى أنَّ شخصاً جديداً كان ربّما سيفترض أنّهما سيّارةٌ واحدة - نوعٌ من سيّارة أجرة مزدوجة. ثمَّ أصبحت تلك التي في المقدمة أسرع قليلاً، وظهرت فجوة بين السيّارتين، فرأيت على الرصيف البعيد من خلال تلك الفجوة فتاةً في الرابعة عشرة من عمرها، ترتدي قميصاً رُسِم عليه شخصية كرتونيّة، وتمشي متّجهةً نحو ممرّ المشاة. لم يكن ثمّة كبارٌ برفقتها أو حتّى ص. ا. لكنّها بدت واثقةً بنفسها ونزقةً نوعاً ما، وبما أنّها كانت تمشي بنفس سرعة سيّارتي الأجرة، فقد كان بمقدوري مواصلة مراقبتها عبر الفجوة لبعض الوقت. ثمَّ اتَّسعت الفجوة أكثر ورأيتُ أنّها كانت بصحبة صبي ص. ا. في الواقع، إلّا أنه كان يسير خلفها بثلاث خطوات. استطعتُ حتّى في تلك اللمحة السريعة أن أرى أنّه

لم يكن متخلّفاً عنها بالصدفة، بل إنّها كانت الكيفية التي قرّرت الفتاة أنّهما سيسيران عليها دائماً - هي في المقدّمة وهو خلفها على بعد بضع خطوات. قبِل الصبيُّ ص. ا. بذلك، رغم أنَّ المارَّة الآخرين سوف ينتبهون ويستنتجون أنّه لم يكن محبوباً من الفتاة. وكان يمكنني بوضوحٍ رؤية الضجر في مشية الصبيّ ص. ا.، وتساءلت كيف يكون الحال عند العثور على منزل مع علمك أنَّ طفلك لا يرغب بك. لم يكن قد خطر ببالي، إلى أن رأيتُ هذا الزوج، أنَّ الص. ا. يمكن أن يكون مع طفلٍ يحتقره ويرغب في رحيله، وأنّه وبالرغم من ذلك يمكنهما الاستمرار معاً. تباطأتْ بعد ذلك سيّارة الأجرة الأمامية بسبب ممرّ المشاة، فأغلقت السيّارة الثانية الفجوة ولم أتمكّن من رؤيتهما بعدها. ظللتُ أراقب كي أرى إن كانا سيأتيان عبر ممرّ المشاة، لكنّهما لم يكونا ضمن جمهرة العابرين، ولم يعد بوسعي أن أرى الجانب الآخر بسبب كل سيّارات الأجرة الأخرى.

■

ما كنتُ لأرغب في أيِّ أحدٍ آخر غير روزا بجانبي في النافذة خلال تلك الأيام، لكنَّ الوقت الذي قضيناه هناك أظهر الاختلافات في مواقفنا. ليس الأمر حقّاً أنّني كنتُ توّاقةً للتعلّم عن الخارج أكثر من روزا: لقد كانت متحمِّسة ومنتبهة بطريقتها الخاصة، وقلقةً بقدري حول تحضير نفسها لتكون ص. ا. لطيفةً ونافعة قدر الإمكان. لكنّني كلّما راقبتُ أكثر، كانت رغبتي في التعلّم تكبر، وعلى عكس روزا، فقد أصبحتُ مرتبكة، ومن ثمَّ مفتونةً على نحوٍ متزايد بالعواطف الأكثر غموضاً التي كان يظهرها المارّة أمامنا. أدركتُ أنّه إذا لم أفهم على الأقلّ بعضاً من هذه الأشياء الغامضة، فلن أكون قادرةً

أبداً على مساعدة طفلي كما ينبغي بي أن أفعل عندما يحين الوقت لذلك. لذا بدأتُ أبحث - على الأرصفة، داخل سيّارات الأجرة العابرة، وسط الحشود المنتظرة عند ممرِّ المشاة - عن نوع السلوك الذي كنتُ بحاجةٍ إلى تعلّمه.

في البداية، أردتُ من روزا أن تفعل مثلي، لكنّني سرعان ما رأيتُ أنَّه لا طائل من ذلك. مرّةً، في يومنا الثالث في النافذة، بعد أن كان الشمس قد ذهب بالفعل خلف مبنى RPO، توقّفت سيّارتا أجرة في جهتنا، نزل السائقان وبدآ يتقاتلان. لم تكن تلك هي المرّة الأولى التي نشهد فيها شجاراً: كنّا قد اجتمعنا ونحن لا نزال جديدتين تماماً في النافذة كي تتسنّى لنا على أفضل وجهٍ ممكن رؤية ثلاثة رجال شرطة يتقاتلون مع الرجل المتسوّل وكلبه أمام الزقاق الفارغ. لكنَّ ذلك لم يكن قتالاً محتدماً، وأوضحت لنا المديرة لاحقاً كيف أنَّ رجال الشرطة كانوا يشعرون بالقلق حيال الرجل المتسوّل لأنّه أصبح مخموراً، وكانوا يحاولون مساعدته فحسب. لكن السائقَين لم يكونا مثل رجال الشرطة. لقد تقاتلا كما لو أنَّ الشيء الأهم كان إلحاق الأذى بالآخر قدر المستطاع. اتّخذَ وجهاهما أشكالاً رهيبة لدرجة أنَّ أيَّ واحدٍ جديد ما كان ليدرك على الإطلاق أنّهما من صنف البشر حتّى، إذ كانا يلكمان أحدهما الآخر طوال الوقت، ويصرخان بألفاظ قاسية. في البداية كان المارّة مصدومين لدرجة أنّهم تراجعوا للخلف، لكن تدخّل بعد ذلك بعض عمّال المكاتب وأحد العدّائين وأوقفوهما عن الشجار. ورغم أنَّ أحدهما كان لديه دمٌ على وجهه، إلّا أنَّ كلّاً منهما عاد إلى سيّارته، وعاد كلُّ شيءٍ إلى ما كان عليه في السابق. حتّى أنّني انتبهتُ بعد لحظة أنَّ سيارتَي الأجرة اللتين كان سائقاها يتشاجران للتوّ، تنتظران

بصبر، إحداهما أمام الأخرى على نفس مجاز المرور، أن تتبدَّل الأضواء.

لكن حين حاولتُ التحدث مع روزا بشأن ما رأيناه، بدت محتارةً وقالت: «شجار؟ أنا لم أرَه، يا كلارا».

- «روزا، من غير الممكن أنّكِ لم تنتبهي. لقد حدث هذا أمامنا للتوّ. ذَانك السائقان».

- «أوه. تعنين رَجلا سيّارتَي الأجرة! لم أدرك أنّكِ تقصدينهما يا كلارا. أوه، لقد رأيتُهما بالطبع. لكنّني لا أعتقد أنّهما كانا يتشاجران».

- «روزا، كانا بالطبع يتشاجران».

- «أوه لا، كانا يتظاهران بذلك. كانا يلعبان فحسب».

- «روزا، كانا يتشاجران».

- «لا تكوني سخيفة يا كلارا! يا لهذه الأفكار الغريبة التي تخطر لكِ. كانا يلعبان فحسب. ولقد استمتعا بذلك، والمارّة أيضاً».

في النهاية، قلتُ فقط، «قد تكونين على حقٍّ يا روزا»، ولا أظنَّ أنّها فكّرتْ في الحادثة أكثر من ذلك.

لكنّني لم أتمكّن من نسيان السائقَين بهذه السهولة. كنتُ أتتبَّع بعينيّ شخصاً معيّناً على الرصيف، وأتساءل ما إذا كان هو أيضاً يمكن أن ينفجر غضباً كما فعلا. أو أحاول أن أتخيل كيف سيبدو وجه أحد المارِّين أو المارّات وقد تشوَّه بفعل الغضب. الأهم من كلِّ ذلك - وهذا ما لم تفهمه روزا أبداً - حاولتُ أن أشعر في ذهني بالغضب الذي اعترى السائقَين. حاولتُ أن أتخيَّل أنّني وروزا غاضبتان جدّاً إحدانا من الأخرى لدرجة أن نبدأ في الشجار هكذا،

وتحاول إحدانا حقّاً إلحاق الضرر بجسد الأخرى. بدت الفكرة سخيفة، لكنّني كنتُ قد رأيتُ السائقَين، لذا حاولتُ العثور على بداياتٍ لمثل هذا الشعور في ذهني. لكن كان هذا بلا جدوى، ولطالما انتهى الأمر بي وأنا أضحك على أفكاري.

مع ذلك، فقد كانت هناك أشياء أخرى رأيناها من النافذة - مشاعرٌ من نوع آخر لم أتمكّن من فهمها في البداية - والتي عثرتُ في النهاية على بعض النُّسخ منها في داخلي، حتّى لو كانت أشبه بالظلال التي تتشكّل فوق الأرض بواسطة مصابيح السقف بعد إنزال الشبكة المعدنية. على سبيل المثال، ما حدث مع سيّدة كوب القهوة.

كان ذلك بعد يومين من لقائي الأوّل مع جوزي. كان المطر ينهمر بغزارةٍ في الصباح، والمارّة يمشون تحت المظلّات والقبّعات بعيونٍ ضيّقة. لم يتغيّر حال مبنى RPO كثيراً أثناء هطول الأمطار، رغم أنَّ كثيراً من نوافذه أضيئت كما لو أنَّ المساء كان قد حلَّ فعلاً. أما المبنى ذو سلالم النجاة من الحريق المجاور له، فقد كانت هناك بركة مياهٍ كبيرة أسفل واجهته اليسرى، وكأنَّ بعض العصير كان يتسرّب من أحد زوايا سقفه. لكنَّ الشمس اندفع بعد ذلك خارجاً على نحوٍ مفاجئ، غامراً بنوره الشارع المبلل وأسطح سيّارات الأجرة، وخرج المارّة بأعداد كبيرة لدى رؤيتهم ذلك، وفي ذروة الاندفاع التي أعقبت خروجهم هذا، رصدتُ الرجل الضئيل الذي يرتدي المعطف المطري. كان في جهة مبنى RPO، وقدّرتُ عمره بواحدٍ وسبعين عاماً. كان يلوّح وينادي، مقترباً كثيراً من حافّة الرصيف حتّى أنّي شعرتُ بالقلق من أنّه سوف يتقدّم أمام سيّارات الأجرة المتحرّكة. تصادف وجود المديرة معنا في النافذة في تلك

اللحظة - كانت تعدّل اللافتة التي أمام الأريكة - وقد رصدتِ الرجل الملوِّح في نفس اللحظة التي رصدتُه فيها. كان يرتدي معطفاً مطرياً بنّيَ اللون يتدلى حزامه من جهةٍ واحدة حتّى يكاد يلمس كاحله، لكن لم يبدُ أنّه كان قد لاحظ ذلك، بل واصل فقط التلويح والنداء إلى جهتنا. تشكّل حشدٌ من المارّة خارج متجرنا مباشرةً، ليس من أجل النظر إلينا، لكن لأنَّ الرصيف أصبح للحظةٍ مكتظّاً بحيث لم يعد أحدٌ قادراً على التحرك. ثمَّ تغيّر شيءٌ ما، أصبح الحشد أقلَّ كثافة، ورأيتُ امرأةً ضئيلةً تقف قبالتنا، مديرةً ظهرها لنا وتنظر عبر مجازات المرور الأربعة المليئة بسيّارات الأجرة المتحرّكة إلى الرجل الملوِّح. لم أتمكّن من رؤية وجهها، لكنّني قدّرتُ عمرها استناداً إلى هيئتها ووقفتها بسبعةٍ وستّين عاماً. أطلقتُ عليها في ذهني اسم سيّدة كوب القهوة، لأنّها بدت من الخلف بمعطفها الصوفي السميك صغيرةً وعريضة بكتفين مدوَّرتين مثل أكواب القهوة الخزفية التي تمكث بالمقلوب فوق الرفوف الحمراء. رغم أنَّ الرجل ظلَّ يلوِّح وينادي، ورغم أنّها كانت قد رأتْه بوضوح، إلّا أنّها لم تلوِّح أو تُجب النداء. ظلّتْ ساكنةً تماماً، حتّى عندما اقترب منها زوجٌ من العدّائين، وانفصلا إلى الأمام والخلف منها، ثم انضمّا أحدهما إلى الآخر بعد أن تجاوزاها مجدّداً فيما أحذيتهما الرياضية تطرطش قطرات صغيرة على الرصيف.

ثمَّ تحرَّكتْ أخيراً. مضتْ باتّجاه ممرِّ المشاة - بحسب ما كان الرجل يشير لها أن تفعل - بخطواتٍ بطيئة في البداية، ثمَّ أسرعت. كان عليها أن تتوقّف مجدّداً كي تنتظر عند الأضواء مثل الجميع، وتوقَّف الرجل عن التلويح، لكنّه كان يراقبها بقلقٍ شديد، ففكّرتُ مرّةً أخرى أنّه قد يتقدّم أمام سيّارات الأجرة المتحرّكة. لكنّه هدّأ

نفسه ومشى نحو نهاية ممرّ المشاة كي ينتظرها. ولمّا توقّفت سيّارات الأجرة، وبدأت سيّدة كوب القهوة في العبور مع البقيّة، رأيتُ الرجل يرفع قبضتُه إلى إحدى عينيه على طريقة بعض الأطفال الذين رأيتُهم في المتجر حين يشعرون بالاضطراب. ثمّ وصلت سيّدة كوب القهوة إلى جهة مبنى RPO، وإذ بهما هي والرجل يحتضنان أحدهما الآخر بقوّةٍ كبيرة لدرجة أنّهما كانا يبدوان مثل شخصٍ واحدٍ ضخم، وكان الشمس، كما لاحظتُ، يغدق عليهما غذاءه بكرم. كنتُ لا أزال عاجزةً عن رؤية وجه سيّدة كوب القهوة، لكن الرجل كان مغمضاً عينيه بإحكام، ولم أكن واثقة ما إذا كان سعيداً جدّاً أم مستاءً جدّاً.

- «هذان الشخصان يبدوان سعيدَين جدّاً لرؤية أحدهما الآخر»، قالت المديرة. وأدركتُ عندها أنّها كانت تراقبهما باهتمام مثلي.

- «نعم، يبدوان سعيدَين جدّاً. لكن الغريب أنّهما يبدوان مستاءَين أيضاً»، قلتُ لها.

- «أوه، يا كلارا»، قالت المديرة بهدوء. «أنتِ لا تفوّتين شيئاً، أليس كذلك؟».

ثمَّ ظلّت المديرة صامتةً لوقتٍ طويل، حاملةً اللافتة بيدها وتحدّق عبر الشارع حتّى بعد أن اختفى الثنائيُّ عن الأنظار. قالت في الأخير:

- «ربّما لم يلتقيا منذ وقتٍ طويل. وقتٍ طويلٍ جدّاً. ربّما كانا لا يزالان شابَّين حين احتضنا أحدهما الآخر هكذا آخر مرّة».

- «أيّتها المديرة، هل تقصدين أنّهما ضيّعا أحدهما الآخر؟».

صمتتْ للحظةٍ أخرى، ثمَّ قالت: «نعم. لا بدّ أن يكون الأمر كذلك. لقد ضيّعا أحدهما الآخر. وربّما الآن فقط، بالصدفة، عثرا أحدهما على الآخر مجدّداً».

لم يكن صوت المديرة كما العادة، ورغم أنَّ عينيها كانتا تحدّقان في الخارج، إلا أنّني اعتقدتُ أنّها لا تنظر إلى شيءٍ محدّد. حتّى أنّني بدأتُ أتساءل بمَ سيفكّر المارّة لدى رؤيتهم المديرة نفسها معنا في النافذة لوقتٍ طويل كهذا.

ثمَّ استدارت خارجةً من النافذة وعبرتْ بالقرب منّا، عندها لمستْ كتفي، وقالت: «أحياناً، في لحظاتٍ خاصّة كهذه، يشعر الناس بالألم جنباً إلى جنب مع سعادتهم. أنا مسرورةٌ لأنّكِ تراقبين كلَّ شيءٍ باهتمامٍ كبير، يا كلارا».

ثمَّ ذهبت المديرة، فقالت روزا: «يا للغرابة. ماذا يمكن أنّها كانت تقصد بذلك؟».

- «لا تهتمّي بذلك، يا روزا. كانت تتحدّث عن الخارج فحسب»، قلتُ لها.

بدأت روزا تناقش شيئاً آخر بعد ذلك، لكنّني بقيتُ أفكّر في سيّدة كوب القهوة ورجل المعطف المطري خاصّتها، وفي ما قالته المديرة. وحاولتُ أن أتخيّل كيف سأشعر إذا التقينا أنا وروزا بالصدفة في الشارع بعد وقتٍ طويلٍ من الآن، بعد أن تكون كلٌّ منّا قد عثرت على بيتها بوقتٍ طويل. هل سأشعر عندئذٍ، كما قالت المديرة، بالألم جنباً إلى جنب مع سعادتي؟

■

ذات صباحٍ في بداية أسبوعنا الثاني في النافذة، كنتُ أتحدّث إلى روزا بشأن شيءٍ ما في جهة مبنى RPO، ثمَّ قطعتُ حديثي حين أدركتُ أنَّ جوزي كانت تقف أمامنا على الرصيف. كانت والدتها بجانبها، ولم تكن هناك سيّارة أجرةٍ خلفهما هذه المرّة، رغم أنّه من

الممكن أن تكونا قد ترجّلتا من واحدة ثمَّ مضت في طريقها، كل ذلك دون أن ألاحظ، إذ كان هناك حشدٌ من السياح بين نافذتنا والبقعة التي يقفون فيها. لكنَّ المارّة الآن كانوا يتحرّكون بسلاسةٍ مجدّداً، وكانت جوزي تبتسم لي بسعادة. بدا أنَّ وجهها - خطر لي هذا مرةً أخرى - يفيض باللطف حين تبتسم. لكنّها لم تكن قد تمكّنت بعد من القدوم إلى النافذة لأنَّ أمّها كانت تنحني فوقها فيما هي تتحدّثُ إليها، وتضع يداً على كتفها. كانت الأمُّ ترتدي معطفاً - رقيقاً، داكن اللون، راقياً - يتحرّك حول جسدها مع حركة الريح، حتّى أنّها ذكّرتني للحظة بتلك الطيور الغامقة التي تحط فوق إشارات المرور العالية حتّى عندما تعصف الرياح بقوّة. واصلت كلٌّ من جوزي والأم النظر إليَّ مباشرةً فيما كانتا تتحدّثان، واستطعتُ أن أرى أنَّ جوزي كانت تتوق للقدوم إليّ، لكنَّ الأمَّ لم تطلق سراحها مع ذلك، وظلّت تتكلّم. كنتُ أعرف أنّه عليَّ مواصلة النظر إلى مبنى RPO كما كانت روزا تفعل، لكنّني لم أحتمل أن لا أسترق النظر إليهما، إذ كنتُ شديدة القلق من أن تختفيا داخل الحشد.

وقفت الأم منتصبة أخيراً، ورغم أنّها ظلّت تحدّقُ بي، وتميل رأسها كلّما حجب أحد المارّة الرؤية عنها، إلّا أنّها أبعدتْ يدها عن كتف جوزي التي تقدّمتْ نحوي بمشيتها الحذرة. فكّرتُ أنّه شيءٌ مشجّعٌ أن تسمح الأم لجوزي بالقدوم لوحدها، لكنَّ نظرة الأمّ التي لم تلن أو تتذبذب أبداً، والكيفية التي كانت تقف بها هناك، مع ذراعيها اللتَين تتقاطعان أمامها بحيث تتشبّثُ أصابعها بأطراف معطفها، جعلني كلّ ذلك أدرك أنَّ هناك الكثير من العلامات لم أتعلّم فهمها بعد. ثمَّ وقفتْ جوزي أمامي، هناك على الجانب الآخر من الزجاج.

- «مرحباً! كيف حالكِ؟».

ابتسمتُ، أومأتُ برأسي ورفعتُ إبهامي - وهي إيماءةٌ كنتُ أراها غالباً في المجلّات المشوِّقة.

- «آسفة، لم أستطع العودة في وقتٍ أبكر»، قالت لي. «أخمّنُ أنَّ ذلك كان... كم مضى؟».

رفعتُ ثلاثة أصابع، ثمَّ أضفتُ نصف إصبعٍ من اليد الأخرى.

- «هذا وقتٌ طويلٌ جدّاً. أنا آسفة. هل افتقدتِني؟».

أومأتُ برأسي، ورسمتُ وجهاً حزيناً، مع الحرص على إظهار أنّني لم أكن جادّة أو متضايقة حقّاً.

- «لقد افتقدتُكِ أيضاً. ظننتُ حقّاً أنّني سأتمكّن من العودة إليكِ قبل الآن. قد تكونين اعتقدتِ أنّني ذهبتُ إلى غير رجعة. أنا آسفةٌ حقّاً». ثمَّ ذبلتِ ابتسامتها وهي تقول: «أفترض أن كثيراً من الأطفال الآخرين كانوا هنا لرؤيتك».

هززتُ رأسي، لكنَّ جوزي بدتْ غير مقتنعة. نظرتْ للوراء نحو الأمّ، ليس لتطمئنَّ إلى وجودها، بل لتتأكّد أنّها لم تقترب أكثر. ثمَّ خفَّضتْ صوتها وقالت:

«تبدو أمّي غريبة الأطوار وهي تراقب على هذا النحو، أعرف ذلك. هذا لأنّني أخبرتُها أنّكِ التي أريدها. قلتُ إنّه يجب أن تكوني أنتِ، لذا فهي الآن تجري تقييماً لكِ. أنا آسفة». ظننتُ أنّني رأيتُ، كما في المرّة الماضية، وميضاً من الحزن. «سوف تأتين، أليس كذلك؟ إذا قالت أمّي إنَّها موافقة وما إلى ذلك؟».

أومأتُ برأسي إيماءة تشجيع. لكن عدم اليقين ظلَّ يغطّي وجهها.

- «لأنّني لا أريدكِ أن تأتي رغماً عنكِ. لن يكون ذلك منصفاً. أريدك حقاً أن تأتي، لكن إن قلتِ: جوزي أنا لا أريد، عندها سأقول لأمّي: حسنٌ، نحن لا نستطيع الحصول عليها، أبداً. لكنّكِ ترغبين حقّاً في المجيء، أليس كذلك؟».

أومأتُ مجدّداً، وهذه المرّة بدتْ جوزي مطمئنّة.

- «هذا جيّدٌ جدّاً». عادت الابتسامة إلى وجهها. «سوف تحبّين الأمر، سأحرص على أن تحبّيه». نظرتْ إلى الوراء، نظرة نصرٍ هذه المرّة، وقالت: «أمّي؟ أترين، تقول إنّها تريد أن تأتي!».

أعطتِ الأمُّ إيماءةً صغيرة، لكنَّها لم تبدِ أيَّ استجابةٍ أخرى. كانت لا تزال تحدّق بي، وأصابعها تقبض على طرف المعطف. حين عادت جوزي إليّ، كان وجهها قلقاً من جديد.

- «اسمعي»، قالت، لكنّها بقيت صامتةً لبضع ثوانٍ بعد ذلك. ثمَّ قالت: «إنّه لأمرٌ رائع أنّكِ تريدين أن تأتي. لكنّي أريدُ أن تكون الأمور واضحةً بيننا منذ البداية، لذا سأقول لكِ هذا. لا تقلقي، أمّي لا يمكنها سماعنا. انظري، أعتقد أنّكِ ستحبّين منزلنا. أعتقد أنّكِ ستحبّين غرفتي، وهو المكان الذي ستتواجدين فيه، ليس في خزانةٍ أو ما شابه. وسنقوم بكل هذه الأشياء الرائعة معاً طوال مرحلة نضوجي. الأمر الوحيد هو أنّني في بعض الأحيان، حسنٌ...» نظرتْ إلى الوراء مرّةً أخرى بسرعة، ثمَّ خفَّضت صوتها أكثر، وقالت: «ربّما لأنّني في بعض الأيّام لا أكون على ما يرام. لا أعرف. لكن قد يكون هناك شيءٌ ما يحدث معي. لستُ متأكّدةً ما هو. ولا أعرف حتّى ما إذا كان شيئاً سيّئاً. لكنَّ الوضع في بعض الأيّام يصبح، لنقل غير اعتيادي. لا تسيئي فهمي، ففي معظم

الأوقات لن تشعري بذلك. لكنّني أردتُ أن أكون واضحةً معك. لأنّكِ تعرفين كم هو شيءٌ حقير أن يخبركِ الناس أنَّ الأشياء ستكون مثالية فيما هم لا يقولون الحقيقة. لهذا السبب أنا أخبركِ بذلك الآن. أرجوكِ قولي إنّكِ ما زلتِ تريدين المجيء. ستحبّين غرفتي، أعلم أنّكِ ستحبّينها. وسوف ترين أين يغرب الشمس، كما أخبرتكِ المرّة الماضية. ما زلتِ تريدين المجيء، أليس كذلك؟».

أومأتُ إليها عبر الزجاج، بكلِّ الجدّية التي كنتُ أعرفها. أردتُ أيضاً أن أقول لها إنّه إن كان هناك أيُّ شيءٍ صعبٌ أو مخيف يجب مواجهته في بيتها، فسوف نقوم بذلك معاً. لكنّني لم أعرف كيف أنقل مثل هذه الرسالة المعقّدة عبر الزجاج دون استخدام الكلمات، ولهذا فقد شبكتُ يديَّ معاً ورفعتُهما، ثمَّ هززتُهما برفقٍ، في إيماءةٍ كنتُ قد رأيتُ سائق سيّارة أجرة يؤدّيها من داخل سيّارته المتحرّكة لشخصٍ كان يلوِّح من على الرصيف، رغم أنّه اضطُرَّ إلى رفع يديه عن عجلة القيادة كي يقوم بها. أيّاً كان ما فهمتْه جوزي من تلك الإيماءة، بدا أنّه جعلها سعيدة.

- «شكراً لكِ»، قالت لي. «لا تسيئي فهمي. قد لا يكون هناك أيُّ شيءٍ سيّئ. قد أكون أنا فقط أفكّر بأشياء...».

عندها نادت الأمُّ عليها وبدأتْ تتحرّك في اتّجاهنا، لكن كان هناك سيّاحٌ في طريقها، وكان لدى جوزي الوقت كي تقول بسرعة: «سأعود قريباً جدّاً. أعدكِ بذلك. غداً إن استطعتْ. الوداع الآن».

■

لم تعد جوزي في اليوم التالي، أو بعد يومٍ من ذلك. بعدها، وفي منتصف أسبوعنا الثاني، وصل دورنا داخل النافذة إلى نهايته.

كانت المديرة ودودةً ومشجّعة لنا طوال فترة وجودنا في النافذة. كانت في كلِّ صباح، وبينما كنّا نجهّز نفسينا فوق الأريكة المخطّطة، تقول شيئاً مثل: «لقد كنتما رائعتَين في الأمس. لِنرَ إن كنتما ستبليان حسناً بنفس القدر اليوم». وفي نهاية اليوم كانت تبتسم وتقول لنا: «أحسنتما، أنا فخورةٌ جدّاً بكما». لذا لم يخطر ببالي أبداً أنّنا كنّا نرتكب أيَّ خطأ، وحين أُنزلت الشبكة المعدنية في يومنا الأخير، كنتُ أتوقّع أنَّ المديرة سوف تثني علينا مجدّداً. وإذ بي أُفاجأ بها لدى إقفال الشبكة تغادر ببساطة دون أن تنتظرنا. رمقتني روزا بنظرةٍ حائرة، وبقينا للحظة فوق الأريكة المخطّطة. لكن مع إغلاق الشبكة، كنّا قابعتَين في ظلمةٍ شبه تامّة، لذا نهضنا بعد بعض الوقت، ونزلنا عن المنصّة.

بات المتجر عندئذٍ قبالتنا، وكان يمكنني رؤية كلّ الطريق وصولاً إلى الطاولة الزجاجية في الخلف، لكنَّ المساحة باتت مقسّمةً إلى عشرة مربّعات، بحيث لم يعد لديَّ صورةٌ موحّدة للمشهد الذي أمامي. كانت الكوّة الأمامية في المربّع الأبعد إلى يميني، كما هو متوقَّع؛ ومع ذلك فإنَّ طاولة المجلّات التي كانت الأقرب إلى الكوَّة الأمامية، أصبحت موزَّعةً بين مربّعات متعدّدة، بحيث يمكن رؤية أحد أقسام الطاولة في المربّع الأبعد إلى يساري. كانت الأضواء قد خفتت الآن، ورصدتُ الص. ا. الآخرين في خلفيات مربّعات كثيرة، يشكّلون صفّاً عند جدران وسط المتجر استعداداً للنوم. لكنَّ المربّعات المركزية الثلاثة استرعت انتباهي في تلك اللحظة إذ اشتملت العناصر التي شكّلت صورة المديرة وهي تقوم بفعل الاستدارة نحونا. كانت في أحد تلك المربّعات مرئيّةً فقط من خصرها صعوداً إلى أعلى رقبتها، فيما كانت عيناها تشغلان بالكامل

المربّع المجاور له مباشرةً. كانت العين الأقرب إلينا أكبر بكثير من الأخرى، لكنَّ كلتيهما كانتا مليئتين باللطف والحزن. أظهر مربّعٌ ثالث جزءاً من فكّها ومعظم فمها، ولاحظتُ هناك غضباً وإحباطاً. ثم أتمّتْ استدارتها وأتتْ إلينا، فعاد المتجر ليصبح صورة موحّدة من جديد.

- «شكراً لكما»، قالت وهي تمدُّ يدها وتلمس كلَّ واحدةٍ منّا بدورها. «شكراً جزيلاً».

ومع ذلك، شعرتُ أنَّ شيئاً ما قد تغيّر - أنّنا خيّبنا أملها بطريقةٍ ما.

■

بدأنا بعد ذلك فترتنا الثانية في وسط المتجر. كنّا أنا وروزا لا نزال معاً في معظم الأحيان، لكن المديرة كانت تغيّر مواقعنا الآن، وقد أقضي يوماً أقف بجانب الصبي ص. ا. ريكس أو الفتاة ص. ا. كيكو. مع ذلك، ما زلتُ في معظم الأيام قادرةً على رؤية قسمٍ من النافذة، وبالتالي مواصلة التعلّم عن الخارج. حين ظهرت آلة كوتينغز على سبيل المثال، كنت في جهة طاولة المجلّات، أمام الكوّة الوسطى مباشرةً، وكانت الرؤية من هناك جيّدة تقريباً كما لو أنّني لا أزال في النافذة.

كان من الواضح لأيّام أنّ آلة كوتينغز ستكون شيئاً غير عادي. في البداية، وصل رجال الصيانة للتحضير لها، فحدّدوا قسماً من الشارع بحواجز خشبية. لم يعجب ذلك سائقي سيّارات الأجرة على الإطلاق، وأثاروا الكثير من الضجيج بأبواق سيّاراتهم. ثم بدأ رجال الصيانة في حَفر وتكسير الأرض، وحتّى أجزاءٍ من الرصيف، ما

أرعب كِلا الص. ا. اللذَين كانا في النافذة. ذات مرّةٍ، حين أصبحت الضوضاء رهيبةً بالفعل، وضعتْ روزا يديها على أذنيها وأبقتهما هناك رغم وجود زبائن في المتجر. اعتذرت المديرة لكلِّ زبونٍ جاء إلى المتجر، رغم أنّه لم تكن لنا علاقةٌ بالضجيج. ذات مرّة، راح أحد الزبائن يتكلّم عن التلوّث، وهو يشير إلى رجال الصيانة في الخارج، محدِّثاً عن خطورة التلوّث على الجميع. لذا حين وصلت آلة كوتينغز أول مرة، ظننتُ أنّها ستكون آلةً لمكافحة التلوّث، لكن الصبي ص. ا. ريكس قال لا، إنّها مصمّمةٌ خصّيصاً لإنتاج المزيد منه. قلتُ إنّني لا أصدّقه، فقال: «حسنٌ يا كلارا، انتظري فحسب وسوف ترين».

اتَّضح أنّه كان على حقٍّ بالطبع. بدأتْ آلة كوتينغز - أطلقتُ عليها ذلك الاسم في ذهني لأنَّ كلمة «كوتينغز» كانت مكتوبةً على جانبها بأحرف كبيرة - تصدر هديراً عالياً، لم يكن بالسوء الذي كانت عليه ضجّة الحفر، وليس أسوأ من صوت مكنسة المديرة الكهربائية. لكن كان هناك ثلاثة أنابيب قصيرة بارزةً من سقفها، وأخذ الدخان يتصاعد منها. كان على شكل نفثٍ أبيض بسيط في البداية، ثم أصبح أكثر قتامة، حتى لم يعد يرتفع كنفثات منفصلة بل كغيمةٍ كثيفة متواصلة.

حين نظرتُ تالياً، كان الشارع في الخارج قد أصبح مقسَّماً إلى عدّة ألواح عمودية - استطعتُ أن أرى من حيث أقف ثلاثةً منها بوضوحٍ تام دون أن أنحني إلى الأمام. بدا أنَّ كمية الدخان القاتم كانت تختلف من لوحٍ لآخر، بحيث كان ذلك أشبه بعرض ظلالٍ متباينة للّون الرمادي للاختيار منها. لكن، وحتّى حيث كان الدخان في أكثف حالاته، كنتُ لا أزال قادرة على التقاط العديد من

التفاصيل. كان هناك على سبيل المثال في أحد الألواح جزءٌ من الحاجز الخشبي الخاص برجال الصيانة، ويبدو أنّ مقدّمة سيّارة أجرة كانت الآن ملتصقةً به. كما يقطع قضيبٌ معدني اللوح المجاور قطرياً من زاويته العليا، ميَّزتُ ذاك القضيب وعرفتُ أنّه يعود إلى إحدى إشارات المرور العالية، إذ تمكّنتُ بالفعل عبر إمعان النظر جيداً من أن أتبيَّن الخطوط العريضة القاتمة لهيئة الطائر الجاثم فوقها. ورأيتُ في مرحلةٍ ما عدّاءً يعبر من لوحٍ لآخر، ولدى عبوره تبدّل شكله الهندسي من حيث الحجم والمسار. بعد ذلك أصبح التلوّث سيّئاً جدّاً لدرجة أنّني بتُّ عاجزةً عن رؤية فتحة السماء حتّى من جهة طاولة المجلّات، وأصبحت النافذة نفسها، والتي قام رجال الزجاج بتنظيفها للمديرة بفخرٍ عظيم، مغطّاة بنقاطٍ وسخة.

شعرتُ بالأسف الشديد من أجل صبيّي الص. ا. اللذين كانا قد انتظرا طويلاً أن يأتي دورهما في النافذة. واصلا الجلوس هناك بوضعيّاتٍ جيّدة، لكنّي رأيتُ أحدهما يرفع ذراعه إلى وجهه في مرحلةٍ ما كما لو أن التلوّث يمكن أن يدخل عبر الزجاج. صعدت المديرة إلى المنصّة كي تهمس له ببعض العبارات المطمئِنة، وعندما عادت أخيراً، وبدأت تعيد ترتيب الأساور في عربة العرض الزجاجية، استطعتُ أن أرى أنّها هي أيضاً كانت مستاءة. فكّرتُ أنّها قد تذهب إلى الخارج حتّى، وتتحدّث إلى رجال الصيانة، لكنّها انتبهت إلينا عندئذٍ، فابتسمتْ وقالت:

– «اسمعوني جميعاً من فضلكم. هذا مؤسف، لكن لا داعي للقلق. سوف نتحمّل لبضعة أيّام، ثمَّ سينتهي الأمر».

لكنَّ آلة كوتينغز استمرَّتْ في العمل في اليوم التالي، واليوم الذي تلاه، وأصبح النهار أشبه بالليل. في مرحلةٍ ما، صرتُ أبحثُ

عن أنماط الشمس على أرضيّتنا، وفي الكوّات، وعلى الجدران، لكنّها لم تكن هناك. كنت أعرف أنَّ الشمس يحاول بأقصى ما يستطيع، وبحلول نهاية ثاني ظهيرةٍ سيّئة، ورغم أنَّ الدخان كان أسوأ من أيِّ وقتٍ مضى، فقد ظهرت أنماطه مجدّداً، لكن بصورةٍ باهتة. انتابني القلق، وسألتُ المديرة عمّا إذا كنّا ما زلنا سنحصل على كامل غذائنا، فضحكتْ وقالت: «لقد جاء هذا الشيء الرهيب إلى هنا عدّة مرّات من قبل، ولا أحد في المتجر عانى بسببه. لذا أخرجي تلك الفكرة من ذهنك فحسب، يا كلارا».

ومع ذلك، فقد شعرت بنفسي أضعف بعد أربعة أيّامٍ متواصلة من التلوّث. حاولت ألّا أجعل ذلك يظهر عليّ، خاصّةً حين يكون هناك زبائن في المتجر. لكن، وبسبب آلة كوتينغز ربّما، كانت تمرّ فترات طويلة الآن دون وجود أيِّ زبائن في المتجر، فسمحتُ لنفسي في بعض الأحيان أن أتراخى في وقفتي إلى أن يضطّر الصبي ص. ا. ريكس إلى لمس ذراعي حتّى أقف منتصبة من جديد.

ثمَّ، وفي صباح أحد الأيّام، ارتفعت الشبكة المعدنية، ولم تكن آلة كوتينغز قد اختفت فحسب، بل كامل زمرتها الخاصة أيضاً. كما انقشع التلوّث، وعادت فتحة السماء وكانت زرقاء متألّقة، وسكب الشمس غذاءه داخل المتجر. تحرّكتْ سيّارات الأجرة بسلاسةٍ من جديد، وكان سائقوها سعداء. وحتّى العدّاؤون كانوا يمرّون والابتسامات تعلو وجوههم. كنتُ طوال الوقت الذي كانت فيه آلة كوتينغز هناك قلقةً من أن تكون جوزي تحاول أن تعود إلى المتجر، لكنَّ التلوّث منعها من ذلك. لكنَّ ذلك انتهى الآن، وكان هناك ارتفاعٌ ملحوظ في الروح المعنوية داخل المتجر وخارجه، حتّى أنني شعرتُ أنّه إن كان هناك يومٌ مناسب لعودة جوزي، فلا بدَّ أنه

هذا اليوم. ثمَّ أدركت بحلول الظهيرة كم كانت هذه الفكرة غير منطقية، فتوقفتُ عن البحث عن جوزي، وركّزتُ بدلاً من ذلك على تعلّم المزيد عن الخارج.

■

بعد رحيل آلة كوتينغز بيومين، دخلت إلى المتجر الفتاة ذات الشعر القصير المدبّب. قدّرتُ عمرها باثني عشر عاماً ونصف. كانت في ذلك الصباح تلبس كما يلبس العدّائون، قميصاً أخضر لمّاعاً بلا أكمام يُظهر ذراعيها النحيفتين جدّاً وصولاً إلى الكتفين. جاءت مع والدها الذي كان يرتدي بذلة مكتب غير رسمية، وبدا أنّه رفيع الشأن حقّاً. في البداية لم يقل أيٌّ منهما الكثير أثناء تجوالهما في المتجر. استطعتُ أن أدرك في الحال أنَّ الفتاة كانت مهتمَّةً بي، رغم أنّها لمحتني على نحوٍ خاطف قبل أن تعود إلى القسم الأمامي من المتجر. ثم رجعت بعد دقيقة وتظاهرت أنّها مأخوذة بالأساور في عربة العرض الزجاجية أمام المكان الذي كنت أقف فيه مباشرةً. ثمَّ نظرت حولها لتتأكّد أنَّ أيّاً من والدها أو المديرة لا يشاهدانها، وجرّبتْ أن تطبّقَ قوّةَ وزنها على العربة، الأمر الذي جعلها تتحرّك على عجلاتها للأمام بمقدار بوصةٍ أو اثنتين. وإذ فعلتْ ذلك، نظرتْ إليّ مع ابتسامةٍ صغيرة، كما لو كان تحريك العربة سرّنا الصغير. سحبت العربة وأعادتها إلى وضعها الأصلي، وابتسمت لي ابتسامةً عريضة هذه المرّة، ثمَّ نادت، «أبي؟». نظرت الفتاة إليّ نظرةً أخيرة، وذهبت لتنضمَّ إلى أبيها الذي لم يُجب نداءها - كان قد استرعى انتباهه اثنان من الص. ا. الجالسين على الطاولة الزجاجية في الخلف. بدآ يتهامسان وينظران نحوي سريعاً، فلا شكَّ أنّهما كانا

يتناقشان بشأني. لاحظت المديرة فنهضتْ عن مكتبها، وأتت لتقف بالقرب منّي ويداها مشبوكتان أمامها.

أخيراً وبعد كثيرٍ من الهمس، رجعتْ الفتاة، تخطّت المديرة ووقفت قبالتي تماماً. لمستْ مرفقيَّ كلّاً بدوره، ثمَّ أخذت يدي اليسرى بيدها اليمنى، وظلّت ممسكةً بها على هذا النحو فيما عيناها مصوّبتان إلى وجهي. كانت تعابير وجهها صارمةً تماماً، لكنَّ اليد الممسكة بيدي كانت تضغط عليها برفق، ففهمتُ أنّه يُراد لهذا أن يكون سرّاً صغيراً آخر بيننا. لكنّني لم أبتسم لها. أبقيتُ على ملامحي خاليةً من أيِّ تعبير، ونظرتُ فوق رأس الفتاة ذي الشعر المدبّب نحو الرفوف الحمراء على الحائط المقابل، إلى صفِّ أكواب القهوة الخزفية بالتحديد، تلك المعروضة بصورةٍ مقلوبة على طول الرفِّ الثالث. ضغطت الفتاة على يدي مرّتين إضافيّتين، في المرّة الثانية كانت أقلَّ لطفاً، لكنّني لم أخفض بصري نحوها أو أبتسم.

في هذه الأثناء، كان الأب يقترب وهو يكاد لا يلمس الأرض كي لا يفسد ما قد يكون لحظةً مميّزة. تحرّكت المديرة مقتربةً أكثر هي أيضاً، ووقفت خلف الأب مباشرةً. لاحظتُ كلَّ هذا، لكنّي أبقيتُ عينيَّ مثبَّتتين على الرفوف الحمراء وأكواب القهوة الخزفية، وتركتُ يدي رخوةً تماماً داخل يدها، ولو أفلتتها لكانت ستهوي مستقرّةً على جانبي.

أصبحتُ أكثر إدراكاً لتحديق المديرة بي. ثمَّ سمعتُها تقول:

- «كلارا ممتازة. إنّها من بين الأفضل لدينا. لكنَّ الشابة قد تكون مهتمّة بإلقاء نظرة على نماذج B3 الجديدة التي وصلت للتوّ».

- «B3؟» بدا الأب متحمّساً. «حصلتم عليها بالفعل؟».

- «نحن نتمتّع بعلاقةٍ حصرية مع مورّدينا. لقد وصلتْ لتوّها، ولم تتمَّ معايرتها بعد. لكن يسعدني أن أريها لكما».

ضغطت الفتاة ذات الشعر المدبب على يدي ثانيةً. «لكن أبي، أنا أريد هذه. إنّها مناسبةٌ تماماً».

- «لكن حبيبتي، إنَّ لديهم نماذج B3 الجديدة. ألا تريدين إلقاء نظرةٍ عليها فحسب؟ لا أحد ممّن تعرفينهم لديه منها».

كانت هناك لحظة انتظارٍ طويلة، ثمَّ أفلتت الفتاة يدي. تركتُ ذراعي تسقط فيما واصلتُ النظر إلى الرفوف الحمراء.

- «إذاً، ما الأمر المهم في B3 الجديدة هذه على أيّة حال؟»، قالت الفتاة وهي تتحرّك مبتعدةً نحو والدها.

لم أكن أفكّر في روزا بينما كانت الفتاة ممسكةً بيدي، لكنّي بِتُّ مدركةً لوجودها الآن، وهي تقف إلى يساري، وتراقبني بذهول. أردتُ أن أجعلها تتوقّف عن النظر إليّ، لكنّي قرّرتُ مواصلة التحديق في الرفوف الحمراء حتى تصبح الفتاة، ووالدها، والمديرة في القسم الخلفي من المتجر. أمكنني سماع الأب يضحك على شيءٍ قالته المديرة، وحين نظرتُ في اتّجاههم أخيراً، كانت المديرة تفتح باب «الموظّفين فقط» في نهاية القسم الخلفي من المتجر.

- «أرجو أن تعذراني، المكان هنا غير مرتّبٍ قليلاً».

فقال الأب: «نحن محظوظان للسماح لنا بالدخول إلى هنا. أليس كذلك حبيبتي؟».

ذهبوا إلى الداخل، وانغلق الباب خلفهم، ولم يعد بإمكاني سماع كلماتهم بعد ذلك، مع أنّني في مرحلةٍ ما سمعتُ الفتاة ذات الشعر المدبّب تضحك.

ظلّت الحركة نشيطة لبقيّة الفترة الصباحية، إذ جاء المزيد من

الزبائن حتّى أثناء قيام المديرة باستكمال استمارات التسليم للـ B3 الجديد مع الأب. لذا فقد استغرق الأمر إلى ما بعد الظهر حيث كانت هناك فترة هدوء أخيراً، حين جاءت المديرة إليّ.

- «لقد تفاجأتُ بكِ هذا الصباح يا كلارا»، قالت لي. «أنتِ من بين الجميع!».

- «أنا آسفةٌ أيّتها المديرة».

- «ماذا أصابك؟ كان ذلك لا يشبهكِ البتّة».

- «أنا آسفة جدّاً أيّتها المديرة. لم أقصد أن أتسبّب بإحراج. لقد فكّرتُ فقط أنّني قد لا أكون الخيار المناسب لتلك الطفلة بالتحديد».

واصلت المديرة النظر إليّ، ثمَّ قالت أخيراً: «ربّما كنتِ محقّة، أعتقد أن تلك الفتاة سوف تكون سعيدةً مع صبيٍّ الـ B3. مع ذلك يا كلارا، لقد تفاجأتُ جدّاً».

- «أنا آسفةٌ جدّاً، أيّتها المديرة».

- «لقد ساندتكِ هذه المرّة. لكنّني لن أفعل ذلك مجدّداً. الأمر عائدٌ للزبون أن يختار الص. ا. المناسب له، لا يحدث ذلك على نحوٍ معاكس أبداً».

- «أفهم هذا أيّتها المديرة». ثمَّ قلتُ بهدوء: «أشكركِ على ما فعلتِه اليوم أيّتها المديرة».

- «لا بأس يا كلارا. لكن تذكّري، سوف لن أفعل هذا ثانيةً».

ثمَّ بدأت تتحرّك مبتعدة، لكنّها من ثمَّ استدارت وقفلتْ راجعة.

- «هذا غير ممكن، أليس كذلك يا كلارا؟ هل يمكن أن تكوني مقتنعةً أنّكِ قد عقدتِ اتّفاقاً؟».

ظننتُ أنّها كانت على وشك أن توبّخني، كما كان قد سبق لها

أن وبّخت مرّةً صبيّين ص. ا. لأنّهما ضحكا على الرجل المتسوّل من النافذة. لكنَّ المديرة وضعت يدها على كتفي وقالت بصوتٍ أهدأ من ذي قبل:

- «دعيني أخبركِ بشيء يا كلارا. الأطفال يقطعون وعوداً طوال الوقت. يأتون إلى النافذة، ويقطعون كلَّ أنواع الوعود. يعدون بأنّهم سوف يعودون، ويسألونكِ ألّا تسمحي لأحدٍ آخر بأخذكِ بعيداً. يحدث هذا طوال الوقت. لكن وفي أغلب الأحيان، لا يعود الطفل أبداً. أو يحدث ما هو أسوأ من ذلك، إذ يعود الطفل ويتجاهل الص. ا. الذي كان ينتظر، ويختار واحداً آخر بدلاً منه. هكذا هم الأطفال ببساطة. لقد كنتِ تراقبين وتتعلّمين كثيراً يا كلارا. حسنٌ، هذا درسٌ آخر لكِ. هل تفهمين؟».

- «نعم أيّتها المديرة».

- «جيّد. دعينا إذاً لا نرى ذلك يتكرّر». لمستْ ذراعي، واستدارت مبتعدة.

■

سرعان ما تمّت معايرة نماذج B3 الجديدة - ثلاثة صِبية ص. ا.- وأخذت مواقعها. اثنان منهما ذهبا مباشرةً إلى النافذة، مع لافتةٍ كبيرة جديدة، فيما شغل الآخر الكوّة الأمامية. وبالطبع، كانت الفتاة ذات الشعر المدبّب قد اشترت رابع نموذج B3، وتمَّ شحنه دون أن يتسنّى لأيٍّ منّا مقابلته.

بقيتُ أنا وروزا في وسط المتجر، لكن تمَّ نقلنا إلى جهة الرفوف الحمراء حال وصول نماذج B3 الجديدة. بعد انتهاء دورنا في النافذة، اعتادت روزا أن تكرر شيئاً كانت المديرة قد قالته لنا:

أنَّ كلَّ موقعٍ في المتجر هو موقعٌ جيّد، وأنَّ احتمال أن يقع الاختيار علينا ونحن في وسط المتجر هو نفس احتمال حدوث ذلك ونحن في النافذة أو الكوّة الأمامية. حسنٌ، لقد اتضّح أنَّ هذا كان صحيحاً في حالة روزا.

لم يكن هناك في الطريقة التي بدأ بها ذلك اليوم ما يوحي بأنَّ أمراً بهذه الضخامة كان على وشك الحدوث. لم يكن هناك شيءٌ مختلف في سيّارات الأجرة أو المارّة، أو في كيفية ارتفاع الشبكة المعدنية، أو الطريقة التي ألقت بها المديرة التحيّة علينا. ومع ذلك، فقد تمَّ شراء روزا بحلول مساء ذلك اليوم، واختفت خلف باب «الموظّفين فقط» تحضيراً لشحنها. أفترض أنّني لطالما اعتقدتُ أنّه قبل مغادرة أيٍّ منّا المتجر، سيكون هناك متّسعٌ من الوقت للتحدّث عن كلِّ شيء. لكنَّ الأمر حدث بسرعةٍ كبيرة. وبالكاد تمكّنتُ من تشكيل أيّ انطباع مفيد عن الصبي ووالدته اللذَين جاءا واختاراها. أصبحت روزا بمجرّد مغادرتهما وتأكيد المديرة أنَّ الشراء قد تمَّ، متحمّسةً جدّاً لدرجة أنّه كان من المستحيل لنا أن نجري حديثاً جدّياً. أردتُ أن أتطرّق معها إلى العديد من الأشياء التي كان يجدر بها أن تتذكّرها كي تكون ص. ا. جيّدة؛ أن أذكّرها بكل الأشياء التي علّمتنا إياها المديرة، وأن أشرح لها كلَّ شيءٍ تعلّمتُه عن الخارج. لكنّها ظلّت تقفز من موضوعٍ إلى آخر. هل سيكون لغرفة الصبيّ سقفٌ عالٍ؟ ماذا سيكون لون سيّارة العائلة؟ هل سيكون بمقدورها رؤية المحيط؟ هل سيُطلَب منها أن توضّب سلّة النزهة؟ حاولتُ أن أذكّرها بغذاء الشمس، ومدى أهمّية ذلك، وتساءلتُ بصوتٍ عالٍ ما إذا كان من السهل على الشمس أن ينظر داخل غرفتها، لكنَّ روزا لم تكن مهتمّةً بذلك. بعدها وقبل أن ندرك، حان

وقتُ ذهاب روزا إلى الغرفة الخلفية، ورأيتُها تبتسم لي من فوق كتفها لمرّةٍ أخيرة قبل أن تختفي وراء الباب.

■

بقيتُ في وسط المتجر في الأيّام التي أعقبت مغادرة روزا. كان الصبيّان من طراز B3 في النافذة قد تمَّ شراؤهما أيضاً، بفاصل يومٍ واحد بينهما، وعثر الصبي ص. ا. ريكس على بيتٍ في نفس الفترة تقريباً. وسرعان ما وصل ثلاثة B3 آخرون - كانوا صبياناً مجدّداً - ووضعتهم المديرة قبالتي تماماً تقريباً، في جهة طاولة المجلّات، جنباً إلى جنب مع صبيّين ص. ا. من الإصدار الأقدم. كانت عربة العرض الزجاجية تقف بيني وبين هذه المجموعة، لذا لم أتحدّث إليهم كثيراً. لكن كان لديَّ متّسعٌ من الوقت كي أراقبهما، ورأيتُ كم كان الصبيّان ص. ا. الأقدم ودودَين ومرحِّبَين، وكيف كانا يعطيان الـ B3 الجُدد كلّ أنواع النصائح المفيدة. لذا افترضتُ أنّهم كانوا يندمجون على نحوٍ جيّد. لكن بدأتُ ألاحظ شيئاً غريباً. فخلال فترة الصباح مثلاً، كان الـ B3 الثلاثة يتحرّكون مبتعدين شيئاً فشيئاً عن الصبيّين ص. ا. وفي بعض الأحيان كانوا ينتقلون جانبياً بخطواتٍ صغيرة. أو قد يلفت شيءٌ ما عبر النافذة انتباه أحد الـ B3، فيذهب لإلقاء نظرة، ثمَّ يرجع إلى مكانٍ مختلفٍ قليلاً عن الذي كانت المديرة قد اختارته له. ثمَّ لم يعد هناك أيُّ شكوكٍ بعد مرور أربعة أيّام: كان الـ B3 الثلاثة الجدد يبتعدون عمداً عن الص. ا. الأقدم، بحيث يبدو للزبائن حين يأتون أنَّ الـ B3 هم مجموعةٌ منفصلة لوحدها. لم أرغب في تصديق هذا بدايةً - أنّه يمكن لص. ا. أن يتصرّفوا على هذا النحو، لا سيّما ص. ا. كانت المديرة قد

اختارتْهم شخصياً. شعرتُ بالأسف حيال الصبييَّن ص. ا. الأقدم، لكنّني أدركتُ بعد ذلك أنّهما لم يلاحظا أيَّ شيء. كما أنّهما لم يلاحظا، مثلما لاحظتُ سريعاً، كيف كان الـ B3 يتبادلون نظراتٍ وإشاراتٍ خبيثة كلّما حاول أحد الص. ا. الأقدم أن يأخذ على عاتقه شرْح شيءٍ ما لهم. قيل إنَّ نماذج الـ B3 الجديدة كانت تحتوي على كافّة أنواع التحسينات. لكن كيف لهم أن يكونوا ص. ا. جيّدين ونافعين لأطفالهم طالما أنَّ أذهانهم تستطيع ابتكار أفكارٍ كهذه؟ لو كانت روزا معي، كنتُ سأناقش ما رأيتُه معها، لكنّها كانت في ذلك الوقت قد رحلتْ بالطبع.

■

بعد ظهر أحد الأيّام، حين كان الشمس ينظر داخل المتجر على طول المسافة وصولاً إلى الجزء الخلفي منه، جاءت المديرة إليّ وقالت:

- «كلارا، لقد قرّرتُ أن أمنحكِ فرصةً أخرى في النافذة. ستكونين بمفردكِ هذه المرّة، لكنّني أعرف أنّكِ لا تمانعين ذلك، إذ لطالما كنتِ مهتمَّةً بدراسة الخارج».

تفاجأتُ جدّاً لدرجة أنّني نظرتُ إليها ولم أقل شيئاً.

- «يا كلارا العزيزة، لقد كانت روزا هي التي لطالما قلقتُ بشأنها. أنتِ لستِ قلقة، أليس كذلك؟ لا ينبغي بكِ القلق. سوف أحرص على أن تجدي بيتاً»، قالت المديرة.

- «أنا لستُ قلقة أيّتها المديرة»، قلتُ لها، وكدتُ أن أقول شيئاً ما بشأن جوزي، لكنّني أوقفتُ نفسي في اللحظة المناسبة متذكِّرةً حديثنا بعد أن أتت الفتاة ذات الشعر المدبّب إلى المتجر.

- «اعتباراً من الغد إذاً»، قالت المديرة. «ستّةُ أيّامٍ فقط. سوف أمنح لمن يأخذكِ سعراً خاصّاً أيضاً. تذكّري يا كلارا، سوف تمثّلين المتجر مجدّداً، لذا ابذلي قصارى جهدك».

كانت فترتي الثانية في النافذة مختلفة عن الأولى، وليس فقط لأنَّ روزا لم تكن معي. كان الشارع في الخارج يضجُّ بالحياة كما في السابق، لكنّني اكتشفتُ أنَّ عليَّ بذل المزيد من الجهد كي أشعر بالحماس حيال ما كنتُ أراه. أحياناً كانت سيّارة أجرة تخفّفُ من سرعتها، وينزل أحد المارّة عن الرصيف ليتحدَّث إلى السائق، وكنتُ أحاول أن أحزر ما إذا كانا صديقين أم عدوّين. في أوقات أخرى كنت أراقب تلك الأشكال الصغيرة تمرَّ خلف نوافذ مبنى RPO، وأحاول أن أفهم ما الذي تعنيه حركاتهم، وأتخيّل ماذا كان يفعل كلّ واحد منهم قبل أن يظهر داخل المستطيل مباشرةً، وماذا قد يفعل بعد ذلك.

كان أهمّ شيءٍ رصدتُه خلال فترتي الثانية هو ما حدث للرجل المتسوّل وكلبه. كان ذلك في فترة ما بعد ظهر اليوم الرابع، وكان الجوُّ ملبّداً جدّاً بالغيوم لدرجة أنَّ سيّارات الأجرة شغَّلت أضواءها الصغيرة. لاحظتُ أنَّ الرجل المتسوّل لم يكن يحيّي المارّة من مكانه المعتاد في الزقاق الفارغ بين مبنى RPO والمبنى ذي سلالم النجاة من الحريق. في البداية، لم أفكرّ في الأمر كثيراً لأنَّ الرجل المتسوّل غالباً ما كان يتجوّل بعيداً، وأحياناً لفترات طويلة. لكن حالما نظرتُ إلى الجهة المقابلة، أدركتُ أنّه كان هناك، وكلبه أيضاً، وأنّني لم أكن قد رأيتُهما لأنهما كانا مستلقِيين على الأرض. كانا قد دفعا بنفسيهما داخل الزقاق الفارغ مباشرة كي يبتعدا عن طريق المارّة، لذا كان يمكنكَ من جهتنا أن تخطئهما ظنّاً أنهما أكياس من تلك التي

كان عمّال المدينة يخلّفونها وراءهم في بعض الأحيان. لكنّني كنتُ الآن أواصل النظر إليهما عبر الثغرات بين المارّة، فرأيتُ أنَّ الرجل لم يتحرك أبداً، والكلب بين ذراعيه لم يتحرك أيضاً. في بعض الأحيان كان أحد المارّة يلاحظ ذلك، فيتوقّف قليلاً ثمَّ يستأنف السير. في النهاية كان الشّمس قد أصبح تقريباً وراء مبنى RPO، وكان الرّجل المتسوّل وكلبه ما يزالان على نفس الحال كما كانا طوال اليوم، إذ كان من الواضح أنهما قد ماتا، رغم أن المارّة لم يعرفوا ذلك. شعرت بالحزن عندئذ رغم أن موتهما معاً كان أمراً جيداً، وهما يحضنان أحدهما الآخر ويحاولان مساعدة أحدهما الآخر. تمنيت أن يلاحظ أحد ما الأمر فيتسنّى بالتالي أخذهما إلى مكان أفضل وأكثر هدوءاً، وفكّرت في أن أقول شيئاً للمديرة بهذا الشأن. لكن عندما جاء وقت نزولي من النافذة بحلول الليل، بدت متعبةً جداً وجديّةً للغاية فقررت ألّا أقول شيئاً.

في صباح اليوم التالي، ارتفعت الشبكة المعدنية وكان يوماً رائعاً. كان الشّمس يسكب غذاءه على الشّارع والمباني، ولمّا نظرت إلى البقعة حيث مات الرّجل المتسّول وكلبه، رأيت أنهما لم يكونا ميتين على الإطلاق - وأن نوعاً مميّزاً من غذاء الشّمس كان قد أنقذهما. لم يكن الرّجل المتسّول واقفاً على قدميه بعد، لكنه كان جالساً وعلى وجهه ابتسامة، مديراً ظهره للزقاق الفارغ، مادّاً إحدى ساقيه فيما ثنى الأخرى كي يتمكن من إراحة يده على ركبته. وبيده الحرّة كان يداعب رقبة الكلب، الذي عاد هو الآخر إلى الحياة، وأخذ يلاحق بنظراته المارّة من جهةٍ لأخرى. كان كلاهما يمتصّان غذاء الشمس المميّز بنهمٍ شديد، ويصبحان أقوى كلّ دقيقة، ورأيتُ أنّه قبل مرور وقتٍ طويل، بحلول تلك الظهيرة ربّما، سيكون الرجل

المتسوّل واقفاً على قدميه، ويلقي ملاحظاته بمرحٍ من أمام الزقاق الفارغ كما هو الحال دائماً.

ثمَّ سرعان ما انتهت أيّامي الستّة، وأخبرتني المديرة أنّني كنتُ مفخرة المتجر. قالت إنَّ أرقاماً ما فوق المعدّل قد سُجِّلتْ أثناء وجودي في النافذة، وكنتُ سعيدةً لسماع ذلك. شكرتُها لمنحي فرصةً ثانية، فابتسمتْ وقالت إنّها متأكّدةٌ من عدم اضطراري الآن للانتظار طويلاً.

■

بعد عشرة أيّام، نُقِلتُ إلى الكوَّة الخلفية. المديرة التي كانت تعرف كم أحبُّ أن يكون لديَّ منظرٌ خارجي، أكّدتْ لي أنَّ ذلك سيكون لبضعة أيّامٍ فقط، ثمَّ سيكون بوسعي بعدها العودة إلى وسط المتجر مجدداً. قالت إنّ موقع الكوّة الخلفية جيّدٌ جدّاً بطبيعة الحال، ووجدتُ نفسي لا أمانع ذلك على الإطلاق. لطالما أحببتُ الص. ا. الاثنين اللذَين كانا يجلسان الآن على الطاولة الزجاجية مقابل الحائط الخلفي، وكنتُ قريبةً منهما بما يكفي للتواصل وإجراء أحاديث مطوّلةٍ معهما، بشرط عدم وجود أي زبائن. كانت الكوّة الخلفية وراء القنطرة، لذا ليس المنظر الخارجي هو الذي كان غير متاحٍ فحسب، بل كان من الصعب رؤية حتى القسم الأمامي من المتجر. كان عليَّ أن أنحني انحناءةً كاملة إلى الأمام حتّى أتمكّن من استراق النظر من جانب القنطرة إذا أردتُ رؤية الزبائن لدى دخولهم المتجر، وحتى بعد ذلك - حتّى لو تحرّكتُ بضع خطوات إلى الأمام - ظلّت الرؤية متقطّعةً بسبب المزهريات الفضّية فوق طاولة المجلّات، والـ B3 الواقفين في وسط المتجر. من ناحيةٍ أخرى،

ولأنّنا كنّا أبعد عن الشارع ربّما - أو ربّما بسبب انحدار السقف نزولاً في القسم الخلفي من المتجر - كنتُ أسمع الأصوات على نحوٍ أكثر وضوحاً. وهذا ما جعلني أعرف من وقع خطاها فقط، وقبل حتى أن تبدأ في الكلام بوقتٍ طويل، أنَّ جوزي دخلت المتجر.

- «لماذا يجب أن يكون لديهم كلّ ذلك العطر؟ كدتُ أن أتقيّأ».

- «إنّه صابون يا جوزي»، قال صوت الأم. «ليس عطراً، بل صابونٌ مصنَّعٌ يدوياً، وقد كان رائعاً جدّاً».

- «حسنٌ، لم يكن ذلك المتجر المطلوب. بل هذا هو. لقد أخبرتكِ يا أمّي». سمعتُ وقع خطواتها الحذرة تتحرّكُ فوق الأرض. ثمَّ قالت: «هذا بالتأكيد هو المتجر الصحيح. لكنّها لم تعد هنا الآن».

أخذتُ ثلاث خطواتٍ صغيرة حتّى بات يمكنني أن أرى الأم من بين المزهريات الفضية والـ B3 يحدّقون في شيءٍ خارج مجال رؤيتي. كان بوسعي أن أرى جانباً واحداً فقط من وجهها، لكنّني اعتقدتُ أنّها بدت متعبة أكثر من تلك المرّة التي رأيتها فيها على الرصيف، بدت مثل واحدةٍ من تلك الطيور التي تطفو عالياً في الهواء. خمّنتُ أنّها كانت تراقب جوزي الآن - وأنَّ جوزي كانت تنظر إلى فتاة B3 الجديدة في الكوّة الأمامية.

لم يحدث أيُّ شيء لوقتٍ طويل. ثمَّ قالت الأم: «ما رأيكِ يا جوزي؟».

لم تُجب جوزي، وسمعتُ وقع خطى المديرة على الأرضية. كان يمكنني الآن أن أستشعر ذاك السكون المميّز في المتجر حين

يكون كلُّ ص. ا. منصِتاً ويتساءل إن كانت هناك عملية بيع على وشك الحدوث.

- «سونغ يي هي من طراز B3 بالطبع. إنّها من أفضل ما رأيتُ حتّى الآن»، قالت المديرة.

كان يمكنني الآن رؤية كتف المديرة، لكنّني ما زلت لا أستطيع أن أرى جوزي. ثمَّ سمعتُ صوت جوزي يقول:

- «أنتِ رائعةٌ حقّاً يا سونغ يي. لذا لا تأخذي هذا على نحوٍ خاطئ رجاءً. الأمر فقط أنَّ...». تراجعتْ قليلاً، وسمعتُ مجدّداً خطواتها الحذرة، ثمَّ استطعتُ أن أراها لأوَّلِ مرّة. كانت جوزي تجول بنظرها في جميع أنحاء المتجر.

قالت الأم: «سمعتُ أنَّ نماذج B3 الجديدة جيّدةٌ جدّاً في الإدراك والتذكّر. لكنّها يمكن أن تكون في بعض الأحيان أقلَّ تعاطفاً».

أصدرتْ المديرة صوتاً كان عبارة عن تنهيدةٍ وضحكة. «ربّما في البداية، وُصِفت حالةٌ أو اثنتان من الـ B3 بأنَّها كانت خشنةً بعض الشيء. لكن يمكنني أن أؤكّد لكِ تماماً أنَّ سونغ يي لن تُظهر مشاكل كهذه».

- «هل تمانعين إن خاطبتُ سونغ يي مباشرةً؟»، قالت الأم للمديرة. «هناك بعض الأسئلة أودُّ طرحها عليها».

- «لكن أمّي»، تدخّلتْ جوزي - وقد أصبحتْ الآن خارج مجال رؤيتي مجدّداً - «ما الغرض من ذلك؟ سونغ يي رائعة، أعرف هذا. لكن ليست مَن أريد».

- «لا يمكننا أن نستمرَّ في البحث إلى الأبد، يا جوزي».

- «لكنّه كان هذا المتجر، أؤكّد لكِ. لقد كانت هنا. أظنُّ أنّنا تأخرنا كثيراً، هذا كلُّ ما في الأمر».

من المؤسف أنّه كان على روزي القدوم فقط حين كنتُ في القسم الخلفيّ من المتجر. ومع ذلك، كنتُ متأكّدةً أنّها ستأتي في الوقت المناسب إلى هذا القسم وتعثر عليّ، وكان هذا أحد أسباب بقائي حيث أنا مع عدم إصدار أيٍّ صوت. ولكن ربّما كان هناك سببٌ أبعد. إذ دخل ذهني خوفٌ في نفس اللحظة تقريباً التي شعرتُ فيها بالفرح لدى معرفتي مَن الذي دخل إلى المتجر - خوفٌ له علاقةٌ بما قالته لي المديرة في ذلك اليوم، وكيف أنَّ الأطفال في كثيرٍ من الأحيان يقطعون وعوداً، ثمَّ لا يرجعون، أو إذا رجعوا، فهم يتجاهلون الص. ا. الذي وعدوه ويختارون واحداً آخر. ربّما لهذا السبب بقيتُ أنتظر هناك بهدوء.

ثمَّ جاء صوت المديرة ثانية، وكان هناك شيءٌ جديد فيه.

- «المعذرة آنستي. هل أفهم أنّكِ كنتِ تبحثين عن ص. ا. محدّد؟ واحدٌ كنتِ قد رأيتِه هنا من قبل؟».

- «نعم سيّدتي. لقد كانت في نافذتكِ قبل فترة. هي لطيفةٌ حقّاً، وذكيّة بالفعل. تبدو فرنسيةً تقريباً؟ شعرٌ قصير، غامقٌ جدّاً، وكلُّ ملابسها كانت غامقة اللون أيضاً، ولها ألطف عينين، وهي ذكيّةٌ جدّاً».

- «أعتقد أنّني قد أعرف مَن تقصدين»، قالت المديرة. «لو تلحقين بي يا آنسة، فسوف نكتشف ذلك».

عندها فقط تحرّكتُ إلى حيث يمكنهم رؤيتي. كنتُ خارج أنماط الشمس طوال فترة الصباح، لكنّني خطوتُ الآن داخل مستطيلين متقاطعين شديدَي السطوع لدى وصول المديرة وجوزي

خلفها إلى القنطرة. امتلأ وجه جوزي بالفرح حين رأتني وسرّعت خطاها.

- «أنتِ لا تزالين هنا!».

كانت قد أصبحت أنحف حتّى من ذي قبل. ظلّت تقترب بخطواتها غير الواثقة، وفكّرتُ أنّها على وشك أن تحضنني، لكنّها توقّفت في آخر لحظة ونظرت في وجهي.

- «يا للهول! اعتقدتُ حقّاً أنّكِ رحلتِ!».

- «لمَ قد أكون رحلتْ؟»، قلتُ بهدوء. «لقد قطعنا وعداً».

- «بلى»، قالت جوزي. «أظنُّ أنّنا فعلنا ذلك. وأظنُّ أنّني أنا التي أفسدتُ الأمر لأنّني استغرقتُ وقتاً طويلاً».

ابتسمتُ لها، فنادت من فوق كتفها: «أمّي! هذه هي! تلك التي كنتُ أبحث عنها!».

اقتربت الأم ببطء من جهة القنطرة، ثمَّ توقّفت. وكان الثلاثة للحظة ينظرون إليّ: جوزي في المقدّمة، تبتسم بسعادة؛ المديرة خلفها مباشرة، تبتسم أيضاً لكن مع حذرٍ في نظرتها، وهو ما أخذتُه كإشارة هامّة منها؛ ثمَّ الأم، ضاقت عيناها كما يحدث مع الناس على الرصيف حين يحاولون معرفة ما إذا كانت سيّارة الأجرة شاغرة أو محجوزة. وحين رأيتُها ورأيتُ الطريقة التي كانت تنظر بها إليّ، عاد الخوف إلى ذهني - ذاك الخوف الذي كان قد تلاشى تماماً حين صاحت جوزي: «أنتِ لا تزالين هنا!».

- «لم أقصد أن أستغرق كلَّ هذا الوقت»، كانت جوزي تقول، «لكنّني مرضتُ قليلاً. مع ذلك، أنا بخير مجدّداً». ثمَّ نادتْ مجدّداً: «أمّي؟ هل يمكننا شراؤها في الحال؟ قبل أن يأتي أحدٌ آخر ويأخذها؟».

حلَّ الصمت، ثمَّ قالت الأمُّ بهدوء: «هذه ليست طراز B3 بحسب ما فهمت».

- «كلارا من طراز B2»، قالت المديرة. «من الجيل الرابع، والذي قال عنه البعض أنّه لا يمكن التفوّق عليه أبداً».

- «لكنها ليست B3».

- «إنَّ ابتكارات الـ B3 رائعةٌ بحقّ. لكن بالنسبة لنوعٍ محدّد من الأطفال، يشعر بعض الزبائن أنَّ المستوى الأعلى من B2 قد يوفّر أقصى درجة من التجانس السعيد».

- «فهمت».

- «أمّي. كلارا هي مَن أريد. لا أريد غيرها».

- «لحظة يا جوزي». ثمَّ وجّهت سؤالاً إلى المديرة: «إنَّ كلَّ صديقٍ اصطناعيٍّ هو فريدٌ من نوعه، أليس كذلك؟».

- «هذا صحيحٌ سيّدتي. وعند هذا المستوى بشكلٍ خاصّ».

- «إذاً ما الذي يجعل هذه فريدةً من نوعها؟ هذه الـ. . . كلارا؟».

- «تتمتّع كلارا بكثيرٍ من الصفات الفريدة، يمكننا أن نمكث هنا طوال فترة الصباح ونحن نعدّدها. لكن إن كان ينبغي بي التركيز على صفةٍ واحدة، فستكون شهيّتها الكبيرة للمراقبة والتعلّم. إنَّ قدرتها على استيعاب ودمج كلّ ما تراه حولها أمرٌ مذهلٌ تماماً. ونتيجة ذلك، هي الآن تملك الفهم والإدراك الأكثر تطوّراً من أيِّ ص. ا. في المتجر، دون استثناء الـ B3».

- «هل هذا صحيح؟».

كانت الأمُّ تنظر إليَّ بعينين ضيّقتين مجدّداً. ثم أخذتْ ثلاث خطواتٍ إضافية نحوي.

- «هل تمانعين أن أسألها بضعة أسئلة؟».

- «تفضّلي، رجاءً».

- «أمّي، أرجوكِ...».

- «عذراً يا جوزي. قِفي هناك فحسب للحظة بينما أتحدّثُ مع كلارا».

عندئذٍ بات الأمر بيني وبين الأم، ورغم أنّي حاولتُ أن أحتفظ بابتسامةٍ على وجهي، إلّا أنَّ ذلك لم يكن سهلاً، ولربّما سمحتُ حتّى للخوف أن يظهر على ملامحي.

- «كلارا»، قالت الأم. «أريد منكِ ألّا تنظري في اتّجاه جوزي. أخبريني الآن، دون أن تنظري. ما لون عينيها؟».

- «إنّهما رماديّتان، سيّدتي».

- «جيد. جوزي، أريد منكِ أن تبقي صامتةً تماماً. والآن يا كلارا. صوتُ ابنتي، لقد سمعتِها تتكلّم للتوّ. كيف لكِ أن تصفي نغمة صوتها؟».

- «إن نبرة صوتها التخاطبية تقع في نطاقٍ بين سي متوسطة و سي جواب».

- «هل هذا صحيح؟». حلَّ الصمتُ مجدّداً، ثمَّ قالت الأم: «سؤالٌ أخير، يا كلارا. ما الذي لاحظتِه في الطريقة التي تمشي بها ابنتي؟».

- «قد يكون هناك ضعفٌ في وركها الأيسر. كما توجد إمكانية أنَّ كتفها الأيمن يتسبّب لها بالألم، لذا فإنَّ جوزي تمشي بطريقةٍ تحميه من الحركات المفاجئة والصدمات غير الضرورية».

تأمّلت الأم في ذلك، ثمَّ قالت: «حسنٌ، يا كلارا. بما أنّه يبدو

أنّكِ تعرفين الكثير عنها، هلّا تفضّلتِ باستنساخ مشيةِ جوزي لي؟ هلّا فعلتِ ذلك لأجلي الآن؟ هلّا استنسختِ مشية ابنتي؟».

رأيتُ خلف كتف الأم شفتيّ المديرة تتباعدان، كما لو كانت على وشك أن تقول شيئاً. لكنّها لم تفعل. جعلتْ بدلاً من ذلك عينيها بمواجهة عينيّ، وأومأتْ لي بأصغر إيماءةٍ ممكنة.

وهكذا بدأتُ في المشي. أدركتُ أنّه بالإضافة إلى الأم - وجوزي بالطبع - فقد كان المتجر بأكمله الآن يشاهد ويستمع. عبرتُ تحت القنطرة، وفوق أنماط الشمس المنتشرة على الأرض. ثم ذهبتُ باتّجاه الـ B3 الواقفين وسط المتجر، وعربة العرض الزجاجية. فعلتُ كلَّ ما في وسعي كي أستنسخ مشية جوزي تماماً كما كنتُ قد رأيتُها أوّل مرّة بعد نزولها من سيّارة الأجرة حين كنتُ مع روزا في النافذة، ثمَّ بعد أربعة أيّام لمَّا اقتربت من النافذة بعد أن رفعتِ الأم يدها عن كتف الفتاة، ثمّ كما رأيتُها أخيراً منذ لحظة، وهي تسرع إليَّ بسعادةٍ ممتنّة في عينيها.

حين وصلتُ إلى عربة العرض الزجاجية، بدأتُ في الالتفاف حولها مع الحرص على ألّا أفقد الطابع المميِّز لمشية جوزي حتّى وأنا أحاول ألّا ألمس أثناء مروري صبيَّ الـ B3 الواقف بجانب العربة.

لكن، وبينما كنتُ على وشك البدء في رحلة العودة، ألقيتُ نظرةً خاطفةً باتجاه الأم، فدفعني شيءٌ في ما رأيتُ إلى التوقّف. كانت لا تزال تراقبني بعناية، لكنَّ الأمر كان كما لو أنَّ نظرتها الآن تتركّز مخترقةً إيّاي، وكأنّني الزجاج في النافذة وهي تحاول أن ترى شيئاً بعيداً وراءه. بقيتُ قرب عربة العرض الزجاجية، قدمٌ ثابتة،

والأخرى يرتفع كعبها فوق الأرض، وكان يسود المتجر سكونٌ غريب. ثمَّ قالت المديرة:

- «كما ترين، تتمتّع كلارا بدقّة ملاحظة استثنائية. لم أعرف أحداً مثلها من قبل».

- «أمّي». كان صوت جوزي خامداً هذه المرّة. «أمّي، أرجوكِ».

- «حسنٌ جدّاً، سوف نأخذها».

أسرعتْ جوزي إليّ. وضعتْ ذراعيها حولي وضمّتني. حين حدّقتُ من فوق رأس الطفلة، رأيتُ المديرة تبتسم بسعادة، فيما الأم بوجهها الجدّي، تنظر للأسفل وتبحثُ داخل حقيبة كتفها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

القسم الثّاني

كان التنقّل صعباً في المطبخ على وجه الخصوص، لأنَّ العلاقات بين الكثير من عناصره تتغيّر من دقيقةٍ لأخرى. بِتُّ أقدّرُ الآن كيف كان الحال في المتجر - من أجلنا بالتأكيد - حيث احتفظت المديرة بكلِّ الأغراض حتّى أصغرها كالأساور وصندوق الأقراط الفضية في أماكنها الصحيحة. لكنَّ المدبّرة ميلانيا كانت تحرّك الأغراض على نحوٍ مستمرّ في كلّ أرجاء بيت جوزي، وفي المطبخ على نحوٍ خاص، الأمر الذي تطلّب منّي أن أبدأ عمليّة التعلّم من جديد منذ البداية. قامت المدبّرة ميلانيا ذات صباح على سبيل المثال بتغيير موقع خلّاط الطعام أربع مرّات خلال بضع دقائق. لكنّني وحالما أرسيتُ أهمّية الجزيرة في ذهني، أصبحت الأمور أسهل بكثير.

كانت الجزيرة في وسط المطبخ، وللتشديد ربّما على طبيعتها الثابتة، كان بها قرميد بنّي فاتح يحاكي طوب البناء. وفي وسطها يغور حوضٌ لامع عميقاً، وكانت هناك ثلاثة مقاعد عالية على طول الحافة الأطول للجزيرة حيث استطاع سكّان المنزل الجلوس هناك. في الأيّام الأولى، غالباً ما جلست جوزي حين كانت لا تزال قويّة

عند الجزيرة لإنجاز عملها التعليمي، أو لمجرّد الاسترخاء مع قلمها ولوح الرسم. وجدتُ في بداية الأمر صعوبةً في الجلوس على مقاعد الجزيرة العالية لأنَّ قدميَّ كانتا لا تستطيعان أن تلمسا الأرض، وإن حاولتُ أن أؤرجحهما فكانت تعيقهما العارضة التي تثبّتُ هيكل المقعد العالي. لكنّني قمتُ بعدئذٍ بنسخ طريقة جوزي في إسناد المرفقين بإحكام على سطح الجزيرة، وشعرتُ بمزيدٍ من الأمان منذ ذلك الحين - رغم أنّه بقي هناك دائماً احتمال أن تظهر المدبّرة ميلانيا خلفي فجأةً، وتفتح الصنابير فيخرج الماء منها بقوّة هائلة. في أوّل مرّة حدث فيها هذا، ذُهِلت لدرجة أنّي كدتُ أفقد توازني، لكن جوزي بجانبي بالكاد تحرّكت، وسرعان ما تعلّمتُ أنّه ما من شيءٍ يدعو للخوف من بضع بقعٍ من الرطوبة.

كان المطبخ غرفةً ممتازةً بالنسبة للشمس لينظر بداخلها. نوافذ كبيرة تطلُّ على سماءٍ فسيحة، والخارج عبارةٌ عن فضاءٍ مكشوف تكاد حركة المرور والمارّة أن تكون معدومةً فيه. يمكن عند الوقوف أمام النوافذ الكبيرة رؤية الطريق يرتفع صعوداً فوق التلّ مروراً بالأشجار المتباعدة. غالباً ما كان المطبخ يمتلئ بأفضل غذاءٍ للشمس، فبالإضافة إلى النوافذ الكبيرة، كانت هناك فتحةٌ سماوية في السقف العالي يمكن الكشف عنها أو إخفاؤها بواسطة جهاز تحكّم عن بعد. كنتُ أقلق في بداية الأمر لأنَّ المدبّرة ميلانيا غالباً ما كانت تجعل الستارة تحجب الفتحة السماوية بمجرّد أن يبدأ الشمس بإرسال غذائه إلينا. لكنّني أدركتُ بعدها كيف أن جوزي كانت تصبح دافئةً جدّاً بسهولة، وتعلّمتُ أن أستخدم بنفسي جهاز التحكّم عن بعد إذا أصبح نسق الشمس حادّاً جدّاً عليها.

وجدتُ الأمر غريباً لبعض الوقت، ليس فقط قلّة حركة المرور

والمارّة، بل وعدم وجود ص. ا. آخرين أيضاً. لم أكن أتوقّع بالطبع وجود ص. ا. آخرين في المنزل، وقد كنتُ سعيدة من نواحٍ عديدة لكوني الوحيدة، إذ كان بوسعي تركيز كامل انتباهي على جوزي بمفردها. لكنّني أدركتُ إلى أيِّ درجةٍ كنتُ معتادةً على وضع ملاحظات وإجراء تقييمات تتعلق بأولئك الص. ا. من حولي، وهنا أيضاً برز تعديلٌ آخر كان ينبغي بي إجراؤه. في تلك الأيّام الأولى، وأثناء لحظات الشرود، غالباً ما كنتُ أنظر نحو الطريق السريع الذي يمرُّ فوق التل - أو إلى منظر الحقول من النافذة الخلفية لغرفة النوم - وأبحثُ في البعيد عن هيئة ص. ا.، قبل أن أتذكّر كم كان ذلك احتمالاً غير مرجَّح، فهذا المكان بعيدٌ جدّاً عن المدينة وعن الأبنية الأخرى.

اعتقدتُ بسذاجة خلال الأيّام الأولى لي في المنزل، أنَّ المدبّرة ميلانيا قد تكون شخصاً أشبه بالمديرة، وقد تسبّب ذلك ببضع حالات من سوء الفهم. كنتُ على سبيل المثال أعتقد أنّ من واجبها أن تعرّفني على مختلف جوانب حياتي الجديدة، وعلى نحوٍ مفهوم فإنَّ المدبّرة ميلانيا وجدت في تواجدي المتكرّر بقربها أمراً مربكاً ومزعجاً على حدٍّ سواء. لذا فوجئتُ حين استدارت أخيراً نحوي غاضبة وصرخت: «توقّفي عن اللحاق بي يا ص. ا.، اغربي عنّي!»، لكنّي سرعان ما أدركتُ أنّني كنتُ مخطئة، وأنَّ دورها في المنزل مختلفٌ تماماً عن دور المديرة.

حتّى لو حمّلتُ نفسي مسؤولية سوء الفهم، فلا يزال من الصعب عدم تصديق أنَّ المدبّرة ميلانيا كانت ضدَّ وجودي منذ البداية. رغم أنّي تعاملتُ معها بالتهذيب الملائم، في الأيام الأولى على وجه الخصوص، وحاولتُ القيام ببعض الأشياء الصغيرة

لإرضائها، لكنّها لم تردَّ على ابتساماتي أبداً، ولم تقل لي شيئاً سوى التوبيخ أو إصدار التعليمات. وأنا أستجمع هذه الذكريات اليوم، يبدو واضحاً لي أنَّ عدائيّتها كانت لها علاقة بمخاوفها الأكبر المتعلّقة بما قد يحدث مع جوزي. لكن لم تكن هناك في ذلك الوقت طريقةٌ سهلة أفسّر بها فتورها. بدا أنّها ترغب في اختصار الوقت الذي أقضيه مع جوزي - وهو ما يتعارض مع واجبي بالطبع - وحاولتْ في بداية الأمر أن تمنعني حتّى من الدخول إلى المطبخ أثناء تناول الأم قهوتها السريعة، وجوزي إفطارها. سُمِح لي أن أكون في المطبخ أثناء هذه اللحظات الحيوية كلَّ صباح فقط بعد أن أصرّت جوزي على ذلك بشدّة - حيث حكمتْ الأمُّ لصالحي في النهاية. حتّى عندئذٍ، حاولت المدبّرة ميلانيا التشديد على أن أبقى بجانب الثلّاجة بينما كانت جوزي والأم جالستين عند الجزيرة، ولم يُسمح لي بالانضمام إليهما إلّا بعد مزيدٍ من الاحتجاجات من طرف جوزي.

كانت قهوة الأم السريعة لحظةً مهمّة كلّ صباح كما قلت، وكانت إحدى مهمّاتي أن أوقظ جوزي في الوقت المناسب لذلك. ورغم جهودي المتكرّرة، فإنَّ جوزي لم تنهض في الغالب حتّى اللحظة الأخيرة، ثم تبدأ في الصراخ من داخل حمّامها: «أسرعي يا كلارا! سوف نتأخر!»، رغم أنّني كنتُ في الخارج عند السلالم، أنتظرها بقلق.

كنّا نجد الأمَّ جالسةً عند الجزيرة، تحدّقُ في لوحها المستطيل وهي تشرب قهوتها، والمدبّرة ميلانيا تحوم بالقرب منها، جاهزةً لإعادة ملء كوبها. لم يكن هناك الكثير من الوقت لجوزي والأم كي تجريا حديثاً، لكنّني سرعان ما تعلّمتُ كم كان مهماً لجوزي أن

تكون قادرةً على الجلوس مع الأم أثناء القهوة السريعة. ذات مرّة، سمحتُ لجوزي أن تعود للنوم بعد إيقاظها، إذ كان مرضها قد عكّر ليلتها بالكامل تقريباً، معتقدة أنّه من الأفضل لها أن تستريح لوقتٍ أطول قليلاً. لكنّها صرختْ في وجهي بكلماتٍ غاضبة لدى استيقاظها، وأسرعت رغم ضعفها الشديد كي تصل إلى الأسفل في الوقت المناسب. لكن لدى خروجها من جناحها الداخلي، سمعنا صوت سيّارة الأمّ في الأسفل وهي تسحق الأحجار الرخوة تحتها، فسارعنا إلى النافذة في الوقت المناسب لنرى سيّارتها تتحرّك مبتعدةً نحو التلّ. لم تعاود جوزي الصراخ عليَّ، لكنّها لم تبتسم حين أصبحنا في المطبخ أثناء تناولها وجبة الإفطار. فهمتُ عندئذٍ أنّها إن أخفقت في الانضمام إلى الأم أثناء القهوة السريعة، فسيكون هناك خطر أن يتسلّل شعور الوحدة إلى يومها بغض النظر عن كلّ الأحداث الأخرى التي قد تملأه.

كانت تمرُّ من وقتٍ لآخر صباحات حيث لا تكون الأم مضطّرةً إلى الاستعجال؛ فرغم أنّها كانت في تلك الصباحات ترتدي ملابسَ رفيعة الشأن، وكانت حقيبتها موضوعة قبالة الثلّاجة، إلّا أنّها كانت تشرب قهوتها ببطء، حتّى أنّها كانت تنزل عن المقعد العالي لتتمشّى في الأرجاء والكوب في يدها. وقفتْ أحياناً أمام النوافذ الكبيرة، ونسق شمس الصباح عليها، وقالت شيئاً من قبيل:

- «أتعلمين يا جوزي؟ لديّ انطباعٌ أنّك تخلّيتِ تماماً عن أقلامكِ الملوّنة. أنا أحبِّ أعمالكِ التي تقومين بها بالأبيض والأسود. لكنّني أفتقد الرسومات الملوّنة حقّاً».

- «أمّي، لقد اتّخذتُ قراراً، لقد كانت رسوماتي الملوّنة مصدر إحراجٍ كبير».

- «إحراج؟ أوه، بالله عليكِ!».

- «أمّي. إنَّ رسمي بالألوان يشبه عزفك على آلة التشيلو. في الواقع، إنّه أسوأ».

حين قالت جوزي هذا، تكشّف وجه الأم عن ابتسامة. لم تكن الأم تبتسم كثيراً، لكنّها حين فعلتْ، كانت ابتسامتها تبدو شبيهةً بابتسامة جوزي على نحوٍ مدهش: بدا وجهها بكامله يفيض باللطف، ونفس التجاعيد التي تشكّل في العادة تعابيراً توحي بالتوتّر تنقلب لترسم تعابير الفكاهة والوداعة.

- «عليَّ الاعتراف أن عزفي على التشيلو بدا في أفضل حالاته أشبه بجدّة دراكولا. لكنَّ استخدامكِ للألوان يشبه إلى حدٍّ كبير بركة ماءٍ رائقة في أمسية صيف. شيءٌ من هذا القبيل. أنتِ تفعلين أشياء جميلة بالألوان يا جوزي. أشياء لم يفكّر أحدٌ في فعلها حتّى».

- «أمّي. دائماً ما يرى الأهل رسومات أطفالهم على هذا النحو. إنّه شيءٌ له علاقة بعملية التطوّر».

- «أتعلمين؟ أعتقد أنَّ كلَّ هذا بسبب المرّة التي أخذتِ فيها تلك اللوحة الجميلة جدّاً التي رسمتِها إلى ذلك الاجتماع ما قبل الأخير. حيث قالت تلك الفتاة من عائلة ريتشاردز شيئاً ساخراً بشأنها. لقد أخبرتكِ بهذا من قبل، أعرف ذلك، لكن ها أنا أخبركِ مجدّداً. كانت تلك الشابة تشعر بالغيرة من موهبتكِ. ولهذا السبب قالت ما قالته».

- «حسنٌ. إذا كنتِ تعنين ذلك حقّاً يا أمّي، فقد أعود إلى استخدام الألوان. وربّما في المقابل تعودين للعزف على التشيلو».

- «أوه، لا. لقد أصبح هذا ورائي الآن. ما لم يكن هناك أحدٌ يائس للحصول على موسيقا تصويرية لفيلم الرعب منخفض التكلفة الذي يصنعه».

لكن كانت هناك صباحات أخرى حيث بقيت الأم غير مبتسمة ويعلو التوتّر ملامحها، حتّى لو لم يكن هناك من حاجة إلى الإسراع في تناول القهوة السريعة. إذا تحدّثت جوزي عن معلّميها على اللوح المستطيل، وبذلت كلَّ ما في وسعها كي تبدو مرحةً بشأنهم، فتستمع الأم إليها بملامح جادّة، ثم تقاطعها لتقول:

- «يمكننا أن نبدّله. إن كان الرجل لا يعجبكِ، يمكننا دائماً أن نبدّله».

- «لا، يا أمّي. أنا أتحدّث فحسب. في الواقع هذا الرجل أفضل بكثير من الذي سبقه. إنّه مرحٌ جدّاً أيضاً».

- «هذا جيّد». تومئ الأمُّ برأسها، ووجهها لا يزال جادّاً. «إنَّ رغبتكِ الدائمة في منح الناس فرصةً لائقة لهي خصلةٌ جيّدة فيكِ».

في تلك الأيام، حين كانت صحّة جوزي جيّدةً، كانت لا تزال تحبُّ أن تتناول وجبتها المسائية بعد عودة الأم من عملها. عنى هذا ذهابنا في الغالب إلى غرفة نوم جوزي كي ننتظر عودة الأم - ونتفرّج على الشمس وهو يذهب إلى مكان راحته.

كانت النافذة الخلفية لغرفة النوم تتمتّع - كما وعدتْ جوزي بالضبط - بإطلالةٍ واضحة عبر الحقول وصولاً حتى خط الأفق، ممّا سمح لنا بمشاهدة الشمس وهو يغوص داخل الأرض في نهاية يومه. رغم أنَّ جوزي تحدّثت دائماً عن «الحقل»، إلّا أنّها كانت في الواقع ثلاثة حقول متجاورة، ويمكن لأيِّ أحدٍ إذا دقّق النظر أن يرى الأعمدة التي تشكّل حدودها. كان العشب طويلاً في الحقول الثلاثة، يتحرّك حين تهبُّ الرياح كما لو أن مارّةً غير مرئيين يتحرّكون عبره مسرعين.

كانت السماء من النافذة الخلفية للغرفة أكبر بكثير من الفسحة

السماوية في المتجر - كما كان بإمكانها أن تتغيّر على نحوٍ مفاجئ. ففي بعض الأحيان تكون بلون الليمون في وعاء الفاكهة، ثمَّ يمكن أن تتحوّل إلى الرمادي في ألواح التقطيع المصنوعة من الصخور. ويمكنها حين لم تكن جوزي على ما يرام أن تتحول إلى لون قيء هذه الأخيرة أو برازها الشاحب، وقد يظهر عليها حتى خطوطٌ من الدم في مناسبات معينة. أحياناً كانت السماء تنقسم إلى سلسلةٍ من المربّعات، كلٌّ منها يحمل درجةً من الأرجواني تختلف عن المربع المجاور.

كان ثمّة أريكةٌ ناعمة بلون الكريمة قرب النافذة الخلفية لغرفة النوم، أطلقتُ عليها في عقلي اسم أريكة الأزرار. رغم أنّها كانت تتموضع بحيث تواجه الغرفة من الداخل، إلّا أنّنا أنا وجوزي كنّا نحبُّ أن نجثو عليها، ونسند أذرعنا على ظهرها المبطّن، ونحدّق في السماء والحقول. قدّرتْ جوزي كم كنتُ أستمتع بالجزء الأخير من رحلة الشمس، وقد حاولنا مشاهدة هذا الجزء ونحن على أريكة الأزرار كلّما أتيح لنا ذلك. ذات مرّة، حدث أن عادت الأم أبكر من المعتاد، وكانت هي وجوزي عند الجزيرة على المقاعد العالية تتحدّثان - ولكي أوفّر لهما الخصوصية، ذهبتُ للوقوف بجانب الثلّاجة. كان مزاج الأم عالياً في ذلك المساء، وكانت تتحدّثُ بسرعة، وتروي أشياء مضحكة عن أشخاص في مكتبها، تتوقّف بين الحين والآخر كي تضحك، وأحياناً كان هذا الضحك يأخذ شكل نوبات طويلة تجعلها تكاد تفقد أنفاسها. في منتصف هذا الحديث، وحين بدا أنَّ الأم على وشك أن تدخل في نوبة ضحكٍ أخرى، قاطعتْها جوزي لتقول:

- «أمّي، كلُّ هذا رائعٌ جدّاً. لكن هل تمانعين إذا صعدتُ مع

كلارا إلى غرفتي لدقيقة؟ تحبُّ كلارا كثيراً أن تشاهد غروب الشمس، وإذا لم نذهب الآن فسوف يفوتها ذلك».

عندما قالت هذا، نظرتُ حولي سريعاً ورأيتُ نور الشمس المسائي يغمر المطبخ. كانت الأم تحدّق في جوزي، وفكّرتُ أنّها على وشك أن تغضب. لكنَّ وجهها رقَّ بابتسامة ثمَّ قالت: «بالطبع حبيبتي. اذهبا وتفرّجا على غروب الشمس. وبعد ذلك سنتناول العشاء».

بمعزل عن الحقول والسماء، أثار فضولي شيءٌ آخر كان يمكننا رؤيته من النافذة الخلفية لغرفة النوم: شكلٌ يشبه صندوقاً قاتم اللون في نهاية الحقل الأبعد. لم يكن يتحرك حين تتمايل الأعشاب من حوله، وحين كان الشمس ينزل إلى ارتفاعٍ منخفضٍ جدّاً حتّى يكاد يلمس العشب، ظلَّ الشكل القاتم ثابتاً أمام وهجه. في ذلك المساء الذي خاطرت فيه جوزي بغضب الأم من أجلي، أشرتُ لها نحو الشكل القاتم. رفعتْ نفسها عندئذٍ أكثر فوق أريكة الأزرار، ووضعت يديها فوق عينيها كي تؤمّن لهما الظلّ.

- «أوه، لا بدَّ أنّكِ تقصدين حظيرة السيّد ماكبين».

- «حظيرة؟».

- «ربّما لا تكون حظيرةً حقّاً، لأنّها مفتوحةٌ من جانبين. أظنُّ أنّها أشبه بسقيفة. فالسيد ماكبين يحتفظ بالأشياء هناك. ذهبتُ مرّةً مع ريك إلى هناك».

- «أتساءل لمَ قد يذهب الشمس إلى مكانٍ كهذا ليستريح».

- «نعم»، قالت جوزي. «قد تعتقدين أنَّ الشمس سيحتاج إلى قصرٍ على أقل تقدير. لربّما يكون السيد ماكبين قد أجرى الكثير من التحسينات منذ آخر مرّة كنتُ هناك».

- «أتساءل متى ذهبت جوزي إلى هناك».

- «أوه، لقد مضى على ذلك وقتٌ طويلٌ الآن. كنتُ وريك صغيرين جدّاً. كان ذلك قبل أن أمرض».

- «هل كان هناك أيّ شيءٍ غير اعتيادي قرب المكان؟ بوّابة؟ أو درجات تنزل إلى جوف الأرض ربّما؟».

- «أه، أه. لا شيء من ذلك. الحظيرة فحسب. وقد سُعدنا بها لأنّنا كنّا صغيرَين ومتعبَين حقّاً من السير كل تلك المسافة. ضعي في اعتبارك أنّنا لم نكن هناك قبيل وقت الغروب. إن كان هناك مدخلٌ يفضي إلى قصر، فربَّما كان مخفيّاً. وربّما تُفتح الأبواب قبل وصول الشمس مباشرة؟ شاهدتُ ذات مرة فيلماً يشبه هذا حيث كان لدى كلّ أولئك الأشرار مقرٌّ داخل بركان، وما تعتقدين أنّه بحيرة حمم بركانية في الأعلى تجدينها تنزلق وتنفتح مباشرةً قبل هبوطهم بالمروحيات. ربّما يعمل قصر الشمس بنفس الطريقة. لم نكن أنا وريك نبحث عنه بأيّ حال. خرجنا لنمرح فحسب، ثم شعرنا بالحرّ ودخلنا إلى هناك طلباً للظل. وهكذا جلسنا داخل حظيرة السيد ماكبين لبعض الوقت ثمَّ قفلنا راجعين». لمستْ جوزي ذراعي بلطف. «أتمنّى لو أنّنا رأينا المزيد. لكنّنا لم نفعل».

كانت الشمس قد أصبحت مجرّد خطٍّ قصير يتوهّج عبر العشب.

- «ها قد ذهب»، قالت جوزي. «عسى أن يحظى بنومٍ هانئ».

- «أتساءل مَن كان هذا الصبي، ريك».

- «ريك؟ إنّه صديقي المفضّل فحسب».

- «أوه، فهمت».

- «هيه، كلارا، هل قلتُ لتوّي شيئاً فظّاً؟».

- «لا. لكن... من واجبي الآن أن أكون صديقة جوزي المفضّلة».

- «أنتِ الص. ا. خاصّتي. هذا أمرٌ مختلف. أمّا ريك، حسنٌ، نحن سنقضي حياتنا معاً».

كان الشمس الآن مجرّد علامةً وردية اللون فوق العشب.

- «ليس هناك شيءٌ قد لا يفعله ريك من أجلي، لكنّه يقلق كثيراً. يقلق طوال الوقت من أن تعيق الأشياء طريقنا».

- «أيُّ نوعٍ من الأشياء؟».

- «أوه، تعرفين. كل أمور الحبّ والرومانسية التي يجب علينا اكتشافها. وأظنُّ أنَّ هناك الشيء الآخر أيضاً».

- «الشيء الآخر؟».

- «لكنّه يقلق دون أن يكون هناك داعٍ للقلق. لأنّه في حالتنا أنا وريك الأمر مقضيٌّ منذ زمنٍ طويل. ولن يتغيّر أبداً».

- «أين هو ريك هذا الآن؟ هل يعيش في الجوار؟».

- «يعيش في المنزل المجاور. سوف أقدّمكِ له. لا أطيق الانتظار حتّى تلتقيا!».

■

التقيتُ ريك في الأسبوع التالي، في اليوم الذي رأيتُ فيه منزل جوزي من الخارج لأوّل مرّة.

كنتُ قد خضتُ مع جوزي الكثير من الجدالات الودّية حول كيفية اتّصال أحد أجزاء المنزل بجزء آخر. ما كانت لتقبل على سبيل المثال، أنَّ خزانة المكنسة الكهربائية تقع أسفل الحمّام الكبير

مباشرةً. ثمَّ في صباح أحد الأيّام، وبعد جدال ودّيٍّ آخر من هذا النوع، قالت جوزي:

- «كلارا، أنتِ تقودينني بهذا إلى الجنون. حالما أنتهي مع البروفيسور هيلم، سآخذكِ إلى الخارج. سوف نتحقّقُ من كلِّ ذلك من الخارج».

أصبحتُ في الحال متحمِّسة حيال هذه الإمكانية. لكن كان على جوزي أن تحضر برنامجها التعليمي أولاً، وراقبتُها وهي تنشر أوراقها على سطح الجزيرة، وتشغّل لوحها المستطيل.

جلستُ تاركةً كرسياً فارغاً بيننا كي أمنحها بعض الخصوصية. استطعتُ أن أدرك سريعاً أنَّ الدرس لا يسير بسلاسة: بيّن الصوت الهارب من سمّاعة جوزي أنَّ معلّمها كان يقوم بتوبيخها على نحوٍ متكرّر، فيما ظلّت هي تخربش على أوراقها أشياء لا معنى لها، وتدفع في بعض الأحيان بتلك الأوراق قريباً جدّاً من الحوض على نحوٍ خطير. لاحظتُ في مرحلةٍ ما أنَّ انتباهها أصبح مشتّتاً بشدّة بسبب شيءٍ ما خارج النوافذ الكبيرة وأنّها لم تعد تستمع لأستاذها. بعد ذلك بقليل، قالت للشاشة بغضب: «حسنٌ، لقد فعلتُ ذلك. حقّاً فعلت. لماذا لا تصدّقني؟ نعم، كما قلتَ بالضبط!».

استمرَّ الدرس أطول من المعتاد، لكنّه انتهى أخيراً مع قول جوزي بهدوء: «حسنٌ، بروفيسور هيلم. شكراً لك. نعم. سأحرص على ذلك. وداعاً. شكراً لك على درس اليوم».

أطفأت لوحها المستطيل مع تنهيدة، ونزعت السمّاعة عن رأسها. ثمّ أشرق وجهها على الفور لدى رؤيتي.

- «لم أنسَ يا كلارا. نحن ذاهبتان إلى الخارج، أليس كذلك؟ حسنٌ، دعيني فقط أستعيد سلامة عقلي. البروفسور هيلم هذا، يا

إلهي! أنا سعيدةٌ أنّه ليس عليَّ أن أنظر إليه أكثر! إنّه يعيش في مكانٍ حار، يمكنكِ معرفة ذلك بسهولة. لقد رأيتُه يتصبّب عرقاً». نزلتْ عن المقعد العالي، ومطّتْ ذراعيها. «تقول أمّي إنّه ينبغي بنا إخبار ميلانيا متى ما أردنا أن نذهب إلى الخارج. هلّا ذهبتِ وأخبرتِها بينما أرتدي معطفي؟».

كان يمكنني رؤية أنَّ جوزي أيضاً تشعر بالحماس، رغم أنّي اعتقدتُ أنَّ الأمر في حالتها يتعلّق بما رأتْه عبر النوافذ الكبيرة أثناء الدرس. ذهبتُ على أيّة حال إلى الردهة المفتوحة كي أعثر على المدبّرة ميلانيا.

كانت الردهة المفتوحة أكبر غرفةٍ في المنزل. احتوت على أريكتين وعدّة أشكالٍ مستطيلةٍ ملساء يمكن لسكان المنزل أن يجلسوا عليها؛ كان بها وسائد أيضاً، ومصابيح، ونباتات، ومكتب زاوية. حين فتحتُ الأبواب المنزلقة في ذلك اليوم، كان أثاثها عبارةً عن سلسلةٍ من الشبكات المتراصّة، وكان من غير الممكن تمييز هيئة المدبّرة ميلانيا وسط ذلك النمط المعقّد. لكنّني تمكّنتُ من رصدها جالسةً على طرف أحد المستطيلات الملساء، مشغولةً بفعل شيءٍ ما على لوحها المستطيل. نظرت إليَّ بعينين غير ودودتين، لكن حين أخبرتُها أنّ جوزي تريد الذهاب إلى الخارج، ألقتْ بلوحها جانباً ومشتْ أمامي فيما هي تغادر الردهة المفتوحة.

عثرتُ على جوزي في الرواق ترتدي معطفها البنيّ المبطّن المفضّل لديها، والذي كانت ترتديه في الداخل أيضاً حين تكون حالتها الصحية ليست على أحسن ما يرام.

– «هيه، كلارا. لا أصدّق أنّكِ كنتِ في هذا المنزل طوال هذه المدّة ولم تخرجي أبداً».

- «لا، أنا لم أخرج أبداً».

نظرتْ إليَّ جوزي لثانية، ثمَّ قالت: «هل تقصدين أنّه لم يسبق لكِ أن خرجتِ مطلقاً؟ ليس فقط هنا، ولكن لم تكوني خارجاً في أيِّ مكان؟».

- «هذا صحيح. لقد كنتُ في المتجر، ثمَّ جئتُ إلى هنا».

- «أوه. سيكون هذا عظيماً جدّاً بالنسبة لكِ إذاً! ليس هناك ما تخشينه، أفهمتِ؟ لا حيوانات بريّة أو أيُّ شيء. لذا، هيّا بنا، لنذهب».

حين فتحتْ المدبّرة ميلانيا الباب الأمامي، شعرتُ بهواءٍ جديد - وغذاء الشمس - يدخلان الرواق. ابتسمتْ جوزي لي، وكان وجهها يفيض لطفاً، لكن عندئذٍ جاءت المدبّرة ميلانيا بيننا، وقبل أن أدرك تماماً ما يحدث، كانت قد أخذتْ بذراع جوزي وحشرتْها تحت ذراعها. كانت جوزي أيضاً متفاجئة بهذا، لكنّها لم تعترض، فقدّرتُ أنَّ المدبّرة ميلانيا خلصتْ إلى أنّني قد لا أكون قادرة على حماية جوزي بشكلٍ موثوق أثناء تواجدنا في الخارج نظراً لانعدام خبرتي. لذا خرجت الاثنتان معاً، ولحقتُ بهما.

مشينا إلى منطقة الأحجار الرخوة، والتي افترضتُ أنّها تُركت وعرةً على نحوٍ مقصود من أجل السيارة. كانت الريح معتدلة ولطيفة، وتعجّبتُ كيف كانت الأشجار العالية فوق التلّ تنحني وتتمايل تحت ضغطها. لكنّي سرعان ما اضطررتُ إلى التركيز على قدميّ، إذ احتوت منطقة الأحجار الرخوة على العديد من الانحدارات الناجمة ربّما عن عجلات السيارة.

كان المنظر أمامي مألوفاً من النافذة الأمامية لغرفة النوم. واظبتُ على اللحاق بالمدبّرة ميلانيا وجوزي وصولاً إلى الطريق،

الذي كان أملسَ وقاسياً مثل أرضية، سرنا عليه لبعض الوقت، حتّى عندما ظهر العشب المجزوز على كِلا جانبيه. رغبتُ في إلقاء نظرة على المنزل - أردتُ أن أراه كما يراه أحد المارّة، وأن أتأكّد من تقديراتي - لكنَّ جوزي والمدبّرة ميلانِيا واصلتا المشي، وذراعاهما لا تزالان متشابكتين، فلم أجرؤ على التوقّف.

مع الوقت لم أعد مضطّرةً إلى إيلاء الكثير من الاهتمام لقدميّ، ونظرتُ لأرى تلّةً عشبية ترتفع إلى يسارنا - وهيئة صبيٍّ تتحرّك قريباً من قمّتها. قدّرتُ أنّه في الخامسة عشرة من عمره، رغم أنّني لم أكن متأكّدةً حيث أنَّ هيئته كانت أشبه بخيالٍ تحت السماء الشاحبة. تقدّمتْ جوزي نحو التلة، وقالت المدبّرة ميلانيا شيئاً لربّما كنتُ تمكّنتُ من سماعه لو أنّنا داخل المنزل، لكنَّ الصوت في الخارج كان يتصرّف على نحوٍ مختلف. أمكنني في كل الأحوال رؤية أنَّ هناك خلافاً من نوعٍ ما. سمعتُ جوزي تقول:

- «لكنّني أريد لكلارا أن تلتقيه».

كانت هناك كلماتٌ أخرى لم أسمعها، ثمَّ قالت المدبّرة ميلانيا: «حسنٌ، لكن للحظات فقط»، ثمَّ حرّرتْ ذراع جوزي.

- «تعالي، يا كلارا»، قالتْ جوزي وهي تلتفت إليّ. «فلنصعد ونقابل ريك».

حين أخذنا نتسلق جانب التلّة الخضراء، أصبحت أنفاس جوزي قصيرة، وتشبّثت بي بقوّة. عنى هذا أنّني كنتُ أستطيع النظر للوراء للحظاتٍ قصيرة فقط، لكنّني أصبحتُ مدركةً أنّه إلى الوراء منّا لم يكن هناك منزل جوزي فقط، بل هناك منزل ينتصب أبعد إلى الخلف في الحقول - منزلٌ جار لم يكن مرئياً من أيٍّ من نوافذ جوزي. كنتُ أتوق إلى دراسة مظهر كِلا المنزلين، لكن كان عليَّ

التركيز على ضمان عدم إصابة جوزي بأيٍّ أذى. توقّفتْ على قمّة التلّ كي تستعيد أنفاسها، لكنَّ الصبي لم يرحّب أو ينظر نحونا حتّى. كان يحمل في يديه جهازاً دائرياً، وينظر إلى السماء بين المنزلين حيث كانت مجموعة من الطيور تطير ضمن تشكيل، وسرعان ما أدركتُ أنّها طيورٌ آلية. ظلَّ يحدّق بها، وحين لمس جهازه استجابت الطيور عبر تغيير نمط تشكيلها.

- «أوه، إنّها جميلة»، قالت جوزي، رغم أنّها لا تزال منقطعة الأنفاس. «هل هي جديدة؟».

أبقى ريك بصره على الطيور، لكنّه قال:

- «هذان الاثنان في الخلف جديدان. يمكنكِ معرفة أنّهما غير متطابقَين تماماً».

اندفعت الطيور مسرعةً حتى باتت تحلّق فوقنا مباشرةً.

- «بلى، لكن الطيور الحقيقية لا تبدو جميعها متشابهة أيضاً»، قالت جوزي.

- «أفترض ذلك. على الأقل الفريق بأكمله يأخذ منّي الأوامر نفسها الآن. حسنٌ، يا جوزي، شاهدي هذا».

بدأت الطيور الآلية في النزول، وهبطت واحدة تلو الأخرى على العشب أمامنا. لكن بقي اثنان في الهواء، فضغط ريك على جهازه عابس الوجه.

- «يا إلهي. لا يزال غير سليم».

- «لكنّها تبدو رائعة يا ريكي».

كانت جوزي تقف بانذهال قريباً من ريك، لم تكن تلمسه في الواقع، لكنَّ يديها كانتا مرفوعتين خلف ظهره وكتفه الأيسر.

- «هذان الاثنان يحتاجان إلى إعادة ضبطٍ كاملة».

- «لا تقلق، سوف تنجز الأمر بشكلٍ صحيح. هيه، ريكي، أنت تذكر يوم الثلاثاء، صحيح؟».

- «أنا أذكره. لكن جوزي، اسمعي، أنا لم أقل أنّي سآتي».

- «أوه، بالله عليك! لقد وافقت!».

- «بالتأكيد أنا لم أوافق. على أيّة حال، لا أعتقد أنَّ ضيوفكِ سيكونون مسرورين جدّاً».

- «أنا المستضيفة، لذا يمكنني أن أدعو مَن أشاء. وستكون أمّي راضيةً بذلك. هيّا يا ريك، لقد خضنا في هذا بما فيه الكفاية. إن كنّا جادَّين بشأن الخطّة، فيتعيَّن علينا القيام بأشياء كهذه سويّاً. يجب أن تكون قادراً على التعامل مع الأمر مثلي تماماً. ولمَ عليَّ أن أواجه ذلك الحشد وحدي؟».

- «لن تكوني لوحدك. لديكِ الآن الص. ا. خاصّتك».

هبط العصفوران الأخيران. لمس ريك جهاز التحكم، فدخلت جميعها في وضع السبات فوق العشب.

- «يا إلهي، حتّى أنّني لم أعرّفكما! ريك، هذه كلارا».

ظلَّ ريك مركّزاً على جهازه ولم ينظر نحوي. «قلتِ إنّكِ لن تحصلي على ص. ا. أبداً».

- «كان هذا منذ زمن».

- «قلتِ أنّكِ لن تحصلي على واحدة أبداً».

- «حسنٌ، لقد غيّرتُ رأيي، اتفقنا؟ على أيّة حال، كلارا ليست أيَّ ص. ا. قولي شيئاً لريك يا كلارا».

- «قلتِ إنّكِ لن تحصلي على واحدة أبداً».

- «بالله عليكَ، يا ريك! نحن لا نفعل كل شيءٍ قلناه ونحن صغار. لمَ لا يجب أن يكون لديَّ ص. ا.؟».

كانت كلتا يداها الآن على كتف ريك الأيسر، مرخيةً بثقلها هناك كما لو كانت تحاول أن تجعله أقلَّ طولاً بحيث يصبحان بنفس الطول. لكن بدا أنَّ ريك لم يكن مهتمّاً بقربها منه - بدا في الواقع أنّه يرى في ذلك شيئاً عاديّاً جدّاً - وخطر لي أنَّ الصبي، بطريقته الخاصة، قد يكون مهمّاً لجوزي مثلما هي الأم؛ وأنَّ أهدافه وأهدافي قد تكون متماثلةً تقريباً في بعض النواحي، وأنَّ عليَّ أن أراقبه بعناية لأفهم كيف يتداخل في نمط حياة جوزي.

- «إنّه لمن الرائع مقابلة ريك. أتساءل ما إذا كان يعيش في ذلك المنزل المجاور. إنّه شيءٌ غريب، فأنا لم ألاحظ منزلاً كهذا من قبل»، قلتُ.

- «نعم»، قال ريك وهو لا يزال يرفض النظر إليّ مباشرةً. «أعيش هناك، أنا وأمّي».

ثمَّ التفتنا جميعاً نحو المنزلين، وكنتُ قادرةً لأوّل مرة حقّاً أن أنظر إلى منزل جوزي من الخارج. كان أصغر قليلاً ممّا تصورت، وحوافّ سطحه العلوي أكثر حدّة بقليل، لكن عدا ذلك فقد كان كما قدّرتُه من الداخل تقريباً. شُيّدت جدران المنزل من ألواح متداخلة بعناية مطليّةٌ جميعها بلون قريبٍ من الأبيض. المنزل نفسه كان عبارة عن ثلاثة صناديق مستقلّة، تترابط في هيئة شكلٍ معقّد واحد. كان منزل ريك أصغر حجماً، ولم يبدُ كذلك فقط لأنّه كان أبعد من منزل جوزي. تمَّ بناؤه من ألواح خشبية أيضاً، لكنَّ هيكله كان أكثر بساطة - صندوقٌ واحد، طوله أكثر من عرضه، ينتصب هناك فوق العشب.

- «أعتقد أنَّ ريك وجوزي ترعرعا جنباً إلى جنب. تماماً مثل منزليكما»، قلتُ لريك.

هزَّ كتفيه. «نعم. جنباً إلى جنب».

- «أعتقد أنَّ لكنة ريك إنجليزية».

- «قليلاً ربّما».

- «سعيدةٌ أنَّ لدى جوزي مثل هذا الصديق الطّيب. آمل أن وجودي لن يكون يوماً عائقاً في طريق هذه الصداقة الجميلة».

- «آمل ألّا يكون كذلك. لكن هناك الكثير من الأشياء التي تشكّل عائقاً أمام الصداقات».

- «حسنٌ، كفى الآن!»، صاحت المدبّرة ميلانيا من أسفل التل.

- «قادمة!»، صاحت جوزي. ثمّ قالت لريك: «اسمع يا ريكي، أنا لن أستمتع بهذا الاجتماع أكثر منك. أحتاجكَ هناك. يجب عليكَ أن تأتي».

كان ريك يركّز مجدّداً على جهاز التحكّم، وارتفعتْ طيوره معاً في الهواء. راقبتْها جوزي ويداها ما تزالان على كتفه، بحيث شكّلا معاً طيفاً واحداً تحت السماء.

- «هيّا أسرعي!»، صاحتْ المدبّرة ميلانيا. «الرياح قويّةٌ جدّاً! هل تريدين الموت هناك أم ماذا؟».

- «حسنٌ، أنا قادمة!»، ثمَّ قالتْ جوزي لريك بهدوء: «يوم الثلاثاء، وقت الغداء، اتّفقنا؟».

- «اتّفقنا».

- «إلى اللقاء ريكي. لقد قطعتَ وعداً الآن. وكلارا شاهدةٌ على ذلك».

رفعتْ يديها عن كتفه وابتعدت. ثمَّ أمسكتْ بذراعي وبدأتْ تقودنا أسفل التل.

نزلنا منحدراً مختلفاً عن الذي تسلّقناه، والذي رأيتُ أنّه سيقودنا نزولاً أمام منزل جوزي مباشرة. كان هذا أشدَّ انحداراً بشكلٍ واضح، فبدأت المدبّرة ميلانيا في الأسفل بالاحتجاج، ثمَّ استسلمت وهرعت حول التل للقائنا. نظرتُ إلى الخلف لدى وصولنا إلى الأسفل عبر العشب المجزوز، ورأيتُ طيف ريك، مجدّداً كان مثل خيالٍ تحت السماء. لم يكن ينظر إلينا، بل إلى طيوره الحائمة في اللون الرمادي.

بعد عودتنا إلى المنزل، خلعت جوزي معطفها المبطّن، أعدَّتْ لها المدبّرة ميلانيا شراب اللبن، وجلسنا سويّاً عند الجزيرة فيما كانت تشربه بواسطة قشّة.

- «لا أصدّق أنّها المرّة الأولى لكِ في الخارج»، قالت لي. «إذاً، بمَ فكّرتِ؟».

- «أحببتُ ذلك كثيراً. الريح، الأصوات، كلُّ شيءٍ كان مثيراً للاهتمام جدّاً»، ثمَّ أضفتُ: «وكان من الرائع بالطبع مقابلة ريك».

كانت جوزي تقرص قشّتها قرب النقطة التي يخرج منها مشروبها.

- «أعتقد أنّه لم يترك انطباعاً رائعاً حقّاً. هو يصاب بالإحراج أحياناً. لكنّه شخصٌ مميّز. حين أمرض وأحاول أن أفكّر في أشياء جيّدة، أفكّر في كلِّ الأشياء التي سوف نفعلها معاً. سوف يأتي إلى ذلك الاجتماع بكلِّ تأكيد».

■

في ذلك المساء، وكما كانوا يفعلون في كثيرٍ من الأحيان أثناء العشاء، أطفأوا جميع الأضواء باستثناء تلك الساقطة على الجزيرة

مباشرة. كنتُ حاضرة كما تحبّني جوزي أن أكون، لكن رغبةً منّي في منح الخصوصية، فقد وقفتُ في الظلّ، وأدرتُ وجهي نحو الثلّاجة. استمعتُ لعدّة دقائق إلى الأمّ وجوزي تدليان بملاحظاتٍ وتعليقات خفيفة الظلّ أثناء تناولهما الطعام. ثمَّ وبنفس الأسلوب الخفيف، سألتْ جوزي الأم:

- «أمّي، إن كانت درجاتي جيّدةً جداً، فهل عليَّ حقّاً أن أستضيف هذا الاجتماع التفاعلي؟».

- «بالتأكيد حبيبتي. لا يكفي مجرّد كونكِ ذكية. يجب أن تنسجمي مع آخرين أيضاً».

- «أعرف كيف أنسجم مع آخرين يا أمّي. إنّما ليس مع هذه الزمرة فحسب».

- «هذه الزمرة عبارة عن مجموعةٍ من أقرانك. وحين تلتحقين بالجامعة، سوف يتعيّن عليكِ التعامل مع كل أنواع البشر. بحلول الوقت الذي دخلتُ فيه إلى الجامعة، كنتُ قد أمضيتُ سنوات جنباً إلى جنب مع أطفالٍ آخرين كل يوم. لكن بالنسبة لكِ ولجيلك، سيكون الأمر صعباً جدّاً ما لم تبذلي بعض الجهد الآن. إنَّ الأولاد الذين لا يبلون حسناً في الجامعة هم دائماً أولئك الذين لم يحضروا اجتماعاتٍ كافية».

- «ما تزال الجامعة بعيدةً جدّاً يا أمّي».

- «ليس بالقدر الذي تعتقدينه»، ثمَّ قالت الأمّ بلطفٍ أكبر: «هيّا يا عزيزتي. يمكنكِ أن تقدّمي كلارا إلى أصدقائك. سيكونون متحمّسين للقائها».

- «إنّهم ليسوا أصدقائي يا أمّي. وإذا كان عليَّ أن أستضيف هذا الاجتماع، فأنا أريد أن يكون ريك موجوداً فيه».

مرّتْ لحظة صمتٍ ورائي. ثمَّ قالت الأم: «لا بأس. يمكننا بالتأكيد القيام بذلك».

- «لكنَّكِ تعتقدين أنّها فكرةٌ سيّئة، صحيح؟».
- «لا، على الإطلاق. ريك شخصٌ طيّبٌ جدّاً. وهو جارنا».
- «إذاً، هو سوف يأتي، أليس كذلك؟».
- «فقط إن كان يريد القدوم. يجب أن يكون هذا خياره».
- «إذاً أنتِ تعتقدين أنَّ الأطفال الآخرين سيكونون وقحين معه؟».

كانت هناك لحظة انتظارٍ أخرى قبل أن تقول الأم: «لا أرى لمَ قد يكونون كذلك. إن تصرّف أحدٌ على نحوٍ غير ملائم، فذلك سيُظهر فقط كم هو متخلّف».

- «إذاً لا سبب يمنع ريك من المجيء».
- «السبب الوحيد، يا جوزي، هو أن لا يرغب هو في المجيء».

لاحقاً في غرفة النوم، حين كنّا لوحدنا، وكانت جوزي مستلقيةً في سريرها وجاهزة للنوم، قالت بهدوء:

- «آمل أن يأتي ريك إلى هذه الحفلة الرهيبة».

رغم أنَّ الوقت كان متأخّراً، لكنّني سُررتُ لكونها أثارت موضوع الاجتماع التفاعليّ، لأنّني كنتُ غير واثقة من جوانب كثيرة مرتبطة به.

- «نعم، آملُ ذلك أيضاً. هل سيُحْضِر الشبيبةُ الآخرون الص. ا. خاصّتهم؟».
- «أه. هذا لا يحدث عادةً. لكنَّ الص. ا. الذي يعيش في

المنزل عادةً ما يحضر الاجتماع. خاصّة إن كان جديداً مثلك. سوف يرغب الجميع في تفحّصكِ».

- «إذاً يا جوزي، هل ترغبين في أن أكون حاضرة؟».

- «بالتأكيد أريد أن تكوني حاضرة. مع ذلك، فالأمر قد لا يكون رائعاً بالنسبة لكِ. تلك الاجتماعات مقرفة، وهذه هي الحقيقة».

■

كانت جوزي قلقةً جدّاً صباح يوم الاجتماع التفاعلي. عادت بعد الإفطار إلى غرفة النوم كي تجرّب ثياباً مختلفة، وحتّى حين سمعنا ضيوفها يصلون، ونادت عليها المدبّرة ميلانيا للمرّة الثالثة، واصلتْ جوزي تمشيط شعرها. أخيراً، ومع تزايد الأصوات المسموعة من الطابق السفلي قلتُ لها: «ربّما حان الوقت لننضمَّ إلى ضيوف جوزي».

عندها فقط ألقت المشط على طاولة الزينة ووقفت على قدميها. «أنتِ محقّة. حان وقت تقبّل الواقع التعس».

رأيتُ وأنا أنزل درجات السلم الرواق ممتلئاً بغرباء يتحدّثون بأصوات مرحة. أولئك كنَّ المرافقات البالغات - جميعهنّ إناث. كانت الأصوات الأصغر سنّاً تأتي من الردهة المفتوحة، لكنَّ الأبواب المنزلقة كانت مجمَّعةً إلى بعضها، لذا لم يكن ضيوف جوزي مرئيين لنا بعد.

أمامي على السلالم، توقّفت جوزي قبل أربع درجات من نهايتها. ربّما كانت لاستدارت حتى وعادت إلى غرفتها لو لم تهتف إحدى السيّدات: «أهلاً جوزي، كيف حالك؟».

رفعتْ جوزي يدها، ومن ثمَّ شقّت الأمّ طريقها بين السيّدات في الرواق، أشارت إلى الردهة المفتوحة وقالت: «هيّا إلى الداخل، أصدقاؤكِ في انتظارك».

ظننتُ أنَّ الأمّ كانت على وشك أن تضيف شيئاً بغرض الدعم والتعزيز، لكنَّ سيّداتٍ بالغات أخريات اجتمعنَ حولها، يتحدَّثنَ ويبتسمن، فكانت مضطرّة أن تستدير مبتعدةً عنّا. بدا عندئذٍ أنَّ جوزي وجدت في نفسها شَجاعةً طازجة، ونزلت تلك الخطوات المتبقّية وصولاً إلى المجموعة. لحقتُ بها وأنا أتوقّع منها أن تتّجه إلى الردهة المفتوحة، لكنّها شقّت بدلاً من ذلك طريقها بين البالغات نحو الباب الأمامي الذي كان مفتوحاً ويجلب هواءً نقيّاً. تابعتْ جوزي التحرّك كما لو أنَّ لديها هدفٌ واضح، وكان المارُّ من هناك ليظنَّ أنّها منشغلة في مأمورية هامّة نيابةً عن ضيوفها. لم يُعق أحدٌ تقدّمها على أيّة حال، وفيما كنتُ ألحق بها، سمعتُ أصواتاً كثيرة حولي. كانت إحداهنَّ تقول: «ربّما يكون البروفيسور كوان رائعاً في تدريسه الفيزياء الرياضية لأطفالنا. لكنَّ هذا لا يعطيه الحقَّ في أن يكون فظّاً معنا»، وقال صوتٌ آخر: «أوروبا. ما زالت أفضل مدبّرات المنازل تأتين من أوروبا». ألقت أصواتٌ أخرى التحيّة على جوزي لدى مرورها، ثم وصلنا إلى الباب الأمامي وشعرنا بهواء الخارج.

نظرت جوزي خارجاً، كانت قدماها على العتبة، ثمَّ صاحت: «تعال! ماذا تفعل؟». تشبّثتْ بعدئذٍ بإطار الباب الخارجي ومالت إلى الأمام. «هيّا أسرع! الجميع هنا بالفعل!».

ظهر ريك في المدخل، فأخذت جوزي بذراعه وسحبته إلى الرواق.

كان يلبس مثل لباسه فوق تلّة العشب، بنطال جينز عادي وسترة، لكن بدا أنَّ السيّدات البالغات لاحظنه على الفور. لم تتوقّف أصواتهنَّ في الواقع، لكنّها انخفضت بشكلٍ واضح. ثمَّ جاءت الأم عبر الحشد.

- «مرحباً ريك! تفضّل بالدخول». وضعت يدها وراءه، وقادتْه نحو ضيفاتها. «عفواً جميعكنّ، هذا ريك. صديقنا وجارنا العزيز. البعض منكنّ تعرفنه بالفعل».

- «كيف حالكَ يا ريك؟»، قالت امرأةٌ قريبة. «رائعٌ أنّكَ تمكّنتَ من الحضور».

ثمَّ أخذت السيّدات يحيِّينَ ريك دفعةً واحدة، ويقلنَ أشياء لطيفة له، لكنّني لاحظتُ حذراً غريباً في نبرتهنّ. ثم علا صوت الأم بالسؤال:

- «إذاً يا ريك، هل والدتكَ على ما يرام؟ لقد مضى بعض الوقت منذ أن جاءت آخر مرة».

- «هي بخير، شكراً لكِ سيّدة آرثر».

ساد الهدوء في الغرفة حين تكلّم ريك. سألتْ امرأةٌ طويلةٌ ورائي: «هل سمعتُ أنّكَ تعيش في الجوار يا ريك؟».

جال ريك بنظره عبر الوجوه كي يحدّد من التي تحدّثه.

- «نعم، سيّدتي. منزلنا في الواقع هو المنزل الوحيد الذي يمكنكِ رؤيته إذا خطوتِ خارجاً»، ثمَّ ضحك ضحكةً صغيرة، وأضاف: «أعني بصرف النظر عن هذا المنزل».

ضحك الجميع بصوتٍ عالٍ على إضافته، فيما ابتسمتْ جوزي بالقرب منه بتوتّر، وكأنّها هي التي أدلت بتلك الملاحظة. ثمَّ قال صوتٌ آخر:

- «الكثير من الهواء النظيف هنا. أراهن أنّه مكانٌ جيّد للنمو».

- «إنّه على ما يرام، شكراً لكِ»، قال ريك. «يبقى كذلك إلى أن تحتاجي توصيلة بيتزا سريعة».

ضحك الجميع بصوتٍ أعلى حتّى، وانضمّت جوزي إليهم هذه المرّة، وبدت عليها البهجة والسعادة.

- «هيّا يا جوزي»، قالت الأم. «خذي ريك إلى الداخل. يجب أن تلعبي دور المضيفة لجميع ضيوفكِ الآخرين أيضاً. هيّا اذهبا إلى الداخل الآن».

تراجعت السيّدات كي تفسحنَ المجال، فيما جوزي التي كانت لا تزال ممسكةً بذراع ريك قادت هذا الأخير نحو الردهة المفتوحة. لم ينظر أيٌّ منهما إليّ، لذا لم أكن متأكّدة ما إذا كان ينبغي بي أن ألحق بهما. وبينما أنا أفكّر في هذا، كانا قد رحلا، وعادت السيّدات لملء الرواق مجدّداً، فيما بقيتُ واقفةً قريباً من الباب الأمامي. قال صوتٌ جديد قريب: «ولدٌ لطيف. هل قال إنّه يعيش في الجوار؟ لم أسمع جيّداً».

- «بلى، ريك جارٌ لنا»، قالت الأم. «لقد كان صديقاً لجوزي منذ الأزل».

- «هذا رائع».

ثمَّ قالت امرأةٌ ضخمة تشبه آلة خلط الطعام: «يبدو ذكيّاً جدّاً أيضاً. كم هو مؤسفٌ ألّا ينال صبيٌّ كهذا فرصته».

- «ما كنتُ لأعرف حتّى»، قال صوتٌ آخر. «إنّه يقدّم نفسه بشكلٍ جيّد للغاية. هل تلك لهجةٌ بريطانية التي يتحدّث بها؟».

- «المهم هو أن يتعلّم الجيل القادم كيف يكون مرتاحاً في التعامل مع كلِّ أنواع البشر. هذا ما يقوله بيتر دائماً»، قالت المرأة

الخلّاط. ثمَّ وبينما همهمت أصواتٌ أخرى بالموافقة، وجّهتِ المرأة سؤالاً للأم: «هل قرّر أهله... عدم المضيّ قدماً فحسب؟ هل فقدوا رباطة جأشهم؟».

تلاشتِ الابتسامة اللطيفة عن وجه الأمّ، وبدا أنَّ كلَّ من سمع ذلك توقّف عن الكلام. المرأة الخلّاط نفسها تجمّدت مذعورة، ثمَّ مدَّتْ يدها وأمسكت بالأمّ.

- «أوه، كريسي. ما الذي قلتُه؟ أنا لم أقصد...».

- «لا عليكِ»، قالت الأم. «أرجوكِ انسي الأمر».

- «أوه، كريسي، أنا آسفةٌ جدّاً. أنا غبيّةٌ جدّاً في بعض الأحيان. قصدتُ فقط أن...».

- «إنَّ هذا هو أسوأ مخاوفنا»، قال صوتٌ أكثر حزماً. «الأسوأ بالنسبة لكلٍّ واحدةٍ منّا».

- «لا بأس»، قالت الأمّ. «دعونا ننسى الأمر فحسب».

- «كريسي، قصدتُ فقط أنَّ صبيّاً لطيفاً كهذا...»، قالت المرأة الخلّاط.

- «لقد كان بعضنا محظوظاً، وبعضنا الآخر لم يكن كذلك»، قالت امرأةٌ سوداء البشرة وهي تتقدّم إلى الأمام وتلمس كتف الأم بلطف.

- «لكنَّ جوزي على ما يرام الآن، أليس كذلك؟»، سأل صوتٌ آخر. «إنّها تبدو أفضل حالاً بكثير».

- «لديها أيّامها الجيّدة وأيّامها السيّئة»، قالت الأم.

قالت المرأة الخلّاط: «سوف تكون على أفضل ما يرام، أنا أعرف ذلك. لقد كنتِ شجاعةً جدّاً، بعد كلِّ ما مررتِ به. ستكون جوزي ممتنّةً جدّاً لكِ ذات يوم».

- «بالله عليكِ يا بام». مدّت المرأة ذات البشرة السوداء يدها وبدأت تقود المرأة الخلّاط بعيداً. لكنَّ الأمّ قالت بهدوءٍ، وهي تنظر إلى المرأة الخلّاط: «هل تظنّين أنَّ سال سترغب في شكري؟».

هنا، انفجرت المرأة الخلّاط في البكاء. «اسمعي، أنا آسفة، أنا آسفة. أنا غبيّةٌ جدّاً، أنا فقط أفتح فمي...» شهقت منتحبة، ثمَّ أكملت بصوتٍ عال: «والآن جميعكم تعرفون ذلك، تعرفون أنّني بكلِّ تأكيد أكبر بلهاء في هذا العالم! كلُّ ما في الأمر أنَّ ذلك الصبي اللطيف، بدا ذلك غير منصفٍ بالمرّة... كريسي، أنا آسفةٌ جدّاً».

- «اسمعي، أرجوكِ حقّاً أن تنسي الأمر». كانت الأمّ الآن تبذل جهداً أكبر، تقدّمت نحو المرأة الخلّاط وأعطتها عناقاً خفيفاً. استجابت المرأة الخلّاط للعناق في الحال، وواصلت البكاء وهي تسند ذقنها على كتف الأم.

سادت لحظةٌ من الهدوء المحرج، ثمَّ قالت المرأة ذات البشرة السوداء بنبرةٍ مرحة: «حسنٌ، يبدو أنّهم يتدبّرون أمرهم جيّداً هناك. لا أصوات تدلُّ على شجارٍ كبيرٍ وشامل بعد».

ضحك الجميع بصوتٍ عال، ومن ثمَّ قالت الأمّ بصوتٍ جديد:

- «هيه، ما الذي ما زلنا نفعله هنا؟ دعونا نذهب جميعاً إلى المطبخ من فضلكم. لقد أعدّت ميلانيا المزيد من تلك المعجنات الرائعة من وطنها الأم».

قال صوتٌ يتظاهر بالهمس: «أعتقد أنّنا ما نزال هنا... حتى يتسنّى لنا التنصّت!».

أثار هذا ضحكةً كبيرةً أخرى، وكانت الأم تبتسم مجدّداً.

- «إن كانوا بحاجةٍ إلينا، فسوف نسمع ذلك. تفضّلوا رجاءً»، قالت الأم.

حين بدأت السيّدات في الانتقال إلى المطبخ، أصبح بإمكاني أن أسمع بشكل أكثر وضوحاً الأصوات من الردهة المفتوحة، لكنّي لم أستطع فهم أيّة كلمات. قالت سيّدةٌ لدى مرورها بقربي: «لقد كانت جيني منزعجة ومحبطةً تماماً بعد الاجتماع الأخير. أمضينا عطلة نهاية الأسبوع كلها ونحن نشرح لها كيف أساءت تفسير كلّ شيء».

- «كلارا، أنتِ ما تزالين هنا».

كانت الأم واقفةً أمامي.

- «نعم».

- «لمَ لستِ هناك مع جوزي؟».

- «لكنّها... لم تأخذني».

- «هيّا اذهبي. هي تحتاجكِ معها. كما أنَّ الأطفال الآخرين يريدون مقابلتكِ».

- «نعم، بالطّبع. اعذريني إذاً».

كان الشمس إذ لاحظَ وجود الكثير من الأطفال في مكانٍ واحد، يسكب غذاءه عبر النوافذ الواسعة للردهة المفتوحة. كانت شبكتها المعقّدة من الأرائك، ومستطيلات الجلوس الملساء، والطاولات الواطئة، وأحواض النباتات، وكتب الصور الفوتوغرافية، كانت قد استغرقت منّي وقتاً طويلاً لاستيعابها وإتقانها، ومع ذلك فقد انقلب كلُّ شيءٍ الآن رأساً على عقب لدرجة أنّها يمكن أن تكون غرفةً جديدة بالكامل. كان هناك أولادٌ في كلِّ مكان، وحقائبهم ومعاطفهم وألواحهم المستطيلة تنتشر فوق الأرض والسطوح. علاوةً على ذلك، أصبحت مساحة الغرفة مقسَّمةً إلى

أربعةٍ وعشرين مربّعاً مرتَّبةً في مستويين وصولاً إلى الجدار الخلفي. وبسبب هذا التقسيم، كان صعباً عليَّ أن أشكّل نظرةً شاملة لما هو أمامي، لكنّني بدأتُ تدريجياً أستوعب الأشياء. كانت جوزي تقف قرب وسط الغرفة، وتتحدّث مع ثلاث فتيات. كانت رؤوسهنَّ متلامسةً تقريباً، وبسبب الكيفية التي وقفنَ بها، فقد تموضعت الأجزاء العلوية من وجوههن بما في ذلك أعينهنّ في مربّعٍ من المستوى الأعلى، فيما انحشرت أفواههنّ وذقونهنّ في مربّعٍ سفلي. غالبية الأطفال كانوا واقفين على أقدامهم والبعض منهم ينتقلون بين المربّعات. جلس ثلاثة صبية على إحدى الأرائك المعيارية عند الحائط الخلفي، ورغم أنّهم كانوا يجلسون متباعدين، فقد تموضعت رؤوسهم معاً داخل مربّعٍ واحد، فيما تطاولت القدم الممدودة للصبيِّ الأقرب إلى النافذة ليس داخل المربّع المجاور فحسب، بل وصلت إلى المربّع الواقع بعده مباشرة. طغت على المربّعات الثلاثة درجةٌ كريهة من اللون الأصفر الشاحب، وهو ما جعل التوتّر يغزو عقلي. ثمَّ تحرّك أشخاصٌ آخرون عبر مجال رؤيتي للصبية الثلاثة، فبدأتُ أهتمُّ بالأصوات من حولي بدلاً من الاهتمام بهم.

رغم أنَّ أحدهم قال أثناء دخولي: «أوه، هذه هي الص. ا. الجديدة، إنّها لطيفة!»، إلّا أنَّ معظم الأصوات التي سمعتُها الآن كانت تتناول ريك. لا بدَّ أنَّ جوزي وقفت بجانبه منذ برهة فقط، لكنَّ حديثها مع الفتيات الضيفات جعلها تدير ظهرها له، وهو الآن يقف وحده، لا يتحدّث إلى أحد.

- «إنّه صديقٌ لجوزي. يعيش في الجوار»، قالت فتاةٌ ورائي.

- «يجب أن نكون لطيفين معه»، قالت فتاةٌ أخرى. «لا بدَّ أنَّ الأمر غريبٌ بالنسبة له، أن يكون موجوداً هنا معنا».

- «لمَ طلبتْ جوزي منه المجيء؟ لا بدَّ أنّه يشعر بغرابةٍ شديدة».

- «ماذا لو عرضنا عليه شيئاً. قد نجعله يشعر بأنه مرحّب به».

التقطتْ الفتاة - التي كانت نحيفة ولها ذراعان طويلتان على نحوٍ غير عادي - طبقاً مليئاً بالشوكولا وذهبت باتّجاه ريك. أنا أيضاً تقدّمتُ أكثر داخل الغرفة، وسمعتُها تقول له:

- «عذراً، هل ترغب في قطعة شوكولا؟».

كان ريك يراقب جوزي وهي تتحدّث إلى الضيفات الثلاث، لكنّه استدار الآن إلى الفتاة طويلة الذراعين.

- «تفضّل»، قالت وهي ترفع الطبق إلى أعلى. «إنّها طيّبة».

- «شكراً جزيلاً». نظر في الطبق واختار قطعة شوكولا مغلّفة بورقةٍ خضراء برّاقة.

رغم أنَّ الأصوات لم تتوقّف في جميع أنحاء الغرفة، إلّا أنّني أدركتُ فجأةً أنَّ الجميع - بما في ذلك جوزي وضيفاتها - كانوا الآن يراقبون ريك.

- «نحن سعداء جدّاً بحضورك»، قالت الفتاة طويلة الذراعين. «أنتَ جارُ جوزي، أليس كذلك؟».

- «هذا صحيح. أنا أعيش في المنزل المجاور».

- «المنزل المجاور؟ هذا مضحك! الأمر فقط أنَّ منزلكَ وهذا المنزل هما كلُّ شيءٍ هنا لمسافة أميال!».

انضمّت الفتيات الثلاث اللائي كانت جوزي تتحدّث إليهنّ إلى الفتاة طويلة الذراعين، والتي كانت تبتسم لريك طوال الوقت. بقيتْ جوزي حيث كانت، وعيناها تراقبان بقلق.

- «أظنُّ ذلك». ضحك ريك سريعاً. «لكنَّ هذا يجعلني مع ذلك في المنزل المجاور».

- «بالتأكيد! أراهن أنّكَ تحبّ التواجد هنا. لا بدَّ أنّ المكان مسالمٌ وهادئٌ جدّاً».

- «مسالمٌ، صحيح. كلُّ شيءٍ هنا مثاليٌّ تماماً إلى أن ترغبي في الذهاب إلى السينما».

عرفتُ أنَّ ريك كان يأمل أن يضحك كلُّ المستمعين إليه كما فعلت السيّدات البالغات لدى حديثه عن توصيل البيتزا. لكنَّ الفتيات الأربع واصلنَ النظر إليه بلطف.

- «أنتَ لا تشاهد الأفلام على جهاز الـ DS خاصّتكَ إذاً؟»، سألتْ إحداهنَّ في النهاية.

- «أحياناً أفعل ذلك، لكنّني أحبُّ الذهاب إلى سينما حقيقية. شاشةٌ كبيرة، ومثلّجات. أنا وأمّي نحبُّ ذلك. المشكلة أنَّ علينا قطع مسافةٍ طويلة».

- «لدينا صالة سينما في منطقتنا»، قالت الفتاة طويلة الذراعين. «لكنّنا نادراً ما نذهب».

- «هيه! هو يحبُّ الأفلام!».

- «ميسي، رجاءً؟ آسفة، أرجو أن تعذر شقيقتي. إذاً أنتَ تجد متعةً في الأفلام. إنّها تساعدكَ على الاسترخاء، أليس كذلك؟».

- «أراهن أنّكَ تحبُّ أفلام الأكشن»، قالت الفتاة التي تدعى ميسي.

نظر إليها ريك، ثم ابتسم وقال: «قد تكون هذه الأفلام مسلّية. لكن أنا وأمّي نحبُّ الأفلام القديمة. كان كلُّ شيءٍ مختلفاً جدّاً

آنذاك. إذا شاهدتِ تلك الأفلام، يمكنكِ رؤية كيف كانت المطاعم ذات يوم. الملابس التي كان الناس يرتدونها».

- «لكن لا بدَّ أنّك تحبُّ أفلام الأكشن، أليس كذلك؟ مطاردات السيّارات وأشياء من هذا القبيل»، قالت الفتاة طويلة الذراعين.

- «هيه»، قالت فتاةٌ أخرى خلفي. «يقول إنّه يذهب إلى السينما مع أمّه. هذا لطيفٌ نوعاً ما».

- «ألا تحبُّ والدتكَ أن تذهب مع أصدقائك؟».

- «ليس الأمر كذلك بالضبط. إنّه فقط... إنّه شيءٌ نحبُّ أن نفعله أنا وأمّي».

- «هل ذهبتَ وشاهدتَ فيلم Gold Standard؟».

- «يستحيل أن تحبَّ أمّه شيئاً كهذا!».

تقدّمت جوزي الآن، ووقفتْ أمام ريك.

- «هيّا يا ريك». كان هناك غضبٌ في نبرتها. «أخبرهنّ ماذا تحبّ أن تشاهد. هذا كلّ ما يسألن عنه. ماذا تحبُّ أن تشاهد؟».

كثيرٌ من الضيوف الآخرين كانوا قد تجمّعوا الآن حول ريك، وقد حجبوا الرؤية عنّي جزئياً. لكنّي استطعتُ أن أرى في هذه اللحظة أنَّ شيئاً ما تغيّر به.

- «أتعرفون؟»، لم يوجّه حديثه إلى جوزي، بل إلى الجميع، «أحبُّ الأفلام التي تحدث فيها أشياء فظيعة. حشراتٌ تخرج من أفواه البشر، أشياء من هذا القبيل».

- «حقّاً؟».

- «هل لي أن أسأل فقط ما سبب كل هذا الفضول حول نوع الأفلام التي أحبّ؟»، قال ريك.

- «إنّها تسمّى محادثة»، قالت الفتاة طويلة الذراعين.

- «لمَ لا يأكل قطعة الشوكولا خاصّته؟ هو يمسك بها فحسب»، قالت ميسي.

التفتَ ريك إليها. «هاك. لربّما تهتمّين أنتِ بأمرها».

ضحكتْ ميسي لكنّها تراجعت مبتعدة.

- «اسمع»، قالت الفتاة طويلة الذراعين. «إنَّ هذا أشبه بلقاءٍ ودّي، اتّفقنا؟».

نظر ريك سريعاً إلى جوزي، التي كانت تحدّق به بعينين يملؤهما الغضب. بعد ثانيةً واحدة، التفت مجدداً إلى الفتيات الضيفات.

- «ودّيّ. بالطبع، أتساءل ما إذا كان سيسعدكم سماع أنّي أحبُّ أفلام الحشرات».

- «أفلام الحشرات؟» قال شخصٌ آخر. «هل هذه فئةٌ أو ما شابه؟».

- «لا تستهزئ به»، قالت الفتاة طويلة الذراعين. «كن لطيفاً. إنّه يبلي حسناً».

قال صوتٌ ما: «نعم، إنّه يبلي حسناً»، فضحك كثيرون. وإذِ استدار ريك نحوهم بسرعة، تقدّمت جوزي إلى الأمام وأخذت قطعة الشوكولا منه.

- «هيه، اسمعوا»، هتفت جوزي، «أريدكم جميعاً أن تقابلوا كلارا. ها هي كلارا!».

كانت تشير إليَّ أن أقترب، وبينما كنتُ أفعل ذلك، تحوّلتْ كلُّ العيون إليّ. نظر ريك إليّ أيضاً، لكن لثانيةٍ واحدة فقط، ثمّ سار مبتعداً نحو ركنٍ صغير قرب مكتب الزاوية. بدا أنه لم يعد أحد يوليه

اهتماماً، لأنَّ الجميع باتوا ينظرون إليّ. حتّى الفتاة طويلة الذراعين فقدت الاهتمام بريك، وهي تحدّق في وجهي الآن.

- «الآن هذه ص. ا. يبدو عليها الذكاء»، قالت الفتاة. ثمّ مالت نحو جوزي وكأنها تفشي لها بسرٍّ، واعتقدتُ أنّها على وشكِ أن تقول شيئاً آخر عنّي، لكنَّها قالت:

- «انظري إلى داني هناك! لقد أعلن بمجرّد دخوله إلى هنا كيف تمَّ اعتقاله من قِبل الشرطة. دون أن يلقي التحيّة أو شيء من هذا القبيل. حين قلنا له أنَّ عليه أن يلقي التحيّة بشكلٍ لائقٍ أوّلاً، لم يستوعب ذلك، بل واصل التباهي بشأن موضوعه مع الشرطة».

- «أوه». نظرت جوزي إلى الصِبية على الأريكة المعيارية. «أهو يظنُّ إذاً أنّه من الذكاء أن يكون مجرماً؟».

ضحكت الفتاة طويلة الذراعين، وأصبحت جوزي جزءاً من الشكل الذي شكّلتْه الفتيات الخمس معاً.

- «ثمَّ أفشى شقيقه السرّ. الكثير من البيرة، كان هذا كلُّ ما في الأمر».

- «ششش. هو يعرف أنّنا نتحدّث عنه»، قال أحدهم.

- «هذا أفضل حتّى. لقد وجده رجال الشرطة مغمىً عليه فوق مقعد فأخذوه إلى المنزل. فيما هو يروي لنا الأمر وكأنّه قد أُلقي القبض عليه أو شيءٍ كهذا».

- «لا تحيّة أو أيّ شيء».

- «هيه، أنا لم أسمعكِ تلقين التحيّة على جوزي الآن، يا ميسي. لذا أنتِ سيّئة بقدر داني».

- «بل فعلت، قلتُ مرحباً لجوزي».

- «جوزي، هل سمعتِ شقيقتي تحيّيكِ حين دخلتِ؟».
بدا الغضب واضحاً على ميسي. «لقد قلتُ مرحباً بالفعل. الأمر فقط أنَّ جوزي لم تسمعني».

- «هيه، جوزي!». كان الصبيّ المدعو داني - ذاك الجالس على الأريكة المعيارية ورجله ممدودةٌ فوق الوسائد - ينادي من آخر الغرفة. «هيه، جوزي، تلك هي الص. ا. الجديدة خاصّتكِ؟ قولي لها أن تأتي إلى هنا».

- «اذهبي، يا كلارا»، قالت جوزي. «اذهبي وقولي مرحباً لأولئك الفتيان».

لم أتحرّك في الحال، جزءٌ من السبب كان أنّني فوجئتُ بصوت جوزي. كان مثل الصوت الذي تستخدمه في بعض الأحيان حين تتحدّث مع المدبّرة ميلانيا، لكنّه ليس مثل أيِّ صوت سبق أن استخدمتْه معي.

- «ما مشكلتُها؟»، قال داني وهو ينهض عن الأريكة المعيارية. «ألا تطيع الأوامر؟».

كانت جوزي ترمقني بنظرةٍ صارمة، لذا بدأتُ أشقُّ طريقي باتّجاه الفتيان على الأريكة. لكنَّ داني الذي كان أطول من أيِّ أحدٍ في الغرفة، جاء مسرعاً بين الضيوف الآخرين قبل أن أقطع نصف الطريق إلى الأريكة، أمسك بي من كِلا مرفقيّ، فأصبحتُ عاجزةً عن التحرّك بحرّية. نظر إليَّ من أعلى إلى أسفل، ثمَّ قال:

- «إذاً، هل تستقرّين هنا جيّداً؟».

- «نعم، شكراً لك».

صاح أحد الفتيان على الأريكة في الخلف: «هيه! إنّها تتكلّم! ابتهج!».

- «اخرس يا سكرب(*)»، صاح داني ردّاً عليه. ثمَّ سألني: «ذكّريني ماذا ينادونكِ؟».

- «اسمها كلارا»، قالت جوزي من ورائي. «داني، أفلتْها. هي لا تحب أن تُثبَّت على هذا النحو».

- «هيه، داني»، صاح سكرب مجدّداً. «ارمِها إلى هنا».

- «تريد أن تراها؟ قُم عن تلك الأريكة إذاً، وتعال إلى هنا»، قال داني.

- «ارمها فحسب، دعنا نختبر تناسقها».

- «إنّها ليست الص. ا. خاصتك يا سكرب»، قال داني وما زالت يداه تقبضان على مرفقيَّ بإحكام. «عليكَ أن تسأل جوزي بخصوص أمرٍ كهذا».

- «هيه، جوزي»، نادى سكرب. «لا بأس في ذلك، أليس كذلك؟ يمكنكِ أن تؤرجحي الـ B3 خاصّتي وترميها في الهواء، وسوف تهبط على قدميها في كلِّ مرّة. هيّا، يا داني. ارمها على الأريكة، سوف لن تتأذّى».

- «كم هذا فظّ!»، قالت الفتاة طويلة الذراعين بهدوء، فضحكت عدّة فتيات، بمن فيهنّ جوزي.

تابع سكرب: «الـ B3 خاصّتي تتشقلب وتهبط على قدميها بصورةٍ سليمة، منتصبةً على نحوٍ مثاليّ. لذا دعونا نرى ما الذي يمكن لهذه فعله».

- «أنتِ لستِ B3، أليس كذلك؟».

(*) Scrub بالإنجليزية وأحد معانيها «حقير» - المترجم.

لم أجب، لكنَّ جوزي قالت من ورائي: «لا، لكنّها الأفضل».

- «حقّاً؟ هل يمكنها إذاً فعل ما يقوله سكرب؟».

- «لديَّ B3 الآن، سوف ترونه في الاجتماع القادم»، قال صوت فتاة.

ثمَّ سأل صوتٌ آخر: «لماذا لم تحصلي على B3 يا جوزي؟».

- «لأنّني... أحببتُ هذه»، قالت جوزي بلا ثقة، لكن عادت القوّة إلى صوتها بعدئذٍ. «ما من شيءٍ قد يفعله أيُّ B3 وتعجز كلارا عن فعله».

كانت هناك حركةٌ خلفي، ومن ثمَّ أصبحت الفتاة طويلة الذراعين تقف بجانب داني. بدا أنّه يشعر بالخوف والإثارة معاً لكونه بقربها، وقام بإفلات مرفقيّ. لكن الآن أمسكتْ الفتاة طويلة الذراعين بمعصمي الأيسر، وإن لم يكن بنفس القوة التي كان داني يمسكني بها.

- «مرحباً كلارا»، قالت وهي تتفحّصني بعناية مرّةً أخرى. «الآن، دعونا نرى. كلارا، هل يمكنكِ رجاءً أن تغني لي الهارمونيك على مقياس المينور؟».

لم أكن متأكّدةً كيف تريد منّي جوزي أن أستجيب، لذا انتظرتُ منها أن تتكلّم. لكنّها بقيت صامتة.

- «أوه؟ أنتِ لا تغنّين؟».

- «هيّا، هيّا»، نادى الصبيّ المسمَّى سكرب. «ارمِها. إن كانت لا تستطيع موازنة نفسها، فسوف ألتقطها وحسب».

- «إنها لا تتحدّث كثيراً». اقتربتِ الفتاة طويلة الذراعين وحدّقتْ في عينيّ. «ربّما تعاني نقصاً في الطاقة الشمسية».

- «هي لا تشكو من أيِّ خطب»، قالت جوزي هذا بهدوءٍ شديد لدرجة أنّه يمكن أن أكون الوحيدة التي سمعتْه.

- «كلارا»، قالت الفتاة طويلة الذراعين. «أعطني تحيّة».

بقيتُ صامتةً، أنتظر أن تتكلّم جوزي مجدّداً.

- «لا؟ لا شيء؟».

- «هيه، جوزي»، قال صوتٌ ورائي. «كان يمكنكِ الحصول على B3، أليس كذلك؟ فلمَ لم تفعلي؟».

ضحكتْ جوزي وقالت: «بدأتُ أفكّر الآن أنّه كان يجدر بي ذلك».

أثارت هذه العبارة ضحكات أخرى، ثمَّ قال صوتٌ جديد: «الـ B3 رائعون جدّاً».

- «باللّه عليكِ، يا كلارا»، قالت الفتاة طويلة الذراعين. «تحيّة صغيرة على أقلِّ تقدير».

كنتُ الآن قد ثبتُّ تعبيراً دمثاً على وجهي فيما أنا أحدّقُ بنظرةٍ تتجاوزها، تماماً كما درّبتنا المديرة أن نفعل في مواقف كهذه.

- «ما هذا الص. ا. الذي يرفض إلقاء التحيّة! جوزي، هلّا طلبتِ أنتِ من كلارا أن تقول شيئاً ما لنا؟».

- «ارمِها إلى هنا. سيعيدها هذا إلى الحياة».

- «تتمتّع كلارا بذاكرةٍ عظيمة»، قالت جوزي خلفي. «بجودة ذاكرة أيِّ ص. ا. أينما كان».

- «أوه، حقّاً؟»، قالت الفتاة طويلة الذراعين.

- «وليس الأمر محصوراً بذاكرتها فقط. هي تلاحظ أشياء لا يلاحظها أحدٌ آخر، وتحفظها لحين الحاجة إليها».

- «حسنٌ»، قالت الفتاة طويلة الذراعين وهي لا تزال تمسك

بمعصمي. «حسنٌ، يا كلارا. إليكِ ما سنفعله دون أن تستديري لتلقي نظرة. أخبريني ماذا تلبس شقيقتي؟».

واصلتُ النظر إلى الطوب في الجدار خلف الفتاة طويلة الذراعين.

- «تبدو كما لو أنّها تجمّدت. لكنّها لطيفة، أقرُّ لكِ بذلك».

- «اسأليها ثانيةً»، قالت جوزي. «هيّا مارشا. اسأليها ثانيةً».

- «حسنٌ. والآن يا كلارا، أعرف أنّه يمكنكِ فعل ذلك. أخبريني ماذا ترتدي ميسي».

- «أنا آسفة»، قلتُ وأنا لا أزال أنظر وراءها.

- «أنت آسفة؟». ثم قالت الفتاة طويلة الذراعين للحشد: «ما معنى هذا؟» وضحك الجميع. ثمَّ حدّقتْ بي بحنق وسألتْ: «ماذا تقصدين يا كلارا. ماذا تقصدين بأنّكِ آسفة؟».

- «أنا آسفةٌ، أنا عاجزةٌ عن المساعدة».

- «سوف لن تقدّم المساعدة». أصبحت نظرة الفتاة طويلة الذراعين أكثر رقّة، ثم أفلتتْ معصمي أخيراً. «حسنٌ، يا كلارا. يمكنكِ أن تستديري وتنظري. ألقِ نظرةً وأخبريني ماذا تلبس ميسي».

رغم أنَّ هذا قد يبدو غير لائق، إلّا أنّني لم أستدر. لأنّني لو فعلتُ ذلك، فما كنتُ لأرى ميسي فقط - كنتُ أعرف بالطبع ماذا كانت تلبس وصولاً إلى سوار معصمها الأرجواني وقلادة الدب بالغ الصغر - لكن كنتُ سأرى جوزي أيضاً، وعندها سنضطرّ إلى تبادل النظرات فيما بيننا.

- «أنا أستسلم»، قالت الفتاة طويلة الذراعين.

- «حسنٌ إذاً»، قال داني. «سوف نجري اختبار سكرب، فقط

من أجل إرضائه. فيل، تعال وساعدني في أرجحتها. سكرب، ابق حيث أنت، واستعدَّ للالتقاط. أنتِ لا تمانعين هذا يا جوزي؟».

ظلّتْ جوزي خلفي صامتة، لكنَّ صوت فتاةٍ قال: «رمي ص. ا. عبر الغرفة! هذا عملٌ شرّير».

- «ما الشرُّ في ذلك؟ إنّهم مصمّمون للتعامل مع هذا».

- «ليست هذه هي المسألة»، قال صوت الفتاة. «إنّه تصرّفٌ بغيضٌ فحسب».

- «أنتِ تتصرّفين برقّةٍ زائدة»، قال داني. «فيل، خذ ذراعيها. سأتولّى أنا أمر القدمين».

- «ما ذاك الذي في جيبك؟». كان المتكلّم هو ريك، وعمَّ الصمتُ في الغرفة.

- «ماذا قلتَ يا رفيق؟».

تحرّك ريك عبر الضيوف، وتوقّف للحظةٍ إلى اليمين منّي. لم يُظهر أي خوف وهو يشير إلى جيب صدر قميص داني. كان قد سبق لي أن لاحظتُ ذلك الشيء - دمية كلبٍ طرية، وصغيرة بما يكفي لتتّسع في الجيب. رأيتُ أطفالاً في السابعة والثامنة من عمرهم يحملون مثلها حين كانوا يدخلون إلى المتجر.

إذ غيَّر الجميع مواقعهم كي يروا ما الذي كان يشير ريك إليه، رفع داني يده ليغطّي جيبه.

- «أقول إنّها دمية حيوانٍ أليف»، قال ريك.

- «إنّها ليست دمية حيوانٍ أليف»، قال داني.

- «أقول إنّها دمية حيوانك الأليف. إنّها تساعدك على تهدئة أعصابك في تجمّعات كهذه».

- «ما هذا الهراء؟ مَن سألكَ عن أيِّ شيء؟».

- «إن لم تكن ذاك الشيء الخاص حقّاً، فربّما لا تمانع أن تريها لي» مدَّ ريك يده. «لا تقلق. سأعتني بها جيّداً».

- «سواءً كانت شيئاً خاصّاً أم لا، فذلك لا يعنيكَ في شيء».

- «دعني أستعيرها لدقيقة فقط أرجوك».

- «إنّها لا شيء بالنسبة لي، لكنّني لن أسلّمها لك».

- «لن تفعل؟ ليس حتّى لألقي نظرةً صغيرة؟».

- «أنا لن أعيرك أيّ شيء. لمَ قد أفعل ذلك؟ أنتَ لا ينبغي بك أن تكون موجوداً هنا حتّى».

كانت يد ريك لا تزال ممدودة، وظلَّ الصمتُ مخيِّماً على الغرفة.

- «ألا يمكن أن يكون الأمر أنّكَ أنتَ بنفسك رقيقٌ بعض الشيء، يا داني؟ على الأقل حين يتعلّق الأمر بأشياء صغيرة لطيفة توضع في الجيب»، قال ريك.

- «هذا يكفي! دع داني وشأنه!».

كان هذا صوت شخصٍ بالغ، وانكمش الشباب الصغار من حولي متراجعين بينما كانت المرأة تذرع الغرفة بخطواتٍ واسعة. «وداني على حقّ! أنت لا ينبغي بك أن تكون هنا على الإطلاق!»، قالت لريك.

ثم جاءت الأمّ مسرعةً في إثرها، ورأيتُ سيّداتٍ أخريات ينظرن من المدخل إلى داخل الردهة المفتوحة.

- «تعالي يا سارة»، كانت الأمّ تقول. «نحن لا نتدخّل، هل تذكرين؟».

وضعتْ الأمّ ذراعها حول المرأة سارة التي واصلت التحديق في ريك بسخط.

- «هيّا، يا سارة. التزمي بالقواعد. من أجل الأولاد، من أجل أن ينضجوا ويتعلّموا حلّ مشاكلهم».

ظلَّ الغضب بادياً على سارة، لكنّها سمحتْ أن يتمَّ اقتيادها خارج الغرفة إلى قلب الهمهمة الناجمة عن أصوات السيدات في الرواق. قال أحد الأصوات: «إنّها الطريقة الوحيدة التي سيتعلّمون بها». انحسرت بعدئذٍ أصوات الكبار، وساد الصمت في الردهة المفتوحة.

لربّما كان داني محرجاً بسبب تدخّل الشخص البالغ المسؤول عنه أكثر من كونه محرجاً بشأن الدمية الصغيرة. ظلَّ يغطي جيب صدره بكلتا يديه بينما كان يرجع إلى مكانه على الأريكة المعيارية مديراً ظهره للغرفة؛ ظهره الذي أصبح محنياً بعض الشيء الآن.

قالت الفتاة طويلة الذراعين ببهجة: «حسنٌ. ماذا لو نخرج لبعض الوقت؟ لقد أصبح الجوّ لطيفاً. انظروا!».

هتفتْ جوقةٌ من الأصوات بالموافَقة، وسمعتُ صوت جوزي بينها يقول: «فكرةٌ عظيمة، دعونا نفعل ذلك!».

انطلق الأطفال بقيادة جوزي والفتاة طويلة الذراعين. خرج داني وسكرب معهم أيضاً، ولم يبقَ عندئذٍ سوى ريك وأنا في الردهة المفتوحة.

نظر ريك حوله إلى المعاطف المتروكة، ووسائد المقاعد الفوضوية، والأطباق، وعلب المشروبات الغازية، وأكياس البطاطس، والمجلّات، لكنّه لم ينظر إليّ. تساءلتُ إن كان سيأتي أحد البالغين الآن من أجل التنظيف والترتيب على اعتبار أنَّ الأطفال

كانوا قد غادروا، لكنَّ أحداً لم يأتِ، وتواصلتْ جوقة الأصوات الضبابية من المطبخ.

- «لقد تحدّيتَ ذلك الصبي كُرمى لي على ما أظن. شكراً لك»، قلتُ له أخيراً.

هزَّ ريك كتفيه. «لقد كان مزعجاً بحقّ. في الواقع، كانوا جميعاً كذلك»، ثمَّ أضاف وهو ما زال لا ينظر إليّ: «أفترضُ أنَّ الأمر لم يكن ممتعاً بالنسبة لكِ أيضاً».

- «أصبح الوضع غير مريحٍ بالنسبة إليّ، وكنتُ ممتنّةً لريك لإنقاذي. لكنّه كان أيضاً وضعاً مثيراً للاهتمام جدّاً».

- «مثيرٌ للاهتمام؟».

- «من المهمّ جدّاً بالنسبة إليّ أن أراقب جوزي في مختلف المواقف والظروف. فعلى سبيل المثال، كان من المثير للاهتمام ملاحظة الأشكال المختلفة التي اتّخذها الأطفال لدى انتقالهم من مجموعةٍ إلى أخرى». حين لم يردَّ بشيء، واستمرَّ في النظر في الاتّجاه الآخر، قلتُ له: «ربّما يرغب ريك الآن في أن يخرج وينضمَّ إليهم، وأن يتصالح معهم».

هزَّ رأسه. ثمَّ تحرّك عبر نسق الشمس - لاحظتُ أنَّ الردهة المفتوحة لم تعد مقسّمةً مكانياً - وجلس على الأريكة المعيارية، ومدَّ ساقيه فوق ألواح الأرضية.

- «أعتقد أنَّ لديهم وجهة نظرٍ رغم كلَّ شيء، أنا لا أنتمي إلى هنا. هذا اجتماعٌ للأطفال المعدَّلين(*)».

(*) المصطلح المستخدم في النص الإنجليزي الأصلي هو Lifted وهو يشير إلى نوع من الترقية أو التعديل الجينيّ - المترجم.

- «لقد جاء ريك لأنَّ جوزي أرادت ذلك بشدّة».

- «لقد أصرّت على قدومي. لكن أظنُّ أنّها مشغولةٌ جدّاً الآن كي تعود إلى هنا وترى كم أستمتع بهذا الجزء من الحفلة».

مال إلى الخلف مستنداً على الأريكة حتّى غطّى نسق الشمس وجهه ممَّا أجبره على إغلاق عينيه. «المشكلةُ أنّها لا تبقى هي نفسها. اعتقدتُ أنّني إن جئتُ اليوم - يا لغبائي - اعتقدتُ أنّها قد لا... تتغيّر. أنّها قد تبقى جوزي التي أعرفها».

حين قال هذا، رأيتُ مجدّداً يديّ جوزي في لحظاتٍ مختلفة من الاجتماع التفاعلي - يدان مرحِّبتان، يدان ممدودتان لإلقاء التحيّة، يدان متوتّرتان - رأيتُ وجهها، وسمعتُ صوتها عندما سألها أحدهم لماذا لم تختر الـ B3، فضحكتْ وقالت: «بدأتُ أفكّر الآن أنّه كان يجدر بي ذلك». وخطرت ببالي كلمات المديرة، وتحذيرها لي من الأطفال الذين يقدّمون وعوداً عند النافذة، لكنّهم لا يعودون أبداً، أو الأسوأ من ذلك، يعودون ويختارون ص. ا. آخر تماماً. فكّرتُ في الصبيّ ص. ا. الذي كنتُ قد رأيتُه عبر الفجوة بين سيّارتي الأجرة البطيئتين، وكيف كان يسير بيأس في جهة مبنى RPO خلف مالكه المراهق بثلاث خطوات، وتساءلتُ ما إذا كنّا أنا وجوزي يمكن أن نمشي يوماً على هذا النحو.

- «ربّما تستطيعين أن تري الآن كم أحتاج أن أنقذ جوزي من هذا المصير»، قال ريك وهو يفتح عينيه رغم نسق الشمس.

- «أرى أنَّ ريك يخشى أن تصبح جوزي مثل الآخرين. لكن ورغم أنّها تصرّفتْ على نحوٍ غريب للتوّ، إلّا أنّني أعتقد أنَّ جوزي لطيفةٌ في العمق. وأولئك الأطفال الآخرون، إنَّ أساليبهم فظّةٌ

وعنيفة، لكنّهم ربّما لا يكونون قساةً جدّاً. هم يخافون الشعور بالوحدة، ولذلك يتصرّفون بالطريقة التي يتصرّفون بها. ربّما تكون جوزي أيضاً كذلك».

- «إذا تسكّعتْ جوزي معهم أكثر، فقريباً سوف لن تكون هي جوزي على الإطلاق. وفي مكانٍ ما بداخلها هي تعرف ذلك جيّداً، لهذا السبب هي تستمرُّ في إثارة مسألة خطّتنا. كانت قد نسيتْ أمرها لوقتٍ طويلٍ جدّاً، لكنّها لا تنفكُّ الآن تتحدّث عنها طوال الوقت».

- «لقد سمعتُ جوزي في ذلك اليوم تذكر أمر هذه الخطة. هل هي خطّةٌ تنطوي على أن يتشارك ريك وجوزي المستقبل معاً؟».

نظر ورائي عبر نافذة الردهة المفتوحة، وظننتُ أنَّ عدائيّته تجاهي قد عادت. لكنّه قال بعدئذٍ:

- «إنّها مجرّد شيءٍ بدأناه حين كنّا صغاراً. قبل أن ندرك كيف سيكون الحال. كيف يمكن لكلِّ هذه الأشياء أن تقف عائقاً في طريقنا. ومع ذلك، ما تزال جوزي تؤمن بها».

- «وريك لا يزال يؤمن بالخطّة أيضاً؟».

نظر الآن إليَّ مباشرةً. «كما قلت. من دون الخطّة، سوف ينتهي بها الأمر لتصبح واحدةً منهم. من الأفضل أن أذهب الآن». نهض بشكلٍ مفاجئ. «قبل أن يعود هؤلاء الأولاد. أو تلك الأم المجنونة».

- «آمل أن نتمكّن قريباً من التحدّث مجدّداً حول هذه الأمور. لأنّني أؤمن أنّه لدينا أنا وريك أهدافٌ متشابهة في كثيرٍ من النواحي».

- «اسمعي، بشأن ذلك اليوم. حين قلتُ إنّني لا أريد لجوزي

أن تحصل على ص. ا. لم أقصد ذلك على نحوٍ شخصيٍ أبداً. الأمر فقط أنّه... حسنٌ، شعرتُ كما لو أنَّ شيئاً آخر سيقفُ عائقاً في طريقنا».

- «لا أتمنّى ذلك. في الواقع، أنا الآن أكثر فهماً للحالة، وأودُّ أن أبذل ما بوسعي للمساعدة في خطّة ريك وجوزي. ربّما أساعد في إزالة العقبات التي تحدّثتَ عنها».

- «الأفضل أن أذهب. يجب أن أطمئنَّ على أمّي».

- «بالتأكيد».

مرَّ من أمامي وخرج من الردهة المفتوحة. تقدَّمتُ بضع خطوات إلى الأمام كي أتمكّن من مشاهدته وهو يخرج من الباب الأمامي نحو ضوء الشمس الساطع.

■

كما قلتُ لريك في ذلك اليوم، فقد كان الاجتماع التفاعلي مصدراً لملاحظات جديدة مهمّة. فهمتُ أولاً قدرة جوزي على «التغيّر» - كما قال ريك - وراقبتُ بعناية علامات حدوث ذلك مجدّداً. تساءلتُ أيضاً كم كانت تتمنّى حقّاً لو أنّها اختارت طراز B3. كان الهدف من ملاحظتها هو أن تكون مضحكةً على الأرجح، وأن تقلّل من مخاطر الصدام أثناء الاجتماع. ومع ذلك، فقد كان صحيحاً أنَّ الـ B3 يتمتّعون بقدراتٍ تفوق قدراتي، وكان عليَّ أن أضع في الاعتبار إمكانية أنّه قد يخطر في بال جوزي أفكارٌ كهذه.

كنتُ قلقةً أيضاً في الأيّام التي أعقبت الاجتماع، بشأن كيف ستنظر جوزي إلى فشلي في الردّ على أسئلة الفتاة طويلة الذراعين. في ظلِّ الوضع الذي طرأ - وفي غياب إشاراتٍ واضحة من جوزي -

فقد اتّخذتُ المسار الذي اعتبرتُ أنّه الأفضل. لكن يخطر لي الآن أنَّ جوزي وبعد فترةٍ من التفكير قد تغدو غاضبةً منّي.

كنتُ أخشى لكلِّ هذه الأسباب أن يلقي الاجتماع التفاعلي بظلاله على صداقتنا. لكن ومع مرور الأيّام، ظلّت جوزي لطيفةً ومرحةً معي كما كانت دائماً. وكنتُ أنتظر أن تثير موضوع أحداث الاجتماع، لكنّها لم تفعل أبداً.

كانت هذه دروساً مفيدةً لي كما قلت. لم أتعلّم فقط أنَّ «التغيّرات» كانت جزءاً من شخصية جوزي، وأنّني يجب أن أكون مستعدّة لاستيعابها، بل بدأتُ أفهم أيضاً أنَّ هذه لم تكن سمةً خاصّةً بجوزي فقط؛ وأنَّ الناس غالباً ما يشعرون بالحاجة إلى أن يجهّزوا جانباً من أنفسهم لعرضه على المارّة - كما لو أنّهم في نافذة متجر - وأنَّه لا ينبغي بمثل هذا العرض أن يؤخذ على محمل الجدّ حالما تنقضي لحظته.

كنتُ سعيدةً في ذلك الحين لأنَّ شيئاً لم يتغيّر بيننا بسبب الاجتماع. ومع ذلك، لم يمض وقتٌ طويل قبل أن يطرأ أمرٌ آخر أدّى بمجرّد وقوعه إلى جعل صداقتنا أقلّ دفئاً. إنّها تلك الرحلة إلى شلّالات مورغان، وما يثير حفيظتي هو أنّني لم أستطع لفترةٍ طويلة أن أرى كيف تسبّب ذلك في البرودة بيننا، أو كيف كان من الممكن أن أتجنّب حدوث مثل هذا الشيء.

■

ذات صباحٍ باكر، بعد ثلاثة أسابيع من الاجتماع التفاعلي، نظرتُ إلى جوزي واستطعتُ أن أرى من خلال تنفّسها وحالتها الجسدية أنّها لم تنم كالمعتاد. استخدمتُ زرّ الإنذار فحضرت الأمّ

على الفور. اتّصلتْ مباشرةً بالطبيب رايان، ومن ثمَّ سمعتُ المدبّرة ميلانيا تتّصل به مرّةً أخرى بعد قليل كي تستعجله. حين جاء، قام بفحص جوزي بعناية، ثمَّ قال إنّه لا يوجد ما يدعو للقلق. شعرتْ الأم بالارتياح، وبمجرّد أن غادر الطبيب، تغيّر أسلوبها وأصبح حادّاً بشكلٍ ملحوظ. جلستْ على حافّة سرير جوزي وقالت لها: «يجب أن تقلعي عن تناول مشروب الطاقة هذا. لطالما قلتُ إنّه سيّئٌ لكِ».

قالت جوزي دون أن ترفع رأسها عن وسادتها: «كنتُ أعرف أنّني لا أعاني من أيِّ شيء. لقد كنتُ متعبةً حقّاً، هذا كلُّ ما في الأمر. لم يكن عليكِ أن تقلقي بشأني. والآن سوف تتأخّرين عن العمل».

- «القلق عليكِ هو وظيفتي يا جوزي». ثمَّ أضافت: «ووظيفة كلارا أيضاً. لقد فعلتْ حسناً بإطلاقها للإنذار».

- «أحتاج فقط أن أنام قليلاً بعد. أعدكِ بعدها أنّني سأكون على ما يرام يا أمي».

- «اسمعي حبيبتي». مدّتْ الأمّ نفسها في انحناءة كبيرة حتّى أصبحت تتكلّم في أذن جوزي. «اسمعي. عليكِ أن تتعافي من أجلي. هل تسمعينني؟».

- «أسمعكِ يا أمّي».

- «جيّد. لم أكن واثقةً أنّكِ تصغين إليّ».

- «أنا مصغيةٌ، يا أمّي. كلُّ ما في الأمر أنّني أبقي عينيَّ مغمضتين».

- «حسنٌ. إليكِ الاتّفاق إذاً. فلتتعافي بحلول عطلة نهاية الأسبوع، وسوف نذهب إلى شلّالات مورغان. ما زلتِ تحبّين ذلك المكان، أليس كذلك؟».

- «بلى، يا أمّي. ما زلتُ أحبّه».

- «جيّد. هو اتّفاقٌ إذاً. يوم الأحد إلى شلّالات مورغان. على أنْ تتعافي في هذه الأثناء».

ساد صمتٌ طويل، ثمَّ سمعتُ جوزي تقول وهي ما تزال على وسادتها:

- «أمّي. إن تعافيت، فهل يمكننا أخذ كلارا معنا؟ أيمكنني أن أريها شلّالات مورغان؟ هي لم تخرج سوى مرّة واحدة فقط. وكان ذلك في هذه الأرجاء فحسب».

- «بالطبع تستطيع كلارا القدوم. لكن عليكِ أن تتعافي وإلّا لا شيء من هذا سيحدث. هل تفهمين يا جوزي؟».

- «أفهم يا أمّي. يجب الآن أن أنام قليلاً».

■

استيقظتْ قبل الغداء مباشرةً، وكنتُ سأُبلغ المدبّرة ميلانيا بذلك كما تنصُّ تعليماتي، لكنَّ جوزي قالت بنبرةٍ متعَبة:

- «كلارا؟ هل كنتِ هنا طوال الفترة التي كنتُ نائمةً فيها؟».

- «بالطبع».

- «هل سمعتِ ما كانت أمّي تقوله حول ذهابنا إلى شلّالات مورغان؟».

- «نعم. وآملُ كثيراً أن نتمكّن من الذهاب. لكنَّ أمّكِ قالت إنّنا سنذهب فقط إذا كنتِ قد تعافيتِ جيّداً».

- «سأكون بخير. لو أردتُ لأمكنني الذهاب عصر اليوم. أنا متعبةٌ فحسب، هذا كلُّ شيء».

- «ما هي شلّالات مورغان هذه يا جوزي؟».

- «إنّها الجمال بحدّ ذاته. سوف تتأكّدين أنّها مذهلة حالما ترينها. سوف أريكِ صوراً لها لاحقاً».

ظلّت جوزي متعبةً معظم اليوم. لكن في وقتٍ متأخر من العصر، وحالما رفعتُ ستائر غرفة النوم كي أسمح لنسق الشمس أن يهبط عليها، أصبحتْ أقوى بشكلٍ ملحوظ. جاءت المدبّرة ميلانيا لرؤيتها عندئذٍ، وقالت إنّه يمكن لجوزي أن ترتدي ملابسها طالما وعدتْ أن تقضي بقيّة اليوم بهدوء. هكذا توصّلنا إلى أن نبقى في غرفة النوم مع اقتراب المساء، حيث أخرجت جوزي من تحت سريرها صندوقاً من الورق المقوّى.

- «سوف أريكِ»، قالت وهي تفتح الصندوق. سقطتْ منه العديد من الصور المطبوعة بأحجامٍ مختلفة فوق السجّادة، بعضٌ منها مقلوبة، والبعض الآخر وجهها للأعلى. فهمتُ أنَّ هذه كانت الصور المفضّلة من ماضي جوزي، احتفظتْ بها قرب سريرها حتّى تتمكّن من إسعاد نفسها عبر النظر إليها متى تشاء. كانت الكثير من الصور متداخلةً، لكن كان يمكنني رؤية أنّها كانت في معظمها صوراً لجوزي وهي أصغر سنّاً. بعض الصور أظهرتْها مع الأمّ، وبعضها مع المدبّرة ميلانيا، والبعض الآخر مع أناس لا أعرفهم. واصلت جوزي نشر الصور فوق السجّادة، ثمَّ التقطتْ واحدةً وابتسمتْ.

- «شلّالات مورغان»، قالت. «إلى هناك سنذهب يوم الأحد. ما رأيك؟».

أعطتني الصورة - كنتُ الآن راكعةً بالقرب منها - ورأيتُ جوزي وهي أصغر سنّاً تجلس في الهواء الطلق إلى طاولةٍ مصنوعة من ألواح خشبية خشنة. حتّى المقاعد كانت عبارةً عن ألواح خشبية، وبالقرب منها جلست أمّها التي بدت أكثر بدانة مع شعرٍ أقصر ممّا

هو عليه الآن. أثار اهتمامي رؤية شخصٍ ثالث عند الطاولة، فتاةٌ قدّرتُ عمرها بإحدى عشرة سنة ترتدي معطفاً قصيراً من القطن الخفيف. لم أستطع رؤية وجه الفتاة الغريبة لأنّها كانت تجلس وظهرها إلى المصوّر. كان يمكن رؤية نسق الشمس يغطّيهم جميعاً ويهبط فوق سطح الطاولة. خلف جوزي والأمّ، كان هناك نمطٌ ضبابي بالأبيض والأسود. تمعّنتُ به جيّداً، ثمَّ قلت:

- «هذا شلّال».

- «نعم. هل رأيتِ شلّالاً من قبل يا كلارا؟».

- «نعم. رأيتُ واحداً في مجلّةٍ في المتجر. انظري! أنتِ تأكلين أمام الشلّال مباشرةً».

- «يمكنكِ فعل ذلك في شلّالات مورغان. تتناولين الغداء بينما الرذاذ يتهاطل عليكِ. تأكلين طعامك ثمَّ تدركين أن قميصك مبلّلٌ بالكامل من الخلف».

- «لا يمكن أن يكون هذا جيّداً بالنسبة لكِ يا جوزي».

- «لا بأس في ذلك حين يكون الطقس دافئاً. لكنّكِ محقّة. في يومٍ بارد، يجب أن تجلسي أبعد عن الشلّال. يوجد الكثير من المقاعد هناك على أيّة حال لأنَّ الناس لا يعرفون الكثير عن شلّالات مورغان». مدَّتْ يدها، فأعدتُ الصورة لها. نظرتْ إليها من جديد وقالت: «ربّما أنا وأمي فقط نعتقد أنّه مكانٌ مميّز. ولهذا السبب لا يكون مزدحماً أبداً. لكنّنا دائماً ما نحظى بيومٍ رائع هناك».

- «آمل أن تكوني قويّة كفاية نهاية هذا الأسبوع».

- «يوم الأحد هو دائماً أفضل الأيام من أجل شلّالات مورغان. الأجواء جميلةٌ هناك أيّام الآحاد. كما لو أنَّ الشلّال يعرف أنّه يوم عطلة».

– «جوزي. من هي رفيقتكِ في هذه الصورة؟ هذه الفتاة التي برفقتكِ أنتِ وأمّك؟».

– «أوه...». أصبح وجهها جادّاً، ثمَّ قالت: «هذه سال. شقيقتي».

تركتْ الصورة تسقط فوق الصور الأخرى. ثمَّ أخذتْ تمرّر كلتا يديها على الصور وتحرّكها فوق السجّادة. رأيتُ صوراً لأطفال – في حقولٍ، في ملاعب، وخارج مبانٍ. مكتبة سُر مَن قرأ

– «نعم، إنّها شقيقتي»، قالت بعد وقتٍ طويل.

– «وأين هي سال الآن؟».

– «سال ماتت».

– «كم هذا محزن».

هزّتْ جوزي كتفيها. «أنا لا أتذكّرها كثيراً. كنتُ صغيرةً حين حدث ذلك. ليس الأمر كأنّي أفتقدها أو شيءٌ من هذا القبيل».

– «هذا محزن. هل تتذكّرين ماذا حدث؟».

– «لقد مرضتْ. ليس نفس المرض الذي أعاني منه. بل شيءٌ أسوأ بكثير، ولهذا السبب فقد ماتت».

اعتقدتُ أنَّ جوزي كانت تبحث عن صورةٍ أخرى لها مع أختها، لكنّها جمعتِ الصور فجأة وأعادتها إلى الصندوق الكرتوني.

– «سوف تحبّين ذلك المكان يا كلارا. ها أنتِ ذا، لقد كنتِ خارجاً لمرّةٍ واحدة فقط، ثمَّ فجأة ستذهبين إلى شلّالات مورغان دفعةً واحدة!».

■

أصبحتْ جوزي أقوى كلَّ يوم، لذا ومع اقتراب عطلة نهاية

الأسبوع بدا أنّه لم يكن هناك سببٌ لافتراض أنّنا لن نكون قادرين على الذهاب إلى الشلّال. في مساء يوم الجمعة، عادت الأمّ إلى المنزل في وقتٍ متأخر - بعد أن أنهت جوزي عشاءها بوقتٍ طويل - واستدعتني إلى المطبخ. كانت جوزي في ذلك الوقت قد صعدت إلى غرفتها، وكان المطبخ معتماً تقريباً، إذ لم يكن من ضوءٍ هناك سوى ذاك الذي يصل من الرواق. لكنَّ الأمّ بدت سعيدةً للوقوف أمام النوافذ الكبيرة، تحدّق في عتمة الليل وهي تشرب نبيذها. وقفتُ قرب الثلّاجة التي كان يمكنني سماع أزيزها المنتظم.

- «كلارا»، قالت بعد بعض الوقت، «تقول جوزي أنّكِ ترغبين في القدوم معنا يوم الأحد إلى شلّالات مورغان».

- «إن لم أكن أشكّل إزعاجاً، فأودُّ كثيراً أن أحضر. أعتقد أنَّ جوزي تتمنّى حضوري أيضاً ».

- «هي تتمنّى ذلك بالتأكيد. إنَّ جوزي مغرمةٌ بكِ. وإذا جاز القول، أنا أيضاً كذلك».

- «شكراً لكِ».

- «لأكون صادقة، في البداية لم أكن متأكّدة ماذا سيكون شعوري حيال وجودك في الجوار وتنقّلكِ في المنزل طوال اليوم. لكنَّ جوزي باتت أكثر هدوءاً، وأكثر ابتهاجاً منذ وصولكِ إلى هنا».

- «أنا سعيدةٌ جدّاً».

- «أنتِ تبلين حسناً جدّاً يا كلارا. أريد منكِ أن تعرفي ذلك».

- «أشكركِ جزيل الشكر».

- «ستكونين على ما يرام في شلّالات مورغان. يصطحب الكثير من الأطفال الص. ا. خاصّتهم إلى هناك. ومع ذلك، ليس

هناك داعٍ للقول إنّه سيكون عليكِ الاعتناء بنفسك وبجوزي. يمكن للتضاريس هناك أن تكون غير متوقَّعة، وتصبح جوزي متحمّسةً كثيراً أحياناً في أماكن كهذه».

- «أفهم ذلك. سأكون متيقّظة».

- «هل أنتِ سعيدةٌ هنا يا كلارا؟».

- «نعم، بالطبع».

- «من الغريب أن يُسأل سؤالٌ كهذا لص. ا. في الواقع، لا أعرف حتّى ما إذا كان لهذا السؤال أيُّ معنى. هل تفتقدين ذلك المتجر؟».

شربتْ مزيداً من النبيذ وتقدّمتْ باتّجاهي حتّى بات بإمكاني رؤية جانب وجهها في الضوء الذي يصل من الرواق، إلّا أنَّ الجانب الآخر من وجهها، بما في ذلك معظم أنفها، بقي في الظلّ. بدتِ العين التي استطعتُ رؤيتها متعَبة.

- «أحياناً أفكّر في المتجر»، قلتُ لها. «المنظر من النافذة. الص. ا. الآخرون. لكن ليس كثيراً. أنا سعيدةٌ جدّاً لوجودي هنا».

نظرت الأمّ إليَّ للحظة، ثمَّ قالت: «لا بدَّ أنَّ عدم افتقاد الأشياء لأمرٌ رائع. عدم التوق للعودة إلى شيءٍ ما. عدم النظر إلى الوراء طوال الوقت. لا بدّ أن كلَّ شيءٍ أكثر...». صمتت لحظة، ثمَّ قالت: «حسنٌ، يا كلارا. أنتِ إذاً معنا يوم الأحد. لكن تذكّري ما قلتُه. لا نريد وقوع أيّة حوادث هناك».

■

لا بدَّ أنّه كانت هناك إشاراتٌ طوال الوقت، لأنّه وعلى الرغم من أنّ ما حدث في صباح يوم الأحد ذاك جعلني أشعر بالحزن

لاحقاً، وذكّرني مرّةً أخرى كم عليَّ أن أتعلّم بعد، إلّا أنّه لم يشكّل مفاجأةً حقيقية.

بحلول يوم الجمعة، كانت جوزي واثقةً أنّها ستكون في حالةٍ حسنةٍ بما يكفي للذهاب في الرحلة الاستكشافية، وقضت لحظاتٍ عديدة وهي تجرّب ملابس مختلفة، وتتفحّص نفسها أمام المرآة الطويلة داخل غرفة الملابس. كانت من حينٍ لآخر تسألني عن رأيي، فكنتُ أبتسم وأبدي لها قدر ما أستطيع من التشجيع. لكن حتّى في ذلك الوقت كان ينبغي بي أن أكون أكثر وعياً للإشارات، لأنّني في الوقت الذي كنتُ أشيد فيه بمظهرها، كنتُ أيضاً حريصةً طوال الوقت على كبتِ شيءٍ ما.

كنتُ أعرف بالفعل أنَّه يمكن للأجواء أن تتوتّر أثناء وجبات إفطار أيّام الأحد. في الصباحات الأخرى، حتّى عندما كانت الأمّ تبقى بعد قهوتها السريعة، ظلَّ الشعور بأنَّ أيّ أخذٍ وردّ قد يكون الأخير حتّى حلول المساء، وفي حين أنَّ هذا جعل كلّاً من جوزي والأمّ تتحدّثان إحداهما مع الأخرى بحدّة أحياناً، إلّا أنّه ما أمكن للإفطار أن يصبح محمّلاً بالإشارات. لكن في يوم الأحد، حين لا تكون الأمّ على وشك الذهاب إلى أيٍّ مكان، كان يطغى شعورٌ بأنَّ كلّ سؤالٍ تطرحه يمكن أن يفضي إلى محادثةٍ غير مريحة. عندما كنتُ لا أزال جديدةً في المنزل، اعتقدتُ أنَّ هناك مواضيع محدّدة تتّسم بالخطورة بالنسبة لجوزي، وأنّه لو كان من الممكن فقط منع الأمّ من إيجاد طرقٍ لإثارة هذه المواضيع، لكانت وجبات إفطار يوم الأحد ستبقى مريحة. لكن بمزيدٍ من الملاحظة، رأيتُ أنّه حتّى لو تمَّ تجنّب المواضيع الخطرة - مواضيع مثل واجبات جوزي التعليمية، أو درجات تفاعلها الاجتماعي - فإنَّه يمكن للشعور غير

المريح أن يبقى موجوداً لأنّ له علاقة بشيءٍ **تحت** سطح تلك المواضيع؛ كانت تلك المواضيع الخطرة بحدّ ذاتها طرقاً ابتكرتْها الأمّ لتجعل مشاعر محدّدة تظهر في عقل جوزي.

لذا فقد شعرتُ بالقلق صباح يوم الأحد المقرّر لرحلة شلّالات مورغان، إذ سألت الأمُّ جوزي لماذا تحبُّ أن تلعب لعبةً محدّدة على لوحها المستطيل حيث تموت فيها الشخصيات على نحوٍ مستمرّ في حوادث سيّارات. في البداية أجابت جوزي بمرح: «إنّه أسلوب تصميم اللعبة فحسب يا أمّي. يجب أن تضعي عدداً أكبر فأكبر من جماعتكِ في الحافلة الخارقة، لكن إن لم تتمكّني من اكتشاف الطرقات الصحيحة ، فقد تخسرين أولئك المفضّلين لديكِ في حادث تحطّم».

- «لِمَ قد تلعبين لعبةً كهذه يا جوزي؟ لعبةٌ يحدث فيها شيءٌ بشعٌ كهذا؟».

واصلت جوزي الردَّ على أمّها بصبرٍ لبعض الوقت، لكن سرعان ما تركت الابتسامة صوتها. في النهاية كانت جوزي تكرّر أنّها مجرّد لعبة تستمتع بلعبها، فيما طرحت الأمّ المزيد والمزيد من الأسئلة حولها، وبدت غاضبة.

ثمَّ بدا أنَّ غضب الأم تلاشى دفعةً واحدة. لكنّها لم تبدُ مبتهجة مع ذلك، إلّا أنّها نظرتْ إلى جوزي بلطف، فغيّرتْ ابتسامتها اللطيفة شكل وجهها بالكامل.

- «أنا آسفةٌ حبيبتي. ما كان يجدر بي إثارة هذا الموضوع اليوم. أنا لستُ منصفة أبداً».

ثمَّ نزلت من على مقعدها العالي، وذهبت إلى جوزي في مقعدها وضمّتْها في عناقٍ بدا أنّه يطول ويطول، حتّى اضطّرت الأم

أن تأتي بحركة أرجحة كي تموّه المدّة التي كان يستغرقها ذاك العناق. كان يمكنني رؤية أنَّ جوزي لم تمانع على الإطلاق كم طال العناق، وحين انفصلتا - لم أرجع من قرب الثلّاجة حتّى تأكّدتُ أنّهما انفصلتا بالفعل - كان الصدع بينهما قد رُئب.

لذا، فإنَّ الفطور الذي كنتُ أخشى أنه ربّما يشكّل عقبة أخيرة أمام ذهابنا إلى شلّالات مورغان انتهى على خير، وامتلأ ذهني بالإثارة. في اللحظات الأخيرة فقط، وبعد أن كانت الأمّ والمدبّرة ميلانيا قد خرجتا بالفعل إلى السيّارة، رأيتُ جوزي وهي تضع ذراعيها داخل كُمَّي معطفها المبطّن، تتوقّف للحظات وتسمح للتعب أن يسري فيها. أنهت ارتداء معطفها، وابتسمت ابتسامةً مشرقة لدى ملاحظتها لوجودي في الطرف الآخر من الرواق. ثمَّ سمعنا صوت السيّارة في الخارج وهي تتحرّك فوق الأحجار الرخوة. عادت المدبّرة ميلانيا إلى المنزل وهي تحمل مفاتيحها وأشارت لنا أن نخرج. لكن الآن وبعد أن أصبحتُ أكثر دراية، كان بوسعي أن أرى إشارةً صغيرةً أخرى، شيءٌ ما في خطوة جوزي الحثيثة وهي تسير أمامي فوق الأحجار الرخوة.

كانت الأمّ خلف عجلة القيادة، تراقبنا عبر الزجاج الأمامي، فشعرتُ بخوفٍ يتسلّل إلى ذهني. لكنَّ جوزي لم تظهر المزيد من الإشارات - حتّى أنّها تدبّرت أن تقفز بسعادة لدى عبورها فوق الأحجار الرخوة - وفتحتْ باب الراكب الأمامي بنفسها.

لم أكن داخل سيّارة من قبل، لكنّني شاهدتُ مع روزا الكثير من الناس يدخلون إلى المركبات ويخرجون منها، شاهدتُ وضعيات أجسادهم ومناوراتهم، وكيف كانوا يجلسون حين تبدأ المركبات في التحرّك، لذا لم يكن أيُّ شيءٍ بمثابة المفاجأة بالنسبة إليّ وأنا آخذ

مكاني في المقعد الخلفي. كانت الوسادة أكثر نعومةً ممّا توقّعت، والمقعد الأمامي، ذاك الذي تجلس فيه جوزي الآن، كان قريباً جدّاً بحيث بالكاد استطعتُ رؤية أيّ شيء أمامي، لكنّني لم أتسبّب في أيّ تأخير. لم يكن لديّ وقتٌ لتكوين ملاحظاتٍ تفصيلية عن مقصورة السيّارة، إذ أدركتُ أنّ الأجواء غير المريحة قد عادت. في الأمام، كانت جوزي صامتة، تشيح بوجهها عن الأمّ بجانبها، وتحدّق باتّجاه المنزل والمدبّرة ميلانيا التي تشقّ طريقها عبر الأحجار الرخوة، وتحمل حقيبة لا شكل محدّد لها تحتوي من بين العديد من الأشياء على أدوية جوزي لحالات الطوارئ. كانت يدا الأمّ على عجلة القيادة وكأنّها تتوق للانطلاق، وكانت تدير رأسها بنفس اتجاه رأس جوزي، لكنّي عرفتُ أنَّ الأمّ لم تكن تنظر إلى المدبّرة ميلانيا وهي تقترب، أو إلى المنزل، بل إلى جوزي نفسها. اتّسعت عينا الأم، وحيث إنَّ وجهها على نحوٍ خاص كان نحيلاً وبارز العظام، فقد بدت العينان أكبر ممّا كانتا في الواقع. وضعت المدبّرة ميلانيا الحقيبة التي لا شكل لها في الصندوق وأغلقت الغطاء. ثمَّ فتحت الباب الخلفي من جهتها وانزلقت في المقعد المجاور لمقعدي. قالت لي:

- «ص. ا.، ثبّتي حزامك أو سوف تتأذّين».

كنتُ أحاول فهم نظام عمل الحزام، والذي كنتُ قد رأيتُ الكثير من ركّاب السيّارات يستخدمونه، حين قالت الأمّ:

- «تعتقدين أنّكِ خدعتِني، أليس كذلك يا فتاة؟».

ساد الصمت، ثمَّ سألتْ جوزي: «ما الذي تقولينه يا أمّي؟».

- «لا يمكنكِ إخفاء ذلك. أنتِ مريضةٌ مجدّداً».

- «لستُ مريضةً يا أمّي. أنا بخير».

- «لماذا تفعلين هذا بي يا جوزي؟ لماذا يجب أن يكون الأمر على هذا النحو دائماً؟».

- «لا أعرف عمَّ تتحدّثين يا أمّي».

- «هل تظنّين أنّي لا أتطلّع إلى رحلةٍ كهذه؟ إلى يومٍ واحدٍ من الحرّية مع ابنتي؟ ابنتي التي أحبّها حبّاً جمّاً، والتي تقول لي أنّها بخير في الوقت الذي تشعر فيه بالمرض حقّاً؟».

- «هذا ليس صحيحاً يا أمّي. أنا بخيرٍ حقّاً».

لكنّني استطعتُ سماع التغيّر في صوت جوزي. كان الأمر كما لو أن الجهد الذي كانت تبذله قد تمَّ التخلّي عنه عند هذه النقطة، وبدت منهكةً فجأة.

- «لماذا تتظاهرين يا جوزي؟ ألا تظنّين أنَّ ذلك يؤذيني؟».

- «أمّي، أقسم أنّني بخير. أرجوك قودي بنا. لم تذهب كلارا إلى شلّالٍ من قبل، وهي تتطلّع قدماً إلى ذلك».

- «كلارا تتطلّع قدماً إلى ذلك؟».

- «أمّي، أرجوكِ».

- «ميلانيا»، قالت الأمّ، «جوزي تحتاج للمساعدة. اخرجي من السيّارة رجاءً. اذهبي إليها وساعديها، فقد تسقط إذا حاولت الخروج بنفسها».

ساد الصمتُ مجدّداً.

- «ميلانيا؟ ما الأمر هناك في الخلف؟ هل أنتِ مريضةٌ أيضاً؟».

- «ربّما تتمكّن الآنسة جوزي من فعلها».

- «ما هو هذا؟».

- «أنا أساعدها، والص. ا. أيضاً. ربّما تكون الآنسة جوزي على ما يرام».

- «دعيني أفهم هذا بشكلٍ صحيح. هل هذا هو تقييمكِ للوضع؟ أنَّ ابنتي بحالٍ جيدة بما يكفي لقضاء يومٍ في الخارج؟ في الشلّالات؟ هذا يجعلني أقلق بشأنكِ يا ميلانيا».

كانت المدبّرة ميلانيا صامتة، لكنّها ظلّتْ بلا حراك.

- «ميلانيا؟ هل أفهم أنّكِ ترفضين الخروج لمساعدة جوزي على الترجّل من السيارة؟».

كانت المدبّرة ميلانيا تنظر خارجاً من بين المقعدين الأماميين إلى الطريق أمامها. بدا الارتباك على وجهها، كما لو أنَّ هناك شيئاً يصعب تحديد ماهيّته في أعلى التلّ. ثمَّ فتحت الباب فجأة وخرجتْ.

- «أمّي»، قالت جوزي. «أرجوكِ، هل يمكننا الذهاب؟ أرجوكِ لا تفعلي هذا».

- «هل تظنّين أنّي أحبُّ هذا؟ أيّاً منه؟ حسنٌ، أنتِ مريضة. هذا ليس خطأكِ. لكن ألّا تخبري أحداً بهذه الطريقة، ونصعد بذلك جميعاً في السيّارة، ويكون أمامنا اليوم بطوله. هذا ليس لطيفاً يا جوزي».

- «ما ليس لطيفاً هو أن تقولي لي أنّي مريضةٌ بينما أنا ببساطةٍ شديدةٍ قويّةٌ بما فيه الكفاية...».

فتحت ميلانيا الباب بجانب جوزي من الخارج. صمتت جوزي، ثمَّ نظرت إليَّ بوجهها الذي يغمره الحزن من طرف مقعد السيّارة.

- «أنا آسفةٌ، يا كلارا. سنذهب في وقتٍ آخر. أعدكِ بذلك. أنا حقّاً آسفةٌ جدّاً».

- «لا بأس»، قلتُ لها. «ينبغي بنا أن نفعل ما هو في صالح جوزي».

كنتُ على وشك الخروج من السيارة أيضاً، لكن عندها قالت الأمّ:

- «لحظة فقط يا كلارا. لقد كنتِ - كما تقول جوزي - تتطلّعين إلى هذه الرحلة. حسنٌ إذاً، لِمَ لا تبقين حيث أنتِ؟».

- «آسفة، أنا لا أفهم».

- «الأمر بسيط. إنَّ جوزي مريضةٌ أكثر من أن تستطيع الذهاب. كان يجدر بها إخبارنا بذلك في وقتٍ أبكر، لكنّها اختارت ألّا تفعل. حسنٌ إذاً، فلتبقَ هنا، وميلانيا كذلك. لكن ما من سبب يمنعنا أنا وأنت يا كلارا من الذهاب».

لم يكن بوسعي رؤية وجه الأمّ لأن ظهر المقعد كان مرتفعاً. لكنَّ وجه جوزي كان لا يزال يحدّق بي من طرف مقعدها. أصبحت عيناها باهتتين، كما لو أنّهما لم تعودا تهتمّان بما تريانه.

- «حسنٌ، ميلانيا»، قالت الأمّ بصوتٍ أعلى. «ساعدي جوزي على الخروج من السيّارة. انتبهي لها. تذكّري، إنّها مريضة».

- «كلارا؟»، قالت جوزي. «هل أنتِ حقّاً ذاهبةٌ معها إلى الشلّالات؟».

- «إن اقتراح الأمّ لطيفٌ جدّاً، لكن ربّما سيكون من الأفضل إذا هذه المرّة. . .».

- «انتظري، يا كلارا»، قالت الأمّ. «ما هذا يا جوزي؟ منذ لحظة كنتِ قلقةً لأنَّ كلارا لم ترَ شلّالاً من قبل. والآن تحاولين جعلها تبقى في المنزل؟».

واصلت كلارا النظر إليّ، وظلّت المدبّرة ميلانيا واقفةً خارج

السيّارة ويدها ممدودة كي تمسك بها جوزي. في النهاية قالت جوزي:

- «حسنٌ. ربّما يجب أن تذهبي يا كلارا. أنتِ وأمّي. ما معنى أن يفسد اليوم برمّته لمجرّد... أنا آسفة. آسفةٌ لأنّني مريضة طوال الوقت. أنا لا أعرف لماذا...». اعتقدتُ أنَّ الدموع ستنهمر عندئذٍ، لكنّ جوزي حبستْها وتابعتْ بهدوء: «أنا آسفةٌ حقّاً يا أمّي. لا بدَّ أنّني خيبة أمل كبيرة. اذهبي معها يا كلارا، سوف تحبّين الشلّال». ثمَّ اختفى وجهها عن جانب المقعد.

للحظة لم أكن متأكّدة ممّا يجب أن أفعله. لقد عبّرت كلٌّ من جوزي والأمّ الآن عن وجهة نظرٍ مفادها أنّني يجب أن أبقى في السيّارة، وأذهب في تلك النزهة. وكان يمكنني أن أرى الاحتمالية الكبيرة أنّني إذا فعلتُ ذلك سأحصل ربّما على رؤى جديدة، وقد تكون حاسمة فيما يتعلّق بوضع جوزي، وكيف قد أتمكّن من مساعدتها على أفضل وجه. مع ذلك، كان حزنها واضحاً جدّاً وهي تسير فوق الأحجار الرخوة. لم يكن لديها الآن ما تخفيه في مشيتها المتهالكة، ولم تثر أيَّ ضجّة حيال تلقّي المساعدة من المدبّرة ميلانيا.

شاهدنا المدبّرة ميلانيا تفتح الباب الأمامي، ثم الاثنتان تدخلان إلى المنزل. شغّلتِ الأمّ السيّارة عندئذٍ، وبدأنا نتحرّك.

■

حيث إنّها كانت المرّة الأولى لي داخل سيّارة، فلم أتمكّن من تقدير سرعتنا على نحوٍ جيّد. بدا لي أنَّ الأمّ تقود بسرعةٍ غير عادية، وللحظةٍ دخل الخوف ذهني، لكنّي تذكّرتُ أنّها تقود سيّارتها صعوداً على نفس التلّ كلّ يوم، لذا لم يكن مرجحاً أن تتسبّب قيادتها في أيّة

مخاطر. ركّزتُ على الأشجار التي تندفع بجانبي، والفتحات الكبيرة التي كانت تظهر فجأة على أحد الجانبين ثمّ على الآخر، والتي تمكّنتُ من خلالها من رؤية قمم الأشجار من الأعلى. ثمَّ لم يعد الطريق يرتفع صعوداً، وعبرت السيّارة حقلاً واسعاً، فارغاً باستثناء حظيرة بعيدة تماماً مثل تلك التي يمكن رؤيتها من نافذة جوزي.

ثمَّ تكلّمت الأمّ لأوّل مرّة. لم تلتفت نحوي لأنّها كانت تقود السيّارة، ولو لم أكن الشخص الوحيد داخل السيارة، ربّما ما كنتُ لأخمّن أنّها توجّه حديثها إليّ.

- «دائماً ما يفعلون ذلك. يتلاعبون بمشاعرك». ثمَّ قالت بعد لحظة: «قد أبدو صعبة المراس. لكن كيف سيتعلّمون بغير هذا الأسلوب؟ ينبغي بهم أن يتعلّموا أنَّ لدينا مشاعر أيضاً». ثمَّ بعد برهة: «هل تظنّين أنّي أحب أن أكون بعيدةً عنها كلَّ يومٍ لعين بعد يومٍ لعين آخر؟».

كانت هناك سيّارات أخرى الآن، وعلى عكس الوضع خارج المتجر، كانت تتحرّكُ في كِلا الاتّجاهين. تظهر الواحدة منها في البعيد وتأتي مسرعةً نحونا، لكنَّ السائقين لم يرتكبوا الأخطاء أبداً، ونجحوا دائماً في تجنّبنا. سرعان ما كانت المناظر تتغيّر من حولي بسرعةٍ كبيرة لدرجة أنّي واجهتُ صعوبة في ترتيبها. في مرحلةٍ ما بات أحد المربّعات ممتلئاً بالسيارات الأخرى، بينما امتلأت المربّعات المجاورة له بأجزاء من الطريق والحقل المحيط به. بذلتُ ما بوسعي كي أثبّتَ صورة الخط الأملس للطريق أثناء انتقاله من مربّعٍ إلى آخر، لكن ومع تغيّر المشهد باستمرار، قرّرتُ أن هذا غير ممكن، وتركتُ للطريق أن ينقطع ويبدأ من جديد في كلِّ مرّة يعبر فيها حدّاً. رغم كلّ هذه المشاكل، فقد كان إطار المشهد والاتّساع

الهائل للسماء مثيرَين للغاية. كان الشمس خلف الغيوم معظم الوقت، لكنّني رأيتُ من حينٍ لآخر أنساقه تهبط على طريقٍ عبر الوادي هناك أو تغطّي مساحةً من الأرض هنا.

حين تحدّثت الأمّ في المرّة التالية، كان واضحاً أكثر أنّها تتحدّثُ إليّ.

- «لا بدَّ أنّه من اللطيف أحياناً أن لا يكون لديك مشاعر. أنا أحسدكِ».

تمعَّنتُ في هذا ثمَّ قلت: «أعتقدُ أنَّ لديّ الكثير من المشاعر. كلّما راقبتُ ولاحظتُ أكثر، أصبحت المزيد من المشاعر متاحةً لي».

ضحكتْ بصورةٍ غير متوقّعة. «في هذه الحالة، يجب ألّا تحرصي كثيراً على المراقبة والملاحظة»، قالت لي. ثمَّ أضافت: «أنا آسفة. لم أقصد أن أكون وقحة. أنا واثقةٌ أنّ لديكِ كلّ أنواع المشاعر».

- «حين تعذّر على جوزي القدوم معنا الآن، شعرتُ بالحزن».

- «شعرتِ بالحزن. حسنٌ»، قالت هذا وصمتتْ، ربّما كي تركّز على القيادة وعلى السيّارات القادمة في الاتّجاه المعاكس. ثمَّ قالت: «كان هناك وقتٌ، ليس منذ زمنٍ بعيد، اعتقدتُ فيه أنَّني بتُّ أشعر أقلّ شيئاً فشيئاً. أقلَّ بقليلٍ كلّ يوم. لم أعرف إن كنتُ سعيدةً بذلك أم لا. لكن يبدو أنّني أصبحت في الآونة الأخيرة أكثر حساسيةً تجاه كلّ شيء. كلارا، انظري إلى يسارك. أنتِ على ما يرام في الخلف؟ انظري بعيداً إلى يسارك، وأخبريني ماذا تستطيعين أن تري».

كنّا نعبر أرضاً لا ترتفع ولا تنخفض، وكانت السماء لا تزال

هائلة الاتّساع. رأيتُ حقولاً مسطّحة خاليةً من الحظائر أو الآليات الزراعية، تمتدُّ لمسافاتٍ بعيدة. لكن، وبالقرب من خطِّ الأفق كان هناك ما بدا أنّه بلدةٌ كانت قد شُيِّدت بالكامل من صناديق معدنية.

- «هل ترين ذلك؟» سألت الأمّ دون أن ترفع نظرها عن الطريق.

قلتُ لها: «إنّها بعيدةٌ جدّاً، لكن يمكنني رؤية ما يشبه القرية. ربّما من النوع الذي تُصنع فيه السيّارات أو غيرها من الأشياء المشابهة».

- «ليس تخميناً سيّئاً. إنّه في الواقع مصنعٌ كيميائي، وهو مصنعٌ متطوّرٌ جدّاً. كيمبال للتبريد. رغم أنّه ليست لهم أيّة علاقةٍ بالثلّاجات منذ عقود. لقد كان السبب في وصولنا إلى هنا واستقرارنا في هذه الأرجاء في المقام الأوّل. كان والد جوزي يعمل هناك».

رغم أنَّ قرية الصناديق المعدنية ظلّت بعيدة، إلّا أنّني استطعت الآن تمييز أنابيب تربط أحد المباني بالآخر، وأنابيب أخرى ترتفع مشيرةً إلى السماء. شيءٌ ما بها ذكّرني بآلة كوتينغز الفظيعة، وساورني قلقٌ بشأن التلوّث. لكن عندها بالضبط قالت الأمّ:

- «إنّه مكانٌ جيّد. المدخلات طاقة نظيفة، والمخرجات طاقةٌ نظيفة. كان والد جوزي ذات يومٍ نجماً صاعداً هناك».

ثم لم تعد قرية الصناديق المعدنية مرئية بعد ذلك، واعتدلتُ في مقعدي مجدّداً.

- «نحن ننسجم على خير ما يرام الآن»، قالت الأمّ. «يمكنكِ القول إنّنا أصدقاء تقريباً. هذا جيّدٌ من أجل جوزي بالطبع».

- «أتساءل هل لا يزال الأب يعمل في قرية التبريد؟».

- «ماذا؟ أوه لا. لقد تمَّ... استبداله، كحال الجميع هناك. لقد كان موهبةً فذّة. هو لا يزال كذلك بالطبع. نحن نتفق على نحوٍ أفضل الآن. هذا هو المهمّ بالنسبة إلى جوزي».

أكملنا طريقنا دون أن نتكلّم لبعض الوقت. كان الطريق يرتقي الآن صعوداً بزاويةٍ حادّة. ثمَّ أبطأت الأمّ من سرعة السيّارة وانعطفنا نزولاً عبر طريقٍ ضيّق. عندما نظرتُ تالياً بين المقعدين الأماميين، ظهر الطريق الجديد أعرض بقليلٍ فقط من السيّارة نفسها. كانت هناك على الطريق أمامنا آثار خطوطٍ متوازية موحلة تركتْها عجلاتٌ سابقة، وكانت هناك أشجارٌ تضيّق علينا من كلا الجانبين، مثل مبانٍ في أحد شوارع المدينة. جعلت الأمّ السيّارة تواصل تقدّمها في هذا الطريق الضيّق، ورغم أنّها كانت تقود ببطءٍ أكثر، إلّا أنّني تساءلتُ ماذا سيحدث إذا جاءت سيّارةٌ من الاتّجاه الآخر. ثمّ أخذنا منعطفاً آخر وتوقّفنا.

- «هذه هي نهاية الطريق يا كلارا. من هنا سنتابع مشياً على الأقدام. هل يمكنكِ القيام بذلك؟».

شعرتُ لدى خروجنا بالريح الباردة، وسمعتُ أصوات الطيور. كانت هناك المزيد من الأشجار البرّية حولنا بينما كنّا نتسلّق درباً يحوي صخوراً وكتلاً من الطين. كان عليَّ أن آخذ احتياطاتي، لكنّني بقيتُ خلف الأم، ثمَّ بعد بعض الوقت عبرنا فجوةً بين عمودين خشبيين وصولاً إلى طريقٍ آخر. استمرَّ هذا الأخير في الارتفاع صعوداً، وكان على الأم أن تتوقّف بشكلٍ متكرّر كي يتسنّى لي اللحاق بها. فكّرتُ حينها أنّها قد تكون محقّةً بشأن اعتقادها أنَّ هذه الرحلة صعبةٌ جدّاً على جوزي.

عند هذه النقطة بالضبط، نظرتُ إلى يساري فوق السياج الممتد

بجانبنا، ورأيتُ الثور في الحقل وهو يراقبنا بحذر. كنتُ قد رأيتُ صوراً للثيران في المجلّات، لكنّي لم أرها على أرض الواقع أبداً بالطبع، ورغم أنَّ هذا الثور كان يقف بعيداً جدّاً عنّا، ورغم معرفتي أنّه لا يستطيع عبور السياج، إلّا أنَّ مظهره أفزعني جدّاً لدرجة أنّي صرختُ وتجمّدتُ في مكاني. لم أكن قد رأيتُ من قبل شيئاً أعطى، دفعةً واحدة، الكثير من إشارات الغضب والرغبة في التدمير. وجهه، قرناه، عيناه الباردتان اللتان تراقبانني، أثار كلُّ ذلك الخوف في ذهني، لكنّني شعرتُ بشيءٍ إضافي، شيء أعمق وأكثر غرابة. شعرتُ في تلك اللحظة أنَّ خطأً عظيماً قد ارتُكب بالسماح لهذا المخلوق بالوقوف في نسق الشمس من الأساس، كما شعرتُ أنَّ هذا الثور ينتمي إلى مكان ما في عمق الأرض بعيداً في قلب الظلام والوحل، ووجوده فوق العشب يمكن أن ينجم عنه عواقب وخيمة فحسب.

- «لا بأس»، قالت الأمّ. «لا يمكنه أذيّتنا. هلّمي الآن. أنا بحاجة إلى القهوة».

أجبرتُ نفسي على النظر بعيداً عن الثور، ولحقتُ بالأمّ. ثمَّ سرعان ما انتهينا من التسلّق صعوداً، وظهرت من حولنا الطاولات الخشبية الخشنة التي رأيتُها في صورة جوزي الفوتوغرافية. أحصيتُ أربع عشرة طاولة موزّعة في أرجاء الحقل، ولكلِّ واحدةٍ منها مقاعد مصنوعةٌ من ألواح خشبية متّصلة بكلا جانبيها. كان هناك بالغون، وأطفال، وص. ا.، وكلابٌ، كانوا يجلسون إلى الطاولات، أو يركضون، أو يمشون أو يقفون حولها. كان الشلّال يقع وراء الطاولات مباشرة، وكان أكبر وأعنف من ذاك الذي رأيتُه في المجلّة، إذ ملأ لوحده ثمانية مربّعات كاملة. بحثتُ عن الشمس، لكنّي لم أعثر عليه في السماء الرمادية.

- «سوف نجلس هنا»، قالت الأمّ. «هيّا اجلسي. انتظريني هنا. أحتاج لكوبٍ من القهوة».

راقبتُها تمشي إلى كشكٍ مصنوع من نفس الخشب الخشن على بعد عشرين خطوة. كان به منضدةٌ مفتوحة في الأمام بحيث يعمل مثل متجر، وكان المارة الآن يقفون في طابورٍ هناك.

كنتُ سعيدةً بالحصول على فرصة للجلوس وإعادة توجيه نفسي، وإذ جلستُ إلى الطاولة الخشنة أنتظر عودة الأم، وجدتُ أنَّ البيئة المحيطة تستقرّ من حولي. لم يعد الشلّال يستهلك الكثير من المربّعات وراقبتُ الأطفال والص. ا. خاصّتهم يعبرون بسهولة من مربّعٍ إلى آخر دون أيِّ انقطاعٍ تقريباً.

رغم أنَّ أحداً منهم لم ينظر إليَّ بأيِّ نوعٍ من الاهتمام، وكلٌّ منهم كان مركِّزاً جدّاً مع طفله، إلّا أنّني شعرتُ بالسرور لتواجدي مع ص. ا. آخرين مجدداً، وللحظةٍ جلستُ أتفرّج عليهم بسعادة وأنا ألاحق أحدهم بنظراتي ثمَّ أنتقل لواحدٍ آخر. ثم عادت الأمّ وجلست قبالتي، فاستدرتُ لأواجهها بالكامل، فيما كان الشلّال يتحرّك خلفها بضراوةٍ. كانت قهوتها داخل كوبٍ كرتوني رفعتْه إلى فمها. تذكّرتُ ما قالته جوزي عن الجلوس قرب الشلّال، وكيف يمكن أن يبتلَّ ظهرك دون أن تلاحظ، وفكّرتُ في ذِكر ذلك للأمّ. لكنَّ شيئاً ما في أسلوبجها أخبرني أنّها لا ترغب أن أتحدّث معها بعد.

كانت تنظر في وجهي مباشرة، نفس نظرتها من الرصيف حين كنّا أنا وروزا في النافذة. شربتِ القهوة وهي تنظر إليّ طوال الوقت، حتّى وجدتُ أنَّ وجه الأمّ يملأ ستّة مربّعات بمفرده، وعيناها الضيّقتان تتكرّران في ثلاثةٍ منها، كلّ مرّةٍ بزاويةٍ مختلفة. قالت أخيراً:

- «إذاً، هل تحبّين المكان هنا؟».
- «إنّه رائع».
- «ها قد رأيتِ شلّالاً حقيقياً الآن».
- «أنا ممتنّة لإحضاركِ لي إلى هنا».
- «هذا غريب. كنتُ أفكّر للتوّ أنّكِ لا تبدين سعيدةً جدّاً. أنا لا أرى ابتسامتك المعتادة».
- «أنا أعتذر. لم أقصد أن أبدو ناكرةً للجميل. أنا سعيدةٌ جدّاً برؤية الشلّال. لكنّني ربّما أشعر بالأسف أيضاً لأنّ جوزي لم تستطع أن تكون معنا».
- «أنا أيضاً. أشعر بالضيق حيال ذلك»، ثمَّ قالت: «لكنّني لا أشعر بضيقٍ كبير **لأنّكِ** هنا».
- «شكراً لكِ».
- «ربّما كانت ميلانيا على حقّ. ربّما كانت جوزي على ما يرام».

لم أقل شيئاً. رشفت الأمّ قهوتها وواصلت النظر إليّ.
- «ماذا أخبرتكِ جوزي عن هذا المكان؟».
- «قالت إنّه مكانٌ جميل وإنّها دائماً ما كانت تستمتع كثيراً برحلاتها إلى هنا معكِ».
- «هذا ما قالتْه؟ وهل أخبرتكِ كيف أنّنا لطالما أتينا إلى هنا مع سال؟ وكم أحبّت سال هذا المكان؟».
- «أتتْ جوزي على ذِكر أختها»، ثمَّ أضفت: «لقد رأيتُ أخت جوزي في الصورة الفوتوغرافية».

حدّقت الأمّ بي بحدّةٍ حتّى ظننتُ أنّني ارتكبتُ خطأً. لكنّها

قالت بعد ذلك: «أعتقد أنّني أعرف أيّة صورةٍ تقصدين. تلك التي نظهر فيها نحن الثلاثة جالسات هناك. أتذكّر أنَّ ميلانيا التقطتْها. كنّا هناك على ذلك المقعد. أنا، وسال، وجوزي. هل مِن مشكلة يا كلارا؟».

- «لقد حزنتُ جدّاً لسماع أنّ سال قد توفّيت».

- «الحزن كلمةٌ تعبّر جيّداً عن الأمر».

- «أنا آسفة. ربّما لم يجدر بي...».

- «لا بأس. لقد مرَّ وقتٌ طويل منذ أن غادرتْنا. من المؤسف أنّكِ لم تلتقِ بسال. إنّها مختلفةٌ عن جوزي. جوزي تقول ما تفكّر فيه وحسب. لا يهمّها إن قالت الشيء الخطأ. قد يكون هذا مزعجاً في بعض الأحيان لكنّني أحبّها لأجل ذلك. سال لم تكن كذلك. كان على سال أن تفكّر في كلّ شيء قبل أن تخرج بشيءٍ ما. لقد كانت أكثر حساسية. ربّما لم تتعامل بشكلٍ جيّد مع واقع أنّها مريضة كما تفعل جوزي».

- «أنا أتساءل... لمَ توفيتْ سال؟».

تغيّرتْ عينا الأمّ وارتسم شيءٌ قاسٍ حول فمها.

- «أيُّ نوعٍ من الأسئلة هذا؟».

- «أنا آسفة. كنتُ فقط أشعر بالفضول لمعرفة...».

- «ليس من شأنكِ أن تكوني فضولية».

- «أنا آسفةٌ جدّاً».

- «ما مشكلتكِ؟ لقد حدث الأمر، هذا كلُّ شيء».

ثمَّ وبعد لحظةٍ طويلة، لانَ وجه الأمّ.

- «أعتقد أنّه كان من الصواب عدم إحضارنا لجوزي اليوم»، قالت الأمّ. «هي لم تكن على ما يرام. لكنّنا إذ نجلس هنا الآن

هكذا، أشعر أنّي أفتقدها حقّاً». نظرتْ حولها، واستدارت كي تلقي نظرةً على الشلّال. ثمَّ استدارتْ عائدة، وهي تنظر إلى الخلف منّي نحو المارّة، والكلاب، والص. ا. الآخرين. «حسنٌ، يا كلارا. بما أنَّ جوزي ليست هنا، أريدكِ أن تكوني جوزي، لقليلٍ من الوقت فقط. طالما أنّنا هنا».

- «آسفة. أنا لا أفهم».

- «لقد فعلتِ ذلك لأجلي مرّةً من قبل. يومَ حصلنا عليكِ من المتجر. أنتِ لم تنسِ، أليس كذلك؟».

- «أتذكّر، بالطبع».

- «أعني أنّكِ لم تنسِ كيفية القيام بذلك، أن تمشي مثل جوزي».

- «يمكنني أن أمشي على طريقتها. في الحقيقة، أنا الآن أعرفها بشكلٍ أفضل، وقد رأيتُها في ظروف ومواقف أكثر، فسأكون قادرةً على تقديم محاكاةٍ أكثر تعقيداً. لكن...».

- «لكن ماذا؟».

- «آسفة لم أقصد أن أقول ذلك».

نظرتْ الأمّ إليَّ، ثمَّ قالت: «حسنٌ. لكنّني لم أكن سأطلب منكِ تأدية تلك المشية على أيّة حال. نحن جالستان هنا، نحن الاثنتان فقط. بقعةٌ جميلة، يومٌ جميل. وكنتُ أتطلّع إلى وجود جوزي معنا هنا. لذا أنا أسألكِ يا كلارا، وأنتِ ذكيّة. لو أنّها الآن تجلس هنا بدلاً منكِ، كيف كانت ستجلس؟ لا أعتقد أنّها ستجلس بالطريقة التي تجلسين بها».

- «لا. جوزي ستكون أكثر... على هذا النحو».

ضاقت عينا الأمّ وهي تنحني مقتربةً منّي فوق سطح الطاولة حتّى

ملأ وجهها ثمانية مربّعات مركزية، تاركاً للشلّال المربّعات المحيطية فقط. شعرتُ للحظةٍ أنَّ تعابير وجهها تتغيّر بين مربّعٍ وآخر. كانت عيناها في أحد المربّعات على سبيل المثال تضحكان بقسوة، لكنّهما امتلأتا حزناً في المربّع التالي. انحسرتْ أصوات الشلّال والأطفال والكلاب لإفساح المجال لِما كانت الأمّ على وشك قوله.

- «هذا جيّد. هذا جيّدٌ جدّاً. لكن أريد منك الآن أن تتحرّكي. افعلي شيئاً. لا تتوقّفي عن كونكِ جوزي. دعيني أراكِ تتحرّكين قليلاً».

ابتسمتُ كما كانت ستبتسم جوزي، وجعلتُ جسدي يستقرُّ في وضعيةٍ يغلب عليها الترهّل وعدم الجدّية.

- «هذا جيّد. الآن قولي شيئاً. دعيني أسمعكِ تتحدّثين».

- «أنا آسفة. لستُ متأكّدة...».

- «لا، هذه كلارا. أريد جوزي».

مكتبة
t.me/soramnqraa

- «مرحباً أمّي. جوزي هنا».

- «جيّد. أكثر، هيّا».

- «مرحباً، أمّي. لا داعي للقلق حول أيِّ شيء، اتفقنا؟ لقد وصلتُ إلى هنا وأنا على ما يرام».

انحنت الأمّ أكثر فوق الطاولة، وأمكنني رؤية الفرح والخوف والحزن والضحك داخل المربّعات. ولأنَّ كلَّ شيءٍ آخر كان قد ساده الصمت، استطعتُ سماعها تكرّر بصوتٍ خافت: «هذا جيّد، هذا جيّد، هذا جيّد».

- «أخبرتكِ أنّني سأكون بخير»، قلتُ لها. «كانت ميلانيا محقّة. أنا لا أعاني من أيِّ شيء. متعبةٌ قليلاً فحسب، هذا كلُّ ما في الأمر».

- «آسفة يا جوزي»، قالت الأمّ، «آسفةٌ أنّي لم أحضركِ إلى هنا اليوم».

- «لا عليكِ. أعرف أنّكِ كنتِ قلقةً عليّ. أنا بخير».

- «أتمنّى لو كنتِ هنا. لكنّكِ لستِ كذلك. أتمنّى لو أستطيع جعلكِ تتوقّفين عن الإصابة بالمرض».

- «لا تقلقي يا أمّي. سوف أكون بخير».

- «كيف يمكنكِ قول ذلك؟ ماذا تعرفين عن الأمر؟ أنتِ مجرّد طفلة. طفلة تحبُّ الحياة وتؤمن أنَّ كلَّ شيءٍ يمكن إصلاحه. ماذا تعرفين عن الأمر؟».

- «لا بأس يا أمّي. لا تقلقي. سوف أتعافى قريباً. أنا أعرف كيف سيحدث ذلك أيضاً».

- «ماذا؟ ماذا تقولين؟ هل تعتقدين أنّكِ تعرفين أكثر من الأطبّاء؟ أكثر منّي؟ لقد قطعتْ أختكِ الوعود أيضاً. لكنّها عجزت عن الوفاء بها. لا تفعلي الشيء نفسه».

- «لكن أمّي. سال كانت مصابةً بمرضٍ مختلف. أنا سوف أتعافى».

- «حسنٌ، يا جوزي. أخبريني إذاً كيف ستتعافين؟».

- «هناك مساعدةٌ من نوعٍ خاص قادمة. شيءٌ لم يفكّر فيه أحدٌ بعد. سأصبح بعد ذلك بصحّة جيّدة مجدّداً».

- «ما هذا؟ مَن هذا الذي يتحدّث؟».

كان يمكنني الآن أن أرى في مربّعٍ تلو الآخر عظام وجنتيّ الأمّ بارزةً جدّاً تحت جلدها.

- «حقّاً، أمّي. سوف أكون بخير».

- «هذا يكفي. يكفي!».

نهضت الأمّ ومشتْ مبتعدة. تمكّنتُ عندئذٍ من رؤية الشّلال ثانيةً، وعاد ضجيجه - وضجيج الناس ورائي - أعلى من ذي قبل.

توقّفت الأمّ قرب الحاجز الخشبي الذي يحدّد أين تنتهي الأرض ويبدأ الشلّال. رأيتُ الضباب يطفو أمامها، وفكّرتُ أنّها ستبتلُّ خلال لحظات، لكنّها ظلَّتْ واقفة وظهرها إليّ.

ثمَّ استدارت أخيراً ولوّحتْ لي.

- «كلارا. تعالي إلى هنا. تعالي وأَلقي نظرة».

نهضتُ عن المقعد وذهبتُ إليها. لقد نادتني بـ «كلارا»، لذا عرفتُ أنّه عليَّ ألّا أحاول تقليد جوزي بعد الآن. أشارت لي أن أقترب أكثر.

- «هل ترين؟ هيّا أَلقي نظرة. لم يسبق لكِ أن رأيتِ شلّالاً من قبل. لذا أَلقي نظرة. ما رأيك؟».

- «إنّه رائع. مثيرٌ للإعجاب أكثر من الذي رأيتُه في المجلّة».

- «إنّه شيءٌ مميّز، أليس كذلك؟ أنا سعيدةٌ أنّكِ ترينه. والآن دعينا نعود أدراجنا. أنا قلقةٌ على جوزي».

لم تتكلّم الأمّ طوال طريق العودة نزولاً إلى السيارة. مشتْ بسرعة، وتقدّمتْ عليَّ دائماً بأربع خطواتٍ على الأقل، وكان عليَّ توخّي الحذر والحرص على عدم ارتكاب الأخطاء على الطريق المنحدر بشدّة نزولاً. نظرتُ بعيداً نحو الحقل لدى عبورنا النقطة التي رأينا الثور فيها، لكنَّ المخلوق الرهيب لم يكن الآن في أيِّ مكان حيث يمكن رؤيته، وتساءلتُ ما إذا كان قد أُعيد إلى باطن الأرض.

■

حين وصلنا إلى السيّارة، شرعتُ في الصعود إلى مقعدي المعتاد، لكنَّ الأمّ قالت:

- «اركبي في الأمام. سوف ترين بصورةٍ أفضل».

وهكذا ركبتُ إلى جانبها، وكان الأمر أشبه بالفرق بين وسط المتجر والنافذة. هبطنا نزولاً عبر الحقول، كان الشمس مرئياً بين الغيوم، ولاحظتُ كيف أنَّ الأشجار الطويلة في الأفق تجمّعت في زُمرٍ متراصّة من سبعة أو ثمانية أشجار، رغم أنَّ الفراغ كان في كلِّ مكان حولها. لحقت السيّارة بخطٍّ طويلٍ ورفيع على طول الأرض، ورأيتُ أنَّ ما ظهر في البداية على أنّه جزءٌ من نمط حقلٍ بعيد، كان في الواقع خرافاً.

مررنا بحقلٍ يحتوي على أكثر من أربعين مخلوقاً مثل هذه، ورغم أنّنا كنّا نتحرّك بسرعة كبيرة، إلّا أنّني استطعتُ أن أرى أنّ كلَّ واحدٍ منها كان أشبه بكتلةٍ من اللطف - على عكس الثور الرهيب تماماً. وقع نظري بشكلٍ خاص على أربعة خرافٍ بدت ألطف حتّى من البقيّة. كانت قد نظّمت أنفسها فوق العشب في صفٍّ أنيق، الواحد تلو الآخر، كما لو كانت ذاهبة في رحلة. لكنّني عرفتُ رغم مرورنا بسرعة أنَّ الخراف كانت تقف ثابتة بلا حراك، بصرف النظر عن الحركات البسيطة لأفواهها فيما هي تأكل العشب.

- «أنا ممتنّةٌ لكِ، يا كلارا. وجودكِ معي جعل الأمر غير سيّئٍ جدّاً».

- «أنا سعيدة جدّاً لذلك».

- «ربّما نفعل ذات الشيء مجدّداً إذا كانت جوزي مريضةً أكثر من أن تتمكّن من الخروج».

حين لم أقل شيئاً، قالت لي: «أنتِ لا تمانعين يا كلارا، أليس كذلك؟ أقصد أن نفعل شيئاً مثل هذا مجدّداً؟».

- «على الإطلاق، إذا كانت جوزي لا تستطيع الذهاب».

- «أتعرفين؟ أعتقد أنّه من الأفضل ألّا نقول شيئاً لجوزي حول هذا. لا شيء حول ما كنتِ تفعلينه هناك. أقصد تقليدك لها. قد تأخذ ذلك على نحوٍ خاطئ». ثمَّ بعد لحظة، سألتني: «نحن متّفقتان إذاً؟ لن تعرف جوزي شيئاً عن ذلك».

- «كما ترغبين».

كان يمكنني الآن رؤية قرية الصناديق المعدنية من بعيد مجدّداً، هذه المرّة كانت إلى يميننا. ظننتُ أنّها قد تقول شيئاً إضافياً عنها، أو عن الأب، لكنّها تابعت القيادة بصمت، ومن ثمَّ اختفت قرية الصناديق المعدنية. عندها فقط، قالت بشكلٍ مفاجئ:

- «يمكن للأطفال أن يكونوا مؤذيين في بعض الأحيان. هم يظنّون أنّه إذا كنتِ بالغة، فلا يمكن لشيءٍ أن يؤذيكِ. ومع ذلك، لقد نضجتْ بعض الشيء منذ وصولكِ. أصبحتْ أكثر مراعاة».

- «أنا سعيدةٌ بذلك».

- «إنّه شيءٌ ملحوظ. هي أكثر انتباهاً واهتماماً بالآخرين هذه الأيّام».

كان يمكنني رؤية شجرة لها جذعٌ كان في الواقع عبارة عن ثلاثة جذوعٍ رفيعة متداخلة على نحوٍ يجعلها تبدو كجذعٍ واحد. راقبتُها بعناية أثناء مرورنا، واستدرتُ في مقعدي كي أتمكّن من رؤيتها لفترة أطول.

- «ما قلتِه سابقاً»، قالت الأمّ، «حول أنّها ستتعافى. وأنَّ نوعاً

مميّزاً من المساعدة سيأتي. لقد كنتِ تتحدّثين وحسب، أليس كذلك؟».

- «أرجو أن تعذريني. أعرف أنّكِ والطبيب والمدبّرة ميلانيا تقيّمون جميعاً حالة جوزي بعناية شديدة، وترَون أنّها مقلقةٌ جدّاً. ومع ذلك، آمل أنّها ستتحسَّن قريباً».

- «هل هذا مجرّد أمل؟ أم هو شيءٌ أكثر تماسكاً تتوقّعين أن يحدث؟ شيءٌ لم تتمكّن بقيّتنا من رؤيته؟».

- «أفترض... أنّه مجرّد أمل. لكنّه أملٌ حقيقي. أنا أؤمن أنَّ جوزي ستصبح أفضل حالاً عمّا قريب».

لم تقل الأمّ شيئاً لبضع لحظات بعد ذلك، كانت عيناها تحدّقان عبر الزجاج الأمامي بنظرةٍ شديدة البعد والبرودة، لدرجة أنّني تساءلتُ ما إذا كانت تستطيع رؤية الطريق أمامنا. ثم قالت بهدوء:

- «أنتِ ص. ا. ذكية. ربّما تستطيعين رؤية أشياء لا تستطيع بقيّتنا أن تراها. ربّما أنتِ محقّةٌ في تفاؤلك. ربّما أنتِ محقّة».

■

حين وصلنا إلى المنزل، لم تكن جوزي في المطبخ أو في الردهة المفتوحة. وقفتْ الأمّ والمدبّرة ميلانيا في مدخل المطبخ وتحدّثتا بصوتٍ منخفض، وخمَّنتُ أنَّ المدبّرة ميلانيا كانت تبلِّغ أنَّ جوزي كانت بخير أثناء غيابنا. ظلّت الأمّ تومئ برأسها، ثم مشتْ عبر الرواق حتّى أسفل الدرج ونادت على جوزي. حين أجابتْ جوزي بكلمةٍ واحدة «حسنٌ»، بقيتِ الأمّ بلا حراك أسفل الدرج لبعض الوقت. ثمَّ هزَّتْ كتفيها وانطلقتْ نحو الردهة المفتوحة. كنتُ الآن لوحدي في الرواق، لذا صعدتُ الدرج إلى جوزي.

كانت تجلس فوق السجّادة، وظهرها إلى السرير، وركبتاها مثنيتان كي تسند لوح رسمٍ عليهما. كانت مركِّزةً على ما ترسمه وفي يدها قلم رصاص فلم تنظر إلى الأعلى حين حيّيتُها. تناثرت حولها عدّة أوراق ممزَّقة من لوح الرسم، بعضها مُزِّق بعد بضعة خطوط سريعة، وبعضها الآخر كان متخماً بالخطوط على نحوٍ مفرط.

- «أنا سعيدةٌ جدّاً أنَّ جوزي كانت على ما يرام»، قلتُ لها.

- «نعم، أنا بخير»، قالت دون أن ترفع نظرها على لوح الرسم. «إذاً، كيف كانت الرحلة؟».

- «كانت مذهلة. من المؤسف جدّاً أن جوزي لم تتمكّن من القدوم معنا».

- «نعم. كان ذلك سيّئاً للغاية. هل عاينتِ الشلّال؟».

- «نعم، لقد كان رائعاً».

- «هل استمتعتْ أمّي؟».

- «أعتقد ذلك. وبالطبع فقد افتقدتْ كثيراً لوجود جوزي هناك».

نظرتْ أخيراً نحوي بلمحةٍ سريعة من فوق لوح الرسم، ورأيتُ في عينيها نظرةً لم أرها من قبل. تذكّرتُ مجدّداً الصوت في الاجتماع التفاعلي، وسؤال جوزي لماذا لم تختر B3، وجوابها وهي تضحك «بدأتُ أفكّر الآن أنّه كان يجدر بي ذلك». ثم أشاحت بنظرها عنّي وبدأتُ ترسم ثانية. بقيتُ لوقتٍ طويل واقفةً في ذات المكان الذي كنتُ فيه لدى دخولي الغرفة في بداية الأمر. ثمَّ قلتُ لها في النهاية:

- «أنا آسفةٌ جدّاً إذا فعلتُ شيئاً أزعج جوزي».

- «لم تزعجيني. ما الذي يجعلكِ تظنّين ذلك؟».

- «إذاً نحن لا نزال صديقتين طيّبتين؟».

- «أنتِ الص. ا. خاصّتي، لذا يفترَض بنا أن نكون صديقتين طيّبتين، أليس كذلك؟».

لكن لم تكن هناك ابتسامةٌ في صوتها. كان واضحاً أنّها ترغب في أن تكون لوحدها وأن تتابع عملها على لوح الرسم، لذا تركتُ الغرفة، كي أقف خارجاً عند مصطبة الدَّرَج.

القسم الثّالث

كنتُ آمل أنَّ ظلال رحلة شلّالات مورغان ستكون قد تلاشت بحلول صباح اليوم التالي، لكن خاب أملي، إذ استمرَّ سلوك جوزي البارد لفترةٍ طويلة بعد ذلك.

الأمر الأكثر إثارةً للحيرة كان التغيير الذي أحدثتْهُ رحلة شلّالات مورغان على سلوك الأمّ. كنتُ أعتقد أنَّ الرحلة سارت على ما يرام، وأنّ جوّاً أكثر دفئاً سيسود بيننا الآن. لكنَّ الأمّ، كما جوزي، أصبحتْ أكثر بعداً، وباتت إذا صادفتْني في الرواق أو عند مصطبة الدرج لا تسلّم عليّ بنفس الطريقة كما كانت تفعل في السابق.

بعد ذلك، وبصورةٍ طبيعية، أخذتُ أفكّر كثيراً في السبب الذي جعل الاجتماع التفاعلي لا يلقي بأيِّ ظلالٍ على الإطلاق، بينما نجَم عن رحلة شلّالات مورغان مثل هذه العواقب رغم امتثالي لرغبات جوزي والأمّ. عاد إلى ذهني مجدّداً احتمال أنَّ محدودية قدراتي مقارنةً بـ B3 قد أعلنت عن نفسها بطريقةٍ ما في ذلك اليوم، وهو ما تسبّب في شعور كلٍّ من جوزي والأمّ بالندم على الخيار الذي اتّخذتاه. عرفتُ أنّه إذا كان الأمر على هذا النحو، فإنَّ أفضل مسار يمكنني أن أتّخذه هو أن أعمل بجدٍّ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى كي

أكون ص. ا. جيّدةً لجوزي إلى أن تنحسر تلك الظلال. في نفس الوقت، فإنَّ ما أخذ يصبح واضحاً بالنسبة لي هو مدى رغبة البشر في الهروب من الوحدة، عبر مناوراتٍ كانت شديدة التعقيد وعصيّةً على الفهم، ورأيتُ أنّه من الممكن أنَّ عواقب شلّالات مورغان لم تكن في أيِّ مرحلةٍ ضمن نطاق سيطرتي.

لكن نظراً إلى ما آلت إليه الأمور، لم يكن لديَّ وقتٌ طويل للتركيز على الظلال التي ألقتها شلّالات مورغان، لأنّ صحّة جوزي انهارت تماماً بعد عدّة أيّامٍ من تلك الرحلة.

■

أصبحتْ جوزي أضعف من أن تنزل في الصباحات من أجل القهوة السريعة مع الأمّ. لذا، كانت الأمّ تصعد بدلاً من ذلك إلى غرفة النوم وتقف فوق هيئة جوزي المستغرقة في النوم، مبقيةً ظهرها منتصباً تماماً حتّى وهي ترتشف قهوتها وتنظر إلى السرير.

بمجرّد مغادرة الأمّ لبقيّة اليوم، كانت المدبّرة ميلانيا تتولّى زمام الأمور، فتحرّك الكرسيّ المريح إلى جانب السرير وتجلس هناك مع لوحها المستطيل في حِجرها، وعيناها تتنقّلان ذهاباً وعودة بين الشاشة وجوزي النائمة. وفي أحد هذه الصباحات، وبينما كنتُ أقف عند باب غرفة النوم في وضع الاستعداد لتقديم المساعدة، استدارت المدبّرةُ ميلانيا وقالت:

- «أيّتها الص. ا. أنتِ تقفين ورائي طوال الوقت، أنتِ تخيفينني. اذهبي للخارج».

لقد قالت «الخارج». استدرتُ نحو الباب قبل أن أسأل بهدوء: «معذرةً أيّتها المدبّرة. هل تقصدين خارج المنزل؟».

- «خارج الغرفة، خارج المنزل، مَن يهتمّ؟ عودي سريعاً إذا بعثتُ بإشارة».

لم أكن قد ذهبت إلى الخارج من قبل بمفردي. لكن كان واضحاً أنّه برأي المدبّرة ميلانيا لم يكن هناك سببٌ يمنعني من القيام بذلك. نزلتُ على الدرج بحذر، وتسلّلتُ الإثارة إلى ذهني رغم قلقي بشأن جوزي.

عندما خرجتُ إلى الأحجار الرخوة، كان الشمس عالياً في السماء، لكنّه بدا مرهَقاً. لم أكن واثقةً إن كان يجدر بي إغلاق باب المنزل خلفي، لكن في نهاية الأمر، وحيث إنّه لم يكن هناك مارّةٌ في الجوار، ولم أكن أرغب في إزعاج جوزي لدى عودتي بصوت صرير الباب، فقد تركتُ الباب شبه مغلق دون إغلاق القفل. ثم تقدّمتُ أبعد في الخارج.

إلى اليسار منّي كان يمكنني رؤية تلّة العشب حيث التقيتُ بريك حين كان يطيّر طيوره. وراء التلّ كان هناك الطريق الذي كانت الأم تسلكه لدى مغادرتها كلّ صباح - والذي سافرتُ عليه بنفسي إلى شلّالات مورغان. لكنّني أدرتُ ظهري لهذه المشاهد وسرتُ في الاتّجاه المعاكس، واجتزتُ الأحجار الرخوة إلى حيث صار لديَّ إطلالةٌ واضحة للحقول خلف المنزل.

كانت السماء شاحبةً وواسعة. ونظراً لأنَّ الحقول كانت ترتفع تدريجياً مع ابتعاد المسافة، فقد ظلّت حظيرة السيّد ماكبين مرئية رغم أنّني لم أعد أستفيد من ميّزة ارتفاع النافذة الخلفية. كان تمييز أوراق العشب أكثر سهولة هنا ممّا هو عليه الحال من غرفة النوم، لكنَّ التغيير الرئيسي كان أنّني استطعتُ الآن رؤية منزل ريك ينتصب عالياً فوق العشب. أدركتُ أنّه لو وُضعت النافذة الخلفية أكثر قليلاً

إلى اليسار لكان منزل ريك سيصبح مرئياً أيضاً من غرفة النوم.

لكنّني لم أمعن التفكير في منزل ريك، لأنَّ ذهني عاد ليمتلئ بالقلق على جوزي، وبالتحديد بالسؤال عن سبب عدم قيام الشمس بإرسال مساعَدته المميّزة بعد، كما فعل مع الرجل المتسوّل وكلبه. كنتُ قد توقّعتُ في البداية أن يساعد الشمس جوزي في الأيام التي أمستْ فيها ضعيفة قبل شلّالات مورغان. ثمَّ تقبّلتُ بعد ذلك أنّه ربّما كان محقّاً في الانتظار عند تلك المرحلة، لكن الآن وقد ضعفت جوزي كثيراً، مع عدم اليقين الذي بات يشوب الكثير من الأشياء المتعلّقة بمستقبلها، فقد كان استمرار تأخّره أمراً محيّراً.

كنتُ قد فكّرتُ مليّاً بالفعل في هذه المسألة، لكنّني كنتُ الآن في الخارج بمفردي، الحقول قريبةٌ جدّاً والشمس يرتفع عالياً فوقي، وكان بوسعي تجميع الكثير من التخمينات. أمكنني أن أفهم أنّه وبقدر ما كان كرَمه عظيماً، فإنَّ الشمس مشغولٌ للغاية؛ وأنَّ هناك الكثير من الأشخاص الذين يتطلّبون اهتمامه إضافةً إلى جوزي؛ وأنّه يمكن أن يُتَوقّع حتّى من الشمس أن تفوته حالاتٌ فردية مثل حالة جوزي، خاصةً إذا بدا أنّه يتمُّ الاعتناء بالحالة جيّداً من قِبل أمٍّ، ومدبّرة منزل، وص. ا. خطر لي أنّه لكي تحصل جوزي على مساعدةٍ مميّزة من الشمس، فقد يكون من الضروري لفتُ انتباهه إلى حالة جوزي بطريقةٍ محدّدة وملحوظة.

مشيتُ فوق الأرض الطريّة حتّى صرتُ بجانب السياج الفاصل عن الحقل الأوّل، وأمام بوّابةٍ خشبية تشبه إطار صورة. كان يمكن فتح البوّابة بسهولة عبر رفع عقدة الحبل المعلّقة على عمود البوّابة، ورأيتُ عندئذٍ أنّني أستطيع الانتقال إلى الحقل الثاني دون عوائق. بدا العشب في الحقل طويلاً جدّاً - ومع ذلك فإنَّ ريك وجوزي كانا

قد تدبّرا وهما طفلان صغيران السير فيه على طول الطريق إلى حظيرة السيّد ماكبين. استطعتُ أن أرى بداية دربٍ يخوض داخل العشب كان قد فُتِح بأقدام المارّة، وتساءلتُ عن إمكانية أن أقوم بنفس الرحلة. فكّرت أيضاً في المرّة التي منح فيها الشمس غذاءه المميّز للرجل المتسوّل وكلبه، وأخذتُ في الاعتبار الاختلافات المهمّة بين حالته وحالة جوزي. بدايةً، كان الكثير من المارّة يعرفون الرجل المتسوّل، ولمّا أصابه الضعف، كان ذلك وسط شارعٍ مزدحم، حيث الرجل مرئيٌّ لسائقي سيّارات الأجرة والعدّائين. من الممكن أنَّ أيّاً من هؤلاء قد لفت انتباه الشمس إلى حالة الرجل وكلبه. والأهمّ من ذلك أنّني تذكّرتُ ما الذي كان يحدث قبل وقتٍ ليس بطويل من تقديم الشمس غذاءه المميّز للرجل المتسوّل. كانت آلة كوتينغز تتسبّب في إحداث تلوّثها الفظيع، الأمر الذي أجبر حتّى الشمس على التراجع لبعض الوقت، وقد أتت تلك المساعدة خلال الحقبة الجديدة بعد أن اختفت الآلة الشنيعة، حيث قدّم الشمس مساعدته المميّزة وهو مرتاح والسعادة تغمره.

بقيتُ لبعض الوقت أمام بوّابة إطار الصورة، أراقب العشب يميل في اتّجاهٍ ثم في اتّجاهٍ آخر، وأتساءل ما الدروب الأخرى التي قد تكون مخبّأةً بداخله، وكيف يمكنني المساعدة في إنقاذ جوزي من مرضها. لكنّني لم أكن معتادةً بعد أن أكون في الخارج بمفردي، وأمكنني أن أشعر بفقدان حسّ الاتّجاه وقد بدأ يسيطر عليّ. لذا استدرتُ مبتعدةً عن الحقول وعدتُ أدراجي إلى المنزل.

■

قام الطبيب رايان بزياراتٍ متكرّرة خلال هذه الفترة، وقضتْ

جوزي فتراتٍ طويلة من اليوم وهي نائمة. كان الشمس يسكب غذاءه العاديّ كلَّ يوم، وغالباً ما كان نسقه يهبط فوق هيئتها المتّخذة وضعية النوم، لكن لم يكن هناك ما يدلُّ على مساعَدته المميّزة. لكن مرّةً أخرى، ربّما كان الشمس محقّاً في الانتظار، لأنَّ جوزي كانت تصبح أقوى شيئاً فشيئاً، حتّى تمكّنت في النهاية من الجلوس في السرير.

حذَّرها الطبيب رايان من استئناف دروسها على لوحها المستطيل، فحلّت بذلك الأيّام حيث بدأت تجلس في السرير مدعومةً بوسائدها، وأبدعتِ العديد من الرسومات بواسطة أقلام الرصاص الحادّة ولوح الرسم. كانت كلّما أنهتْ لوحة، أو قرّرت التخلّي عن واحدة، تمزّقها وتلقي بها في الهواء، فتهبط طافيةً على السجّادة، وأصبح من واجبي تجميع هذه الأوراق معاً في أكوام مرتّبة.

إذ قلّتْ زيارات الطبيب رايان، ازدادت زيارات ريك. لطالما كانت المدبّرة ميلانيا متوجّسةً حيال ريك، لكن حتّى هي استطاعت أن ترى كم رفعت زياراته من معنويات جوزي. لذا سمحتْ بتلك الزيارات رغم إصرارها ألّا تزيد عن ثلاثين دقيقة. في عصر ذلك اليوم، حين ظهر ريك في غرفة النوم لأوّل مرة، هممتُ بالمغادرة كي أوفّر بعض الخصوصية، لكنَّ المدبّرة ميلانيا أوقفتني عند مصطبة الدرج، وهمست: «لا، يا ص. ا.! أنتِ تبقين هناك. احرصي أن لا يكون هناك أيُّ نوعٍ من العبث».

لذا فقد بات أمراً طبيعياً بالنسبة لي أن أبقى أثناء زيارات ريك، رغم أنّه كان ينظر إليّ أحياناً بعينين تقولان «ابتعدي من هنا»، ورغم أنّه لم يتحدّث إليَّ أبداً حتى ليقول مرحباً أو وداعاً. لو أنَّ جوزي

أعطت إشارات «ابتعدي من هنا» فما كنتُ سأبقى حتّى بعد تعليمات المدبّرة ميلانيا. لكنَّ جوزي بدت سعيدةً بحضوري - اعتقدتُ حتّى أنّها استمدّتْ راحةً منه - رغم أنّها لم تشركني أبداً في أحاديثهما.

بذلتُ ما بوسعي لتوفير بعض الخصوصية عبر البقاء على أريكة الأزرار وتثبيت نظري على الحقول في الخارج. لم أستطع منع نفسي عن سماع ما يقال خلفي، ومع أنّني فكّرتُ أحياناً أنّه لا ينبغي بي أن أستمع إليهما، لكنّي تذكّرتُ أنّه من واجبي أن أتعلّم كلّ ما يمكنني تعلّمه عن جوزي، وأنّه من خلال الاستماع على هذا النحو قد أتمكّن من جمع ملاحظات جديدة لن تكون متاحةً لي بغير ذلك.

اندرجت زيارات ريك خلال هذه الفترة في ثلاثة أطوار. في الطور الأول، كان لدى وصوله ينظر حوله بتوتّر، ويتصرّف طوال الثلاثين دقيقة كما لو أنَّ أيَّ حركةٍ غافلة يقوم بها قد تتلف الأثاث. اتّخذ لنفسه في هذا الطور عادة الجلوس على الأرض أمام خزانة الملابس، مسنِداً ظهره على أبوابها. استطعتُ من مكاني على أريكة الأزرار أن أرى انعكاسهما على النافذة، وبوجود ريك في ذلك الموضع، وجوزي جالسة في السرير، فقد بديا وكأنهما يجلسان جنباً إلى جنب، باستثناء أنَّ جوزي كانت في مستوىً أعلى.

طوال هذا الطور كانت الأجواء اللطيفة هي السائدة، وغالباً ما مرّت الثلاثون دقيقة دون أن تقال أشياء جوهرية. غالباً ما تشارك الولدان ذكرياتهما حين كانا أصغر سنّاً، وألقيا النكات حولها. لم يتطلّب الأمر سوى كلمة أو إشارة واحدة لإثارة ذكرى من هذا النوع، فيصبحان في الحال منغمسَين فيها. كانا في لحظاتٍ كهذه يتحدّثان بلغةٍ كالشيفرة، الأمر الذي جعلني أتساءل إن كان هذا بسبب وجودي معهما في الغرفة، لكنّني سرعان ما فهمت أنَّ الأمر ببساطة يتعلّق

بمعرفتهما الوثيقة بحياة أحدهما الآخر، وأنّه لم تكن هناك نيّةٌ لمنعي من الفهم.

في البداية، لم تمارس جوزي الرسم أثناء استضافتها لريك. لكن، وإذ أصبحا أكثر استرخاءً، فإنّها غالباً ما كانت ترسم طوال الثلاثين دقيقةٍ بأكملها، وتمزّق الأوراق خلال العملية، وتسمح لها بالطفو إلى حيث كان ريك يجلس. وكانت هذه هي الطريقة التي - ببراءة تامّة في البداية - بدأت بها لعبة الفقاعة.

كان وصول لعبة الفقاعة بمثابة البداية للطور الثاني من زيارات ريك. من المحتمل أن تكون لعبة الفقاعة عبارةً عن لعبةٍ اخترعاها منذ وقتٍ طويل خلال طفولتهما. ومن المؤكّد أنّه حين بدأت اللعبة هذه المرّة، لم تكن هناك حاجةٌ إلى التعليمات فيما بينهما. كانت جوزي قد بدأت ببساطة برمي رسوماتها إلى ريك، بينما كانا يواصلان خوض أحاديثهما غير المترابطة، حتّى قام عند نقطةٍ ما بتفحّص إحدى الرسومات ثمَّ قال:

- «حسنٌ. هل هذه لعبة الفقاعة الآن؟».

- «إذا أردتَ ذلك. فقط إذا أردت ذلك، ريكي».

- «ليس لديّ قلم رصاص. ارمِ لي واحداً من الأقلام الغامقة».

- «أحتاج كلَّ الأقلام الغامقة هنا. مَن الفنّان هنا بأيِّ حال؟».

- «كيف يمكنني عمل الفقاعات إن كنتِ لن تقرضيني حتّى قلم رصاص؟».

حتّى وأنا أدير ظهري لهما، لم يكن من الصعب التكهّن بالخطوط العامّة لهذه اللعبة. كنتُ قادرةً حال مغادرة ريك في نهاية كلّ نصف ساعة على معاينة الأوراق بينما أقوم بجمعها عن الأرض. وعندها بدأتُ أقدِّرُ الأهمّية المتزايدة لهذه اللعبة لدى كليهما.

كانت رسومات جوزي تتّسم بالمهارة، وعادةً ما صوّرت تلك الرسومات شخصاً، أو اثنين، أو ثلاثة اشخاص معاً في بعض الأحيان، وكانت رؤوسهم تُرسم على نحوٍ متعمّد لتكون كبيرةً جدّاً نسبةً إلى أجسادهم. دائماً ما كانت الوجوه خلال تلك الزيارات الباكرة تميل إلى أن تكون لطيفة، وقد رُسمت فقط بقلم رصاصٍ أسود حادّ، بينما رُسمت أكتافهم وأجسادهم والمحيط بأقلام رصاص ملوّنة. تركت جوزي في كلِّ رسمٍ فقاعةً فارغة تحوم فوق رأسٍ أو رأسٍ آخر - أحياناً ما تكون فقاعتين فوق رأسين - كي يملأها ريك بكلماتٍ مكتوبة. فهمتُ سريعاً أنّه حتّى عندما لم تكن الوجوه تشبه ريك أو جوزي، فإنّه من الممكن في عالم هذه اللعبة أن تمثّل صور كلّ الفتيات جوزي، وصور كلّ الأولاد ريك. وبالمثل، يمكن لشخصياتٍ أخرى أن تمثّل آخرين في حياة جوزي - الأمّ، أو أطفالاً آخرين من الاجتماع التفاعلي، وآخرين لم أكن قد قابلتُهم بعد. رغم أنّه كان من الصعب عليَّ أن أفهم مَن مثّلت الكثير من تلك الوجوه، لم يبدُ أنَّ ريك يعاني من مثل هذه المشكلة. لم يطلب قطُّ توضيحاً بشأن الرسومات التي كانت ترفرف هابطةً إليه، ولطالما دوَّن كلماته داخل الفقاعات دون أيِّ تردّد.

سرعان ما فهمتُ أنَّ الكلمات التي كتبها ريك داخل الفقاعات تمثّل أفكاراً، وفي بعض الأحيان كلاماً يقوله الأشخاص في الرسومات، وهذا بحدِّ ذاته يجعل مهمّته تنطوي على بعض المخاطر. كنتُ من البداية قلقة من أنَّ شيئاً رسمتْه جوزي، أو شيئاً كتبه ريك، سوف يسبّب التوتّر. لكن بدا خلال هذا الطور أنَّ لعبة الفقاعة تتمخّض فقط عن متعةٍ وذكريات حلوة، وكنتُ أرى انعكاس صورتهما عبر الزجاج، يضحكان ويشيرُ كلٌّ منهما بإصبع السبّابة إلى الآخر. لو

أنّهما ركّزا فقط على لعبتهما كما لعباها في البداية - لو أنّهما ظلّا يركّزان في أحاديثهما على الرسومات فحسب - فلربّما ما كانت التوتّرات لتتسرّب بينهما. لكن وفيما واصلتْ جوزي الرسم، وريك ملء الفقاعات، فقد بدآ يتحدّثان بمواضيع لا علاقة لها بالرسومات.

في عصر أحد الأيام المشمسة، وحيث كان نسق الشمس يلامس قدميّ ريك الجالس مستنداً على خزانة الملابس العصرية، قالت جوزي:

- «أتعرف، يا ريكي؟ أتساءل بسبب طريقتك في السؤال دائماً عن هذا البورتريه(*) إن كنتَ تشعر بالغيرة».

- « لم أفهم. هل تقصدين أنّكِ ترسمين لي بورتريهاً الآن؟».

- «لا، ريكي. أعني استمرارك في إثارة موضوع البورتريه الخاص بي. البورتريه الذي يرسمه لي ذاك الرجل في المدينة».

- «أوه، ذاك البورتريه. حسنٌ، لقد ذكرتُ الأمر مرّةً واحدة على ما أعتقد. هذا بالكاد يجعلني أثير الموضوع طوال الوقت».

- «أنتَ تثيره طوال الوقت. فعلتَ ذلك مرّتين البارحة فحسب».

توقّفتْ يد ريك عن الكتابة مؤقّتاً، لكنّه لم يرفع نظره. «أفترض أنّني أشعر بالفضول. ولكن كيف يمكن لأحدٍ أن يشعر بالغيرة حيال إنجاز بورتريه خاص بكِ؟».

- «يبدو هذا غبيّاً. لكنَّكَ تعطي ذلك الإيحاء بكل تأكيد».

بقيا صامتين في اللحظات القليلة التالية، وظلّا منكبَّين على المهام التي بين أيديهما. ومن ثمَّ قال ريك:

(*) رسمٌ تصويري للوجه - المترجم.

- «ما كنتُ لأقول إنّي أشعر بالغيرة. أنا قلق بالأحرى. هذا الشخص، هذا الشخص الفنّان. حسنٌ، إنّ كلَّ ما تقولينه عنه يبدو مفزعاً».

- «إنّه يرسم بورتريهاً لي فحسب، هذا كلُّ شيء. هو شخص محترمٌ، ويحرص دائماً على عدم إرهاقي».

- «هو لا يبدو كشخصٍ مريح أبداً. أنتِ تقولين إنّني أستمرُّ في إثارة هذا الموضوع. حسنٌ، هذا لأنّه في كلِّ مرّةٍ أفعل فيها ذلك، تقولين شيئاً آخر يجعلني أفكّر «يا إلهي، هذا الأمر أصبح مفزعاً»».

- «ما المفزع بشأنه؟».

- «إليكِ السبب: لقد زرتِ الأستوديو الخاص به، كم مرّة، أربع مرّات؟ لكنّه لم يُرِكِ أيَّ شيء. لا رسومات أوليّة، لا شيء. كل ما بدا أنّه يفعله هو التقاط صورٍ قريبة. هذا الجانب منك، وذاك الجانب منكِ. هل هذا ما يفعله الفنّانون حقّاً؟».

- «إنّه يفضّل الصور لأنّني بذلك لن أشعر بالإرهاق جرّاء جلوسي على الطريقة القديمة بلا حراك لساعات طويلة. بهذه الطريقة سأكون هناك لعشرين دقيقة فقط في كلِّ مرة. هو يلتقط الصور التي يحتاجها في كلِّ مرحلةٍ على حدى. وأمّي تكون هناك دائماً. اسمع، هل تظنُّ أنّها ستوظّف منحرفاً ما ليرسم بورتريهاً لي؟».

لم يقل ريك شيئاً. وتابعت جوزي:

- «أعتقد أنّه نوعٌ من الغيرة يا ريكي. لكن أتعلم؟ أنا لا أمانع ذلك. هذا يُظهر أنّكَ تأخذ الموقف الصحيح. وأنّكَ تنزع لتلعب دورك كحامٍ لي. هذا يشير إلى أنّكَ تفكّر في خطّتنا. لذا لا تقلق».

- «أنا لستُ قلقاً. هذا اتّهامٌ سخيف».

- «إنّه ليس اتّهاماً. أنا لا أقول إنّه مثل شيءٍ ذي طابعٍ جنسيّ أو ما شابه. ما أقوله هو أنَّ هذا البورتريه ليس إلّا جزءاً صغيراً من العالم الكبير في الخارج، وأنتَ قلقٌ من أنّه قد يشكّل عقبةً في طريقنا. حين أقول إنّكَ قد تكون غيوراً، فأنا أقصد ذلك بهذا المعنى فقط».

- «هذا منصف».

على الرغم من الإشارة إليها بشكلٍ متكرّر، فإنَّ «خطّتهما» نادراً ما نوقشت بالتفصيل. مع ذلك، فقد بدأتُ خلال هذا الطور من الزيارات - التي لا تزال لطيفة - بتجميع تعليقاتهما المتنوّعة حولها (الخطّة) في رؤيةٍ متماسكة. توصّلتُ إلى فهم أنَّ الخطّة لم تكن شيئاً كانا قد قاما ببنائه بعناية، بل كانت أقرب إلى أمنيةٍ غامضة تتعلّق بمستقبلهما. أدركتُ أيضاً أهميّة هذه الخطة بالنسبة لأهدافي الخاصّة؛ وأنّه مع تكشّف ما يخبّئه المستقبل، وحتّى لو تدبّرنا أنا والأم والمدبّرة ميلانيا أن نبقى بالقرب منها طوال الوقت، فلربّما لن تكون جوزي، من دون الخطّة، في منأىً عن الشعور بالوحدة.

■

ثم جاءت النقطة حيث توقّفت لعبة الفقاعة عن كونها سبباً للضحك، وصارت بدلاً من ذلك مصدراً للخوف وعدم اليقين. أرى اليوم أنَّ هذا مثّل الطور الثالث والأخير من زيارات ريك في تلك الفترة.

من الصعب الآن تحديد مَن منهما الذي قلَب الحالة المزاجية أوّلاً. في الطورين السابقين، غالباً ما كانت رسومات جوزي تنجَز بغرض استعادة أحداثٍ مسلّية أو سعيدة كانا قد تشاركاها في

الماضي. كان هذا أحد الأسباب التي جعلت ريك قادراً على ملء الفقاعات بسرعةٍ وبقليلٍ من التردّد. لكن الآن كان ثمّة شيءٌ قد تغيّر في ردود فعل ريك لدى هبوط الأوراق الطافية إليه. كان على نحوٍ متزايد يطيل التحديق بها للحظاتٍ طويلة، ثمّ يتنهد أو يعبس. ثمَّ حين يكتب كلماته، فإنّه كان يفعل ذلك ببطءٍ وبتركيزٍ أكبر، ولا يردُّ في الغالب على أيِّ شيءٍ تقوله جوزي حتّى ينتهي. كما بات من الصعب التنبّؤ بردود فعل جوزي حين يعيد ريك الأوراق إليها. قد تتفحّص ورقةً بعينين خاليتين من التعبير ثمَّ تدسّها وسط أغطية فراشها دون أيِّ تعليق. أو كانت في أحيان أخرى تنقر بإصبعها ورقةً منجَزة، معيدةً إيّاها إلى الأرض، لكن إلى بقعةً بعيدة عن متناول ريك.

كانت الحالة المزاجية تعود بين الحين والآخر إلى سابق عهدها، فيضحكان أو يتجادلان بصورةٍ ودّية. لكن وعلى نحوٍ متزايد كان يمكن لرسمٍ لجوزي أو كلماتٍ لريك أن يتسبّبا في أخذٍ وردٍّ غير لطيفين. مع ذلك، فقد كانت الأجواء اللطيفة تعود غالباً لدى إعلان المدبّرة ميلانيا نهاية الدقائق الثلاثين.

■

ذات مرّة، مدَّ ريك يده والتقط ورقة، نظر إليها بعناية، ثم وضع قلمه الرصاص جانباً. ظلَّ ينظر إلى الرسم لبعض الوقت، إلى أن لاحظت جوزي ذلك من السرير، فتوقّفت عن الرسم.

- «هل من خطب، يا ريكي؟».
- «هممم. كنتُ أتساءل فقط ماذا يفترض بهؤلاء أن يكونوا؟».
- «كيف يبدون؟».
- «هؤلاء الذين يتحلّقون حولها. هل أفترض أنّهم كائنات

فضائية؟ يبدو أنَّ لديهم مقلة عينٍ عملاقة بدلاً من الرأس. آسفٌ إذا كنتُ قد فهمت كل هذا على نحوٍ خاطئ».

- «لم تفهم كل شيءٍ على نحوٍ خاطئ». كانت هناك برودة في صوتها، والقليل من الخوف أيضاً. «حسنٌ، على الأقل ليس بشكلٍ كامل. هم ليسوا بكائناتٍ فضائية. هم فقط... ما هم عليه».

- «لا بأس. إنّهم عشيرة مقلة العين الواحدة. لكن المثير للقلق هو طريقتهم جميعاً في التحديق إليها».

- «ما المقلق فيها؟».

ساد الصمت خلفي، ورأيت في انعكاس النافذة ريك وهو يواصل التحديق في الورقة.

- «إذاً ما المقلق فيها؟»، سألتْ جوزي ثانية.

- «لستُ متأكّداً. إنّها فقاعةٌ كبيرة جدّاً تلك التي صنعتِها لها أيضاً. لستُ واثقاً ماذا يجب أن أكتب».

- «اكتب أيّاً كان ما تعتقد أنّها تفكّر فيه. ليس الأمر مختلفاً عن الرسومات الأخرى».

حلَّ صمتٌ آخر. صورة الشمس على الزجاج جعلت من الصعب رؤية انعكاسهما، وكانت تغريني بشدّة فكرة الاستدارة نحوهما، رغم أنَّ هذا قد يقلّل من الخصوصية. لكن قبل أن أتمكّن من فعل ذلك، قال ريك:

- «إنَّ عيونهم مفزعة حقّاً. والمفزع أكثر من ذلك أنّها تبدو وكأنّها تريدهم أن يواصلوا التحديق فيها».

- «هذا تفكير مريضٌ حقّاً، يا ريكي. لمَ قد تريد شيئاً كهذا؟».

- «لا أعلم. أخبريني أنتِ».

- «كيف يسعني أن أخبرك؟». باتت نبرة الانزعاج واضحةً في صوت جوزي الآن. «مَن وظيفته إنجاز الفقاعات؟».

- «إنّها نصف مبتسمة. كما لو أنّها سعيدةٌ في أعماقها».

- «لا يا ريكي، هذا خطأ. هذا تفكيرٌ مريض فحسب».

- «أنا آسف. لا بدَّ أنّي أسيء التفسير».

- «أنتَ حقّاً كذلك. لذا أسرع وأنجز فقاعتها. الرسم التالي هنا يكاد ينتهي. ريك، هل أنتَ معي؟».

- «ربّما يمكنني تفويت هذه».

- «أوه، بالله عليك!».

كان الشمس قد تراجع الآن، وكان بإمكاني رؤية ريك عبر الزجاج وهو يرمي الورقة بلطفٍ على الأرض كي تنضمَّ إلى الكومة الفوضوية الآخذة بالتراكم قرب سرير جوزي.

- «أنا محبطةٌ يا ريك».

- «لا ترسمي مثل تلك الصور إذاً».

ساد صمتٌ جديد. كان يمكنني رؤية جوزي فوق السرير، تتظاهر أنّها منغمسة في رسمها التالي. لم يعد بإمكاني رؤية انعكاس ريك جيّداً، لكنّي عرفتُ أنّه بقي في مكانه عند خزانة الملابس العصرية، يحدّق إلى الأمام منّي عبر النافذة الخلفية.

■

عادةً ما تكون جوزي متعَبةً بعد انتهاء زيارات ريك، وكانت ترمي أقلام الرصاص ولوح الرسم والأوراق المنزوعة منه على الأرض، ثم تستلقي مستريحةً على بطنها. كنتُ في هذه اللحظات أنهض عن أريكة الأزرار كي ألتقط الأغراض الكثيرة التي باتت

مبعثرةً على الأرض الآن، وعندها تتاح لي الفرصة كي أرى ما الذي كانا يناقشانه خلال الزيارة.

حتّى وهي تضغط بخدّها على الوسادة، فإنَّ جوزي في الواقع لم تكن نائمة، وغالباً ما استمرَّت في إعطاء ملاحظات وهي مغمضة العينين. فقد كانت مدركةً تماماً أنّني كنتُ أتفحّص الرسوم أثناء تجميعها، ومن الواضح أنّها لم تكن تمانع ذلك. من المحتمل حتى أنّها تمنّت أن أنظر إلى كلِّ واحدةٍ منها.

ذات مرّة، أثناء قيامي بهذا الترتيب، حدث أن التقطتُ ورقة، ورغم أنّني لم ألقِ عليها إلّا نظرة سريعة فحسب، إلّا أنّني تأكّدتُ على الفور أنَّ الوجهين الرئيسيين في الرسم يفترض أن يمثِّلا ميسي والفتاة طويلة الذراعين من الاجتماع التفاعلي. كانت هناك بالطبع العديد من الأخطاء، لكنَّ نيّة جوزي كانت واضحة. الأختان كانتا في واجهة الصورة، وتعلو وجهيهما تعابير غير لطيفة، بينما تجمهرت حولهما وجوهٌ أخرى أقلُّ اكتمالاً. ورغم أنّه لم يكن هناك تفاصيل تتعلّق بالأثاث فقد عرفتُ أنَّ الخلفية كانت الردهة المفتوحة. لولا تلك الفقاعة فوقه لكان من السهل عدم ملاحظة ذلك المخلوق الصغير عديم الملامح المحشور في الفراغ الصغير بين الأختين. على العكس من هيئة ميسي والفتاة طويلة الذراعين، فقد افتقرَ هذا المخلوق إلى السمات البشرية المعتادة، كالوجه والكتفين والذراعين، وكان أشبه بإحدى نقط المياه التي تتشكّل على سطح الجزيرة بالقرب من حوض الغسيل. في الواقع، لولا تلك الفقاعة، ربّما ما كان ليخطر ببال أحدٍ أنَّ الهدف من هذا الشكل كان تمثيل شخصٍ في الأساس. كانت الأختان تتجاهلان شخص نقطة الماء تماماً، رغم قربه منهما. كتب ريك داخل الفقاعة:

- «يعتقد الأولاد الأذكياء أنّه لا شكل لي. لكن لي شكل في الحقيقة. أنا أبقيه مخفيّاً فحسب. فمَن الذي قد يهتمُّ بجعلهم يرَون؟».

رغم أنّني لم ألمح الرسم لأكثر من ثانية واحدة، فقد عرفتْ جوزي أنّني استوعبتُه، وقالت لي من السرير بصوتٍ ناعس:

- «ألا تعتقدين أنّه من الغريب أن يكتب ذلك؟».

إذ ضحكتُ ضحكةً صغيرة وتابعتُ عملية الترتيب، أكملتْ هي بالقول:

- «هل تظنّينه يعتقد أنّي قصدتُ أنّه هو؟ أعني ذاك الشخص الضئيل بين الشرّيرتين؟ هل تفترضين أنّه لهذا السبب ملأ الفقاعة على ذلك النحو؟».

- «هذا وارد».

- «لكنّكِ لا تعتقدين ذلك. أليس كذلك يا كلارا؟». ثمّ قالت: «كلارا، هل تصغين إليّ؟ هيّا. هل يمكننا الحصول على تعليقك هنا؟».

- «الأكثر ترجيحاً أنّه افترض أنَّ الشخص الضئيل كان جوزي».

لم تقل شيئاً بينما كنتُ أرتبُ الأوراق في أكداس وأضعها مع سابقاتها في مساحة تحت طاولة الزينة. اعتقدتُ أنّها كانت قد استغرقت في النوم حين قالت فجأة:

- «ما الذي يجعلكِ تقولين ذلك؟».

- «إنّه مجرّد تقدير. أظنُّ أنَّ ريك فكّر أنَّ الشخص الضئيل هو جوزي. وأعتقد أنَّ ريك كان يحاول أن يكون لطيفاً».

- «لطيف؟ لمَ قد يكون لطيفاً؟».

- «أعتقد أن ريك يشعر بالقلق على جوزي. وكيف يبدو أنّها تتغير في مواقف متنوّعة. لكنَّ ريك يتصرّف بلطفٍ في هذا الرسم. لأنّه يلمّح أنَّ جوزي ذكية بحيث تحمي نفسها ولا تتغيّر حقّاً».

- «إذاً، ماذا لو أردتُ أن أتصرّف على نحوٍ مختلف أحياناً؟ مَن يريد أن يبقى كما هو طوال الوقت؟ المشكلة مع ريك أنّه دائماً ما يأخذ في توجيه الاتّهام إليّ حين أكون على أيّة حالٍ لا يعجبه. وهذا لأنّه يريدني أن أبقى كما كنتُ حين كنّا صغيرين».

- «لا أعتقد حقّاً أنَّ هذا ما يتمنّاه ريك».

- «ما كلُّ هذا إذاً؟ هذه الكلمات عن بلا شكل، والإخفاء؟ لا أفهم ما اللطيف في ذلك. تلك هي مشكلة ريك. هو لا يريد أن ينضج. لا تريد والدته ذلك على الأقل، وهو يجاريها في ذلك. الفكرة هي أنّه يعيش مع والدته الآن وإلى الأبد. كيف لهذا أن يساعد خطّتنا؟ في كلِّ مرّة أُظهر فيها أيَّ علامة تدلُّ على محاولة النضج، يتحوّل إلى شخصٍ نكِد».

لم أُقل شيئاً، بينما ظلّت جوزي مستلقيةً هناك وعيناها مغمضتان. لقد غطّت في النوم بالفعل عندئذٍ، لكن قبل أن تنام بقليل قالت بهدوء:

- «ربّما. ربّما كان يقصد بالفعل أن يكون لطيفاً».

تساءلتُ ما إذا كانت جوزي سوف تثير مسألة هذ الرسم بالتحديد - والكلمات داخل الفقاعة - خلال زيارة ريك التالية. لكنّها لم تفعل، وأدركتُ أنّه كان هناك بينهما ما يشبه القاعدة التي تقضي بعدم التحدّث عن أيٍّ من الرسوم أو كلمات الفقاعات بمجرّد الانتهاء منها. ربّما كان تفاهمٌ كهذا ضرورياً للسماح لهم بالرسم والكتابة بحرّية. مع ذلك، وكما قلتُ سابقاً، فقد اعتبرتُ أنَّ لعبة

الفقاعات خاصّتهم كانت محفوفةً بالمخاطر، وهو ما أدّى إلى النهاية المفاجئة لزيارات ريك ذات الدقائق الثلاثين.

■

كان عصر يومٍ ممطر، لكنَّ أنساق الشمس كانت لا تزال تدخل باهتةً إلى غرفة النوم. اتّسمتْ تلك الفترة بسلسلةٍ من الزيارات الهادئة نسبياً، وكان المزاج في ذلك اليوم أيضاً باعثاً على الراحة تماماً. من ثمَّ، وبعد مرور اثنتي عشرة دقيقة على الزيارة - كانا يلعبان لعبة الفقاعة مجدّداً - قالت جوزي من السرير:

- «ماذا يحدث هناك في الأسفل؟ ألم تنته بعد؟».

- «ما زلتُ أفكّر».

- «ريكي، إنَّ الفكرة هي أن لا تفكّر. عليكَ أن تكتب أوّل شيءٍ يخطر ببالك».

- «إنّه كلامٌ منصف. لكنَّ هذا الرسم يتطلّبُ مزيداً من التفكير».

- «لماذا؟ ما المختلف فيه؟ أنهِه بسرعة. أوشكتُ على الانتهاء من الرسم التالي».

كان يمكنني عبر الانعكاس في النافذة رؤية ريك في مكانه المعتاد على الأرض، وركبتاه مثنيتان كي يتمكّن من وضع الرسم عليهما، ويداه مسدلتان على جانبيه. كان يحدّق في الرسم بملامح تملؤها الحيرة. قالت جوزي بعد بعض الوقت دون أن تتوقّف عن الرسم:

- «أتعلم؟ لطالما كنتُ أريد أن أطرح هذا السؤال. ما السبب في أنَّ والدتكَ ما عادت تقود السيارة؟ ما زلتما تملكان تلك السيّارة، أليس كذلك؟».

- «لم يشغّلها أحدٌ منذ سنوات. لكن بلى، إنّها لا تزال في المرأب. ربّما سأتحقّق من حالتها حالما أحصل على رخصتي».

- «هل الأمر كما لو أنّها تخشى الحوادث؟».

- «جوزي، لقد تحدّثنا في هذا من قبل».

- «صحيح، لكنّني لا أتذكّر. هل لأنّها تخافها؟».

- « شيءٌ من هذا القبيل».

- «إنّ أمّي على عكسها تماماً. هي تقود بسرعةٍ كبيرة جدّاً».

حين لم يقل ريك شيئاً، سألته: «ريكي، أنتَ لم تملأ ذلك بعد؟».

- «سأفعل. أعطني لحظةً فقط».

- «إنَّ الامتناع عن القيادة هو مجرّد شيءٍ واحد فقط. لكن ألا تمانع والدتكَ أن ليس لديها أصدقاء؟».

- «لديها أصدقاء. السيدة ريفرز تأتي لزيارتها طوال الوقت. إنّها صديقة والدتكِ أيضاً، أليس كذلك؟».

- «ليس هذا ما أقصده حقّاً. يمكن لأيِّ شخص أن يكون له صديقٌ أو اثنين. لكن والدتكَ لا تملك حياةً اجتماعية. ليس لدى أمّي الكثير من الأصدقاء أيضاً. لكن لديها حياةٌ اجتماعية».

- «حياةٌ اجتماعية؟ تبدو شيئاً ظريفاً. ماذا تعني؟».

- «تعني أن تدخل إلى متجر أو تركب سيّارة أجرة، وأن يأخذكَ الناس على محمل الجدّ. ويعاملونكَ بطريقةٍ جيّدة. من المهم أن يكون لديك حياةٌ اجتماعية، أليس كذلك؟».

- «انظري يا جوزي، أنتِ تعلمين أنَّ والدتي ليست دائماً على ما يرام. الأمر ليس كأنّها اتّخذت قراراً بذلك».

- «لكنّها تتّخذُ القرارات بالفعل، أليس كذلك؟ بالعودة إلى الوراء، فقد اتّخذتْ قراراً بشأنك».

- «لا أعرف لمَ نتحدّثُ عن هذا».

- «ريكي، أتعرف ما هو رأيي؟ أسكِتني إن كان غير منصف. أعتقد أنَّ والدتكَ لم تمضِ قدماً فيما يخصّكَ أبداً لأنّها أرادت أن تحتفظ بك لنفسها. والآن فات الأوان على فعل أيِّ شيء».

- «أنا لا أفهم لمَ نتحدّث عن هذا الأمر. وما المهمُّ فيه؟ مَن يرغب في هذه الحياة الاجتماعية على أيّة حال؟ لا حاجة لأيِّ عنصرٍ منها أن يقف عائقاً في طريق أيِّ شيء».

- «كلُّ هذا يعيق الطريق يا ريكي. يعيق خطّتنا بالتأكيد».

- «اسمعي، أنا أبذل كلَّ ما بوسعي...».

- «لكنّكَ لا تبذل ما بوسعكَ ريكي. أنتَ تتحدّث باستمرار عن خطّتنا، لكن ما الذي تفعله حقّاً؟ مع كلِّ يوم نكبر فيه في السنّ، تستمرُّ الأشياء في الظهور. أنا أبذل كلَّ ما بوسعي، لكن ليس أنتَ يا ريك».

- «ما الذي لا أفعله ويجدر بي فعله؟ أن أذهب إلى المزيد من اجتماعاتكِ التفاعلية؟».

- «يمكنكَ على الأقل أن تحاول أكثر. يمكنكَ أن تفعل ما قلنا إنّكَ ستفعله. أن تدرس بجدّ أكبر؛ أن تجرّب الالتحاق بأطلس بروكينغز».

- «ما الفائدة من الحديث عن أطلس بروكينغز؟ ليست لديّ أدنى فرصة».

- «لديكَ فرصة بالطبع يا ريكي. أنتَ ذكي. حتّى أمّي تقول إنَّ لديكَ فرصة».

- «فرصةٌ نظرية. قد تحاول أطلس بروكينغز جعل هذه الفرصة

تبدو مهمّة، لكنَّ احتمالها مع ذلك أقل من اثنين في المئة. هذا كلّ شيء. إنَّ قبولهم لغير المعدَّلين أقلُّ من اثنين بالمئة».

- «لكنّكَ أذكى من أيٍّ غير معدَّلٍ آخر يحاول الدخول. فلماذا لا تسعى إلى ذلك؟ سوف أخبرك. لأنَّ والدتكَ تريدكَ أن تبقى معها إلى الأبد. هي لا تريدك أن تخرج وتصبح شخصاً ناضجاً حقيقياً. مهلاً، أما زلتَ لم تنته بعد؟ الرسم التالي أصبح جاهزاً».

كان ريك صامتاً يحدّق في الرسم. واصلت جوزي وضع إضافاتٍ على رسمها رغم إعلانها عن إنجازه.

- «على أيّة حال»، تابعتْ جوزي، «كيف لهذا أن ينجح؟ أعني خطّتنا. كيف ستسير الأمور إذا كان لديَّ حياةٌ اجتماعية، ولم يكن لديك واحدة؟ أمّي تقود بسرعةٍ كبيرة، لكنّها تملك الشجاعة على الأقل. لقد سارت الأمور على نحوٍ خاطئ مع سال، لكنّها وجدت الشجاعة للمضيّ قدماً معي من جديد حتّى بعد حدوث ذلك. إنَّ هذا يتطلّب شجاعة، أليس كذلك؟».

انحنى ريك إلى الأمام فجأة وشرع يكتب على الرسم. كان في العادة يضع مجلّة أسفل الرسم كي يسنده عليها، لكن كان بإمكاني هذه المرّة رؤية أنَّ الورقة كانت فوق فخذه مباشرة، وقد أخذتْ تتجعّد بسبب ذلك. لكنّه واصل الكتابة بسرعة، ثمَّ نهض وألقى بقلمه الرصاص على الأرض. وبدلاً من تسليم الرسم إلى جوزي، رماه باتّجاه السرير فهبط على اللحاف أمامها. ثمَّ تراجع نحو الباب وهو ينظر إليها بعينين كبيرتين، غاضبتين وخائفتين في آنٍ معاً.

التفتتْ جوزي إليه متفاجئة. ثمَّ وضعتْ قلمها الحادّ، ومدّتْ يدها إلى الورقة. نظرتْ إليها بعيونٍ خالية من التعبير لبرهةٍ طويلة، بينما ريك يراقبها من الباب.

- «لا أصدق أنّكَ كتبتَ هذا»، قالت أخيراً. «لمَ قد تفعل ذلك؟».

استدرتُ فوق أريكة الأزرار، وتقديري أنَّ التوتّر كان قد وصل إلى مستوىً لا يمكن معه تسويغ الخصوصية الكاملة. ربّما كان ريك قد نسي أنّني موجودة، إذ بدا أنَّ استدارتي على الأريكة أجفلتْه. حوّل نظرته التي لا تزال مشحونةً بالخوف والغضب نحوي لثانية، ثمَّ خرج من الغرفة دون أن يتفوّه بكلمة. استمعنا إلى وقع خطواته وهو ينزل الدرج.

حالما أتى صوت الباب الأمامي، تثاءبت جوزي، ورمت كلَّ شيءٍ عن السرير، ثمَّ استلقت على جبهتها كما لو أنَّ الزيارة انتهت كأيِّ زيارةٍ أخرى.

- «في بعض الأحيان يمكن أن يكون متعِباً جدّاً»، قالت ورأسها محشورٌ في وسادتها.

قمتُ عن أريكة الأزرار وبدأتُ في ترتيب الغرفة. ظلّتْ عينا جوزي مغمضتَين، ولم تقل شيئاً آخر، لكنّني عرفت أنّها لم تكن نائمة. نظرتُ بطبيعة الحال فيما كنتُ أرتّب إلى الورقة التي تسبّبت بالتوتّر.

كما كان متوقّعاً، أظهر الرسم صوراً لجوزي وريك. كان هناك الكثير من الأخطاء المرتبطة بالافتقار إلى الدقّة، ولكن كان هناك أيضاً ما يكفي من أوجه الشبه لتبديد أيِّ شكوك حول الهويّتين المقصودتين. بدت صورة جوزي وصورة ريك تطفوان في السماء، فيما تقلّصت الأشجار والطرق والمنازل في الأسفل إلى أحجام صغيرة. وفي أحد اقسام السماء خلفهما، كانت سبعة طيور تحلّق ضمن تشكيل. وكانت صورة جوزي تمسك بيديها طائراً أكبر بكثير،

وتقدّمه كهديةٍ خاصّة لصورة ريك. كان لصورة جوزي ابتسامة كبيرة، ولصورة ريك نظرة دهشة وافتتان. لم تكن هناك فقاعة لصورة ريك. الفقاعة الوحيدة كانت لأفكار صورة جوزي، وقد كتب ريك بداخلها:

- «أتمنّى أن أتمكّن من الخروج والمشي والركض والتزلّج والسباحة في البحيرات. لكنّني لا أستطيع لأنَّ والدتي تملك الشجاعة. لذا بدلاً من ذلك، أنا أبقى في السرير وأصاب بالمرض. أنا سعيدةٌ بهذا. أنا حقّاً كذلك».

أضفتُ هذا الرسم إلى المجموعة التي كنتُ أراكمها في يدَي، وحرصتُ ألّا تكون قريبة من أعلى المجموعة. ظلّت جوزي هادئة وساكنة، وعيناها مغمضتان، لكنّني عرفتُ أنّها لم تكن نائمة. ربّما كنتُ لأتحدّث إليها في هذه المرحلة لو أنّها أيّامُ ما قبل شلّالات مورغان، وكانت جوزي لتستجيب بصدق. لكن المزاج بيننا بات مختلفاً الآن، لذا قرّرتُ ألّا أقول شيئاً. ذهبتُ إلى طاولة الزينة، مددتُ يدي إلى الأسفل، ووضعتُ هذه الكومة الأخيرة بجانب سابقاتها في المساحة أسفل الطاولة.

■

لم يعد ريك في اليوم التالي، أو في اليوم الذي بعده. لكن حين سألتِ المدبّرة ميلانيا: «أين ذهب الصبي؟ هل هو مريض؟»، هزّتْ جوزي كتفيها فحسب، ولم تقل شيئاً.

مع مرور الأيام دون زيارةٍ من ريك، أصبحت جوزي أكثر صمتاً وانعزالاً، وأصبحت إشاراتها من نوع «ابقَي بعيدة». كانت لا تزال مواظبةً على الرسم في السرير، لكن سرعان ما تلاشت حماستها من

دون ريك ولعبة الفقاعة، وغالباً ما كانت ترمي الرسومات غير المكتملة على الأرض، ثمّ تتمدّد فوق السرير وتحدّق في السقف.

قلتُ لها عصر أحد الأيام فيما هي تحدّق في السقف على تلك الشاكلة: «يمكننا إذا أحببتِ يا جوزي أن نلعب لعبة الفقاعة. إذا رسمتْ جوزي الصور، فسأبذل ما بوسعي للتفكير في الكلمات المناسبة».

واصلت التحديق في الهواء. ثمَّ التفتت إليَّ وقالت: «اسمعي. هذا لن يجدي نفعاً وحسب. أنا لا أمانع استراقك السمع. لكن من المستحيل أن تتمكّني من القيام بذلك بدلاً من ريك. لا مجال على الإطلاق».

- «فهمتُ. أنا آسفة. ما كان ينبغي بي أن أقترح...».

- «لا. ما كان ينبغي بكِ ذلك».

مع مرور المزيد من الأيّام دون زيارةٍ من ريك، أصبحت جوزي خاملة، وكنتُ قلقةً من أن تغدو ضعيفةً من جديد. فكّرتُ أنّه التوقيت المثالي كي يرسل الشمس مساعدته المميّزة، وكنتُ أراقبه باهتمام كبير كلّما تبدّل نسقه بصورةٍ مفاجئة داخل غرفة النوم، أو برز متفجّراً في السماء بعد أن كانت ملبّدةً بالغيوم. لكن، ورغم أنَّه واصل إرسال غذائه العادي دون انقطاع، إلّا أنَّ مساعدته المميّزة لم تأتِ أبداً.

■

ذات صباح، عدتُ إلى غرفة النوم بعد أن أخذتُ صينية إفطار جوزي إلى الأسفل، ووجدتُها مستندةً إلى وسائدها ومشغولةً بالرسم في حالةٍ تشبه حماسها القديم. كانت تعابير وجهها أيضاً جادّةً على

نحوٍ لم أره من قبل أثناء عملها على رسمٍ ما، وحين حاولتُ التحدّث إليها، لم تردّ عليّ. حالما اقتربتُ من السرير أثناء قيامي بترتيب الغرفة، عدّلتْ من وضعيتها لمنعي من رؤية أيِّ جزءٍ من ورقتها.

بعد بعض الوقت، مزّقت الورقة، وجمعتْها في قبضتها على شكل كرةٍ متراصة، وأسقطتْها في شقٍّ في لحافها بينها وبين الحائط. ثمَّ بدأتْ رسماً جديداً، مع عينين واسعتين متوتّرتين. جلستُ على أريكة الأزرار، وكنتُ قبالتها هذه المرّة كي تعرف أنّي جاهزة للتحدّث متى ما رغبتْ في ذلك.

بعد قرابة الساعة، وضعتْ قلمها الرصاص الحادّ، وراحتْ تحدّق في رسمها لبعض الوقت.

- «كلارا؟ انظري هناك في الدُرج السفلي إلى اليسار. هل يمكنكِ أن تحضري مظروفاً؟ واحداً من المظاريف الكبيرة المبطّنة؟».

بينما كنتُ رابضةً قرب الدُرج، لمحتُ جوزي ترفع قلمها الحادّ مجدّداً، وعرفتُ من شكل حركاتها أنّها لم تكن ترسم، بل كانت تكتب الكلمات. ثمَّ طوت الورقة من المنتصف، ووضعت ورقة فارغةً بين النصفين كيلا يلطّخ أحدهما الآخر، ثمّ أخذت المغلّف المبطّن منّي ودسّت الرسم داخله بعناية. أزالت الشريط الرقيق الواقي، وأغلقت المظروف، وضغطت على حوافه للتأكّد من إغلاقه جيّداً.

- «أنا مسرورةٌ للانتهاء من هذا»، قالت وهي تقلّب الظرف في يديها كما لو أنَّ هذا يشعرها بالارتياح. لكن وإذ بدأتُ أتحرّكُ مبتعدةً عن السرير، مدّت جوزي يدها بالظرف نحوي فجأة. «هلّا وضعتِ

هذا في نفس الدُرج الذي عثرتِ فيه على الظرف؟ الدرج الأسفل إلى اليسار؟».

- «بالطبع». أخذتُه منها، لكنّني لم أتّجه نحو الدُرج مباشرة، بل وقفتُ في وسط الغرفة ممسكةً بالظرف، ونظرتُ إليها. «أتساءل إن كان هذا الرسم هديّةً خاصّة من جوزي إلى ريك».

- «ما الذي يجعلكِ تقولين ذلك؟».

- «إنّه مجرّد تخمين».

- «حسنٌ، إنَّ تخمينكِ في مكانه. أردتُه أن يكون لريك من أجل المرّة القادمة التي يكون فيها هنا».

ساد الصمت فيما هي تنظر إليّ، ولم أكن واثقة إن كانت ببساطة لا تطيق الانتظار حتّى أضع المظروف في الدُرج كما طلبتْ منّي، أو أنّها كانت تنتظر منّي أن أقول شيئاً آخر حول ريك وزياراته. في النهاية قلتُ لها:

- «ربّما سوف يعود قريباً».

- «ربّما سوف يفعل. رغم أنّه لا توجد إشارةٌ على ذلك».

- «أعتقد أنَّ ريك سيكون مسروراً برؤية هذا الرسم. سيرى أنَّ جوزي أولتْه اهتماماً خاصّاً».

- «لم أولِه اهتماماً خاصّاً». ومضتْ عيناها بالغضب. «لقد شعرتُ بالملل، ورسمتُ لوحةً أخرى. هذا كلُّ ما في الأمر. لكنّكِ على حقّ، إنّها لريك. المشكلة هي أنّه ينبغي به القدوم إلى هنا كي يحصل عليها. وهو لم يعد يأتي».

واصلتِ التحديق إليّ. بقيتُ واقفةً في وسط الغرفة.

- «جوزي»، قلتُ بعد برهة. «يمكنني أن آخذ الرسم إليه إن كنتِ ترغبين في ذلك».

ملأت المفاجأة والحماس عينيها. «تقصدين أنّكِ ستأخذينه إليه؟ إلى منزله؟».

- «نعم. إنّه منزل جيراننا فحسب».

- «أظنُّ أنّه لن يكون غريباً جدّاً أن تأخذيه إليه. دائماً ما يخرج الص. ا. الآخرون في مأموريات، أليس كذلك؟».

- «سيسعدني أن أذهب. أعتقد أنّني سأكون قادرةً على إيجاد الدرب الصحيح إلى منزله».

- «وهل ستفعلين ذلك اليوم؟ قبل الغداء؟».

- «في أيِّ وقتٍ ترغب به جوزي. إن أردتِ، يمكنني أخذه إليه الآن، في الحال».

- «هل تعتقدين أنّها فكرة جيّدة؟».

رفعتُ المظروف المبطّن قليلاً. «أرغب كثيراً في أخذ رسم جوزي إلى ريك. سيكون من المفيد بالنسبة لي أن أستكشف الخارج. وإذا ما تلقّى ريك هذا الرسم الخاص، فلربّما سوف يسامح جوزي ويصبح أعزَّ صديقٍ لها من جديد».

- «ماذا تقصدين بـ «يسامح»؟ أنا مَن يجب أن تسامحه. ذلك غبيٌّ حقّاً يا كلارا. لا أعتقد أنّني أريدكِ الآن أن تأخذي شيئاً إليه».

- «أنا آسفة. إنّه خطئي. لستُ أفهم القواعد الخاصّة بالمسامحة بعد. ومع ذلك، أعتقد أنّه من الأفضل أخذ الرسم إليه. أعتقد أنّه سيحبّه».

تلاشى الغضب عن ملامح وجهها. «لا بأس. هيّا، فلتأخذيه إذاً». ثمَّ أضافت بهدوء إذ استدرتُ لأذهب: «ربّما أنتِ على حقّ. قد يكون هو مَن يجب أن يسامحني».

- «سوف آخذه إليه ويمكننا أن نرى ما سيفعله».

- «حسنٌ». ثمَّ ابتسمت. «إذا كان وقحاً حيال ذلك، تمزّقين المظروف فحسب، اتفقنا؟». كانت ابتسامتها أشبه بالابتسامات من أيام ما قبل شلّالات مورغان. ابتسمتُ أيضاً، ثمَّ قلت: «آمل أنَّ ذلك لن يكون ضرورياً».

سقطتْ فوق وسادتها مجدّداً بطريقة فكاهية. «حسنٌ، اذهبي. أنا بحاجة إلى الراحة الآن».

لكنّها، وبينما كنتُ أغادر الغرفة حاملةً المظروف المبطّن قريباً منّي، قالت فجأة: «هيه، كلارا؟».

- «نعم؟».

- «لا بدَّ أنّه شيءٌ مملّ، أليس كذلك؟ العيش هنا مع طفلةٍ مريضة».

كانت لا تزال تبتسم، لكنّني رأيتُ خوفاً تحت ابتسامتها.

- «لا شيء مملٌّ على الإطلاق مع جوزي».

- «لقد انتظرتِني طوال ذلك الوقت في المتجر. أراهن أنّكِ تتمنّين الآن لو أنّكِ ذهبتِ مع طفلٍ آخر».

- «لم أتمنَّ شيئاً كهذا أبداً. لقد كانت أمنيتي أن أكون ص. ا. لجوزي، وقد تحقّقت هذه الأمنية».

- «نعم، لكن. . .». ضحكتْ ضحكةً صغيرة حزينة. «لكنَّ هذا كان قبل أن تصلي إلى هنا. لقد قطعتُ وعداً أنَّ كلَّ شيءٍ سيكون رائعاً».

- «أنا سعيدةٌ جدّاً هنا. ليس لديَّ رغبةٌ في شيء سوى أن أكون ص. ا. لجوزي».

- «إذا تحسنتُ، يمكننا أن نخرج معاً طوال الوقت. يمكننا الذهاب إلى المدينة لرؤية أبي. يمكنه ربّما أن يأخذنا إلى مدنٍ أخرى».

- «هذه احتمالاتٌ للمستقبل. لكن على جوزي أن تعلم أنّه لن يكون بوسعي الحصول على بيتٍ أفضل من هذا. أو طفلٍ أفضل من جوزي. أنا سعيدةٌ جدّاً لأنّني انتظرت. ولأنَّ المديرة سمحتْ لي أن أنتظر».

فكّرت جوزي في هذا. ثمَّ حين ابتسمتْ ثانية، كانت ابتسامتها مفعمةً باللطف، وما مِن خوفٍ يقبع وراءها. «إذاً، نحن صديقتان؟ أعزُّ صديقتين».

- «نعم، بالتأكيد».

- «حسنٌ، هذا جيّد. تذكّري إذاً: لا تقبلي أيَّ هراءٍ من ريك».

ابتسمتُ عندئذٍ أيضاً، ورفعتُ المظروف المبطّن كي أُظهر أنّني سأعتني به جيّداً.

■

لم تبدِ المدبّرة ميلانيا أيَّ اعتراضٍ على ذهابي وحدي في مأمورية إلى منزل ريك. لكنّها بقيت مع ذلك تراقبني عند الباب الأمامي حين عبرتُ فوق الأحجار الرخوة باتّجاه بوّابة إطار الصورة، ولم تعد إلى الداخل إلّا بعد أن دخلتُ الحقل الأوّل.

سلكتُ الدرب الذي فُتِح بأقدام المارّة، وسرعان ما أصبح من الصعب التنبّؤ بالأرض، فغالباً ما أتت خطوةٌ سلسة مباشرة بعد واحدةٍ صعبة. ارتفع العشب وصولاً إلى كتفَي، وانتابني خوف من أنّني سوف أفقد إحساسي بالاتّجاهات. لكنَّ هذا الجزء من الحقل

كان مقسّماً إلى مربّعات منظّمة، بحيثُ كان بإمكاني أن أرى بوضوح المربّعات الأخرى المصطفّة أمامي حين أعبر من مربّعٍ إلى الذي يليه. ما لم يكن مساعداً هو الطريقة التي انبثق فيها العشب بشكلٍ متكرّر أمامي من جهة أو من أخرى، لكن حتّى ذلك تعلّمتُ سريعاً كيف أسيطر عليه بذراعٍ ممدودة. لو كانت كلتا ذراعَي متاحتين، لكنتُ أحرزتُ تقدّماً أسرع، لكنّني كنت أحمل بالطبع مظروف جوزي بإحدى يديّ، ولم يكن بوسعي المخاطرة بإلحاق ضررٍ به. ومن ثمَّ انتهى العشب الطويل من حولي وكنتُ أقف أمام منزل ريك.

كنتُ قد قدّرتُ سابقاً لدى النظر إليه من بعيد أنَّ منزل ريك لم يكن بذاك المنزل الفاخر مثل منزل جوزي. استطعتُ أن أرى الآن أنَّ العديد من ألواحه المطليّة بالأبيض قد أصبحت رمادية - وحتّى بنّية في بعض المواضع - وثلاثةٌ من النوافذ كانت عبارة عن مستطيلات قاتمة دون ستائر أو أغطية بداخلها. صعدتُ درجاً مصنوعاً من ألواح خشبية انثنى كلُّ واحدٍ منها حين دستُ عليه، ثمَّ وصلتُ إلى مصطبة مصنوعة من المزيد من هذه الألواح، وهذه المرّة مع فجوات كبيرة بين الألواح حتّى أنّه كان بإمكاني رؤية الأرض الموحلة أسفلها. بالقرب من باب المنزل الأمامي، وُضِعتْ ثلّاجةٌ بصورةٍ جانبية بحيث كان ظهرها مكشوفاً تماماً للمارّة، ورأيتُ كيف صنعت العناكب منازلها داخل الشبكة المعدنية المعقّدة. كنتُ قد توقّفتُ قليلاً لأعاين خيوط العنكبوت الدقيقة حين فُتِح الباب الأمامي - رغم أنّي لم أضغط أيَّ زرّ - وخرج ريك إلى المصطبة.

- «المعذرة»، قلتُ بسرعة. «لم أكن أرغب في إقلاق خصوصيتك. لقد جئتُ في مأمورية مهمّة».

لم يبدُ عليه الغضب، لكنّه لم يقل شيئاً وواصل النظر إليّ.

- «غالباً ما يقوم الص. ا. بمأموريات مهمّة. ولقد أرسلتني جوزي لأنجز هذه المأمورية»، قلتُ له ورفعتُ المظروف.

ظهرت الحماسة فجأة على وجه ريك، ثمَّ اختفتْ مجدّداً. «من الجيّد أنّكِ أتيتِ إذاً»، قال لي.

ربّما كان يتوقّع منّي أن أسلّمه المظروف ببساطة، ثمَّ أرحل. لكنّني توقّعتُ هذا الاحتمال ولم آتِ بحركةٍ كي أتيحه له. بقينا واقفين هكذا على الألواح، يواجه أحدنا الآخر، والريح تهبُّ من بين الفجوات.

في النهاية قال لي: «في هذه الحالة، أفترض أنّه ينبغي بك الدخول. لكن ليكن في علمكِ، المكان هنا ليس فخماً».

كانت أرضية الردهة من خشبٍ داكن، ومررنا أثناء عبورنا قرب صندوق مفتوح وُضعت فيه أشياء مثل مصابيح مكسورة وفردات أحذية. قادنا ريك إلى غرفةٍ كبيرة بنافذة واسعة تطلُّ على الحقول. الأثاث لم يكن حديثاً، ولم يكن متّصلاً ببعضه كما في الردهة المفتوحة: كانت هناك خزانة ملابس داكنة اللون، وبُسط أرضيات باهتة النقوش، وكراسٍ قاسية وطرية بأشكال وأحجام مختلفة. وعلى الجدران عُلِّقت العديد من الصور الصغيرة، كان بعضها صوراً فوتوغرافية، وبعضها الآخر رسوماً بقلم الرصاص، وهنا أيضاً صنعت العناكب منازلها في زوايا الإطارات. كانت ثمّة كتبٌ، وساعاتٌ مستديرة، وطاولاتٌ واطئة. رأيتُ أنَّ التنقّل لن يكون سهلاً، لذا اخترتُ مكاناً حيث الأرض مفتوحةً نسبياً، وذهبتُ ووقفتُ هناك وأعطيتُ ظهري للنافذة الواسعة.

- «حسنٌ، هذا هو المكان الذي نعيش فيه أنا وأمّي»، قال ريك.

- «لطفٌ منكَ أن تسمح لي بالدخول».

- «لقد رأيتكِ آتية من الطابق العلوي. سوف أكون مضطراً للعودة إلى الأعلى قريباً». أشار بعينيه فقط نحو السقف. ثمَّ قال بحزن: «أفترضُ أنّكِ لاحظتِ الرائحة».

- «أنا لا أقدر على الشمّ».

- «أوه، أنا آسف. ظننتُ أنَّ الشمَّ سيكون ملَكةً هامّة. أعني لأغراض السلامة. حرائق، وأشياء من هذا القبيل».

- «ربّما لهذا السبب مُنِحت للـ B3 قدرة شمٍّ محدودة. لكن أنا ليس لديَّ شيءٌ منها».

- «حسنٌ، هذا من حسن حظّكِ حالياً. لأنَّ الرائحة ما زالت تفوح من هذا المكان. رغم أنّني قمتُ بعملي في الردهة هذا الصباح، وكرّرتُ ذلك أكثر من مرّة». ظهرت دموعٌ في عينيه، لكنّه واصل النظر إليّ.

- «هل والدة ريك ليست على ما يرام؟».

- «يمكنكِ أن تقولي ذلك. رغم أنّها ليست مريضةً مثل مرض جوزي. أفضّل ألّا أتحدّث عن أمّي إن كنتِ لا تمانعين. كيف حال جوزي هذه الأيام؟».

- «أخشى أنّها ليست بحالٍ أفضل».

- «أسوأ؟».

- «ربّما ليس أسوأ. لكنّني أعتقد أنَّ وضعها قد يكون خطيراً».

- «هذا ما ظننتُه». تنهّد وجلس على الأريكة قبالتي. «إذاً فقد أرسلتكِ إلى هنا في مأمورية».

- «نعم. أرادت منّي أن أعطيكَ هذا. لقد بذلتْ فيه جهداً خاصّاً».

رفعتُ المظروف على نحوٍ يمكّنه من استلامه بينما هو لا يزال جالساً على الأريكة. لكنّه وقف على قدميه رغم أنّه كان قد جلس للتوّ، أخذ منّي المظروف وفتحه بعناية.

حدّق في الرسم لبعض الوقت، ووجهه يكاد يبتسم. ثمَّ قال أخيراً: «ريك وجوزي إلى الأبد».

- «هل هذا ما كُتب داخل الفقاعة؟».
- «أوه، ظننتُ أنّكِ رأيتِ ذلك».
- «لقد وضعتْ جوزي الرسم في المظروف دون أن تريني إيّاها».

تابع النظر إليه للحظةٍ إضافية، ثمَّ أداره نحوي كي أراه.

كان لا يشبه أيَّ شيءٍ رأيتُه خلال ألعاب الفقاعة. امتلأت الورقة في معظمها بعناصر حادّة المظهر، كثيرٌ منها كان ببروزات ناتئة وغاضبة تشابكت معاً في شبكة غير قابلةٍ للاختراق. استخدمتْ جوزي أقلام رصاص بألوان متعدّدة كي تصنع خيوط الشبكة، لكنّ الانطباع العام الذي أعطتْه كان يوحي بالقتامة والبغض. إلّا أنه تمَّ الإبقاء على مساحةٍ صافية وباعثةٍ على الاطمئنان في أسفل الزاوية اليسرى، حيث أمكن رؤية شخصين صغيرين يديران ظهرهما للمارّة، ويمشيان يداً في يد. كانا شديدي الشبه بالعصا بحيث لا يمكن تمييزهما عدا أنّهما فتىً وفتاة، إلّا أنهما بدَوا سعيدين وليس لديهما ما يقلقان بشأنه. كانت هناك فقاعةٌ فوقهما مباشرة، لكن ولأنّها كانت دون الذيل المعتاد أو النقاط الفقاعية الصغيرة، فقد بدت الكلمات بداخلها أشبه بملصق شعارٍ ما، أو إعلانٍ على باب سيّارة أجرة، أكثر من كونها أفكار نابعة من عقل أحد الشخصين.

- «إذاً، ما رأيكِ؟»، سألني.

- «إنّها جميلةٌ جدّاً. أعتقد أنّه رسمٌ لطيف».

- «نعم، أظنُّ أنّه كذلك. ورسالةٌ لطيفة أيضاً».

صدحتْ فجأة موسيقى عالية وأصواتٌ إلكترونية من الطابق العلوي، وظهر الانزعاج على وجه ريك. هرع مسرعاً خارج الغرفة وهو لا يزال ممسكاً برسم جوزي.

- «أمّي!» صاح في الردهة. «أمّي! بالله عليكِ، أخفضي ذلك الصوت رجاءً!».

قال صوتٌ من الطابق العلويّ شيئاً ما، ثمَّ نادى ريك بنبرةٍ أكثر لطفاً: «سأصعد خلال دقيقة. والآن أرجوكِ، أخفضي ذلك الصوت».

هدأت الأصوات الإلكترونية، وكان ريك ينظر مجدّداً إلى رسم جوزي لدى عودته إلى الغرفة الكبيرة.

- «بلى، إنّه رسمٌ جميل. اشكري جوزي نيابةً عنّي».

- «أعتقد أنَّ جوزي كانت تأمل أنَّ ريك سيأتي شخصياً ليقول لها شكراً».

تلاشتِ ابتسامته. «لكنَّ الأمر ليس بهذه البساطة، أليس كذلك؟»، قال لي. «أنتِ موجودةٌ هناك دائماً، وتعرفين الحالة بكلّ تفاصيلها. لذا فأنتِ تعرفين جيّداً بقدر ما أعرف الطريقة التي تواصل بها مهاجمتي. ما من سبب يدفع شخصاً لتقبّل كلِّ ذلك. لقد تمادت كثيراً في سلوكها، والآن تعتقد أنّه يمكن إصلاح كلّ شيء من خلال رسمٍ جميلٍ ترسله مع الص. ا. حسنٌ، عليها أن تفهم أنَّ الأمور لا يمكن إصلاحها بهذه السهولة دائماً».

- «إذا جاء ريك في زيارةٍ أخرى، فأعتقد أنَّ جوزي قد ترغب في الاعتذار».

- «حقّاً؟ اسمعي، أنا أعرف جوزي جيّداً، وتخمينى أنّها مقتنعةٌ تماماً أنّني أنا مَن يجب عليه تقديم الاعتذار».

- «لقد سبق لنا أن أجرينا هذا النقاش، أنا وجوزي. أعتقد أنّها ترغب في الاعتذار إلى ريك».

- «أفترضُ أنّي كنتُ عدائياً أيضاً. لكنّها لا تستطيع أن تواصل قول كلّ تلك الأشياء عن أمّي. هذا ليس عدلاً. إنَّ أمّي تبذل قصارى جهدها وهي تتحسّن شيئاً فشيئاً».

رغم أنَّ نسخة ريك الذي فتح الباب ووقف قبالتي على المصطبة كانت تشبه إلى حدٍّ بعيد الشخص الذي كان قد تجاهلني على مدار زياراته، فقد كان من المثير للاهتمام الآن رؤية أنّه أصبح أقرب كثيراً للشخص الذي تحدّثتُ معه في الاجتماع التفاعلي بعد أن ذهب الأطفال الآخرون إلى الخارج. كان الأمر في الواقع كما لو أنَّ هذه النسخة من ريك تقابلني لأوّل مرّة منذ عصر ذلك اليوم وتستأنف معي الحديث الذي كنّا قد بدأناها في ذلك الوقت.

- «أوافق على أنَّ كلمات جوزي كانت في بعض الأحيان قاسية. لكن قد يكون السبب في ذلك هو شعور جوزي بأنَّ والدة ريك تتشبّثُ به بقوّة، بقوّةٍ لا تسمح لخطّة ريك وجوزي أن تصبح ممكنة في المستقبل».

- «لكن لماذا تلوم جوزي أمّي طوال الوقت، هذا ليس عدلاً».

- «إن جوزي قلقةٌ بشأن الخطّة. أظنّها تؤمن بأنّ والدة ريك متردّدة في ترك ريك يمضي في طريقه لأنّها تخشى شعور الوحدة الذي سينجم عن ذلك».

- «انظري، قد تكونين ص. ا. شديدة الذكاء، لكنَّ هناك

الكثير ممّا لا تعرفينه. إذا استمعتِ فقط إلى جانب جوزي من الأشياء، فلن تحصلي أبداً على الصورة كاملة. والمسألة ليست حول أمّي وحسب، فجوزي تحاول دائماً الإيقاع بي الآن».

- «الإيقاع بك؟».

- «قد تكونين سمعتِها. إنّها تفعل ذلك دائماً الآن. هي إمّا تتّهمني بالتفكير في هذه الأشياء كثيراً. أو تشعر بالإهانة لأنّني لا أفكّر فيها بتلك الطريقة على نحوٍ كاف. دائماً ما توقع بي، أيّاً كان ما أقوله. هي تدّعي أنّني أشتهي الفتيات اللواتي أراهنَّ في جهاز DS خاصّتي، ثمّ حين تثير الموضوع في المرّة التالية، ولا أتفاعل معها، تقول إنّني أعاني خطباً ما، وإنّني لستُ طبيعياً. تظلُّ تتحدّث حول كوننا عرفنا بعضنا جيّداً جدّاً حين كنّا طفلَين لذا فإنَّ مسألة الجنس برمّتها قد لا تسير بصورةٍ جيّدة معنا. أيّاً كان ما أحاول قوله أو فعله، فهو خطأ وأجد بالتالي نفسي مُوقعاً بي وعالقاً. وأسلوبها في الحديث عن أمّي، إنّه يتجاوز الحدود. بخطّةٍ أو من دونها، هذا ليس عدلاً فحسب».

جلس مجدّداً، وهبط نسق الشمس عليه. وضع رسم جوزي على الأريكة المجاورة له بعناية، ورغم أنَّ الورقة كانت مقلوبة، إلّا أنّه ظلَّ يحدّق بها.

- «على أيّة حال»، قال بهدوء، «جوزي مريضة الآن. لا شيء من هذا جزءٌ من خطّتنا، لا شيء منها سيكون ذا قيمة إذا لم تتعافَ قريباً. وبالطريقة التي تسير بها الأمور... فأنا لا أعرف كيف عليَّ أن أفكّر هذه الأيّام». رفع نظره نحوي. «اسمعي، يا كلارا. يُفترض أنّكِ حادّة الذكاء، ما هو تقييمكِ إذاً؟ ما مدى سوء حالة جوزي؟».

- «أعتقد، كما قلتُ سابقاً، أنَّ مرض جوزي خطير. من

المحتمل أنّها قد تصبح ضعيفة لدرجة أنّه سيتعيّن عليها أن تموت، تماماً كما فعلت أختها. لكنّني أعتقد أنَّ هناك طريقة لكي تتحسّن صحّتها مجدّداً، طريقةٌ لم يفكّر بها الكبار بعد. أعتقد أيضاً أنَّ الحالة الآن طارئةٌ ولا يسعنا الاستمرار في الانتظار. حتّى لو بدا ذلك فظّاً، ولا يحترم الخصوصية، لكن ربّما حان الوقت للتصرّف بفعالية. لقد جئتُ إلى هنا اليوم بسبب مأموريّتي الهامّة بالطبع. لكنّني كنتُ آمل أيضاً أن يعطيني ريك بعض النصائح المفيدة».

- «أنتِ ذكيّةٌ جدّاً، وأنا فتىً غبيّ لم يتمَّ تعديله حتّى. لكن لا بأس، إن أردتِ سأحاول تقديم النصيحة لكِ. اسأليني وسأجيبك».

- «أودُّ أن أعبر الحقول إلى حظيرة السيّد ماكبين. أعتقد أنَّ ريك كان هناك لمرّة واحدة على الأقلّ. لقد أخبرتني جوزي بذلك».

- «تقصدين تلك الحظيرة هناك؟ لقد ذهبنا إلى هناك مرّة واحدة حين كنّا لا نزال صغاراً، قبل أن تصاب بالمرض. ذهبتُ إلى هناك بضع مرّات منذ ذلك الحين، لكن بمفردي. إنّه مكانٌ للجلوس في الظل إذا تصادف أنّكِ كنتِ تتنزّهين هناك. كيف لذلك أن يساعد جوزي؟».

- «لا يجدر بي أن أكشف السرَّ الآن، في حال كان ذلك سرّاً بالضرورة. حتّى أنّني قد أكون أبالغ كثيراً في البساطة عبر الذهاب إلى حظيرة السيد ماكبين. لكنّني أشعر أنّه يجب أن أحاول الآن».

- «هل تريدين التحدّث إلى السيّد ماكبين؟ حول صحّة جوزي؟ ستكونين محظوظةً إن صادفتِه هناك. هو يعيش على بعد خمسة أميال، ونادراً ما يأتي إلى هنا هذه الأيّام».

- «ليس السيّد ماكبين مَن أرغب في التحدّث إليه. لكن من فضلك، لا ينبغي بي أن أبوح بالسرِّ وإلّا سنخاطر بخسارة المساعدة

المميّزة التي قد تتلقّاها جوزي. كلُّ ما أرغب فيه من ريك هو بعض النصائح المفيدة». استدرتُ في مكاني فأصبحنا نحن الاثنين ننظر خارجاً عبر النافذة الواسعة. «أخبرني من فضلك. هل هناك دربٌ عبر العشب يأخذني إلى الحظيرة، مثل الدرب الذي أتى بي إلى منزل ريك؟».

نهض على قدميه واتّجه إلى النافذة. «هناك ما يشبه الطريق. يكون سلوكه في بعض الأيام أسهل من أيام أخرى. إنّه كما قلتِ بنفسك، دربٌ فُتِح بأقدام المارّة. لا أحد يبقيه نظيفاً أو ما شابه. أحياناً قد تسلكين ذلك الطريق فتجدين الأعشاب قد نمت بإفراط. لكن إذا كان أحد الدروب مغلقاً أو غارقاً في المياه، يمكنكِ عادةً العثور على دربٍ آخر. هناك دائماً طريقٌ ما، حتّى في فصل الشتاء». أخذ على نحوٍ مفاجئ ينظر إليّ من أعلى لأسفل، كما لو أنّه يأخذني على محمل الجدّ لأوّل مرة. «أنا لا أعرف الكثير عن الص. ا. لذا لا أعرف كم سيكون ذلك صعباً عليكِ. يمكنني أن آتي معكِ إن أردتِ. يسعدني تقديم المساعدة، إن كان ذلك سيساعد جوزي حقّاً، رغم أنّنا لا نتحدّث الآن مع بعضنا حتّى».

- «هذا لطفٌ كبيرٌ من ريك. لكن أعتقد أنّه من الأفضل أن أذهب لوحدي. كما قلت، هناك احتمالٌ أن. . .».

- «يا إلهي. . .». استدار ريك فجأة وانطلق نحو الباب.

كنتُ مدركةً بالفعل لوقع الأقدام التي تتحرّك داخل المبنى، لكنّها أصبحت الآن في الردهة. بعدها دخلت الآنسة هيلين - رغم أنّني لم أكن أعرف اسمها بعد - إلى الغرفة. نقّلتْ نظرها في كلِّ مكانٍ حولها، لكن بدا وكأنّها لم تلاحظني. كانت تضع فوق كتفيها معطفاً خفيفاً - من النوع الذي يرتديه عمّال المكاتب في الخارج -

ولم تكن قد أدخلتْ ذراعيها فيه بعد، وكانت تمسكه كي لا ينزلق فيما هي تسير نحو صندوقٍ خشبيٍّ أسفل النافذة.

- «أين يمكن أن تكون؟ يا لغبائي!». رفعتْ غطاء الصندوق وبدأت تتفحّص محتوياته.

- «أمّي، ما الذي تبحثين عنه؟».

بدا ريك منزعجاً كما لو أنَّ والدته انتهكت قاعدةً ما. جاء ووقف بجانبي، وراقبنا كلانا الآنسة هيلين وهي تنكبُّ منحنيةً فوق الصندوق.

- «أعرف، أعرف. لدينا زائر، سأحضر خلال لحظة».

حين انتصبت واقفةً كي تواجهنا، كانت تحمل حذاءً، وكان قرينه يتدلّى منه عبر نقطةٍ تشابك فيها رباط الحذاء.

- «أنا آسفة»، قالت وهي تنظر إليَّ مباشرةً الآن. «إنَّ سلوكي فظيعٌ بحقّ. أهلاً بك».

- «شكراً لكِ».

- «المرء لا يعرف أبداً كيف يلقي التحيّة على ضيفٍ مثلك. وهل أنتِ ضيفٌ أصلاً؟ أم يجدر بي أن أعاملكِ كمكنسةٍ كهربائية؟ أفترض أنّي فعلتُ ذلك بقدرٍ كافٍ لتوّي. أنا آسفة».

- «أمّي»، قال ريك بهدوء.

- «لا تزعجني عزيزي. دعني أتعرّف على زائرتنا الجديدة بطريقتي الخاصة».

سقط الحذاء المتدلّي في الصندوق بقوّة وزنه. حدّقت الآنسة هيلين فيه، بينما لا يزال الحذاء الآخر في يدها. رأيتُ أنَّ ريك كان يغدو غير مرتاحٍ بصورةٍ متزايدة، وأردتُ أن أغادر كي أوفّر الخصوصية، لكنَّ الآنسة هيلين واصلت التحدّث إليّ.

- «أنا أعرف مَن تكونين. أنتِ رفيقة جوزي الصغيرة. يا لكِ من نجاحٍ هائل! لقد سمعتُ كلَّ شيء عنه من كريسي. هي غالباً ما تأتي إلى هنا. أليس كذلك يا ريك؟ ألن تجلسي؟».

- «أنتِ لطيفةٌ جدّاً. لكنني أشعر أنّه ينبغي بي أن أعود أدراجي».

- «آمل أنّ ذلك ليس بسببي. لقد جئتُ للأسفل وأنا أتطلّع لدردشةٍ لطيفة».

- «أمّي، كلارا لديها مسؤوليات. وأنتِ على الأرجح لا تزالين متعبة».

- «أنا بخير، شكراً لك يا حبيبي». ثمَّ قالت لي: «من الواضح أنّني لم أكن بأفضل حال الليلة الماضية. والآن يا كلارا، أتوقّع أنّكِ تشعرين بالفضول حيالي. تقول كريسي أنّكِ فضوليةٌ حيال كلّ شيء. إذا كان ذلك صحيحاً، فيجب أن تكوني قد لاحظتِ أنّني إنجليزية. هل أنتِ مُجهَّزةٌ للتعرّف على اللهجات؟ أو ربّما أنتِ قادرةٌ على النظر عميقاً في داخلي وصولاً إلى جيناتي الوراثية».

- «أمّي، أرجوك».

- «غالباً ما كان أشخاصٌ إنجليز يأتون إلى المتجر»، قلتُ مبتسمة. «لذا أصبحت طريقتكم في الكلام مألوفةً لدى كل الص. ا. اعتقدنا أنَّه أمرٌ ممتعٌ للغاية، والمديرة، السيّدة التي كانت تعتني بنا، لطالما شجّعتنا على التعلّم من ذلك».

- «كم هي فكرةٌ بهيجة! أنَّكم معشر الروبوتات تتلقّون دروساً في الخطابة!».

- «أمّي...».

- «بالحديث عن الدروس يا كلارا. اسمكِ كلارا أليس كذلك؟ بالحديث عن الدروس، هناك فكرةٌ آخذةٌ بالاختمار هنا في هذا المنزل».

- «أمّي. قطعاً لا. كلارا ليست مهتمّة بـ...».

- «دعني أتحدّث، عزيزي. ها هي هنا شخصياً، لذا دعنا ننتهز فرصتنا. حبيبي، عليَّ القول إنّكَ طوّرت هذه الأيام نزعةً واضحة للسيطرة. إنّها شيءٌ مزعجٌ للغاية. كلارا، هل أنت مستعدةٌ لسماع فكرتنا؟».

- «بالتأكيد».

بدأ ريك يمشي مبتعداً كما لو كان يغادر الغرفة مشمئزّاً. لكنّه توقّف عند المدخل، وكان يمكنني من حيث أقف رؤية جزءٍ من ظهره، والجهة الخلفية من مرفقَيه.

- «أنا لستُ طرفاً في هذا»، صاح كما لو أنّه يخاطب شخصاً في الردهة.

ابتسمت الآنسة هيلين لي، ثمَّ جلستْ على الأريكة التي كان ريك يشغلها قبل قليل. عدّلت وضع معطفها بإحدى يديها، فيما الحذاء لا يزال في اليد الأخرى.

- «كان ريك كما تعرفين يذهب إلى المدرسة. أعني مدرسةً حقيقية على الطراز القديم. كان ذلك فوضوياً ومتمرّداً إلى حدٍّ ما، لكنّه قام بتكوين بعض الصداقات اللطيفة هناك. أليس كذلك يا عزيزي؟».

- «أنا لا أشارك في هذا».

- «إذاً لمَاذا ما زلت تحوم هناك على هذا النحو؟ تبدو غريباً عزيزي. إمّا ابقَ أو غادر».

لم يتحرّك ريك، وأبقى ظهره لنا، وكان كتفه الآن متّكئاً على إطار الباب.

- «حسنٌ، المختصر المفيد هو أنَّ ريك ترك المدرسة كي يتلقّى تعليماً منزلياً مثل كلّ الأطفال الأكثر ذكاءً. ولكن بعدئذٍ، كما قد تكونين تعلمين، أصبحت الأمور معقّدة».

فجأة صمتت الآنسة هيلين، وراحت تحدّق إلى الوراء منّي. اعتقدتُ أنّها رأت شيئاً ما عبر النافذة الواسعة خلفي، وكنتُ على وشك أن أستدير لأنظر حين قالت:

- «ما مِن شيءٍ هناك يا كلارا. كنتُ شاردةً فحسب. لقد تذكّرتُ شيئاً. يحدث هذا معي في بعض الأحيان. سيخبركِ ريك عن ذلك. أحتاج أن يلكزني أحدٌ ما في هذه الحالة».

- «أمّي، بالله عليكِ...».

- «أين كنّا؟ آه نعم، كانت الخطّة تقضي بأن يتلقّى ريك تعليماً منزلياً بواسطة أساتذة الشاشة مثل جميع الأطفال الأذكياء الآخرين. لكن بالطبع، وكما تعلمين على الأرجح، فقد أصبح كلُّ شيءٍ معقّداً. وها نحن هنا. عزيزي، هل تودّ متابعة سرد القصّة من هنا؟ لا؟ حسنٌ، بالمختصر المفيد، رغم أنَّه لم يتمَّ تعديل ريك أبداً، إلّا أنّه لا يزال يملك خياراً واحداً لائقاً. إنّ أطلس بروكينغز يأخذ عدداً صغيراً من الطلاب غير المُعدَّلين. إنّها الكلّية اللائقة الوحيدة التي لا تزال تفعل ذلك. هم يؤمنون بالمبدأ، وشكراً للسماء أنّهم كذلك. هناك عدد قليل من المقاعد المتاحة كلّ سنة، لذا فمن الطبيعي أن تكون المنافسة وحشيّة. لكنَّ ريك ذكي، وإذا تقدّم بنفسه، وحصل على القليل من التوجيه الحكيم الذي لا يمكنني تقديمه إليه، فلديه فرصةً جيّدة. أوه، أنتَ حقّاً لديك فرصة جيّدة يا عزيزي! لا تهزَّ

رأسك! لكن الأمر باختصار هو أنّنا لا نستطيع العثور على مدرّسي شاشة له. هم إمّا أعضاءٌ في TWE، والتي تمنع أعضاءها من قبول طلّابٍ غير مُعدَّلين، أو أنّهم قطّاع طرق يطالبون بأجورٍ باهظة نحن لسنا قادرين على دفعها. لكنّنا سمعنا بعدئذٍ أنّكِ وصلتِ إلى المنزل المجاور، وخطرت ببالي فكرةٌ رائعة».

- «أمّي! أنا أعني ما أقول. لن نمضي في هذا الحديث أبعد من ذلك!» عاد ريك إلى الغرفة، يذرعها بخطواتٍ واسعة باتّجاه والدته كما لو أنّه سوف يمسكُ بها ثمَّ ينتزعها من المكان انتزاعاً.

- «حسنٌ يا عزيزي، إذا كنتَ مصرّاً على موقفك فلن نتابع».

وقف ريك الآن عند الأريكة تماماً وهو يرمق الآنسة هيلين بنظرةٍ حادّة. عدّلت وضعية جسدها قليلاً بحيث تتمكّن من مواصلة النظر إليَّ.

- «أتعلمين يا كلارا، حين بدوتُ قبل لحظات أنّني في حلم، لم يكن أيَّ حلم. كنتُ أنظر إلى الخارج» - أشارت بالحذاء إلى الخلف منّي - «وأستذكر شيئاً. استديري وانظري كما تشائين، أؤكّد لكِ أنّه لا شيء هناك الآن. لكن ذات مرّة، منذ بعض الوقت، كنتُ أنظر إلى هناك ورأيتُ شيئاً ما بالفعل».

- «أمّي»، قال ريك مجدّداً، لكن الآن وبعد أن غيّرت الآنسة هيلين الموضوع، أصبحت نبرته أقلّ إلحاحاً. استدار نحوي نصف استدارة، وتراجع إلى الخلف حتّى بات لا يعيق الرؤية لوالدته.

- «كان يوماً جميلاً»، قالت الآنسة هيلين. «قرابة الساعة الرابعة بعد الظهر. ناديتُ ريك فأتى ورأى ذلك أيضاً، أليس كذلك يا عزيزي؟ رغم ادّعائه أنّه تأخّر كثيراً ولم يصل إلّا بعد فوات الأوان».

- «كان يمكن أن يكون أيَّ شيء»، قال ريك. «أيَّ شيءٍ على الإطلاق».

- «ما رأيتُه كان كريسي، والدة جوزي، ذاك هو ما رأيته. رأيتُها تخرج من العشب، من هناك بالضبط، وهي تمسك أحداً ما من ذراعه. أنا لا أعبّر جيّداً عمّا يجول في ذهني. ما أعنيه هو أنَّ ذلك الشخص الآخر كانت تحاول الهرب، وكانت كريسي تلاحقها. وقد تمكّنتْ من الإمساك بها، إلّا أنّها عجزت عن إيقافها تماماً. لذا فقد تعثّرت كلتاهما إذا جاز التعبير، هناك بالضبط، خروجاً من العشب ووصولاً إلى أرضنا».

- «ربّما لم تكن أمّي في أفضل حالٍ ذلك اليوم لرؤية الأشياء على نحو دقيق».

- «كنتُ قادرةً على الرؤية بشكلٍ جيّد جدّاً. لا يحبُّ ريك هذه القصّة، لذا فهو يحاول التلميح إلى كلِّ أنواع الأشياء».

- «هل تقصدين أنّكِ رأيتِ والدة جوزي تخرج من العشب مع طفلة؟ طفلةٍ أخرى غير جوزي؟»، سألتُها.

- «كانت كريسي تحاول أن تضبط ذلك الشخص الآخر، ثمَّ تمكّنتْ من فرض سيطرتها إلى حدٍّ ما. هناك بالضبط. كانت ذراعا كريسي حول الفتاة. لقد وصل ريك إلى هنا في الوقت المناسب ليرى هذا الجزء من المشهد. ثمَّ اختفت كلتاهما داخل العشب مجدّداً».

- «كان يمكن أن يكون أيَّ شخص». كان ريك الآن أكثر استرخاءً، جالساً بجانب والدته، وأخذ ينظر إلى الخارج أيضاً عبر النافذة ورائي. «حسنٌ، إحداهما كانت والدة جوزي. سأقرُّ بذلك. لكن الأخرى. . .».

- «الأخرى بدت مثل سال»، قالت الآنسة هيلين. «أختُ جوزي. لهذا السبب ناديتُ ريك. كان هذا شيئاً جيّداً لرؤيته بعد عامين من وفاة سال المفترضة».

ضحك ريك ووضع ذراعه حول كتفيها وشدّها بلطف. «لدى أمّي بعض النظريات الغريبة. مثل أنَّ سال لا تزال تعيش في ذلك المنزل مختبئةً في خزانة ما».

- «أنا لم أقل ذلك يا ريك. لم أقترح شيئاً مثل هذا على نحوٍ جدّي. لقد توفّيت سال، وكانت تلك مأساةً عظيمة، ولن نعبث بذكراها عبر ألعاب تافهة. كل ما أقوله هو أنَّ الشخص الذي رأيتُه وهو يحاول الهروب من كريسي كان يشبه سال. هذا كلُّ ما قلته».

- «لكنَّ هذه قصّةٌ غريبة بحقّ»، قلتُ لها.

- «كلارا، كنتُ أفكّر للتو أنَّ جوزي ربّما تتساءل ماذا حلَّ بكِ».

- «أه، لكنَّ صديقتنا الصغيرة لا يمكنها الذهاب بعد»، قالت الآنسة هيلين. «تذكّرتُ للتو ما كنّا نناقشه. كنّا نناقش مسألة تعليم ريك».

- «لا، أمّي، هذا يكفي!».

- «لكن يا عزيزي، كلارا هنا وأنا أريد أن أتحدّث معها بهذا الشأن. ثمَّ ما الذي لدينا هنا؟». لاحظت الآنسة هيلين رسم جوزي، والذي كان ريك قد تركه على الأريكة مقلوباً فوق المغلّف.

- «هذا يكفي!». خطف ريك الرسم ونهض بسرعة قبل أن تتمكّن الآنسة هيلين من الوصول إليه.

- «ها أنتَ ذا مجدّداً تحاول فرض سيطرتك يا عزيزي. يجب أن تتوقّف عن ذلك».

أعاد ريك الرسم إلى المظروف بعناية وهو يدير ظهره للآنسة هيلين ليغطّي على ما كان يفعله. ثمَّ خرج من الغرفة، لكن دون أن يتوقّف عند العتبة هذه المرّة. سمعنا وقع خطواته الحازمة في الردهة، وصوت الباب الأمامي ينفتح، ثمَّ يُصفق بقوّة.

- «القليل من الهواء سيكون مفيداً له»، قالت الآنسة هيلين. «إنّه حبيس المنزل. والآن توقّف حتى عن زيارة جوزي».

كانت تنظر عبر النافذة الواسعة ورائي من جديد، وحين استدرتُ هذه المرّة، رأيتُ هيئة ريك على الألواح الخشبية في الخارج، متّكئاً على الدرابزين حيث تهبط درجات السلّم نزولاً عن المصطبة. كان يحدّق في الحقول، ونسق الشمس يغطّيه. كانت الريح تعبث بشعره على نحوٍ مزعج، لكنّه ظلَّ ساكناً بلا حراك.

نهضت الآنسة هيلين عن الأريكة وتقدّمت بضع خطواتٍ نحوي حتّى بِتنا جنباً إلى جنب أمام النافذة. كانت أطول من الأمّ بإنشين. لكنّها مع ذلك لم تكن واقفةً بشكلٍ مستقيم كما كانت الأمّ تفعل، بل وقفتْ بانحناءة طفيفة نحو الأمام، وكأنّها ذاك العشب الطويل في الخارج وهو يقاوم قوّة الريح. لم تكن الآنسة هيلين في تلك اللحظة مقسَّمةً أبداً، وكنتُ أرى في ضوء النافذة الشعيرات البيضاء الصغيرة حول ذقنها.

- «أنا لم أعرِّف عن نفسي بشكلٍ لائق»، قالت لي. «نادِني هيلين من فضلك. كان سلوكي فظيعاً بحقّ».

- «على الإطلاق. لقد كنتِ لطيفةً جدّاً. أخشى فقط أنَّ مجيئي تسبّب في حدوث خلاف».

- «أوه، لكن دائماً ما يكون هناك خلاف. بالمناسبة، وقبل أن تسألي، الجواب هو نعم، أنا أفتقد إنجلترا. وعلى وجه الخصوص،

أفتقد أسيجة الشجيرات. في إنجلترا، في الجزء الذي أتحدّر منه على أيّة حال، يمكنكِ رؤية اللون الأخضر في كلِّ مكان حولك، وكلُّ هذا الأخضر مقسَّمٌ بأسيجة الشجيرات. أسيجة شجيرات في كلِّ مكان، مرتّبة ومنظّمةٌ جدّاً. انظري الآن إلى هناك، إنّه مجرّد اتّساع يمتدُّ بلا نهاية. أفترض أنَّ هناك أسواراً أو ما شابه في مكانٍ وسط كلّ ذلك، لكن مَن يستطيع أن يعرف؟».

سكتتْ، فقلتُ لها: «أعتقد أنّه توجد أسوارٌ بالفعل. إنّها ثلاثة حقولٍ منفصلة تقسمها الأسوار».

- « يمكنكِ هدم سورٍ في لحظة، ثمَّ يمكنكِ تشييد واحدٍ في مكانٍ آخر. يمكنكِ إجراء تغيير شاملٍ لشكل وتخطيط الأرض خلال يومٍ أو اثنين. إنَّ أرضاً بأسوار هي شيءٌ مؤقّتٌ جدّاً. تستطيعين تغيير الأشياء فيها بسهولةٍ كبيرة مثل ديكور مسرح. لقد كنتُ أمثّل كما تعلمين، في مسارح محترمة جدّاً أحياناً، وفي مسارح بائسة أيضاً. ما هي الأسوار؟ إنّها ديكور خشبة مسرح لا أكثر. هذا هو الشيء الجميل في إنجلترا. أسيجة الشجيرات تعطي إحساساً صحيحاً بالتاريخ المتجذّر في الأرض. حين كنتُ أمثّل، لم أنسَ سطراً قطّ، بينما نسي زملائي الممثّلون سطورهم طوال الوقت. لم يكونوا جيّدين جدّاً في العموم. لكنّني لم أنسَ قطّ، ليس حتّى سطراً واحداً. فكّرتُ كثيراً على مرّ السنين أن أسأل كريسي عمّا رأيتُه. هي تأتي للزيارة من وقتٍ لآخر، ولطالما حظينا بأحاديث لطيفة. غالباً ما فكّرتُ في سؤالها، لكنّني كنتُ أوقف نفسي بعد ذلك. كنتُ أفكّر أنّه من الأفضل ألّا أفعل. ما شأني في ذلك على أيّة حال؟».

- «أعتقد أنَّ والدة ريك كانت ترغب للتوّ في مناقشة تعليم ريك».

- «نادِني هيلين من فضلك. بلى، هذا ما أردتُه. كما ترين، إنَّ ريك يعارض حتّى إثارة الموضوع. أقصد حول جعلك تقدّمين المساعدة. أفترض أنّني حقّاً يجب أن أسأل كريسي عن ذلك أوّلاً. أو حتّى جوزي. ليست لديَّ أدنى فكرة. آداب السلوك غير واضحة هنا. لو أنَّ المرء يستعير مكنسةً كهربائية لكان... لكنَّ الأمر ليس كذلك، أعرف هذا. أرجو أن تسامحينني، يا لقلّة أدبي! إنَّ كلَّ ما يحتاجه ريك هو القليل من التوجيه. لقد اشتريت له أفضل الكتب المدرسية. إنّها من حقبة ما قبل تعديل الأطفال وهي مناسبةٌ له تماماً. لكنَّ كلَّ هذه الكتب تفترض أنَّ هناك مدرّساً ما في الجوار. لدى ريك قدراتٌ حقيقية، في الفيزياء والهندسة وهذا النوع من الأشياء بشكلٍ خاص، لكنّه يصادف في مرحلةٍ ما شيئاً لا يفهمه، وليس هناك مَن يشرح له، فيصاب عندئذٍ بالإحباط. لطالما أخبرتُه أن يسأل جوزي، لكنّه بالطبع يغضب فحسب حيال ذلك».

- «إذاً الآنسة هيلين تريد منّي أن أساعد ريك في كتبه المدرسية؟».

- «إنّها مجرّد فكرة. هذه الكتب المدرسية ستكون بمثابة لعبِ أطفال بالنسبة لكِ. وهذا فقط حتّى يجتاز تلك الاختبارات. أترين، هو يحتاج حقّاً أن يلتحق بأطلس بروكينغز. إنّها فرصته الوحيدة. لم أكن أقترح شيئاً على المدى الطويل. أفترض أنّه ينبغي بي أن أسأل كريسي أوّلاً».

- «إذا تمكّن ريك من الالتحاق بكليّة أطلس بروكينغز، فسيكون ذلك شيئاً جيّداً. في هذه الحالة، أنا موافقة، أرغب بشدّة في تقديم المساعدة إلى ريك، طالما أنَّ ذلك لا يشوّش أبداً على رعايتي لجوزي. ربّما يمكن لريك أن يحضر كتبه معه إذا استأنف زياراته».

استطعتُ أن أرى أنَّ جوابي لم يرضِ الآنسة هيلين. واصلتِ النظر إلى ريك على المصطبة -كان لا يزال ثابتاً هناك بلا حراك- ثمَّ قالت:

- «كي أكون صادقة، أظنُّ أنَّ هذه ليست المشكلة الحقيقية. نعم، إنَّ بعض الدروس الخصوصية سوف تكون عاملاً مساعداً. لكنَّ العقبة الحقيقية هي أنّه في الوقت الحالي، وعلى النحو الذي تسير به الأمور، **فإنَّ ريك لا يرغب في المحاولة**. أعرف أنَّ لديه فرصة فقط إذا كان سيبذل قصارى جهده، خاصة أنّني أملك سلاحاً سرّياً لمساعدته، لمنحه دفعةً إضافية صغيرة ليُقبَل في أطلس بروكينغز. لكنّه على الأرجح لن يحاول. لن يحاول بسببي».

- «بسببك؟».

- «لقد أقنع نفسه أنّه لا يستطيع الذهاب بعيداً وتركي هنا. يمكنني بالطبع أن أتدبّر أمري بشكلٍ جيّد جدّاً. لكنّه يحبّ الادّعاء أنّني عاجزةٌ تماماً، وأنّني قد أتسبّب لنفسي بكلِّ أنواع الأذى في غيابه».

- «هل كلّية أطلس بروكينغز بعيدةٌ جدّاً؟».

- «مسافة يومٍ بالسيّارة. لكنَّ المسافة لا علاقةَ لها بالأمر. هو مقتنعٌ أنَّ ساعةً هي كلُّ المدّة التي يستطيع أن يتركني فيها بمفردي. كيف سينضج ويخرج إلى العالم إذا كان لا يستطيع أن يتركني لأكثر من ساعة كلّ مرّة؟».

في الخارج، بدأ ريك يهبط الألواح باتّجاه العشب. فعل ذلك ببطء وكأنّه في حلم يقظة، واستطعتُ أن أحزر من الكيفية التي أبقى بها ذراعه مضمومةً بقوّة إلى صدره أنّه لا يزال يحمل رسم جوزي.

تابعتِ الآنسة هيلين بينما كان رأس ريك وكتفاه يختفيان عن الأنظار:

- «ما كنتُ أتمنّى حقّاً أن أسألكِ القيام به يا كلارا، الطلب الحقيقي العميق هو: هلّا طلبتِ من جوزي أن تحاول إقناع ريك؟ إنّها الشخص الوحيد الذي قد يجعله يغيّر موقفه. هو عنيدٌ جدّاً كما ترين، وأظنُّ أنّه إلى حدٍّ ما خائفٌ أيضاً. ومَن يستطيع أن يلومه على ذلك؟ هو يعرف أنَّ العالم لن يكون سهلاً. لكنَّ جوزي هي القادرة على جعله يرى الأمر من منظورٍ مختلف. هلّا تحدّثتِ إليها؟ أعلم أنَّ لديكِ تأثيراً كبيراً عليها. هل ستفعلين هذا من أجلي؟ اذكري لها الأمر، وليس لمرّةٍ واحدة فقط، بل مراراً وتكراراً، بحيث تمارس ضغطاً حقيقياً عليه».

- «بالتأكيد، سيسعدني أن أفعل ذلك. لكنّني أعتقد أنَّ جوزي تحدّثتْ بالفعل إلى ريك بشأن هذه المسائل ولهذه الغاية بالضبط. في الواقع، قد يكون خلافهما الحالي مرتبطاً بكيف عبّرتْ جوزي عن نفسها بانفعالٍ كبير في هذا الموضوع بالذات».

- «إنّه لمن المثير للاهتمام معرفة ذلك. إذا كان ما تقولينه صحيحاً، فإنَّ ما أطلبه منكِ أكثر أهمّية من أيِّ وقتٍ مضى. قد تشعر جوزي أنّها مضطّرةٌ للتراجع كي يتصالحا. قد تشعر أنّها كانت مخطئة في الأساس لاتّخاذها الموقف الذي اتّخذتْه. حسنٌ، يجب أن تتحدّثي إليها. قولي لها إنَّ عليها المثابرة مهما استشاط غضباً. هل من مشكلة يا عزيزتي؟».

- «أنا آسفة. المسألة فقط هي أنّني متفاجئةٌ قليلاً».

- «أوه؟ لمَ أنتِ متفاجئة يا عزيزتي؟».

- «حسنٌ، بصراحة. . . أنا متفاجئة لأنَّ طلب الآنسة هيلين بخصوص ريك يبدو صادقاً جدّاً. أنا متفاجئةٌ من أنَّ شخصاً ما قد يرغب كثيراً في اتّخاذ مسارٍ سوف يتركه وحيداً في النهاية».

- «وهذا هو ما يفاجئك؟».

- «نعم. فحتّى وقتٍ قريب، لم أكن أعتقد أنَّه يمكن للبشر أن يختاروا الوحدة، ولم أفكّر أنّه توجد في بعض الأحيان عوامل أقوى من الرغبة في تجنّب الوحدة».

ابتسمت الآنسة هيلين. «أنتِ فاتنةٌ حقّاً. أنتِ لا تقولين الكثير، لكن يمكنني معرفة ما تفكّرين فيه. حبُّ الأمّ لولدها، إنّه شيءٌ سامٍ جدّاً، وهو كفيلٌ بتجاوز الخوف من الشعور بالوحدة. وقد لا تكونين مخطئة. لكن دعيني أقول لكِ إنَّ هناك كلَّ أنواع الأسباب الوجيهة التي تجعل المرء يفضّل الوحدة في حياةٍ مثل حياتي. لقد اتّخذتُ هذا الخيار كثيراً في الماضي. على سبيل المثال، فقد اتّخذتُ هذا الخيار بدلاً من البقاء مع والد ريك. الوالد الراحل للأسف الشديد، رغم أنَّه ليس لدى ريك ذكريات عنه. ومع ذلك، فقد كان زوجي لفترةٍ من الزمن، ولم يكن عديم الفائدة بالكامل آنذاك. فبفضله تمكّنا من الوصول إلى ما وصلنا إليه، حتى وإن كنّا لا نعيش في أبّهة. ها هو ريك يعود إلى هنا. أوه، لا هو ليس عائداً. يبدو أنّه يرغب في البقاء هناك، وأن يحرد لوقتٍ أطول».

كان ريك في الحقيقة قد صعد الدرجات الخشبية وألقى نظرةً على المنزل، لكنّه جلس بعد ذلك على الدرْجة العلوية، وأدار ظهره لنا مجدّداً.

- «عليَّ العودة إلى جوزي»، قلتُ عندئذٍ. «لقد كان من اللطيف

جدّاً أن تجعلني الآنسة هيلين محلَّ ثقتها. سوف أقوم بما طلبتِه منّي وأتحدّث إلى جوزي».

- «تحدّثي إليها مراراً. إنّها فرصة ريك الوحيدة. وكما قلتُ منذ قليل، لديَّ سلاحٌ سرّي؛ شخصٌ ما. ربّما في المرّة القادمة التي ستصطحب فيها كريسي جوزي إلى المدينة، في المرّة القادمة حين ستذهب من أجل البورتريه الخاص بها، يمكننا أنا وريك أن نركب معهما. عندها يمكن لريك أن يقابل سلاحي السرّي، على أمل أن يثير إعجابه. لقد تحدّثتُ بالفعل مع كريسي بهذا الشأن. لكن كلَّ هذا بلا طائل ما لم يغيّر ريك موقفه».

- «فهمت. الوداع إذاً. يجب أن أذهب الآن».

شعرتُ إذ خرجتُ إلى المصطبة أنَّ الريح تهبُّ عبر فجوات الألواح بقوّةٍ أكبر من ذي قبل. لم تعد الحقول مقسَّمةً إلى مربّعات، لذا فقد كان بإمكاني رؤية صورةٍ واحدة واضحة وصولاً إلى الأفق. وعلى الرغم من تغيّر الزوايا، فإن حظيرة السيّد ماكبين كانت حيث توقّعتُها أن تكون، رغم أنَّ شكلها الآن مختلفٌ قليلاً عن ذاك الذي يُرى من نافذة جوزي.

مشيتُ مجتازةً ثلّاجة خيوط العنكبوت وصولاً إلى الدرْجة العلوية حيث كان يجلس ريك. اعتقدتُ أنّه ربّما يكون لا يزال غاضباً، وسوف يتجاهلني، لكنّه نظر إلى الأعلى بعينين وديعتين.

- «آسفةٌ إذا تسبّبت زيارتي بحدوث خلاف»، قلتُ له.

- «إنّه ليس خطأكِ. غالباً ما تأخذ الأمور هذا المنحى».

نظرنا معاً إلى الحقول الممتدة أمامنا، وأدركتُ بعد لحظة أنَّ عينيه كما عينيَّ كانتا مركَّزتَين على حظيرة السيد ماكبين.

- «كنتِ تقولين شيئاً ما قبل أن تنزل أمّي. كنتِ تتحدّثين حول رغبتكِ في الذهاب إلى تلك الحظيرة لسببٍ ما».

- «نعم. ويجب أن يكون ذلك مساءً. إنَّ تحديد توقيتٍ دقيق لهذه الرحلة هو أمرٌ أساسي».

- «وأنتِ متأكّدةٌ أنّكِ لا تريدين منّي أن أرافقكِ؟».

- «هذا لطفٌ كبير من ريك. لكن إن كان هناك دروب تقود إلى حظيرة السيّد ماكبين، فالأفضل أن أذهب لوحدي. من المهم ألّا آخذ أيَّ شيءٍ على أنّه من المسلَّمات».

- «حسنٌ، إن كان هذا ما تريدينه». كان ينظر إليّ بعينين نصف مغمضتين، من جهةٍ بسبب نسق الشمس على وجهه، ولأنّني أدركتُ أيضاً من جهةٍ أخرى أنّه كان يدرسني بعناية، وربّما كان يقيّم قدرتي على القيام بهذه الرحلة. «اسمعي»، قال أخيراً. «أنا حقّاً لا أفهم ماهيّة هذا الأمر. لكن إن كان هذا سيساعد جوزي، فحظّاً سعيداً».

- «شكراً لك. يجب أن أعود إلى المنزل الآن».

- «أتعلمين، لقد كنتُ أفكّر، ربّما يمكنكِ أن تقولي لجوزي إنّني أحببتُ رسمها حقّاً. وإنّني كنتُ ممتنّاً. وإنّني أودّ أن آتي قريباً وأخبرها ذلك بنفسي إذا كان هذا يناسبها».

- «ستسعد جوزي لسماع هذا».

- «ربّما غداً».

- «نعم، بالطبع. حسنٌ، إلى اللقاء إذاً. لقد كانت رحلةً ممتعة جدّاً لي. شكراً لكَ على نصيحتكَ المفيدة».

- «إلى اللقاء، يا كلارا. خذي حذرك في الطريق».

■

كان توقيتُ رحلتي إلى حظيرة السيّد ماكبين أمراً بالغ الأهمية كما أخبرتُ ريك، ولمّا عبرتُ الأحجار الرخوة باتّجاه بوّابة إطار الصورة للمرّة الثانية في ذلك اليوم، انتابني خوفٌ أنّني أخطأتُ التقدير. كان الشمس قد انخفض قبالتي بالفعل - ولم يكن بوسعي الافتراض أنّ التنقّل في الحقلين الثاني والثالث سيكون سهلاً مثل الحقل الأوّل.

بدأتْ رحلتي بسلاسة واطمئنان، كان الدرب إلى منزل ريك على حاله كما في الصباح. هذه المرّة كان يمكنني دفع العشب بعيداً بكلتا يديّ، وإذ فعلتُ ذلك، حلّقت حشرات المساء في الأرجاء. رأيتُ المزيد من الحشرات تحوم أمامي في الهواء، تتبادل المواقع بعصبية، لكن دون رغبةٍ في التخلّي عن أفواجها الأليفة.

جعلني خوفي من عدم الوصول إلى حظيرة السيّد ماكبين في الوقت المناسب ألقي نظرةً سريعةً فحسب على منزل ريك لدى مروري به، ثم مضيتُ على طول الدرب أبعد من أيّة نقطة كنت قد بلغتُها قبلاً. مررتُ عبر بوّابة إطار صورة أخرى، ثمَّ أصبح العشب طويلاً جدّاً بحيث لم تعد الحظيرة مرئية. بات الحقل مقسَّماً إلى مربّعات، بعضها أكبر من الآخر؛ مضيتُ قدماً وأنا أعي التباين في الأجواء بين مربّعٍ وآخر. في لحظةٍ يكون العشب طريّاً ومطواعاً، والأرض سهلة؛ ثمَّ أعبر حدّاً، فيُظلم كلُّ شيء، ويقاومني العشب، وأسمع أصواتاً غريبة حولي، ما جعلني أخشى أنّني ارتكبتُ خطأً فادحاً في التقدير، وأنّه ليس هناك من مبرّرٍ مقبول لإقلاق خصوصيّته بالأسلوب الذي كنتُ آمل أن أنفّذ الأمر به، وأنّه سيكون لمجهوداتي انعكاسات سلبية خطيرة على جوزي. لدى مروري بمربّعٍ بغيض على نحوٍ خاص، سمعتُ صرخات حيوانٍ يتألّم، ومرّت في ذهني صورةٌ لروزا وهي

جالسةٌ فوق أرضٍ وعرة في مكانٍ ما في الخلاء، وقطعٌ صغيرة من المعدن متناثرة حولها، فيما مدّت كلتا يديها كي تمسك برجلها المتصلبة الممطوطة أمامها. مرّت الصورة في ذهني لثانية واحدة فقط، لكنَّ الحيوان واصل إصدار ضجيجه، وشعرتُ أنَّ الأرض تنهار من تحتي. تذكّرتُ الثور الفظيع في الطريق إلى شلّالات مورغان، وكيف أنّه ظهر على الأرجح من تحت الأرض، وللحظةٍ قصيرة، فكّرتُ حتّى أنَّ الشمس لم يكن لطيفاً على الإطلاق، وأنَّ هذا هو السبب الحقيقي لحالة جوزي المتدهورة. حتى في خضمِّ هذا الارتباك، كنتُ مقتنعةً أنّني إذا تمكّنتُ فقط من سحب نفسي إلى مربّعِ ألطف، فسوف أصبح بأمانٍ عندئذٍ. كنتُ أعي أيضاً أنَّ هناك صوتاً ينادي عليّ، كما أنّني رصدتُ الآن شيئاً - شكلاً يشبه أحد مخاريط المرور الخاصة برجال الصيانة - موضوعاً على العشب إلى الأمام منّي قليلاً. كان الصوت قادماً من وراء هذا المخروط، وعندما حاولتُ التحرّك نحوه، أدركتُ أنّهما كانا في الواقع مخروطين، واحدٌ منهما مولَجٌ في الآخر، ممّا سمح للمخروط الأعلى بالاهتزاز للأمام والخلف، ربّما بغرض جذب انتباه المارّة.

- «كلارا! تعالي! إلى هنا!».

اقتربتُ أكثر، ثمَّ أدركتُ أنَّ هذه لم تكن مخاريطَ على الإطلاق، بل كان هذا ريك يبعد العشب بإحدى يديه ويمدُّ يده الأخرى نحوي. كان لديَّ الآن بعد أن ميّزتُه حافزٌ أكبر كي أتحرّك باتّجاهه، لكنَّ قدمي غاصت أكثر، وعرفتُ أنّني إذا حاولت القيام بخطوةٍ أخرى فسوف أفقد التوازن وأسقط عميقاً داخل الأرض. عرفتُ أيضاً أنّه ورغم كون ريك يبدو على بعد مسافةٍ قريبة، إلّا أنّه في الواقع لم يكن قريباً جدّاً بسبب الحدِّ الشرس الذي يفصل بين

مربّعينا. ومع ذلك، فقد استمر في مدِّ يده إليّ، وبدت ذراعه من حيث عبرت داخل مربّعي ممطوطةً ومقوّسةً.

- «هيّا يا كلارا!».

لكنّني كنتُ الآن قد تقبّلتُ أنّني سرعان ما سأسقط داخل الأرض، وأنَّ الشمس كان غاضباً منّي، وربّما كان فظّاً أيضاً، وأنَّ جوزي كانت خائبة الأمل بي. بدأتُ أفقد الإحساس بالاتّجاه حتّى أثناء ما كانت ذراع ريك تزداد طولاً وتقوّساً إلى أن لامستْني. لقد منعتْني من السقوط، وأصبحتْ قدماي أكثر ثباتاً بقليل.

- «لا بأس يا كلارا. من هنا».

كان يقودني - يحملني تقريباً - ومن ثمَّ بِتُّ داخل مربّعٍ لطيف، نسق الشمس السخيّ يغطّيني، وعرفتْ أفكاري الترتيب مجدّداً.

- «شكراً لك. شكراً لأنّكَ أتيتَ للمساعدة».

- «رأيتكِ من النافذة. هل أنتِ بخير؟».

- «نعم. عاد كل شيءٍ على ما يرام. لقد تكشّف الحقل عن مشاكلَ أكثر ممّا توقّعت».

- «أظنُّ أنّه يمكن لقنوات التصريف الصغيرة هذه أن تصبح خدّاعة. عليَّ القول إنّكِ بدوتِ من هناك مثل ذبابةٍ تحوم على نحوٍ أعمى فوق زجاج النافذة. لكنّه كلامٌ غير لطيف، أنا آسف».

ابتسمتُ وقلت: «أشعر أنّني حمقاء جدّاً». ثمَّ تذكّرتُ، فنظرتُ للأعلى كي أتحقّق من موضع الشمس. «هذه الرحلة هامّةٌ جدّاً»، قلتُ وأنا أنظر مجدّداً إلى ريك. «لكنّني أخطأتُ التقدير، ولن أصل الآن إلى هناك في الوقت المناسب».

كان العشب لا يزال مرتفعاً جدّاً بحيث تتعذّر رؤية حظيرة السيّد ماكبين في المسافة الممتدّة أمامنا، لكنَّ ريك كان ينظر في اتّجاهها

مباشرة ويده فوق عينيه، وفكّرتُ أنّه طويلٌ بما يكفي ليتمكّن من رؤيتها.

- «كان عليَّ أن أغادر المنزل في وقتٍ أبكر»، قلتُ له، «بغض النظر عن الارتباك الذي حدث حين رجعتْ. إلّا أنّني انتظرتُ حتّى نامت جوزي، وحاولت جعل المدبّرة ميلانيا تصدّق أنّني ذاهبةٌ إلى منزل ريك في مأموريةٍ أخرى. اعتقدتُ أنّه سيكون لديَّ وقتٌ كافٍ، لكن اتّضح أنَّ الحقول كانت أكثر تعقيداً ممّا تخيّلت».

كان ريك لا يزال ينظر باتّجاه حظيرة السيّد ماكبين. «أنتِ تقولين باستمرارٍ إنّكِ لن تصلي إلى هناك في الوقت المناسب. لكن متى بالضبط أردتِ أن تكوني هناك؟».

- «في الوقت الذي يصل فيه الشمس بالضبط إلى حظيرة السيّد ماكبين. لكن قبل أن يختفي لأجل أن يرتاح».

- «اسمعي، أنا لا أفهم شيئاً من هذا. وأقدّر أنّكِ لا تستطيعين السماح لي بالمشاركة فيه لسببٍ ما. لكن إن أردتِ، فسوف آخذكِ إلى هناك».

- «هذا لطفٌ كبيرٌ منك. لكن حتّى مع توجيه ريك، أعتقد أنّه قد فات الأوان الآن».

- «لن أوجّهك. بل سوف أحملكِ على ظهري. ما زال لدينا مسافةٌ محترمة لنقطعها، لكن إذا أسرعنا فأظنُّ أنّه يمكننا النجاح».

- «هل ستفعل ذلك؟».

- «لا تنفكّين تقولين إنّه أمرٌ هامٌ. هامٌّ لجوزي. لذا نعم، أنا أودُّ المساعدة. هذا أكبر من طاقتي على الاستيعاب، لكنّني معتادٌ على ذلك. إذا كنّا سنذهب، فعلينا الإسراع».

استدار وأخذ وضعية القرفصاء. فهمتُ أنّ عليّ أن أتسلّق على

ظهره، ففعلتُ ذلك على الفور - شبكتُ ذراعيّ وساقيَّ حوله - ثمَّ بدأ في التحرّك.

■

كنتُ الآن أعلى، فكان بوسعي رؤية سماء المساء على نحوٍ أفضل، وكذلك سقف حظيرة السيّد ماكبين إلى الأمام منّا. تحرّك ريك بثقة فيما هو يقتحم العشب، وبما أنَّ ذراعيه كانتا مشغولتين بالإمساك بي، فقد تلقى رأسه وكتفاه معظم الاصطدام. شعرتُ بالأسف حيال ذلك، وحيال القليل جدّاً الذي كان يسعني فعله بخصوص إبعاد العشب.

ثمَّ نظرتُ إلى الأعلى أبعد من رأس ريك، ورأيتُ أنَّ السماء انقسمت إلى مقاطع غير منتظمة الأشكال. كانت بعض المقاطع تشعُّ باللون البرتقالي أو الوردي، بينما أظهر بعضها الآخر قطعاً من سماء الليل مع أجزاء من القمر يمكن رؤيتها عند الزاوية أو الحافّة. مع تقدّم ريك إلى الأمام ظلّت المقاطع متداخلة ومتزاحمة حتى لدى عبورنا بوّابة إطار صورة أخرى. بعد ذلك، وبدلاً من أن يكون العشب ناعماً ومتموّجاً، ظهر لنا بأشكال مسطّحة أقرب إلى أن تكون مصنوعة من لوحٍ ثقيل مثل النوع المستخدم في إعلانات الشوارع، وخشيتُ أنّه سيتسبّب في إصابةٍ لريك حين يغوص فيه. بعد ذلك لم تعد السماء والحقل على شكل مقاطع، بل أصبحا صورة واحدة فسيحة، وكانت حظيرة السيّد ماكبين تلوح أمامنا في الأفق.

لم يعد من الممكن الآن تنحية الأفكار المضطربة التي كانت تعتمل في رأسي. كنتُ قد بدأتُ أتساءل حتّى قبل أن يأتي ريك عمّا إذا كان مكان استراحة الشمس موجوداً بالفعل داخل الحظيرة نفسها.

كنتُ أنا بالطبع مَن اقترح شيئاً كهذا أوّلاً وليس جوزي، حين وقفنا ننظر معاً من النافذة الخلفية، لذا فإنَّ أيّ خطأٍ بهذا الشأن سيكون خطئي بالكامل. لم يكن هناك شكٌّ بالتأكيد أنَّ جوزي قد ضلّلتني في مرحلة ما. رغم ذلك، فقد كان من المحبط التفكير في أنَّ الشمس على وشك النزول ليس في المكان الذي أبذل كلَّ هذا الجهد للوصول إليه، بل في مكانٍ ما أبعد منه.

أجبرني ما كنتُ ألاحظه الآن على قبول فكرة أنَّ خوفي كان مبرَّراً. كانت حظيرة السيّد ماكبين مختلفة عن أيِّ مبنىً رأيتُه. كانت أشبه بهيكلٍ خارجيّ لمنزلٍ لم يُنهِ الرجال العمل عليه بعد. كان السقف رمادياً مثلث الشكل بالطريقة المعتادة، مدعوماً من اليسار واليمين بجدارين بلونٍ أغمق. لكن عدا عن الجدارين اللذَين يدعمان السقف من الجانبين، لم يكن للهيكل جدارٌ أمامي أو خلفيّ. عرفتُ بالتّالي أنَّ الريح كانت تهبّ عبرها دون أيِّ عائق تقريباً. ورأيتُ الشمس وقد هبط الآن خلف هيكل الحظيرة، وكان يرسل إلينا أشعّته عبر الفتحة الخلفية فيما كنّا نقترب.

كنّا في هذه الأثناء قد وصلنا إلى قطعة أرضٍ خالية لا تختلف عن تلك التي بُنيَ عليها منزل ريك. كان هناك عشب، لكن تمَّ جزُّه إلى مستوىً أعلى من القدمين بقليل ربّما من قِبَل السيّد ماكبين نفسه. أُنجِز جزُّ العشب بمهارة بحيث كان يمكن رؤية نسقٍ يشقُّ طريقه وصولاً إلى مدخل الحظيرة، ولأنَّ الشمس كان الآن يسطع مباشرةً عبر الحظيرة، فقد كان ظلّها ينتشر فوق العشب باتّجاهنا.

رغم أنَّ ذلك بدا غير لائق، إلّا أنّني أشرتُ بإلحاحٍ لريك عبر شدِّ ذراعيّ ورجليّ بإحكامٍ عليه. «توقّف من فضلك!» همستُ في أذنه. «توقّف! أنزلني رجاءً!».

أنزلَني بحذر، وراح كلانا يحدّق في المشهد أمامنا. رغم أنّه كان يجدر بي أن أقبل الآن أنّه لا يمكن للحظيرة أن تكون الموقع الفعليّ لاستراحة الشمس، إلّا أنّني سمحتُ لنفسي بالتفكير في إمكانية إيجابية: بغضّ النظر عن المكان الذي يستقرُّ فيه الشمس في نهاية المطاف، فقد كان للشمس وجهة نظر في جعل حظيرة السيّد ماكبين آخر مكانٍ يزوره كلَّ مساء، تماماً كما كانت جوزي تزور دائماً حمّامها قبل أن تخلد إلى الفراش.

- «أنا ممتنّةٌ جدّاً»، قلتُ له مع الحرص على إبقاء صوتي منخفضاً. «لكن اعتباراً من هنا، الأفضل أن يتركني ريك، وأن أذهبَ لوحدي».

- «أيّاً كان ما تريدينه. سأنتظركِ هنا إذا أردتِ. كم تظنّين أنّكِ ستستغرقين؟».

- «من الأفضل أن يعود ريك إلى منزله، وإلّا ستشعر الآنسة هيلين بالقلق».

- «ستكون أمّي بخير. أعتقد أنّه من الأفضل أن أنتظر. هل تذكرين كيف كان الوضع قبل أن أظهر في المشهد؟ كما أنّ رحلة عودتكِ قد تكون في الظلام على الأرجح».

- «سيكون عليَّ أن أتدبّر أمري. لقد كان ريك لطيفاً جدّاً بالفعل. وإنّه لمن الأفضل أن أدخل لوحدي. ربّما يتسبّب وقوفنا هنا على هذا النحو في انتهاك الكثير من الخصوصية».

نظر ريك مجدّداً إلى حظيرة السيّد ماكبين، ثمَّ هزَّ كتفيه. «حسنٌ. سوف أترككِ للقيام بذلك. أيّاً كان هذا الشيء الذي يتوجّب عليكِ فعله».

- «شكراً لك».

- «حظّاً طيّباً يا كلارا. أنا أعني ذلك حقّاً».

استدار وعاد ليخوض في العشب الطويل، وسرعان ما لم يعد بإمكاني رؤيته.

إذْ أصبحتُ بمفردي، بدأتُ أركّز أفكاري بالكامل على المهمّة التي بين يديّ. خطر لي أنّه لو وقف أحد المارّة أمام الحظيرة مباشرة حتّى خمس دقائق قبل ذلك، لكان لن يتمكّن من رؤية سماء المساء في الخلفية مع امتداد الحقل الشاسع فحسب، ولكن أيضاً الكثير من ظلِّ الحظيرة الداخليّ. لكن الآن، ومع اقتراب أشعة الشمس نحوي بشكلٍ مباشر، فقد كان بوسعي أن أميّز فقط بعض الأشكال الضبابية الشبيهة بالصناديق المكدّسة بعضها فوق بعض. وعادت إلى ذهني بيقينٍ أكثر من أيِّ وقتٍ الفكرة القائلة أنّه حتّى بعد أخذ سخاء الشمس وكرمه بعين الاعتبار، فإنَّ ما كنتُ على وشك القيام به ينطوي على مخاطر جمّة، ويتطلّب منّي كلَّ التركيز. سمعتُ حفيف الريح في العشب ورائي ونداءات الطيور البعيدة. وأنا أرتّب أفكاري، مشيتُ عبر العشب المجزوز نحو حظيرة السيّد ماكبين.

■

كان الداخل مفعماً بضوءٍ برتقالي. نثرات القش تنجرف مع الهواء مثل حشرات المساء، وكانت أنساقه تتساقط على طول أرضية الحظيرة الخشبية. حين نظرتُ ورائي بدا ظلّي وكأنّه شجرةٌ رفيعةٌ وطويلة، وجاهزةٌ لتنكسر في مهبّ الريح.

كانت هناك بعض الملامح الغريبة في محيطي. أوّل ما واجهتُه لدى دخولي إلى الحظيرة تلك التقسيمات شديدة التباين بين السطوع والظلّ لدرجة أنَّ بصري استغرق بضع لحظاتٍ للتكيّف. مع ذلك،

فقد ثبَّتُ سريعاً في ذهني أنَّ كتل القشّ التي لاحظتُ شكلها الصندوقيّ من الخارج، كانت الآن إلى يساري مكدّسةً واحدةً فوق الأخرى لتشكّل ما يشبه المنصّة - وصل ارتفاع الواحدة منها مستوى كتفي - يمكن للمرء أن يتسلّقها أو حتّى يستلقي عليها ويرتاح. لكنَّ كتل القش كانت مكدّسةً بطريقةٍ تسمح بوجود فجوةٍ بينها وبين الجدار خلفها - ربّما كي يكسب السيّد ماكبين منفذاً من تلك الجهة. دقّقتُ النظر أعلى منصّة القشّ، ورأيتُ الآن الرفوف الحمراء من متجرنا مثبَّتَةً على طول هذا الجدار، كاملةً مع أكواب القهوة الخزفية المعروضة في صفٍّ واحد وهي مقلوبةٌ رأساً على عقب.

على يميني، حيث الظلال عند أعمق درجاتها، رأيتُ جزءاً من الجدار يكاد يكون مطابقاً للكوّة الأمامية. في الواقع، كنتُ متأكّدةً أنّني إذا ذهبتُ إليها، فسوف أعثر وسط الظلال على ص. ا. يقف هناك بفخر في المكان الذي - بغض النظر عمّا قيل لنا - من المرجّح أنَّ الزبائن سيلقون نظرةً عليه أوّلاً.

على يميني أيضاً، في نقطة أقرب من الكوّة، كان هناك العنصر الوحيد في الحظيرة الذي يمكن اعتباره أثاثاً: كرسيٌّ معدنيّ صغير قابلٌ للطيّ، وقد كان مفتوحاً الآن، ويشطره على نحو قطريّ خطٌّ يفصل بين شطريه الظليل والمضاء. كان هذا الكرسيُّ يذكّر أيضاً بكراسي المديرة التي كان يُحتَفَظُ بها في الغرفة الخلفية وتُفتح في بعض الأحيان في المتجر، غير أنَّ طلاء هذا الكرسيّ كان آخذاً بالتّقشّر كاشفاً عن بقعٍ من المعدن تحته.

قرّرتُ بعد بعض التأمّل أنّه لن يكون تصرّفاً فظّاً أن أجلس على هذا الكرسي أثناء انتظار الشمس. توقّعتُ تماماً لدى جلوسي أن

أرى صورةً منقّحة لما يحيط بي نظراً لتغيّر الزاوية، لكنّي فوجئتُ بأنَّ كلّ شيءٍ بات مقسّماً بدلاً من ذلك - وليس فقط إلى المربّعات المعتادة، ولكن إلى مقاطع غير منتظمة الأشكال. كان يمكنني داخل بعض هذه المقاطع رؤية أجزاء معيّنة من أدوات الزراعة الخاصّة بالسيّد ماكبين - مقبض مجرفة، النصف السفلي من سلّمٍ معدنيّ. في مقطعٍ آخر كان هناك ما عرفتُ أنّهما فوّهتا دلوين بلاستيكيين موضوعين جنباً إلى جنب، ولكن ربّما بسبب ظروف الإضاءة الصعبة فقد ظهرا ببساطة كشكلين بيضويين متقاطعين.

كنتُ أعرف أنَّ الشمس أصبح الآن قريباً جدّاً منّي، ورغمَ أنّني فكّرتُ في بعض اللحظات أنّه يجدر بي الوقوف، كما هو الحال لدى استقبال زبونٍ، لكنَّ فكرةً أخرى اقترحتْ أنَّ الخصوصية التي سأسلبها واحتمال تسبّبي بالإزعاج سيكونان أقلّ إذا بقيتُ جالسة. لذا استويتُ ملتصقة قدر ما استطعتُ بالكرسيّ القابل للطيّ وانتظرت. أصبحت أعمدة أشعة الشمس أكثر قوّةً، وأشدَّ برتقالية، حتّى اعتقدتُ أنّ هذه الأعمدة تتسبّبُ في انفلات جزيئاتٍ من القشّ من كتلها المرصوصة وجعلها تطفو في الهواء، فقد كان ما ينجرف منها أمامي الآن أكثر بكثير من ذي قبل.

ثمَّ جاءتني فكرةٌ مفادها أنّه إذا كنتُ على صواب، وأنَّ الشمس كان الآن في طريقه إلى موقع راحته الفعليّ مروراً بحظيرة السيّد ماكبين، فليس في وسعي تحمّل كلفة أن أكون مهذّبةً على نحوٍ مفرط، بل ينبغي بي أن أنقضَّ على فرصتي بكلِّ جرأة، وإلّا ستذهب كلّ جهودي - ومساعدة ريك لي - هباءً. لذا استجمعتُ أفكاري وبدأتُ في الكلام. في الواقع لم أنطق الكلمات بصوتٍ عالٍ، إذ كنتُ أعرف أنَّ الشمس ليس في حاجةٍ إلى كلماتٍ على هذا النحو.

لكنّي رغبتُ في أن أكون واضحةً قدر الإمكان، لذا شكّلتُ الكلمات، أو شيئاً شبيهاً بها، بسرعةٍ وهدوء داخل ذهني.

- «أرجوكَ اجعلْ جوزي تتحسَّن. تماماً كما فعلتَ مع الرجل المتسوّل».

رفعتُ رأسي قليلاً، ورأيتُ جنباً إلى جنب مع كِسرة أدوات الزراعة وكتل القشّ، رأيتُ جزءاً من إشارة مرور، وجزءاً من جناح أحد طيور ريك، وتذكّرتُ صوت المديرة وهي تقول: «سوف لن يكون هذا ممكناً»، وصوت الصبي ص. ا. ريكس يقول: «أنتِ أنانيةٌ جدّاً، يا كلارا». وقلتُ:

- «لكنَّ جوزي ما تزال طفلة ولم تفعل أيَّ شيءٍ غير لطيف».

وتذكّرتُ عيني الأمّ وهما تتفحّصاني على مقعد النزهة في شلّالات مورغان، والثور يحدّق غاضباً كما لو أنّه لا يحقُّ لي المرور من أمام حقله، وأدركتُ أنّني قد أكون أغضبتُ الشمس بتطفّلي على هذا النحو في الوقت الذي كان يحتاج فيه إلى راحته تماماً. صِغتُ اعتذاراً في ذهني، لكنَّ الظلال أصبحت الآن أطول حتّى، وعرفتُ أنّني إذا قمتُ بفردِ أصابعي إلى الأمام منّي فإنّ ظلالها سوف تتطاول رجوعاً إلى مدخل الحظيرة. كان واضحاً أنَّ الشمس لم يكن مستعدّاً لتقديم أيّ وعدٍ بشأن جوزي، لأنّه وعلى الرغم من كلِّ عطفه، فهو لم يكن قادراً بعد على رؤية جوزي بصورةٍ منفصلة عن باقي البشر، الذين أغضبه بعضهم كثيراً بسبب تلوّثهم واستهتارهم، وشعرتُ فجأة بالغباء لقدومي إلى هذا المكان من أجل هكذا طلب. غمر الحظيرة ضوءٌ برتقالي أكثر كثافة حتّى، ورأيتُ روزا مجدّداً فوق الأرض الصلبة مكتسيةً تعابير الألم، تمدّ يديها كي تلمس ساقها الممطوطة. طأطأتُ رأسي، وتقوقعتُ على نفسي في

أصغر هيئةٍ استطعت على الكرسي القابل للطيّ، لكنّي عندها تذكّرتُ ثانيةً كيف أنَّ أيَّ فرصةٍ لالتماس الطلب منه سوف تكون لحظيةً وسريعة، وبهذا وجدتُ الشجاعة، وقلتُ في أشباه كلمات أجبرتها على المرور في ذهني في لحظةٍ خاطفةٍ:

- «أفهم كم كنتُ جريئةً ووقحة بمجيئي إلى هنا. الشمس له كلُّ الحق أن يغضب، وأنا أتفهّم تماماً رفضكَ حتّى النظر في طلبي. ومع ذلك، ونظراً لعظمة عطفك، فقد فكّرتُ أنّني ربّما أستطيع أن أسألك تأخير رحلتك للحظةٍ إضافية، كي تستمع إلى اقتراحٍ آخر. فلنفترض أنَّ بمقدوري فعل شيءٍ مميّز لإرضائك. شيءٌ يجعلك سعيداً على نحوٍ خاص. إن كان بوسعي تحقيق شيءٍ كهذا، فهلّا فكّرتَ في المقابل بإظهار عطفٍ مميّز على جوزي؟ تماماً كما فعلتَ مع الرجل المتسوّل وكلبه؟».

تغيّر شيءٌ ما حولي على نحوٍ واضح لدى مرور هذه الكلمات في ذهني. كان الوهج الأحمر داخل الحظيرة لا يزال كثيفاً، لكنّه الآن كان ينطوي على جانبٍ لطيف تقريباً - لدرجة أنَّ المقاطع التي لا يزال محيطي مقسّماً إليها بدت وكأنّها تنجرف وسط أشعّة الشمس الأخيرة. رصدتُ النصف السفليّ من عربة العرض الزجاجية - ميّزتُ عجلاتها - وهو يعلو ببطء حتى بات محجوباً وراء مقطعٍ مجاور، كما لم يعد بإمكاني رؤية أيّ أثرٍ للثور الرهيب رغمَ أنّي رفعتُ رأسي ونظرتُ حولي. عرفتُ عندها أنّي كسبتُ أفضليةً مميّزة، لكن لم يكن بوسعي أن أضيّع لحظة صغيرة حتّى، لذا تابعتُ دون صياغة المزيد من أشباه الكلمات، إذ كنتُ أعلم أنّني لا أملك الوقت لذلك:

- «أعرف مدى كره الشمس للتلوّث. وكم يتسبّب لكَ بحزنٍ وغضب. حسنٌ، لقد رأيتُ وحدّدتُ الآلة التي تخلقه. لنفترض أنّني

تمكّنتُ بطريقةٍ ما من العثور على هذه الآلة وتدميرها. تمكّنتُ من وضع حدٍّ لتلوّثها. هلّا أخذتَ بعين الاعتبار تقديم مساعدتكَ المميّزة إلى جوزي؟».

كان الجزء الداخليّ من الحظيرة يزداد ظلمةً، لكنّها كانت ظلمةً ودودة، وسرعان ما تلاشت كلُّ المقاطع، ولم يعد داخل الحظيرة منقسماً. كنتُ أعلم أنَّ الشمس قد مضى في سبيله، فنهضتُ من الكرسي القابل للطيّ، ومشيتُ لأوّل مرّة نحو الفتحة الخلفية لحظيرة السيّد ماكبين. رأيتُ عندئذٍ كيف يمتدُّ الحقل على مسافةٍ متوسطة حتّى يلتقي بخطٍّ من الأشجار - نوعٌ من السياج الرقيق - حيث كان الشمس خلفه متعباً وغيرَ حادٍّ الآن، ويغوص شيئاً فشيئاً داخل الأرض. كانت السماء آخذةٌ في التحوّل إلى سماء الليل، والنجوم بدأتْ تصبح مرئية، ويمكنني القول إنَّ الشمس كان يبتسم نحوي بلطف فيما هو يهبط ليحظى براحته.

بدافعٍ من الامتنان والاحترام، ظللتُ واقفةً عند الفتحة الخلفية حتى تلاشى شعاعه الأخير داخل الأرض. ومن ثمَّ سرتُ عبر الجزء الداخلي المظلم من حظيرة السيّد ماكبين، وغادرتُ من نفس الطريق الذي جئتُ منه.

■

تحرّك العشب الطويل حولي برفق حين خضتُ فيه مجدّداً. كان عبور الحقل في الظلام أمراً شاقّاً، إلّا أنَّ ما حدث للتوّ شجّعني كثيراً، وبالكاد شعرتُ بأيِّ خوف. رغم ذلك، ذكّرتني الأرض غير المستوية بالمخاطر التي أواجهها، لذا فقد كنتُ مسرورةً لسماع صوت ريك يأتي فجأة من مكان ما بالقرب منّي.

- «كلارا، هل هذا أنتِ؟».

- «أين أنت؟».

- «من هنا. إلى يمينك. لقد تجاهلتُ نصيحتكِ بشأن العودة إلى المنزل مباشرة».

تحرّكتُ نحو مصدر الصوت، فتناقَص العشب شيئاً فشيئاً حتّى وجدتُ نفسي في بقعة نظيفة. بدا الأمر كما لو أنَّ مكنسةً كهربائية قد صنعتْها - مساحةٌ دائرية صغيرة، ارتفاع العشب فيها بمستوى الحذاء مجدّداً، وفي سماء الليل في الأعلى كان ثمّة قطعة قمرٍ رقيقةٍ ومقوّسة. بدا ريك جالساً على الأرض، لكن حين اقتربتُ منه، رأيتُ أنّه يجلس على حجرٍ كبير معظمه غائصٌ في الأرض. بدا هادئاً وابتسم لي.

- «شكراً لأنّكَ انتظرت»، قلتُ له.

- «إنّها مصلحةٌ شخصية صرفة. لنفترض أنّكِ علقتِ هنا طوال الليل وتعرّضتِ للأذى، كنتُ سأقع عندها في ورطةٍ كبيرة بسبب إحضاركِ إلى هنا».

- «أعتقد أنَّ ريك انتظر بدافع اللطف. أنا ممتنّةٌ جدّاً».

- «هل عثرتِ على ما ذهبتِ من أجله هناك؟».

- «أوه نعم. هذا ما أعتقده على الأقل. كما أعتقد أنَّ ثمّةَ الآن سبباً للأمل في أن تتحسّن جوزي. آمل أنَّ حالتها سوف تتحسّن. لكن عليَّ أوّلاً أن أنفّذ مهمّة».

- «أيُّ نوعٍ من المهمّات؟ ربّما يمكنني المساعدة».

- «أنا آسفة، لا أستطيع مناقشة هذا الأمر مع ريك. أعتقد أنّه تمَّ الليلة التوصّل إلى تفاهم. أو عقدٍ إذا أردتْ. لكن قد أعرّضه للخطر إذا تحدّثتُ عنه من دون حساب».

- «لا بأس. أنا لا أريد تعريض أيَّ شيءٍ للخطر. ومع ذلك، إن كان ثمّةَ شيءٌ تعتقدين أنّه يمكنني فعله...».

- «إن أمكنني أن أتحدّث بصراحة، أهمُّ شيءٍ يمكن لريك أن يفعله هو أن يحاول جاهداً الالتحاق بكلّية أطلس بروكينغز. عندها يمكن لجوزي وريك أن يبقيا معاً، ويمكن لأمنياتهما التي عُبِّر عنها في الرسم اللطيف أن تظلَّ قائمة».

- «يا إلهي، كلارا، من الواضح أنَّ أمّي كانت تشتغل عليكِ. هي تجعل الأمر يبدو سهلاً للغاية. لكن لا فكرة لديكِ عمّا يتطلّبه الأمر من شخصٍ مثلي للوصول إلى مكانٍ كهذا. وحتّى لو تمكنتُ من ذلك، ماذا سيحدثُ لأمّي؟ أأتركها هنا بمفردها وحسب؟».

- «قد تكون الآنسة هيلين أقوى ممّا يفترضه ريك. وحتّى إن كان ريك غير معدَّل، فهو لديه مواهب مميّزة. أعتقد أنّه قد يُقبَل في كليّة أطلس بروكينغز إذا حاول بجدّ. إضافةً إلى ذلك، قالت الآنسة هيلين إنَّ لديها سلاحاً سرّياً لمساعدة ريك».

- «سلاحها السرّي؟ معتوهٌ ما يساعد في إدارة ذلك المكان. أحد أحبّائها السابقين. لا أريد أن أكون طرفاً في هذا بأيّ شكلٍ من الأشكال. اسمعي يا كلارا، يجب علينا أن نعود أدراجنا».

- «أنتَ على حقّ. لقد كنّا في الخارج لوقتٍ طويل. ربّما الآنسة هيلين تشعر بالقلق. وإذا تمكّنتُ من العودة قبل وصول والدة جوزي، فسوف يعني ذلك تجنّب الأسئلة المحرجة».

■

في اليوم التالي، إذ قُرِع جرس الباب في منتصف الفترة الصباحية، بدا أنَّ جوزي خمّنتْ مَن بالباب فغادرتْ سريرها،

وهرعتْ نحو مصطبة الدَّرج. لحقتُ بها، وبينما كان ريك يمرّ مجتازاً المدبّرة ميلانيا إلى الرواق، التفتتْ إليَّ جوزي بابتسامةٍ ملؤها الحماس. لكنّها من ثمَّ جعلتْ ملامحها خاليةً من أيٍّ تعبير عندما وقفت على الدرْجة العليا.

- «هيه، ميلانيا»، نادت جوزي المدبّرة في الأسفل. «هل تعرفين مَن يكون هذا الشاب الغريب؟».

- «مرحباً، جوزي»، قال ريك وهو ينظر إلينا، وعلى وجهه ابتسامةٌ حذرة. «لقد سمعتُ هذه الشائعة التي تقول بأنّنا قد نصبح صديقين مجدّداً».

جلستْ جوزي على الدرْجة العليا، ورغم أنّني كنتُ خلفها، إلّا أنّني عرفتُ أنَّ ألطف ابتسامة كانت مرتسمةً على وجهها الآن.

- «أوه، حقّاً؟ هذا غريب. أتساءل مَن أطلق تلك الإشاعة».

أصبحتِ ابتسامةُ ريك أكثر ثقة. «إنّها مجرّد ثرثرة على ما أظنّ. بالمناسبة، لقد أحببتُ ذلك الرسم كثيراً. وضعتُه داخل إطار الليلة الماضية».

- «حقّاً؟ واحدٌ من تلك الإطارات التي تصنعها بنفسك؟».

- «لأكون صادقاً، استخدمتُ واحداً من إطارات أمّي القديمة. هناك الكثير منها ملقاة هنا وهناك. نزعتُ صورةً لحمارٍ وحشيّ ووضعتُ لوحتكِ بدلاً منها».

- «تبديلٌ رائع».

كانت المدبّرة ميلانيا قد دخلت إلى المطبخ، وواصل ريك وجوزي الابتسام أحدهما للآخر من طرفيّ السلّم. بعدها لا بدَّ أنَّ جوزي كانت قد أعطتْ إشارةً ما، لأنّهما تحرّكا في الحال وبسرعة، هي وقفت على قدميها، وهو مدَّ يده ليمسك بالدرابزين.

تذكّرتُ حين ذهبا معاً إلى غرفة النوم تعليمات المدبّرة ميلانيا من الفترة السابقة، فلحقتُ بهما إلى الداخل. بعد ذلك كان الأمر لبعض الوقت أشبه بالأيّام الخوالي، أنا على أريكة الأزرار قبالة النافذة الخلفية، وريك وجوزي خلفي يضحكان على أشياء سخيفة. ثمَّ سمعتُ جوزي في مرحلةٍ ما تقول:

- «هيه ريك. أتساءل ما إذا كانت هذه هي الطريقة الصحيحة لإمساك واحدةٍ من هذه». رأيتُها في انعكاس صورتها على النافذة تمسك بسكّين مائدةٍ متروكة من وجبة الإفطار. «أم أكثر على هذا النحو؟».

- «كيف لي أن أعرف؟».

- «اعتقدتُ أنّكَ قد تعرف، كونك إنجليزياً وما إلى ذلك. قالت لي أستاذة الكيمياء أنّه ينبغي أن تمسكها هكذا. لكن ما أدراها؟».

- «ما أدراني أنا أيضاً؟ ولماذا لا تنفكّين تقولين إنّني إنجليزي؟ أنا لم أعش هناك في الواقع، أنتِ تعرفين ذلك».

- «كان ذلك أنتَ يا ريك. قبل سنتين أو ثلاثة؟ أنتَ الذي كنتَ تصرُّ على التأكيد على فكرة كم أنتَ إنجليزي».

- «هل فعلتُ ذلك؟ لا بدَّ أنّها مرحلةٌ وانقضت».

- «أوه، بلى، لقد استمرَّ ذلك لعدّة أشهر. كنتَ على هذه الشاكلة: من فضلكِ هذا، اعذريني لأجل ذاك. لذا اعتقدتُ أنّكَ قد تعرف بشأن السكّين».

- «ولكن لماذا قد يعرف شخصٌ إنجليزي عن هذا أكثر من أيِّ شخصٍ آخر؟».

بعد بضع دقائق، سمعتُ ريك يتحرّكُ في أرجاء غرفة النوم، ثمّ قال:

- «أتعرفين ما الذي يجعلني أحبُّ هذه الغرفة كثيراً؟ السبب هو أنَّ هذا المكان يعبق برائحتكِ يا جوزي».

- «ماذا؟ لا أصدّق أنّكَ قلتَ ذلك!».

- «لقد عنيتُ ذلك بطريقةٍ لطيفة بالكامل».

- «ريك، هذا شيءٌ لا يمكنكَ أبداً أن تقوله لفتاة!».

- «ما كنتُ لأقول ذلك لأيّة فتاة. أنا أقوله لكِ فقط».

- «المعذرة؟ أنا لم أعد فتاةً إذاً؟».

- «حسنٌ، لستِ **أيّة** فتاة. ما أحاول قوله، كلُّ ما أقوله، هو أنّني لم أكن هنا منذ مدّة، وبالتالي فقد نسيتُ بعض الأشياء المتعلّقة بهذه الغرفة. كيف تبدو، وكيف هي رائحتها».

- «يا إلهي، هذا مهينٌ جدّاً يا ريك».

لكن كان ثمّةَ ضحكةٌ في صوتها، وبعد لحظةٍ من الهدوء، قال ريك:

- «على الأقل لم نعد غاضبَين أحدنا من الآخر. أنا سعيدٌ حيال ذلك».

حلَّ هدوءٌ آخر، ثمَّ قالت جوزي: «أنا أيضاً، أنا سعيدةٌ أيضاً». ثمَّ أضافت: «آسفةٌ لأنّني ظللتُ أتلفّظُ بأشياء حول والدتكَ وما إلى ذلك. هي إنسانة طيّبة وأنا لم أعنِ شيئاً ممّا قلت. وآسفة لكوني مريضة طوال الوقت، وأتسبّب لكَ بالقلق».

رأيتُ ريك في الزجاج يقترب من جوزي ويضع ذراعاً حولها. ثمَّ بعد لحظة وضع ذراعه الأخرى حولها أيضاً. سمحتْ جوزي بأن تتمَّ معانقتُها، رغم أنّها لم ترفع ذراعيها في المقابل كما كانت تفعل حين تودّع الأمّ.

- «هذا كي تتمكّن من شمّي على نحوٍ أفضل؟»، سألتْ بعد برهة.

لم يجب ريك على هذا، لكنّه قال: «كلارا؟ هل أنتِ هناك؟».

حين استدرتُ، تباعدا قليلاً، وكان كلاهما ينظر إليّ.

- «نعم؟».

- «ربّما عليكِ أن توفّري بعض الخصوصية كما تقولين دائماً».

- «أوه، نعم».

راقَباني وأنا أنزل عن أريكة الأزرار وأمرُّ بالقرب منهما. إذ وصلتُ إلى الباب، استدرتُ نحوهما وقلت:

- «لطالما أردتُ أن أوفّر لكما الخصوصية. كلُّ ما في الأمر أنّه كان هناك قلقٌ بشأن العبث». بدا كلاهما في حيرة من أمره، لذا تابعت: «لديَّ تعليماتٌ تقضي بالتأكد من عدم العبث. هذا هو السبب الذي جعلني أبقى في الغرفة دائماً، حتّى أثناء لعبة الفقاعة».

- «كلارا»، قالت جوزي، «ريك وأنا لسنا على وشك الانخراط في علاقةٍ جنسية، اتّفقنا؟ هناك بعض الأشياء التي نودّ قولها لأحدنا الآخر، هذا كلُّ شيء».

- «نعم، بالطبع. سوف أترككما إذاً».

خرجتُ عندئذٍ إلى مصطبة الدَرج، وأغلقتُ الباب خلفي.

■

فكّرتُ كثيراً خلال الأيّام التالية في آلة كوتينغز، وكيف قد أتمكّن من العثور عليها وتدميرها. جرّبتُ في ذهني ذرائع مختلفة يمكنني عبرها أن أرافق الأمّ إلى المدينة، بحيث أُترَك حالما نصل

إلى هناك لأنظمتي الخاصّة ولفترةٍ كافية، لكنَّ أيّاً من تلك الذرائع لم يكن كافياً على الإطلاق. كانت جوزي التي لاحظت شرودي المتكرّر تقول شيئاً من قبيل: «كلارا، أنتِ تفقدين التركيز ثانية. قد تكون طاقتكِ الشمسية منخفضة». فكّرتُ حتّى أن أأتمن الأمّ على سرّي، لكنّني استبعدتُ هذا الخيار، ليس فقط بسبب المخاطرة في إغضاب الشمس، لكنّني شعرتُ أيضاً أنَّ الأمّ لن تفهم أو تؤمن بالاتّفاق الذي عقدتُه. لكن بعدئذٍ جاءت الفرصة على قدميها دون أيّ بادرةٍ من جانبي.

في إحدى الأمسيات، بعد ساعةٍ من ذهاب الشمس إلى استراحته ، كنتُ أقف في المطبخ بالقرب من الثلّاجة، أستمع إلى أزيزها المهدِّئ. لم تكن مصابيح السقف مضاءة، لذا كنت أقف هناك في شبه الضوء القادم من الرواق. كانت الأمّ قد عادت من مكتبها قبل وقتٍ قصير، فانتقلتُ إلى المطبخ كي أوفّر لها الخصوصية مع جوزي في غرفة النوم. سمعتُ بعد بعض الوقت وقع خطواتها وهي تنزل السلالم، ثم تتّجه إلى المطبخ. ظهرت صورة ظلّها عند الباب، ممّا جعل المطبخ يصبح أكثر عتمة. قالت لي الأمّ:

- «كلارا، أردتُ أن أطلعكِ على بعض المستجدّات. فبعضها يتعلّق بكِ».

- «نعم؟».

- «لقد أخذتُ إجازة من العمل يوم الخميس القادم. سأقود بجوزي إلى المدينة، وسنقضي ليلتنا هناك. كنّا نتحدّث عن ذلك للتوّ. جوزي لديها موعد».

- «موعد؟».

- «كما تعلمين، إنَّ البورتريه الخاص بجوزي قيد الإنجاز.

لهذا السبب كنّا في المدينة في المرّات التي مررنا بها قرب متجرك. لقد حدث انقطاعٌ طويل بسبب حالتها الصحّية، لكنّها الآن أقوى وأريدها أن تجري جلسةً أخرى. كان السيّد كابالدي صبوراً جدّاً وأبقى كلَّ شيءٍ قيد الانتظار».

- «فهمت. هل سيكون مطلوباً من جوزي أن تجلس بلا حراك لوقتٍ طويل؟».

- «إنَّ السيّد كابالدي بارعٌ في عدم إرهاقها. هو قادرٌ على التقاط صورٍ فوتوغرافية والعمل من خلالها. ومع ذلك، فهو يحتاج منها أن تذهب إليه من وقتٍ لآخر. أنا أخبركِ بكلّ هذا لأنّني أريد منكِ أن ترافقي جوزي في هذه الرحلة. أعتقد أنّها ستحبُّ وجودكِ معها».

- «نعم، بالتأكيد. أودُّ ذلك كثيراً».

تقدّمت الأمّ أكثر داخل المطبخ، وكان بإمكاني الآن رؤية جانبٍ واحدٍ فقط من وجهها مضاءً بالنور الضعيف القادم من الرواق.

- «أريد منكِ يا كلارا أن تكوني معها عند دخولها لرؤية السيد كابالدي. في الواقع، إنَّ السيّد كابالدي يتوق إلى مقابلتكِ. لديه اهتمامٌ خاص بالص. ا. يمكنكِ أن تسمّي ذلك شغفه. هل هذا يناسبكِ؟».

- «بالطبع. أنا أتطلّع إلى مقابلة السيّد كابالدي».

- «قد يكون لديه بعض الأسئلة لكِ، أسئلة لها علاقة بأبحاثه. فهو كما قلتُ، هو مفتونٌ بالص. ا. أنتِ لا تمانعين ذلك، صحيح؟».

- «لا، بالطبع لا. كما أعتقد أنَّ رحلةً إلى المدينة ستكون جيّدةً لجوزي بما أنّها أصبحت أقوى قليلاً الآن».

- «هذا جيّد. أوه، وقد يكون معنا ركّابٌ في السيّارة. جارانا يحتاجان إلى توصيلة».

- «ريك والآنسة هيلين؟».

- «لديهما بعض الأشغال في المدينة، وهي لم تعد تقود السيّارة. لا تقلقي، هناك مساحةٌ كافيةٌ لنا جميعاً. لن تكوني مضطّرة للسفر داخل صندوق السيّارة».

سمعتُ المزيد عن هذه الرحلة في يوم الأحد التالي، حيث لم يأتِ ريك للزيارة بمفرده عند الظهيرة، بل جاءت والدته أيضاً. مرّةً أخرى خرجتُ إلى مصطبة الدرج كي أمنح ريك وجوزي الخصوصية في غرفة النوم. وقفتُ بجانب الدرابزين أحدّق في الرواق، كنتُ أسمع ضحكات الأمّ والآنسة هيلين قادمةً من المطبخ. لم أستطع سماع كلماتهما على نحوٍ جيّد، إلّا حين كانت إحداهما تصيح قائلةً شيئاً ما بصوتٍ عال. مرّةً، نادت الآنسة هيلين، «أوه كريسي، هذا شائنٌ تماماً!» ثمَّ ضحكتْ. بعدها بقليل، سمعتُ الأمّ تقول بصوتٍ عال وهي تضحك أيضاً: «هذا صحيح، هذا صحيح، هذا صحيحٌ تماماً!».

نظراً لأنّي لم أتمكّن من سماع الكثير من الكلمات، أو من رؤية تعابير وجه الأمَ، فلم أكن قادرةً على وضع تقييمٍ موثوق، لكن كان انطباعي أنَّ الأم في تلك اللحظة كانت في أقلّ مستوى للتوتر شهدتُه منذ وصولي. كنتُ أحاول الاستماع عن كثب حين فُتح باب غرفة النوم وخرج ريك.

- «جوزي في الحمّام»، قال ريك وهو يتّجه صوبي. «فكّرتُ أنّه من اللائق الخروج إلى هنا في هذه الأثناء».

- «نعم، هذا تصرّفٌ مراعٍ».

تتبّعَ نظراتي من فوق الدرابزين، ثمَّ أومأ برأسه في الاتّجاه الذي تأتي منه أصوات الكبار.

- «لطالما كانتا منسجمتَين. من المؤسف أنَّ السيدة آرثر لا يمكنها التواجد أكثر. من الجيّد جدّاً لأمّي وجود شخصٍ تتحدّثُ إليه على هذا النحو. دائماً ما تبتهج أمّي بوجود السيّدة آرثر. أنا أبذل ما بوسعي، لكنّني لا أستطيع أن أجعلها تضحك بهذه الطريقة. أفترض أنّه لكوني ابنها فمن الصعب أن تسترخي وتكون على طبيعتها».

- «لا بدَّ أنَّ ريك رفيقٌ رائع للآنسة هيلين. لكن وكما ترى، سوف يكون بمقدورها العثور على رفقاء آخرين كي تتحدّث وتضحك معهم في حال لم تكن أنتَ معها».

- «لا أعلم. ربّما». ثمَّ قال بعد لحظة: «اسمعي. لقد كنتُ أفكّر مليّاً في كلٍّ هذا من جديد. أقصد ما قلتِه لي في تلك الليلة. أنا موافقٌ الآن، لقد وعدتُ أمّي أنّني سأحاول، أنّني سأبذل قصارى جهدي للدخول إلى كليّة أطلس بروكينغز».

- «هذا رائع».

كان الآن ينحني فوق الدرابزين أكثر، محاولاً ربّما أن يلتقط كلمات هائمة، وشعرتُ بالقلق من احتمال أن يسقط لكونه أكثر طولاً. لكنّه استقام في وقفته بعدئذٍ، واضعاً كلتا يديه على الدرابزين.

- «لقد وافقتُ حتّى على لقاء... الرجل، حبيبها السابق»، قال مخفضاً صوته.

- «الشخص الذي يُعتبر سلاحاً سريّاً؟».

- «نعم، سلاح أمّي السرّي. تعتقدُ أنّه يستطيع شدّ الحبال لمصلحتي. لقد وافقتُ حتّى على ذلك».

- «قد ينتج عن هذا أفضل الحلول. يمكن للأمنيات في رسم جوزي اللطيف أن تصبح أقرب إلى الواقع».

- «قد تكونان الآن تتحدّثان عن ذلك هناك في الأسفل، وعن كيف غيّرتُ رأيي وجاريتُ أفكار أمّي بعد كلِّ هذا الوقت. ربّما هذا هو ما تجدانه مسلّياً جدّاً».

- «لا أعتقد أنّهما تضحكان على نحو فظّ. أعتقد أنّه لا بدَّ أن تكون الآنسة هيلين سعيدة ومتفائلة نتيجة الوعد الذي قطعه ريك».

صمتَ للحظة، مستمعاً للأصوات في الأسفل، ثمَّ قال: «أعتقد أنّنا سنذهب إلى المدينة برفقة جوزي والسيّدة آرثر».

- «نعم، أعلم ذلك. لقد طُلِب منّي الحضور أيضاً».

- «حسنٌ، هذا جيّد. يمكنكما بالتالي أنتِ وجوزي أن تدعماني معنوياً. لأنّني لا أنوي أن أستجدي المساعدة من ذلك الرجل النافذ».

جاء صوت جوزي فجأةً من غرفة النوم: «هذا رائع! لقد هجرني الجميع إذاً!»، ثمَّ قالت فيما كان ريك يتّجه نحو الباب: «هيه، كلارا، يمكنكِ العودة إلى هنا أيضاً. لسنا نقوم بأيّة ممارسات جنسيّة كبيرة هنا».

■

بعد يومين، كنتُ سأسمع المزيد عن الرحلة إلى المدينة، وهذه المرّة على نحوٍ مفاجئ.

كان يوماً ممطراً في منتصف الأسبوع ولم يكن ثمّة زوّار. ذهبت

جوزي بعد الغداء إلى الردهة المفتوحة كي تتلقّى درساً عبر لوحها المستطيل، وصعدتُ أنا إلى غرفة النوم. كنتُ جالسةً على الأرض محاطةً بالمجلّات حين ظهرت المدبّرة ميلانيا عند الباب. حدّقتْ بي، لم تكن ملامحها ودودة ولا عابسة، وظننتُ أنّها أتت كي توبّخني بسبب المرات التي تركتُ فيها جوزي وريك دون رقابة في غرفة النوم رغم تحذيراتها بشأن العبث. لكنّها توغّلت أكثر داخل الغرفة، ثمَّ قالت في نوعٍ من الهمس الحادّ:

- «ص. ا.، أنتِ ترغبين في مساعدة الآنسة جوزي، صحيح؟».

- «نعم، بالطبع».

- «إذاً أَصغي إليّ. السيّدة سوف تأخذ جوزي إلى المدينة يوم الخميس. قلت إنّني أريد الذهاب معهما، فردّت السيّدة بلا. قلتُ نعم، والسيّدة قالت لا. قالت لا لأنّها ترى بوضوح أنّني عازمةٌ على شيءٍ ما. قالت إنّها تريد أخذ الص. ا. بدلاً منّي. لذا اسمعي. أَبقي عينيك على الآنسة جوزي طوال الوقت في المدينة. هل فهمتِني؟».

- «نعم أيّتها المدبّرة»، قلتُ بهدوءٍ أيضاً، رغم أنّه لم تكن هناك احتمالية أن تتمكّن جوزي من سماعنا. «لكن توسّعي في الشرح رجاءً. ما الذي يقلقكِ؟».

- «اسمعي يا ص. ا. السيّدة سوف تأخذ الآنسة جوزي لرؤية السيّد كابالدي. رسّام البورتريه. السيّد كابالدي ذاك ابن عاهرة. تقول السيّدة إنّكِ بارعةٌ في المراقبة. لذا عليكِ أن تراقبي جيداً السيّد ابن العاهرة. أنتِ تريدين مساعدة الآنسة جوزي. نحن في ذات الفريق». نظرتْ وراءها سريعاً نحو الباب، رغم أنّه لم يكن هناك أصوات تدلّ على خروج جوزي من حصّتها في الأسفل.

- «لكن أيّتها المدبّرة، ألا يرغب السيّد كابالدي في رسم بورتريه جوزي فحسب؟».

- «البورتريه هراءٌ لعين. ص. ا.، راقبي السيد ابن العاهرة عن كثب، وإلّا سيحدث شيءٌ سيء للآنسة جوزي».

- «لكن من المؤكّد...»، أخفضتُ صوتي أكثر، «من المؤكّد أنَّ الأمّ ما كانت أبداً...».

- «السيّدة تحبُّ جوزي. لكنَّ موت الآنسة سال أفقد السيّدة عقلها. هل فهمتِني يا ص. ا.؟».

- «نعم. سوف أراقب الوضع بعناية كبيرة إذاً كما تقولين، خاصّةً قرب السيّد كابالدي. لكن...».

- «على ماذا تقولين **لكن** الآن يا ص. ا.؟».

- «إذا كان السيّد كابالدي كما تقولين. فهل سيكون كافياً منّي أن أراقب فحسب؟».

لو رأى أحدُ المارّة الطريقة التي كانت المدبّرة ميلانيا تنظر بها إليّ، لاعتقد ربّما أنّها تهدّدني، لكنّني أدرك الآن أنّ الخوف كان يعتريها بالكامل.

- «كيف أعرف ما الذي سيكون كافياً بحقّ الجحيم؟ أنا أريد الذهاب مع الآنسة جوزي، والسيّدة قالت إنَّ هذا مستحيل. ستأخذ الص. ا. بدلاً منّي. أنا لا أفهم ذلك. لذا التزمي بالبقاء قريبةً جدّاً من الآنسة جوزي، خاصّةً عندما يكون السيد ابن العاهرة في الجوار. ابذلي قصارى جهدك. نحن في نفس الفريق، يا ص. ا.».

- «أيّتها المدبّرة، إنَّ لديَّ خطّة. خطّةٌ خاصّة لمساعدة جوزي. لا أقدر أن أتحدّث عنها صراحةً. لكن إذا أمكنني الذهاب إلى المدينة مع جوزي ووالدتها، فقد تسنح لي الفرصة لتطبيقها».

- «خطّة؟ اسمعي يا ص. ا.، أنتِ تجعلين الأمور أسوأ. اللعنة، سوف آتي وأفكّكِ».

- «لكن إذا نجحت خطّتي، ستصبح جوزي قويّةً ومعافاة. ستكون قادرة على الالتحاق بالجامعة وأن تكبر وتصبح راشدة. لا أملك لسوء الحظّ الحرية لإخبارِكِ بالمزيد. ولكن إذا تمكّنتُ من الوصول إلى المدينة، فسيكون لديَّ فرصة».

- «لا بأس. لكن الشيء الرئيسي يا ص. ا. هو أن تبقي عينيكِ على الآنسة جوزي في المدينة يوم الخميس. هل تسمعينني؟».

- «نعم أيتّها المدبّرة».

- «وأصغي جيّداً أيتّها الص. ا. إذا جعلت خطّتكِ الكبيرة الآنسة جوزي في حالةٍ أسوأ، فسوف أفكّكِ وأرمي بكِ في القمامة».

- «أيّتها المدبّرة»، قلتُ وأنا أبتسم لها بثقة لأوّل مرّة منذ مجيئي إلى المنزل، «شكراً لكِ على هذا الحديث وعلى تنبيهكِ لي. وشكراً لكِ على ثقتكِ بي. سأفعل كلَّ ما بوسعي لحماية جوزي».

- «حسنٌ يا ص. ا. نحن في نفس الفريق».

■

كانت هناك حادثةٌ أخرى جديرةٌ بالملاحظة خلال هذه الفترة قبل الرحلة إلى المدينة، وهي الحادثة التي أعطتني درساً هامّاً. حدث ذلك في وقتٍ متأخّرٍ من الليل إذ تنبّهتُ لضوضاء صادرة عن جوزي. كانت غرفة النوم مظلمة، لكن ولأنَّ جوزي كانت تكره الظلام الدامس، فقد كانت ستارة النافذة الأمامية مرفوعةً بمقدار الثلث، وكان القمر والنجوم ترسم أنماطاً على الحائط والأرضية. حين نظرتُ نحو السرير، رأيتُ أنَّ جوزي كانت قد صنعت هيئة تلٍّ

بلحافها، ومن داخله كانت تَصدر أصوات همهمة، كما لو كانت تحاول أن تتذكّر لحن أغنية ولم تُرد أن تزعج بقيّة المنزل.

اقتربتُ من هيئة التلِّ، ولمستُه برفقٍ إذ أصبحتُ واقفة بالقرب منه. انتفضَ التلُّ على الفور، وتبعثر اللحاف في الظلمة، وملأ نحيب جوزي الغرفة.

- «جوزي، ما الأمر؟». أبقيتُ صوتي منخفضاً، لكن ملحّاً. «هل عاد الألم؟».

- «لا! لا ألم! لكن أريد أمّي! أحضري أمّي! أحتاج إليها هنا!».

لم يكن صوتها مرتفعاً فحسب، بل كان كما لو أنّه قد تكوّر متقوقعاً على نفسه، بحيث كانت تُسمع لصوتها نسختان معاً، بفاصلٍ زمني بسيط جدّاً. لم يسبق لي أبداً أن سمعتُها تصدر صوتاً كهذا، وللحظةٍ شعرتُ بالحيرة. جثت جوزي على ركبتيها ورأيتُ الآن أنَّ اللحاف لم يتبعثر في الواقع، لكنّه كان مثل كرةٍ كبيرة خلفها.

- «أحضري أمّي!».

- «لكنَّ أمّكِ تحتاج إلى الراحة». أبقيت صوتي أقرب للهمس. «أنا الص. ا. خاصّتكِ. ولهذه الأسباب بالضبط أنا موجودةٌ هنا. أنا هنا دائماً».

- «لم أقل إنّني أريدكِ أنت. أنا أحتاج أمّي!».

- «لكن يا جوزي...».

كان ثمّة حركةٌ خلفي، ودُفِعتُ جانباً حتّى كدتُ أفقد التوازن. حين استعدتُ انتباهي، رأيتُ أمامي على الطرف القريب من السرير كتلة ضخمة متحرّكة، أضافت عليها بقع السواد وضوء القمر التي تتحرّك على سطحها المزيد من التعقيد. أدركتُ أنَّ الكتلة كانت

عبارة عن عناقٍ بين الأم وجوزي - ارتدت الأمّ ما بدا أنّها ملابس جريٍ باهتة اللون، بينما جوزي في بيجامتها الزرقاء الداكنة المعتادة. بات شعرهما متشابكاً كأطرافهما، ثمَّ أخذت الكتلة تهتزّ برفق بطريقة لا تختلف عمّا يحدث حين يمتدُّ وداعهما الصباحي لوقتٍ طويل.

- «لا أريد أن أموت يا أمّي. لا أريد ذلك».

- «لا عليكِ. لا عليكِ». كان صوتُ الأمّ رقيقاً، وعلى نفس المستوى الهامس الذي كان صوتي عليه.

- «لا أريد ذلك يا أمّي».

- «أعرف، أعرف. لا عليكِ».

ابتعدتُ بهدوءٍ عنهما باتّجاه المدخل، وخرجت إلى مصطبة الدرج المظلمة. وقفتُ عند الدرابزين أنظر إلى أنماط الليل الغريبة على السقف والرواق في الأسفل وأقلّب في ذهني تداعيات ما حدث للتوّ.

بعد بعض الوقت، خرجت الأمّ من غرفة النوم بهدوء، واستدارت دون أن تنظر في اتّجاهي لتدخل عتمة الممرِّ القصير المفضِي إلى غرفتها الخاصّة. حلَّ الصمت الآن وراء باب جوزي، وإذ دخلتُ إلى غرفة النوم، وجدتُ اللحاف والسرير مرتّبَين، وجوزي غارقةٌ في النوم، وقد عادت أنفاسها مطمئنّةً مجدّداً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

القسم الرّابع

كانت شقّة الصديق داخل بناءٍ طابقيّ. أمكنني أن أرى من نافذة غرفة الجلوس الرئيسية أبنيةً طابقية مماثلة على الجانب الآخر من الشارع. كان ثمّة صفٌّ من ستّةٍ من هذه الأبنية، وقد طُلِيت واجهة كلٍّ منها بلونٍ مختلف قليلاً لمنع السكّان من صعود السلالم غير الصحيحة ودخول منزل أحد الجيران عن طريق الخطأ.

أدليتُ بهذه الملاحظة في ذلك اليوم بصوتٍ عالٍ إلى جوزي قبل أربعين دقيقة من انطلاقنا لرؤية رجل البورتريه، السيّد كابالدي. كانت مستلقيةً على الأريكة الجلدية خلفي، تقرأ كتاباً أنزلتْه عن رفوف الكتب السوداء. كان نسق الشمس يسقط على ركبتيها المرفوعتين، فيما هي غارقةٌ في قراءتها لدرجة أنّ ردّها عليَّ كان همهمةً غير مفهومة فحسب. سُررتُ بذلك لأنّها كانت قبل بعض الوقت متوتّرةً كثيراً بفعل الانتظار. بدت أكثر استرخاءً على نحوٍ ملحوظ بمجرّد ذهابي للوقوف عند النافذة الثلاثية لعلمها أنّني سوف أنبّهها في الحال حين تتوقّف سيّارة الأجرة الخاصّة بأبيها في الخارج.

أصبحت الأمّ أكثر توتّراً أيضاً، رغم أنّني لم أكن متأكّدة ما إذا

كان ذلك بسبب اللقاء المرتقب بالسيّد كابالدي أو بسبب وصول الأب الوشيك. كانت قد غادرت غرفة الجلوس الرئيسية منذ بعض الوقت، وكان بإمكاني سماع صوتها وهي تتحدّث على الهاتف في الغرفة المجاورة. لقد كان بوسعي استراق السمع عبر وضع رأسي على الحائط، حتّى أنّني فكّرتُ في فعل ذلك نظراً لأنّه من المحتمل أنّها كانت تتحدّثُ مع السيّد كابالدي، لكنّني فكّرتُ أنَّ هذا قد يجعل جوزي أكثر قلقاً حتّى، وعلى أيّة حال، فقد خطر لي أنَّه من المرجّح أكثر أنَّ الأمّ كانت تتحدّث إلى الأب لتعطيه تعليمات الطريق.

بمجرّد أن فهمتُ أنَّ جوزي تعتمد عليَّ لرصد سيّارة أجرة الأب، وضعتُ خططي لمعرفة المزيد عن شقّة الصديق جانباً، وركّزتُ على المشهد من النافذة الثلاثية. لم أمانع ذلك، خاصّةً أنَّ هناك دائماً فرصةٌ لمرور آلة كوتينغز، وحتّى لو لم تتسنَّ لي الفرصة لمطاردتها، فإنَّ مشاهدةً كهذه ستكون خطوةً هامّة إلى الأمام.

لكنّني بحلول ذلك الوقت كنتُ قد بدأتُ أتقبّل حقيقة أنَّ فرص مرور آلة كوتينغز بشقّة الصديق كانت ضئيلة. شعرتُ قبل قليل، أثناء القيادة إلى المدينة، بأملٍ كبير، إذ كنّا لا نزال في الضواحي ومررنا بالعديد من رجال الصيانة، وحتّى حين تعذّرت رؤية هؤلاء الرجال، كانت حواجزهم هناك تغلق شارعاً أو آخر. عندها ظننتُ أنَّ آلة كوتينغز ستظهر في أيّة لحظة. لكن ورغم أنّني لم أتوقّف عن النظر من نافذتي الجانبية، ورغم أنّنا مررنا في مناسبتين بأنواع آلاتٍ أخرى، إلّا أنَّ آلة كوتينغز لم تظهر أبداً. ثمَّ تباطأت حركة المرور بعد ذلك وقلَّ عدد رجال الصيانة الذين مررنا بهم. كانت الأمّ والآنسة هيلين في الأمام تتحدّثان بطريقتهما المعتادة المسترخية، وإلى جانبي في الخلف كان ريك وجوزي يشيران إلى أشياء أحدهما

للآخر بأصوات رقيقة. في بعض الأحيان كان أحدهما يلكز الآخر حين نمرُّ قرب شيءٍ ما دون أن يتبادلا الكلمات، ثم يضحكان. مررنا بحديقة أزهارٍ وردية اللون، ثمَّ بمبنىً مع لافتةٌ كُتِب عليها «يُمنع الوقوف باستثناء الشاحنات»، والأمّ والآنسة هيلين كانتا تضحكان في الأمام أيضاً، رغمَ أنَّ صوتهما كان مشوباً بالحذر. «كوني صارمةً تماماً معه، يا كريسي»، قالت الآنسة هيلين. مررنا بعدها بلافتاتٍ باللغة الصينية، ودرّاجاتٍ مقيّدة بالسلاسل، ثمَّ بدأتْ تمطر - رغم أنَّ الشمس ظلَّ يبذل قصارى جهده - فظهرت أزواج المظلّات والمجلّات فوق رؤوس السيّاح، كما رأيتُ ص. ا. يسارع بحثاً عن ملجأ بالقرب من مالكه المراهق. «هذا سخيفٌ يا ريك»، قالت جوزي بشأن شيءٍ ما وقهقهتْ. توقّف المطر لدى وصولنا إلى شارعٍ يحوي مبانٍ شاهقة، وكانت الظلال تغطّي الرصيف على الجانبين، وكان ثمّة رجالٌ بقمصانٍ داخلية يجلسون على درجات سلالمهم الأمامية ويتحدّثون وهم يتفرّجون علينا ونحن نمرّ بالقرب منهم. «حقّاً يا كريسي، أرجوكِ أنزلينا في أيّ مكان»، قالت الآنسة هيلين. «لقد جعلناكِ تبتعدين عن وجهتك بما يكفي». رأيتُ مبنيين رماديين متحاذيين لكنّهما ليسا على نفس الارتفاع، وكان شخصٌ ما قد رسم لوحة غرافيتي على جدار المبنى الأكثر ارتفاعاً حيث ينتصب قرب جاره، وربّما كان الغرض من اللوحة جعْل التناقض بين المبنيين أقلّ غرابةً. كانت السعادة تملأ عقلي في كلِّ مرّةٍ رأيتُ فيها لافتة منطقة عدم الوقوف رغم وجود بعض الاختلاف بينها وبين تلك الموجودة خارج متجرنا. مالت جوزي وأدلت بتعليقٍ فكاهي وضحك كلاهما. «سوف نراكما غداً في مطعم السوشي إذاً»، قالت الأمّ للآنسة هيلين. إنه بمحاذاة المسرح مباشرة. لا يمكنك أن تفوّتيه.

«شكراً لكِ يا كريسي. أعرف أنَّ هذا سيساعدني كثيراً. وسيساعد ريك أيضاً». أكملنا طريقنا عبر ساحةٍ فيها نافورة مياه، ثمَّ مررنا بمتنزّه مكسوٍ بأوراق الشجر حيث رصدتُ اثنين ص. ا. آخرين، ثمَّ وصلنا إلى شارعٍ مزدحم بمبانٍ شاهقة.

- «لقد تأخّر»، قالت جوزي من الأريكة، وسمعتُ صوتاً ثقيلاً لارتطام كتابها لدى سقوطه على السجّادة. «لكن أعتقد أنَّ هذا ليس بالأمر غير المعتاد».

أدركتُ أنّها كانت تحاول أن تجعل من الأمر مزحة، لذا ضحكتُ وقلت: «لكنّني متأكّدة أنّه يتوق كثيراً إلى رؤية جوزي مجدّداً. ينبغي بكِ أن تتذكّري كم كانت حركة المرور بطيئة حين أتينا إلى هنا. ربّما نفس الشيء يحدث معه الآن».

- «أبي لا يصل إلى أيِّ مكانٍ في الوقت المحدّد. ولا حتّى بعد أن وعدتْ أمّي أنّها ستدفع تكلفة سيّارة الأجرة. حسنٌ، سوف أنساه تماماً لبعض الوقت، هو بالتأكيد لا يستحقُّ أن أقلق بشأنه».

استدرتُ مجدّداً إلى النافذة الثلاثية حين مدّت يدها لتلتقط كتابها عن الأرض. كان منظر الشارع من شقّة الصديق يختلف تماماً عنه من المتجر. سيّارات الأجرة نادرة، لكنَّ أنواعاً أخرى من السيّارات - من مختلف الأشكال والأحجام والألوان - كانت تمرُّ مسرعة، وتتوقّف إلى أقصى يسار مجال رؤيتي، حيث عُلِّقت إشارة مرور على ذراعٍ طويلة فوق الشارع. كان العدّاؤون والسيّاح أقلَّ عدداً هنا، لكن مع المزيد من المشاة الذين يضعون سمّاعات الرأس - والمزيد من راكبي الدرّاجات الذين كان بعضهم يحمل أشياء بيدٍ واحدة أثناء القيادة باليد الأخرى. بعد تعليق جوزي حول تأخّر الأب بوقتٍ قصير، مرَّ راكبُ درّاجة يحمل تحت ذراعه لوحاً على شكل

طائرٍ مسطّح، وشعرتُ بالخوف من أنَّ الريح قد تجذب اللوح وتُفقِد الدرّاج توازنه. لكنّه كان ماهراً، وتمكّن من الانسلال بين السيّارات بخفّة حتّى أصبح في المقدّمة تحت إشارة المرور المعلّقة تماماً.

أصبحتْ نبرة الأمّ في الغرفة المجاورة أكثر قلقاً، وعرفتُ أنّه يمكن لجوزي أن تسمعها، لكنّها بدت حين نظرتُ إليها نظرةً خاطفة وكأنّها لا تزال مشغولةً بكتابها. مرّتِ امرأةٌ يقودها كلبٌ، ثمَّ مركبة نقلٍ مع لافتة على جانبها كُتب عليها «Gio's Coffee Shop Deli». تباطأت بعد ذلك سيّارة أجرة في الخارج قبالة النافذة الثلاثية مباشرة. كانت غرفة الجلوس الرئيسية أعلى من الرصيف، لذا لم أستطع رؤية مَن كان داخل سيّارة الأجرة، لكنَّ صوت الأمّ كان قد توقّف، وكنتُ واثقةً أنَّ الأب هو الذي وصل.

- «جوزي، ها هو ذا».

واصلتِ القراءة في بداية الأمر. ثمَّ أخذتْ نفساً عميقاً، واعتدلتْ في جلستها، وتركت الكتاب يسقط على السجّادة ثانيةً. «أراهنُ أنّكِ تجدينه أحمقَ»، قالت لي. «البعض يظنّون أنّه أحمق. لكنّه في الواقع ذكيٌّ جدّاً. عليكِ أن تمنحيه فرصة».

رأيتُ هيئة شخصٍ طويل محدودب قليلاً يرتدي معطفاً مطريّاً رماديَّ اللون خارجاً من سيّارة الأجرة ويحمل بيده كيساً ورقياً. نظر إلى مبنانا بعدم يقين، فافترضتُ أنّه كان مرتبكاً بشأن أيٍّ من هذه المنازل كان منزلنا، فتلك الموجودة في جهتنا تشبه تلك التي على الجهة الأخرى. ظلَّ ممسكاً الكيس الورقيّ بحذرٍ كما يحمل الناس كلباً صغيراً متعباً جدّاً من المشي. اختار الدرج الصحيح، فربّما يكون قد رآني رغم أنّني عدتُ إلى الغرفة بمجرّد أن نبّهتُ جوزي لوصوله. اعتقدتُ أنَّ الأمّ ستعود الآن إلى غرفة الجلوس الرئيسية،

وبات وقع خطواتها مسموعاً، لكنّها بقيتْ في الردهة. انتظرتُ أنا وجوزي - والأم في الردهة - في صمتٍ لما بدا أنّه وقتٌ طويل. ثمَّ قُرِع الجرس، وسمعنا وقع خطوات الأمّ مجدّداً، ومن ثمّ صوتهما.

كانا يتحدّثان بهدوء. وكان الباب بين الردهة وغرفة الجلوس الرئيسية مفتوحاً على نحوٍ جزئي، وكنّا أنا وجوزي واقفتين في وسط الغرفة، نراقب بانتباه ونترصّد أيّة إشارة. ثم دخل الأب، لم يكن يرتدي معطفه المطريَّ الآن، لكنّه لا يزال يحمل كيسه الورقي بكلتا يديه. كان يرتدي سترة مكتبٍ راقية إلى حدٍّ ما، ولكن تحتها كان ثمّة قميصٌ بالٍ يرتفع وصولاً إلى ذقنه.

- «مرحباً يا جوزي! يا حيواني البرّي المفضّل!».

من الواضح أنّه كان يتمنّى أن يحضن جوزي، فبحث حوله عن مكان لوضع الكيس الورقي، لكنَّ جوزي تقدّمتْ ووضعتْ ذراعيها حوله، مع الكيس الورقي وكلِّ شيء. إذ تلقّى احتضانها له، جالت نظرته في أرجاء الغرفة واستقرّتْ عليّ. ثمّ أشاح بوجهه وأغمض عينيه، وترك لخدّه أن يرتاح أعلى رأسها. ظلّا على هذه الحال لبعض الوقت، ساكنَين وثابتَين تماماً، دون حتى أن يتأرجحا ببطء كما كان يحدث مع الأمّ وجوزي أحياناً أثناء وداعهما الصباحي.

كانت الأمّ على حدٍّ سواء تقف ثابتةً إلى الوراء قليلاً، وتراقب بوجهٍ غير مبتسم، حيث رفَّ كتبٍ أسود عند مستوى كتفيها. استمرَّ العناق، وحين نظرتُ ثانيةً نحو الأمّ، كان هذا القسم من الغرفة بأكمله قد بات مقسَّماً، وتكرّرتْ عيناها الضيّقتان في مربّعٍ تلو الآخر، وكانت العينان في بعض المربّعات تراقبان جوزي والأب، بينما كانتا في مربّعات أخرى تنظران إليّ.

خفّفا من شدّة عناقهما أخيراً، ابتسم الأب ورفع الكيس الورقي للأعلى كما لو كان يحتاج إلى الأوكسجين.

- «هاك، يا حيواني الصغير!»، قال لجوزي. «جلبتُ لكِ آخر إبداعاتي الصغيرة».

مرّر الكيس إلى جوزي ممسكاً به من الأسفل إلى أن أخذتْه منه، وجلسا جنباً إلى جنب على الأريكة كي ينظرا بداخله. وبدلاً من إخراج الغرض الموجود فيه، مزّقتْ جوزي ورق الكيس من الجانبين لتظهر مرآةٌ صغيرة خشنة المظهر مثبَّتةٌ على حاملٍ صغير. وضعتْها فوق ركبتها وقالت: «إذاً، ما هذه يا أبي؟ من أجل الماكياج؟».

- «إذا أردتِ. لكنّكِ لم تمعني النظر. ألقِ نظرةً أخرى».

- «رائع! هذا مثير. ماذا يحدث هنا؟».

- «أليس غريباً كيف نتساهل جميعاً مع هذا؟ كلُّ هذه المرايا التي تُظهركِ على نحوٍ خاطئ؟ هذه المرآة تُظهركِ بصورتكِ الحقيقية، وليست أثقل من مرايا الحقيبة الصغيرة».

- «هذا رائعٌ جدّاً! هل هي من اختراعك؟».

- «أتمنّى أن أدّعي الفضل في ذلك، لكنَّ الفضل الحقيقيّ يعود لصديقي بنيامين، أحدُ الشبّان في مجتمعنا. لقد جاء بالفكرة، لكنّه لم يعرف بالضبط كيف يخرجها إلى العالم الحقيقي. لذا فقد أنجزتُ هذا الجزء من المهمّة. إنّها جديدة كلّياً، صدرت الأسبوع الماضي فحسب. ما رأيكِ، يا جوزي؟».

- «واااو، إنّها تحفةٌ فنّية. الآن سوف أتحقّقُ من وجهي على الملأ طوال الوقت. شكراً! يا لكَ من عبقريّ. هل يعمل هذا الشيء بالبطّاريّات؟».

ظلَّ الأب وجوزي يتحدّثان عن المرآة لبعض الوقت، تخلّل ذلك لحظاتٌ تبادلا خلالها دعاباتٍ مازحة كما لو أنّهما كانا في تلك اللحظة يلتقيان لأوّل مرة. كان كتفاهما يتلامسان، وفيما هما يتحدَّثان كانا يتّكئان أكثر فأكثر أحدهما على الآخر. بقيتُ واقفةً في منتصف الغرفة، وكان الأب ينظر إليَّ من حينٍ لآخر، واعتقدتُ أنَّ جوزي سوف تقوم بتعريفنا. لكنَّ وصول الأب جعلها متحمّسةً جدّاً، فواصلت في التحدّث إليه بوتيرةٍ سريعة، وسرعان ما توقّف الأب عن النظر في اتّجاهي.

- «أبي، أراهن أنّ مدرّسي الجديد في الفيزياء لا يعرف نصف ما تعرفه حتّى. كما أنّه غريب الأطوار. لو لم يكن مدرِّساً معتمداً على أوسع نطاق، لقلتُ كما تقول أمّي بأنّه يجب علينا أن نعتقل هذا الرجل. لا، لا، لا داعي للذعر، هو ليس بذيئاً أو ما شابه، لكن من الواضح جدّاً أنّه يعدُّ لشيءٍ ما في ورشته، لتفجيرنا جميعاً. هيه، كيف حال ركبتك؟».

- «أوه، إنّها أفضل بكثير، شكراً لكِ. في الحقيقة إنّها بحالٍ جيّدة».

- «هل تتذكّر تلك البسكويتة التي تناولتَها في آخر مرّة خرجنا معاً؟ تلك التي على شكل رئيس الصين؟».

رغم أنَّ أسلوب جوزي في الكلام كان سريعاً وسلساً، إلّا أنّني عرفتُ أنّها كانت تختبر الكلمات في ذهنها قبل أن تنطقها. ثمَّ عادت الأمّ - التي كانت قد خرجت إلى الردهة - عادت مرتديةً معطفها، وحاملةً معطف جوزي السميك بيدها. اقتحمت الحديث بين جوزي والأب قائلةً:

- «هيّا يا بول. أنتَ لم تقل مرحباً لكلارا. هذه هي كلارا».

خيّم الصمتُ على الأب وجوزي فيما كان كلاهما ينظر إليّ. ثمّ قال الأب وقد تلاشت الابتسامة التي كانت على محيّاه منذ أن دخل الشقّة: «مرحباً، كلارا».

- «أكره أن أستعجلكما يا رفاق، لكنّكَ وصلتَ إلى هنا متأخّراً يا بول. لدينا موعدٌ علينا أن نلحق به»، قالت الأمّ.

عادت ابتسامةُ الأب، لكن كان ثمّة غضبٌ في عينيه الآن. «أنا لم أرَ ابنتي منذ ما يقرب الثلاثة أشهر، ولا يمكنني أن أتحدّث إليها لخمس دقائق؟».

- «بول، أنتَ مَن أصرَّ على القدوم معنا اليوم».
- «أعتقد أنّه يحقُّ لي أن أذهب معكم يا كريسي».
- «لا أحد ينكر ذلك. لكن لا تجعلنا نتأخّر».
- «هل هذا الرجل مشغولٌ لدرجة...».
- «لا تؤخّرنا يا بول. وكن مهذّباً أثناء وجودنا هناك».

نظر الأب إلى جوزي وهزَّ كتفيه. «أترين، أنا في ورطةٍ بالفعل»، قال ضاحكاً. «هيّا بنا إذاً يا حيواني البرّي. من الأفضل أن ننطلق».

- «بول»، قالت الأمّ. «أنتَ لم تتحدّث إلى كلارا».
- «لقد قلتُ مرحباً للتوّ».
- «هيّا. تحدّث إليها قليلاً بعد».
- «هي جزءٌ من العائلة. هل هذا ما تقولينه؟».

حدَّقت الأمّ به، ثمَّ بدت وكأنّها غيّرت رأيها بشأن شيءٍ ما، وهزَّتْ معطف جوزي في الهواء.

- «هيّا يا عزيزتي. علينا أن نذهب».

■

أثناء انتظارنا سيّارة الأمّ في الخارج، وقف الأب مرتدياً معطفه المطري وذراعه حول جوزي. كانا عند خافّة الرصيف الأمامية، بينما وقفتُ أنا إلى الخلف قليلاً، بالقرب من درابزين المنزل، وكان المشاة يعبرون بيننا. وجدتُ صعوبةً في سماع كلماتهما نظراً إلى المسافة الفاصلة بيننا، والأصوات الخارجية غير المألوفة. استدار الأب نحوي مرّة، لكنّه ظلَّ يتحدّث إلى جوزي فيما عيناه تتفحّصاني. ثمَّ مرّتْ بيننا سيّدةٌ سوداء البشرة تضع أقراطاً ضخمة، ولمّا ابتعدتْ، كان الأب قد أدار ظهره لي مجدّداً.

حين وصلتْ سيّارة الأمّ، ركبتُ مع جوزي في الخلف، وحاولتُ إذ انطلقنا أن ألفتَ انتباهها كي أشعرها بالطمأنينة إن كانت قلقة بشأن الجلوس من أجل البورتريه خاصّتها. لكنّها كانت تنظر خارجاً من النافذة إلى جانبها ولم تلتفت نحوي.

تقدّمتْ سيّارة الأمّ ببطء، تاركةً مجازاً للمرور فقط كي تلزم مجازاً آخر. مررنا بمداخل أبنية مغلقة، ومبانٍ بنوافذ ذات قضبان متقاطعة. بدأت السماء تمطر مجدّداً، وعادت أزواج المظلّات للظهور، وتحرّك على عجلٍ الناس الذين تقودهم الكلاب. ظهر بعدها إلى جانبي جدارٌ مبلّل - كان قريباً كفاية ربّما لألمسه لو أنزلتُ نافذتي - مغطّىً بكتاباتٍ عنيفةٍ وغاضبة.

- «ليس الأمر بهذا السوء»، قالت الأمّ للأب. «ليس هناك عددٌ كافٍ منّا. انخفضت ميزانية كل حملة بنسبة أربعين في المئة تقريباً، ونحن في صراعٍ دائم مع جماعة العلاقات العامّة. لكن عدا ذلك، الوضع مقبول».

- «هل لا يزال ستيفن حريصاً على إبقاء حضوره محسوساً؟».

- «هو كذلك بالتأكيد. نفس الشخصية الدمثة التي تمتّع بها دائماً».

- «أتعرفين يا كريسي، أتساءل حقّاً إن كان الأمر يستحقّ ذلك. أعني أن تكوني متعلِّقةً على هذا النحو».

- «لستُ واثقة أنّني أفهم. ما الذي أنا متعلِّقةٌ به؟».

- «Goodwins. قسمكِ القانوني. هذا العالم... القائم على العمل. أن تكون كلُّ لحظة واعية تعيشينها مقرَّرةً بموجب عقد وقَّعتِه ذات يوم».

- «أرجوك لا تدعنا نخوض في هذا مجدّداً. أنا آسفةٌ لما حدث لكَ يا بول. أنا آسفة، وأنا ما زلتُ غاضبة. لكنّني ما زلتُ أتعلَّق؛ كما عبّرتَ عن الأمر، لأنّني في اليوم الذي أتوقّف فيه، سوف ينهار عالم جوزي وعالمي».

- «لمَ أنتِ واثقةٌ جدّاً من ذلك يا كريسي؟ اسمعي، إنّها خطوةٌ كبيرة، أعرف ذلك. أنا أقترح عليكِ أن تفكّري أكثر في الأمر وحسب. حاولي أن تنظري إلى الأشياء من منظورٍ جديد ومختلف».

- «منظورٍ جديد؟ بالله عليكَ يا بول. لا تبدأ الادّعاء أنّك سعيد بما آلت إليه الأمور. كلّ تلك الموهبة، وكلّ تلك الخبرة!».

- «بكل صراحة؟ أعتقد أن التغييرات كانت أفضل شيءٍ حدث لي. أنا أفضل حالاً خارج كلِّ ذلك».

- «كيف يمكنكَ قول ذلك؟ لقد كنتَ في القمّة، مع خبرتكَ ومهاراتكَ الفريدة. كيف يكون مقبولاً ألّا يستطيع أحدٌ الاستفادة منك؟».

- «في الحقيقة يا كريسي، أنتِ تشعرين بالمرارة حيال الأمر أكثر منّي. لقد جعلتْني التغييرات أنظر إلى العالم بنظرةٍ جديدةٍ كلّياً،

وأعتقد أنَّها ساعدتني حقّاً على التمييز بين ما هو مهمٌّ حقّاً وما هو ليس كذلك. وحيث أعيش الآن، هناك الكثير من الأشخاص الرائعين الذين يشاركونني نفس الشعور تماماً. لقد سلكوا جميعاً الطريق نفسه، وقد كان لبعضهم حياةٌ مهنية أهمُّ بكثير من تلك التي حظيتُ بها. ونحن جميعاً متّفقون على ذلك، وأعتقد بصدق أنّنا لا نخدع أنفسنا. نحن ببساطة أفضل حالاً ممّا كنّا عليه في ذلك الوقت».

- «حقّاً؟ الجميع يعتقد ذلك؟ حتّى صديقكَ الذي كان قاضياً في ميلووكي؟».

- «أنا لا أقول إنَّ هذا سهلٌ دائماً. كلٌّ منا لديه أيّامه السيّئة. لكن مقارنةً بما كان لدينا من قبل، فنحن نشعر... كما لو أنّنا نعيش الحياة للمرّة الأولى حقّاً».

- «من اللطيف سماع شيءٍ كهذا من زوجٍ سابق».

- «آسف. اسمعي، لا تلقِ بالاً لهذا. لديَّ بعض الأسئلة حول هذا البورتريه».

- «ليس الآن يا بول. ليس هنا».

- «همممم. حسنٌ».

- «هيه، أبي»، هتفت جوزي بجانبي. «اسأل ما تريد. أنا لستُ مصغية».

- «أنتِ لا تصغين؟ يا له من هراء!»، قال الأب ضاحكاً.

- «لا مزيد من النقاش حول البورتريه يا بول، أنتَ مدينٌ لي بذلك»، قالت الأمّ.

- «أنا مدينٌ لكِ؟ لستُ أفهم البتّة لمَ قد أكون مديناً لكِ بأيِّ شيءٍ يا كريسي».

- «ليس الآن، بول».

عندها بالضبط أدركتُ أنَّ لافتة منطقة عدم الوقوف التي كنّا نمرُّ بها في تلك اللحظة هي نفس اللافتة التي أعرفها جيّداً، وبعدها بثانية ظهر مبنى RPO على جهة جوزي، وكانت سيّارات الأجرة المألوفة تحيط بنا من كلّ جانب. لكن حين التفتُّ بحماسة باتّجاه متجرنا، رأيتُ أنَّ شيئاً ما لم يكن صحيحاً.

لم يسبق لي بالطبع أن رأيتُ المتجر من الشارع، لكن حتّى مع ذلك، لم يكن هناك ص. ا. ولا أريكة مخطّطة في النافذة. بدلاً من ذلك كان ثمّة زجاجات ملوّنة معروضة، ولافتة كُتِب عليها «إضاءةٌ مريحة». استدرتُ بالكامل كي أتمكّن من مواصلة النظر إلى المتجر، وقالت جوزي عندئذٍ:

- «هيه، كلارا، هل تعرفين أين نحن؟».

- «نعم، بالطبع». لكنّنا كنّا قد تجاوزنا ممرّ المشاة، ولم أكن قد نظرتُ حتّى لأرى ما إذا كانت الطيور تطفو على إشارة المرور. في الواقع، لقد كنتُ مذهولةً بالمظهر الجديد للمتجر، ولم أنتبه لمحيطه بالقدر الذي كنتُ أرغب فيه. بعدها صِرنا في قسمٍ مختلفٍ من الشارع تماماً، واستدرتُ مجدّداً لأرى عبر الزجاج الخلفي مبنى RPO وهو يصبح أصغر فأصغر.

- «أتعرفين ماذا أظنّ؟». كان ثمّة قلقٌ في نبرة صوت جوزي. «أظنُّ أنَّ متجركِ القديم قد انتقل من مكانه».

- «نعم، ربّما».

إلّا أنّه لم يكن لديَّ المزيد من الوقت للتفكير في المتجر، لأنَّ ما رأيتَه بعدئذٍ - من بين المقعدين الأماميين - كان آلة كوتينغز

بنفسها. ميَّزتُها قبل أن نكون قريبين بما يكفي لرؤية الاسم على هيكلها. ها هي ذي، تنفثُ التلوّث من ثلاث مداخن كما كانت تفعل دائماً. كنتُ أعرف أنّه يُفترض بي أن أشعر بالغضب، لكن بعد المفاجأة بخصوص المتجر، شعرتُ بشيءٍ من العطف حيال الآلة الرهيبة. ثمَّ تجاوزنا آلة كوتينغز، تابع الأب والأمّ حديثهما بنبرةٍ متوتّرة، وقالت جوزي بجانبي: «هذه المتاجر، إنها تتغيّر باستمرار. هذا ما كنتُ أخشاه في اليوم الذي جئتُ أبحثُ عنكِ فيه، أن يكون المتجر قد اختفى، وكذلك أنتِ وجميع أصدقائك».

ابتسمتُ لها، لكنّني لم أقل شيئاً. في الأمام، علت أصوات البالغَين.

- «اسمع، يا بول، لقد خضنا في هذا مراراً. أنا وجوزي وكلارا ذاهباتٌ إلى هناك، وسنقوم بالأمر كما هو مخطَّطٌ له. لقد وافقتَ على ذلك، هل تذكر؟».

- «وافقتُ، لكن لا يزال بإمكاني أن أدلي بتعليق، أليس كذلك؟».

- «كلا لا يمكنكَ، ليس هنا! ليس الآن، وليس في هذه السيّارة اللعينة!».

طوال هذا الوقت كانت جوزي تقول شيئاً ما لي، لكنّها أصبحتْ مشتَّتة. الآن، وقد سكتَ البالغَين، قالت لي: «يمكننا يا كلارا إذا أردتِ أن نبحث عنه، بشرط أن يكون لدينا وقتٌ لفعل ذلك».

كِدتُ أعتقد أنّها تقصد آلة كوتينغز، ثمَّ أدركتُ أنّها كانت تشير إلى المكان الجديد الذي قد تكون المديرة والص. ا. ذهبوا إليه. فكّرتُ أنّها ربّما كانت تتسرّع في افتراض أنّهم قد انتقلوا بالفعل

لمجرّد أنَّ النافذة بدت مختلفة، وكنتُ على وشك أن أقول لها ذلك عندما انحنت إلى الأمام باتّجاه البالغين.

- «أمّي؟ تريد كلارا إن كان لدينا وقتٌ في الغد أن تذهب وتكتشف ماذا حدث لمتجرها القديم. هل يمكننا القيام بذلك؟».

- «إذا أردتِ يا حبيبتي. هكذا كان الاتّفاق. اليوم نذهب لرؤية السيّد كابالدي، وتفعلين ما يطلبه منكِ. وغداً نفعل ما تريدين».

هزَّ الأب رأسه واستدار صوب نافذته، لكن لأنَّ جوزي كانت جالسةً خلفه فهي لم ترَ تعابير وجهه.

- «لا تقلقي يا كلارا». مدّتْ يدها كي تلمس ذراعي. «سوف نعثر عليه غداً».

■

خرجت الأمّ بالسيّارة من الشارع إلى ساحة صغيرة مسيجة بشبكةٍ من الأسلاك. كانت ثمّة لافتة مثبّتة على السياج لمنع وقوف السيارات، لكنّها أوقفت السيارة قبالة اللافتة بجانب السيّارة الأخرى الوحيدة الموجودة هناك. بدت الأرض لدى خروجنا صلبة ومتصدّعة في كثيرٍ من المواضع. بدأت جوزي تسير بطريقتها الحذرة قرب الأب باتّجاه مبنى يطلّ على الفناء، وأمسك الأب بذراعها بسبب الأرض غير المستوية على الأرجح. شاهدت الأمّ هذا وهي واقفةٌ عند السيّارة للحظةٍ دون أن تتحرّك. ثمَّ، ولِعظيم دهشتي، جاءتْ إليَّ وأمسكتْ بذراعي، وبدأنا نسير معاً، وكأنّنا نقوم بتقليد الأب وجوزي.

لم تكن هناك مبانٍ مجاورة على أيٍّ من الجانبين، وقد صنّفتُه كمبنىً بدلاً من منزلٍ لأنَّ الطوب لم يكن مطليّاً وارتفعت سلالم

النجاة من الحريق بشكلٍ متعرّج. كان مؤلَّفاً من خمسة طوابق تنتهي عند سطحٍ مستوٍ، وراودني إحساسٌ أنَّ سبب عدم وجود مبانٍ مجاورة هو أنَّ شيئاً مؤسفاً كان قد حدث، وعمل رجال الصيانة على إخلاء وترحيل كلِّ شيء. مالت الأمّ مقتربةً منّي أكثر فيما كنتُ أعبر فوق شقوق الأرض المتصدّعة، وقالت بهدوء: «كلارا. تذكّري، سوف يرغب السيّد كابالدي في طرح بعض الأسئلة عليكِ. في الواقع قد يكون عدداً غير قليلٍ منها. أجيبي عليها فحسب. اتّفقنا عزيزتي؟».

كانت هذه المرّة الأولى التي تطلق فيها عليَّ اسم «عزيزتي». أجبتُها بـ «نعم، بالطبع»، عندها بات مبنى الطوب أمامنا تماماً، ورأيتُ أنَّ لكلِّ نافذةٍ من الداخل نمط ورقة رسمٍ بياني.

كان ثمّة باب على مستوى الأرض بجانب صندوقيّ قمامة، استدار الأب وجوزي حين وصلا إليه وانتظرا، كما لو أنَّ الأمر منوطٌ بالأم كي تأخذنا إلى الداخل. أفلتتني حين رأت هذا وصعدتْ إلى الباب وحدها. وقفتْ هناك للحظة بلا حراك، ثمَّ ضغطت على زرِّ الباب.

- «هنري»، قالت في مكبر الصوت على الحائط، «نحن هنا».

■

لم يكن داخل منزل السيد كابالدي يشبه خارجه. كانت الأرضيات في الغرفة الرئيسية تقريباً بنفس درجة اللون الأبيض لجدرانه الضخمة. سُلِّطتْ علينا أضواء كاشفة قويّة مثبّتةٌ في السقف، ما جعل من الصعب النظر إلى الأعلى دون الشعور بالانبهار. كان هناك القليل جدّاً من الأثاث لمثل هذه المساحة الكبيرة: أريكةٌ

واحدة سوداء كبيرة، وأمامها طاولةٌ منخفضة وضع عليها السيّد كابالدي كاميرتين وعدساتهما. كانت للطاولة المنخفضة عجلاتٌ مثل عربة العرض الزجاجية في متجرنا كي يتسنّى تحريكها على الأرض بسلاسة.

- «هنري، لا نريد لجوزي أن تتعب. لذا يمكننا ربّما أن نباشر العمل»، قالت الأمّ.

- «بالطبع». لوّح السيّد كابالدي باتّجاه الزاوية البعيدة حيث عُلّق جدولان على الحائط جنباً إلى جنب. استطعتُ أن أرى في كلّ جدول الكثير من الخطوط المسطّرة تتقاطع بزوايا مختلفة. تُرك كرسيٌّ معدنيّ خفيف أمام الجدولين، وكذلك مصباح محمول على ثلاثة قوائم. لم يكن المصباح مضاءً الآن، وبدت الزاوية البعيدة مظلمةً وحيدة. نظرت الأمّ وجوزي نحوها بقلق. ربّما لاحظ ذلك السيّد كابالدي، إذ قام بلمس شيءٍ ما على الطاولة المنخفضة، ودبّت الحياة في المصباح ذي الثلاثة قوائم، الأمر الذي جعل الزاوية مضاءةً بالكامل، لكنّه خلق ظلالاً جديدة.

- «سيكون هذا مريحاً جدّاً»، قال السيّد كابالدي الذي كان أصلع الرأس، ولديه لحية تكاد تخفي فمه. قدّرتُ عمره باثنين وخمسين عاماً. كان وجهه يوحي طوال الوقت بأنّه على وشك أن يبتسم. «ما من شيءٍ مرهق. لذا فلنبدأ إذا كانت جوزي جاهزة. جوزي، هلّا تفضّلتِ بالمجيء إلى هنا».

- «هنري، انتظر»، قالت الأمّ، وصدى صوتها يتردّد في المكان. «كنتُ أرغب في رؤية البورتريه أوّلاً؛ ما أنجزتَه حتّى الآن».

- «بالطبع»، قال السيّد كابالدي. «لكن يجب أن تفهمي أنّه ما

يزال عملاً قيد الإنجاز. وليس من السهل دائماً على الشخص العادي فهم الآليّة التي تتشكّل بها هذه الأشياء ببطء».

- «أرغب بإلقاء نظرة على أية حال».

- «سوف آخذك للأعلى. في الواقع، أنتِ تعلمين أنّكِ لست بحاجة إلى إذنٍ منّي يا كريسي. أنتِ الرئيسة هنا».

- «هذا مخيفٌ نوعاً ما، لكنّني أودّ إلقاء نظرةٍ أيضاً»، قالت جوزي.

- «أه، أه، حبيبتي. لقد وعدتُ السيّد كابالدي أنّكِ لن تري شيئاً الآن».

- «أنا أميل للموافقة على ذلك»، قال السيّد كابالدي. «إن كنتِ لا تمانعين يا جوزي. بحسب تجربتي، إذا رأى الشخص البورتريه الخاص به في مرحلةٍ مبكّرةٍ جدّاً، فإنَّ الأمور تصبح فوضوية. أحتاجكِ أن تظلّي في حالةٍ من العفوية».

- «العفوية حيال ماذا بالضبط؟»، سأل الأب بصوتٍ عال. لم يخلع معطفه المطري رغم أنَّ السيّد كابالدي كان قد دعاه مرّتين لتعليقه على أحد الأوتاد عند المدخل. كان الآن قد اقترب من الجدولين وأخذ يدرسهما بوجهٍ عابس.

- «ما أعنيه يا بول أنّه إذا أصبح الشخص موضوع الرسم، وهو جوزي في هذه الحالة، إذا أصبح على درجةٍ عالية من الوعي بالذات، فقد تبدأ في الجلوس والتموضع على نحوٍ غير طبيعي وغير عفوي. هذا كلُّ ما كنتُ أعنيه».

واصل الأب التحديق في الجدولين الجداريين. ثمَّ هزَّ رأسه كما فعل في السيّارة.

- «هنري؟ هلّا ذهبتُ الآن إلى الأستوديو الخاص بك لألقي نظرة على ما كنتَ تعمل عليه؟»، قالت الأمّ.

- «بالطبع، اتبعيني».

قاد السيّد كابالدي الأمّ إلى سلالم معدنيّة تصعد وصولاً إلى الشرفة. راقبت أقدامهما من خلال الفجوات بين درجات السلالم. ضغط السيّد كابالدي لدى وصوله إلى الشرفة على لوحة مفاتيح قرب بابٍ أرجواني، سُمِع طنينٌ قصير ثمَّ دخل كلاهما.

أُغلق الباب الأرجواني خلفهما، فذهبتُ إلى الأريكة السوداء حيث كانت تجلس جوزي. أردتُ أن أدلي بتعليقٍ فكاهي كي أجعلها تسترخي، لكنَّ الأب تحدّث أوّلاً من الزاوية المضيئة.

- «أظنُّ يا حيواني البرّي أنَّ الفكرة هنا هي أن يتمَّ تصويرك مراراً وتكراراً أمام هذه الجداول». خطا مقترباً أكثر منها. «انظري إلى هذا. وُضِعت علامةٌ على القياسات فوق كلِّ سطر».

- «أتعلم يا أبي»، قالت جوزي، «لقد أخبرتْنا أمّي أنّك كنتَ رائعاً بشأن مجيئك معنا اليوم. لكن ربّما لم تكن هذه فكرةً عظيمة. كان يمكننا أن نلتقي في مكان آخر، ونفعل شيئاً مختلفاً».

- «لا تقلقي، سنفعل شيئاً آخر لاحقاً. شيءٌ أفضل من هذا بالتأكيد». ثمَّ استدار وابتسم لها بلطف. «لنقل أنّه تمَّ إنجاز هذا البورتريه، ما يزعجني هو أنّه لن يكون بحوزتي، لأنَّ والدتكِ ستريده معها».

- «يمكنكَ أن تأتي لرؤيته في أيِّ وقت»، قالت جوزي. «يمكن أن يكون هذا مثل عذرٍ لكَ كي تأتي كثيراً».

- «اسمعي يا جوزي، أنا آسف على ما آلت إليه الأمور. أتمنّى لو أني كنتُ معكِ أكثر. أكثر بكثير».

- «لا بأس يا أبي. كلّ شيءٍ بخير الآن. هيه، كلارا، ما رأيكِ بأبي؟ ليس مجنوناً تماماً، أليس كذلك؟».

- «إنّه لمن دواعي سروري أن ألتقي بالسيّد بول».

واصل الأب النظر إلى الجدولين مشيراً إلى تفصيلٍ ما فيهما كما لو أنّني لم أقل شيئاً. وحين استدار أخيراً كي يواجهني، كانت عيناه قد فقدتا التجعّدات الخاصّة بالابتسام.

- «سُررتُ بلقائك يا كلارا»، قال لي ثمَّ نظر إلى جوزي. «سأقول لكِ شيئاً يا حيواني البرّي. فلننتهِ من هذا سريعاً، ثمَّ يمكننا أن نذهب نحن الاثنين لنأكل شيئاً. هناك مكانٌ أعتقد أنّكِ ستحبينه».

- «طبعاً، بالتأكيد. إذا كان لا بأس في ذلك بالنسبة لأمّي وكلارا».

استدارت لتنظر من فوق كتفها، وفي تلك اللحظة بالذات فُتح الباب الأرجواني على الشرفة وخرج السيّد كابالدي. نادى عبر الأستوديو من المدخل:

- «أنتِ على الرحب، يمكنكِ البقاء هنا قدر ما تشائين. من الأفضل أن أذهب وأرى جوزي».

سمعتُ صوت الأمّ يقول شيئاً، ثمَّ خرجتْ هي أيضاً إلى الشرفة. كانت تفتقر إلى وقفتها المنتصبة المعتادة، فمدَّ كابالدي يده نحوها كما لو أنّه مستعدٌّ للإمساك بها إذا سقطتْ.

- «هل أنتِ بخير هناك يا كريسي؟».

تخطّتْ الأمّ السيّد كابالدي وبدأت تنزل السلالم متشبّثةً بالدرابزين. توقّفت في منتصف الطريق للأسفل كي تُرجع شعرها إلى الخلف، ثمَّ أكملت طريقها نزولاً.

- «إذاً، ما رأيك؟»، سألت جوزي بعينين قلقتين.

- «إنّه جيّد»، قالت الأمّ. «سوف يكون جيّداً. أنتَ تريد رؤيته يا بول، تفضَّل إذاً».

- «ربّما بعد دقيقة فقط»، قال الأب. «كابالدي، سأكون شاكراً إن انتهيت منّا سريعاً اليوم. أريد أن آخذ جوزي لتناول القهوة والكعك».

- «هذا جيّد، يا بول. كلُّ شيءٍ تحت السيطرة. أنتِ واثقةٌ أنّكِ بخير يا كريسي؟».

- «أنا بخير»، قالت الأمّ. لكنّها سارعت نحو الأريكة السوداء.

- «جوزي، ما أتمّناه حقّاً قبل أن نفعل هذا هو أن تقدّم لي كلارا خدمةً صغيرة. لديَّ مهمّةٌ صغيرة لها. كنتُ أفكّر أنّه يمكنها العمل عليها بينما نلتقط صورنا. لا بأس في ذلك؟»، قال السيّد كابالدي.

- «لا بأس بالنسبة لي، لكن عليك أن تسأل كلارا»، قالت جوزي.

لكنَّ السيّد كابالدي وجّه كلامه للأب الآن. «لربّما سوف تتّفق معي يا بول بصفتك عالِماً زميلاً. أعتقد أنَّ لدى الص. ا. الكثير لتمنحنا إيّاه أبعد ممّا ندركه الآن. ينبغي بنا ألّا نخشى قدراتهم الذهنية. بل يجدر بنا أن نتعلّم منهم. لدى الص. ا. الكثير ليعلّمونا إيّاه».

- «لقد كنتُ مهندساً، لم أكن **عالِماً** أبداً. أعتقد أنّكَ تعرف ذلك. على أية حال، الص. ا. لم يكونوا ضمن مجالي أبداً».

هزَّ السيّد كابالدي كتفيه، ورفع يده إلى لحيته، وبدا كما لو أنّه يتحقّقُ من نسيجها. ثمَّ التفتَ إليَّ وقال: «كنتُ أعمل على إجراء

استطلاعٍ عنكِ. شيءٌ مثل الاستبيان. إنّه جاهزٌ على الشاشة هناك. سأكون ممتنّاً للغاية إذا كنتِ لا تمانعين في الإجابة عليه».

قبل أن أتمكّن من قول أيِّ شيء، قالت الأمّ: «إنّها فكرةٌ جيدة يا كلارا، سيكون لديكِ شيءٌ لتفعليه بينما جوزي منشغلة في جلسة تصويرها».

- «بالطبع، يسرّني أن أقدّم المساعدة».

- «شكراً! لا صعوبة في الأمر، أقسم على ذلك. في الواقع، كلُّ ما أريده منكِ يا كلارا هو ألّا تبذلي مجهوداً خاصّاً. سوف يجري كلُّ شيءٍ على نحوٍ أفضل إذا كنتِ تستجيبين بصورةٍ عفوية».

- «أفهم ذلك».

- «حتّى إنّها ليست أسئلةً حقّاً. لكن لمَ لا نصعد إلى هناك فأشرح لكِ؟ أيّها الرفيقان، جوزي، لن يستغرق هذا أكثر من دقيقةٍ واحدة، سأجعل كلارا تستقرُّ هناك وأنزل في الحال. أنتِ تبدين بحالةٍ جيّدة اليوم يا جوزي. من هنا، يا كلارا».

ظننتُ أنّه سوف يأخذني إلى الباب الأرجواني أيضاً، لكنّنا ذهبنا إلى الجهة الأخرى من الغرفة، حيث تصعد سلالم معدنية مختلفة إلى قسمها الخاص من الشرفة. ارتقى السيّد كابالدي درجات السلّم أولاً، ثمَّ لحقتُ به وأنا أخطو كل خطوةٍ بعنايةٍ وحذر. نظرتُ إلى الأسفل، فرأيتُ جوزي، والأمّ والأب يلاحقوننا بنظراتهم، لكنَّ الأمّ كانت لا تزال جالسةً على الأريكة السوداء. لوّحتُ لجوزي، لكنَّ أحداً لم يتحرّك في الأسفل. بعدها نادت جوزي: «كوني مطيعةً يا كلارا!».

- «من هنا لو سمحتِ، كلارا». كانت الشرفة ضيّقة، مصنوعةً من نفس المعدن الداكن الذي صُنعت منه السلالم. كان السيّد

كابالدي يمسك ببابٍ زجاجيّ مفتوح يؤدّي إلى غرفةٍ أصغر حتّى من حمّام جوزي الخاصّ، يتوسّط الغرفة كرسيٌّ مكتبٍ مبطَّن موضوع قبالة شاشة عرض. «اجلسي هناك من فضلك. كلُّ شيءٍ في انتظارك».

أجلستُ نفسي وكان ثمّة جدارٌ أبيض بجانب كتفي. وأسفل الشاشة كان هناك رفٌّ ضيّق فوقه ثلاثة أجهزة تحكّم.

لم تكن الغرفة كبيرةً بما يكفي ليدخل السيّد كابالدي أيضاً، لذا بقي الباب الزجاجيّ مفتوحاً بينما كان يعطيني تعليماته ويمدّ يده من حينٍ لآخر لينقر على الأجهزة. أصغيتُ له بانتباه، رغم أنّي بتُّ مدركةً أنَّ الأمّ والأب في الأسفل كانا يستخدمان أصواتاً متوتّرة مجدّداً. خلف كلمات السيّد كابالدي، سمعتُ الأمّ تقول: «لا أحد يصرُّ عليكَ أن تبقى، يا بول».

- «هذا ليس متماسكاً ولا متّسقاً. أنا أشير بكلِّ بساطةٍ إلى التناقض»، قال الأب.

- «أنا لا أحاول أنْ أكون متّسقة، بل أحاول فقط أن أجد طريقةً لنا للمضيِّ قدماً. لماذا تصعِّبُ الأمر أكثر ممّا هو صعب يا بول؟».

ضحك السيّد كابالدي بالقرب منّي، ثمَّ قطع تعليماته وقال: «يا إلهي. يبدو أنّه من الأفضل أن أنزل إلى هناك وألعب دور الحكم! أنتِ على ما يرام هنا، يا كلارا؟».

- «شكراً لكَ، كلُّ شيءٍ واضحٌ تماماً».

- «أقدّرُ لكِ ذلك. نادِني رجاءً إذا التبس عليكِ أيُّ شيء».

لكزَ الباب كتفي قليلاً حين أغلقه السيّد كابالدي، لكن كان بإمكاني أن أرى بشكلٍ جيّد عبر الزجاج السيّد كابالدي وهو ينزل تحت مستوى الشرفة. ثمَّ سمحتُ لنظري أن يسرح أبعد عبر الهواء

الخالي، وصولاً إلى الشرفة المقابلة والباب الأرجواني الذي كانت الأمّ قد خرجتْ منه مؤخّراً.

بدأتُ باستبيان السيّد كابالدي. في بعض الأحيان كان يظهر على الشاشة سؤالٌ مكتوب. وفي أحيانٍ أخرى، كانت تظهر رسومٌ بيانية متحرّكة، أو قد تُظلِم الشاشة وتصدر من مكبّرات الصوت أصواتٌ ذات طبقات متعدّدة. قد يظهر وجهٌ ثمَّ يختفي - جوزي، الأم، أو وجهٌ غريب. في البداية كانت الإجابات القصيرة، من حوالي اثني عشر رقماً ورمزاً، كافيةً، لكن ومع تزايد تعقيد الأسئلة، وجدتُ نفسي أقدّم إجاباتٍ أطول، بعضها وصل إلى أكثر من مئة رمزٍ ورقم. بقيت الأصوات القادمة من الأسفل متوتّرة طوال الوقت، لكن مع إغلاق الباب، لم يعد بإمكاني سماع كلماتهم.

التقطتُ أثناء انكبابي على إنجاز المهمّة حركةً عبر الزجاج، ورأيتُ على الشرفة المقابلة السيّد كابالدي يقود الأب إليها. تابعتُ العمل على مهمّتي، لكن بعد أن تبيّنت الغرض الرئيسي منها، لم أعد بحاجة أن أوليها الكثير من الانتباه، وكان بوسعي أن أراقب الأب متدثّراً بمعطفه المطري وهو يقترب من الباب الأرجواني. كان يدير ظهره إليّ وكنتُ أنظر إليه عبر زجاجٍ مصنفر، لذا لم يكن بوسعي التأكّد، لكنّه بدا كما لو أنّه أصبح مريضاً فجأة.

لكنَّ السيّد كابالدي على الشرفة بجانبه بدا غير مكترث، وكان يبتسم ويتحدّثُ بمرح. ثمَّ مدَّ يده إلى لوحة المفاتيح بجانب الباب الأرجواني. لم أستطع من داخل مقصورتي أن أسمع طنين الباب، لكن في المرّة التالية التي نظرتُ فيها باتّجاههما، كان الأب قد ذهب إلى الداخل والسيّد كابالدي يقف مائلاً عبر المدخل ويقول شيئاً ما. ثمَّ رأيتُ السيّد كابالدي يتحرّك إلى الوراء على نحوٍ مفاجئ، ليخرج

الأب، ورغم أنّني لم أكن متأكّدة بسبب الزجاج المصنفر، لكن بدا أنّه لم يعد مريضاً بل مفعماً بطاقةٍ جديدة. وبدا أنّه لم يمانع كونه كاد أن يطيح بالسيّد كابالدي حين بدأ في نزول السلالم المعدنية بسرعة متهوّرة. راقبه السيّد كابالدي وهو يهزُّ رأسه كما يفعل أحد الوالدين حين يعاني طفلٌ من نوبة غضب في أحد المتاجر، ثمَّ أغلق الباب الأرجواني.

كانت الصور على الشاشة تتغيّر بوتيرةٍ أسرع الآن، لكنَّ مهمّاتي بقيت واضحة، وبعد عدّة دقائق، ودون أن أفقد تركيزي، دفعتُ الباب الزجاجي بجانبي لأفتحه جزئياً، فاستطعتُ أن أسمع الأصوات في الأسفل بوضوحٍ أكبر.

كان السيّد كابالدي يقول: «إنَّ ما تؤكّد عليه هنا يا بول هو كيف أنَّ أيّ عملٍ نقوم به يشكّل علامةً تميّزنا. هذه هي وجهة نظرك، هل أنا محقّ؟ إنّها علامةٌ تميّزنا، وفي بعض الأحيان تَصِمُنا على نحوٍ ظالم».

- «إنّها طريقة ذكية جدّاً لإساءة فهم وجهة نظري يا كابالدي».

- «بول، بالله عليكَ»، قالت الأمّ.

- «أنا آسف إذا بدا هذا قليل التهذيب، كابالدي. لكنّني بصراحة أعتقد أنّكَ تضع عمداً ما أقوله في غير سياقه».

- «لا يا بول. أنتَ بصدقٍ لا تلتقط الرسالة هنا. هناك دائماً خياراتٌ أخلاقية حيال أيِّ عمل. هذا صحيح، سواءً كنّا نتلقّى أجراً أم لا».

- «هذا جِدُّ مراعٍ منكَ يا كابالدي».

- «بول، بالله عليك»، قالت الأمّ مجدّداً. «إنَّ هنري يفعل ما طلبنا منه فعله فحسب. لا أكثر ولا أقل».

- «لا عجب يا كابالدي - آسف، يا **هنري** - أنَّه ينبغي برجلٍ مثلك أن يعاني لفهم ما أحاول قوله هنا».

دفعتُ كرسيّي على عجلاته إلى الوراء، نهضتُ ومررتُ عبر الباب الزجاجي إلى الشرفة. كان سبق أن تأكّدتُ أنَّ الشرفة عبارة عن دارةٍ مغلقة مستطيلة تُلامس الجدران الأربعة. التزمتُ الآن بالجانب الخلفي من الشرفة وبقيتُ قريبةً من الجدار الأبيض، مع الحرص على عدم جعل الشبكة المعدنية تئزُّ تحت قدميّ، وألّا أمرَّ عبر أشعة الضوء بأيِّ طريقة قد تشكّل ظلالاً متحرّكةً في الأسفل. وصلتُ إلى الباب الأرجواني دون أن ينتبه أحد، وأدخلتُ الرمز الذي كنتُ قد رصدتُه مرَّتين بالفعل. انبعث الطنين القصير المعتاد، لكنَّ هذا أيضاً مرَّ دون أن يلاحظه أحدٌ في الأسفل. بعدها صرتُ داخل استوديو السيّد كابالدي وأغلقتُ الباب خلفي.

كانت الغرفة على شكل حرف L، وكان القسم الذي أمامي يلتفُّ في زاوية تشكّل امتداداً يتجاوز الحدود الطبيعية للمبنى. بالتقدّم نحو هذه الزاوية، رأيتُ منضدتين مثبَّتتين بكلِّ جدار، ازدحمت كلتاهما بالأشكال والأقمشة والسكاكين الصغيرة والأدوات. لكن لم يكن لديَّ وقتٌ للتركيز على هذه الأشياء، فمضيتُ قدماً نحو الزاوية مذكِّرةً نفسي أن أخطو بحذر، لأنَّ الأرضية كانت لا تزال من الشبكة المعدنية ذاتها.

انعطفتُ مع الزاوية L فرأيتُ جوزي تتدلّى هناك في الهواء. لم تكن على ارتفاعٍ عال - كانت قدماها عند مستوى كتفي - لكن ولأنّها كانت تميل إلى الأمام، وذراعاها ممدودتان، وأصابعها متباعدة، فقد بدتْ وكأنّها تجمّدتْ في وضع السقوط. سلَّطتْ أشعّةٌ ضئيلةٌ الضوءَ عليها من عدّة زوايا، مانعةً عنها أيَّ ملاذٍ أو مهرب.

كان وجهها يشبه إلى حدٍّ كبير وجه جوزي الحقيقي، لكن ولأنّه لم يكن في العينين أثرٌ لابتسامةٍ لطيفة، فقد قدّم خطُّ شفتيها المائل في منحنى تصاعدي تعبيراً لم أره من قبل. بدا الوجه محبَطاً وخائفاً. ملابسها لم تكن ملابس حقيقية، بل مصنوعة من ورقٍ نسيجي رقيق فيما يشبه قميصاً للنصف العلوي، وسروالاً قصيراً فضفاضاً للنصف السفلي. كان النسيج أصفرَ شاحباً ونصف شفّاف، ممّا جعل ذراعيّ وساقيّ جوزي تبدوان أكثر هشاشة. كان شعرها قد رُبِط كما كانت تربطه جوزي الحقيقية في أيّام مرضها، وكان هذا هو التفصيل الذي فشل في أن يكون مقنعاً؛ إذ صُنع الشَعر من مادّة لم أرها على أيٍّ ص. ا. أبداً، وعرفتُ أنَّ جوزي هذه لن تكون سعيدة بذلك.

بعد أن جمعتُ ملاحظاتي، كنتُ أنوي العودة إلى المقصورة قبل أن يلاحظ أحدٌ غيابي. مشيتُ عائدةً بحذر متجاوزةً المنضدتين وفتحتُ الباب الأرجواني قليلاً، فأصدر الطنين المعتاد، لكن كان يمكنني القول من الأصوات في الأسفل أنَّ أحداً لم يسمع شيئاً. أمكنني أيضاً القول إنَّ المزاج الآن بات أكثر توتّراً حتّى.

- «بول» - كاد صوت الأمّ أن يكون صراخاً - «لقد كنتَ مصمّماً أن تجعل هذا صعباً منذ البداية».

- «هيّا بنا يا جوزي»، قال الأب، «فلنذهب في الحال».

- «لكن يا أبي...».

- «جوزي، سوف نغادر في الحال. أنا أعرف ماذا أفعل، صدّقيني».

- «لا أعتقد أنّكَ تعرف»، قالت الأمّ، ثم قال السيّد كابالدي: «بالله عليكَ يا بول، اهدأ وخذ الأمر ببساطة. إن كان هناك أيُّ سوء فهم، فأنا أتحمّل مسؤوليته بالكامل، وأعتذر عنه».

- «ما مقدار المعلومات الإضافية التي تحتاج إليها على أيّة حال؟»، سأل الأب وهو الآن يصرخ أيضاً، لكن ربّما السبب في ذلك أنّه كان يذرع الأرضية جيئةً وذهاباً. «أنا مندهشٌ أنّكَ لم تطلبُ عيّنةً من دمها».

- «بول، كُن منطقياً». كان الأب وجوزي يقولان شيئاً ما في الوقت نفسه، لكن السيّد كابالدي قال بصوتٍ أعلى منهما:

- «لا بأس يا كريسي، دعيهما يذهبان. دعيهما يذهبان، هذا لا يغيّر شيئاً».

- «أمّي؟ لمَ لا أذهب مع أبي الآن؟ عندئذٍ ستتوقّفون على الأقل عن الصراخ. إذا بقيتُ هنا، فسوف يزداد الأمر سوءاً فحسب».

- «أنا لستُ غاضبةً منكِ يا حبيبتي. أنا غاضبةٌ من والدكِ. إنّه الطفل هنا».

- «هيّا يا حيواني البرّي. لنذهب».

- «أراكِ لاحقاً أمّي، اتّفقنا؟ أراكَ لاحقاً سيّد كابالدي...».

- «دعيهما يذهبان يا كريسي. دعيهما يذهبان فحسب».

حين أُغلق باب المدخل خلفهما، تردّد صداه في كلِّ أرجاء المبنى. تذكّرتُ عندها أنَّ السيّارة هي سيّارة الأمّ، وتساءلتُ إن كان الأب يملك نقوداً من أجل سيارة الأجرة التي ستقلّه مع جوزي إلى المكان الذي ينوي أن يذهبا إليه الآن. شعرتُ بشيءٍ من الغرابة لكون جوزي لم تفكّر في اصطحابي معها، لكنَّ الأمّ كانت لا تزال هنا، وتذكّرتُ اليوم الذي ذهبنا فيه معاً إلى شلّالات مورغان.

خرجتُ إلى الشرفة، ولم أكن أبذل الآن جهداً كي أتوارى عن الأنظار أو أخفّف من وقع خطاي. إذ استندتُ إلى الدرابزين، رأيتُ الأمّ وقد جلستْ حيث كانت جوزي جالسة، على الكرسيّ المعدنيّ

أمام الجدولين. تحرّك السيّد كابالدي فوق الأرضية حتى أصبح تحتي مباشرةً، وكان بوسعي رؤية أعلى رأسه الأصلع، لكن ليس تعابير وجهه. ثمَّ واصل السير ببطءٍ نحو الأمّ، كما لو أنَّ البطء كان علامةً تدلُّ على لطفه، وتوقّف أخيراً عند المصباح ثلاثي القوائم.

- «أرى أنَّ لديكِ شكوكاً»، قال بنبرةٍ جديدة ورقيقة. «دعيني أقول لكِ إنّني رأيتُ هذا النوع من الأشياء يحدث مرّاتٍ عديدة من قبل. وأولئك الذين يصرّون ويتشبّثون بإيمانهم هم الذين ينتصرون في النهاية».

- «اللعنة، إنَّ لديّ شكوكاً بالفعل».

- «يجب ألّا تسمحي لبول أن يؤثّر عليكِ. تذكّري، لقد فكّرتِ في هذا مليّاً بينما هو لم يفعل. إنَّ بول مشوّش وفي حيرةٍ من أمره».

- «الأمر ليس متعلّقاً ببول. فليذهب بول إلى الجحيم. إنّه... ذلك البورتريه في الأعلى».

نظرتْ إلى الأعلى لدى قولها ذلك، ورأتْني. حدّقتْ إلى ما بعد أضواء السقف المبهرة، ثمَّ استدار السيّد كابالدي أيضاً ونظر إليّ. ثمَّ نظر إلى الأمّ نظرةً متسائلة. واصلت الأمّ التحديق بي وقد رفعت يدها الآن إلى جبهتها.

- «حسنٌ، يا كلارا»، قالت أخيراً. «انزلي إلى هنا».

بينما كنتُ أنزل الدرجات المعدنية، شعرتُ بالفضول لرؤية أنَّ الأمّ أبدت القلق بدلاً من الغضب. عبرتُ الأرضية لكنّني توقّفتُ بينما كنتُ لا أزال على بعد عدّة خطوات. كان السيّد كابالدي أوّل مَن تحدّث.

- «ما رأيكِ يا كلارا؟ هل أقوم بعملٍ جيّد؟».

- «إنّها تشبه جوزي بدقّةٍ كبيرة».

- «أعتقد أنَّ هذا جوابٌ بـ «نعم». بالمناسبة يا كلارا، كيف أبليتِ في الاستبيان؟».

- «لقد أتممتُه سيّد كابالدي».

- «أنا ممتنٌّ إذاً لتعاونكِ. وهل خزّنتِ البيانات بطريقةٍ آمنة؟».

- «نعم، سيّد كابالدي. لقد تمَّ تخزين إجاباتي».

ساد صمت بينما واصلت الأمّ التحديق بي من كرسيّها، والسيد كابالدي من جانب مصباحه ثلاثيّ القوائم. أدركتُ أنّهما كانا ينتظران منّي قول المزيد، فتابعتُ قائلة:

- «إنّه لأمرٌ مؤسف أنَّ جوزي والأب قد غادرا. ربّما سوف يتعطّل عمل السيّد كابالدي على البورتريه مؤقّتاً».

- «لا بأس. إنّها ليست بالنكسة الخطيرة»، قال كابالدي.

- «أريد أن أسمع منكِ، يا كلارا. أريد أن أسمع رأيكِ فيما رأيتِ»، قالت الأمّ.

- «أعتذر لتحقّقي من البورتريه دون إذن. لكن في ظلٍّ هذه الظروف، شعرتُ أنّه من الأفضل القيام بذلك».

- «لا بأس»، قالت الأمّ، ورأيتُ مجدّداً أنّها خائفة أكثر من كونها غاضبة. «أخبرينا برأيكِ الآن. أو بالأحرى، أخبرينا ما الذي تعتقدين أنّكِ رأيتِه هناك».

- «لقد شككتُ لبعض الوقت أنَّ البورتريه الذي يعمل عليه السيّد كابالدي لم يكن رسماً أو منحوتة، بل كان عبارةً عن ص. ا. لذا دخلتُ إلى هناك كي أتثبَّتَ من تكهّناتي. لقد قام السيّد كابالدي بعملٍ دقيق لجهة التقاط مظهر جوزي الخارجي، رغم أنَّ منطقة الوركين يجب أن تكون أضيق قليلاً ربّما».

- «شكراً لكِ»، قال السيّد كابالدي. «سآخذ ذلك بعين الاعتبار. إنه عمل قيد الإنجاز».

فجأةً، أخفضت الأمّ وجهها ووضعتْه داخل كفّيها، وتركت شعرها ينسدل فوقهما. التفتَ السيّد كابالدي نحوها بقلق، لكنّه لم يتحرّك من مكانه. مع ذلك، فالأمّ لم تكن تبكي، وقالت من بين كفّيها بصوتٍ مختنق:

- «ربّما بول على حقّ. ربّما كان هذا الأمر برمّته خطأً».

- «كريسي، يجب ألّا تفقدي إيمانك».

رفعتْ رأسها، وكانت عيناها غاضبتَين الآن. «إنّها ليست مسألة إيمان يا هنري. لمَ أنتَ بحقِّ الجحيم متأكّدٌ جدّاً أنّني سأكون قادرةً على تقبّل تلك الص. ا. في الأعلى، مهما كان العمل الذي ستقوم به جيّداً؟ لم ينجح الأمر مع سال، فلمَ سينجح مع جوزي؟».

- «ما فعلناه مع سال لا يقارن بهذا. لقد خُضنا هذا الحديث سابقاً يا كريسي. ما صنعناه مع سال كان دمية. دمية فقدٍ وحرمان لا أكثر. لقد قطعنا شوطاً طويلاً منذ ذلك الوقت. ما يجب أن تفهميه هو أنَّ جوزي الجديدة لن تكون تقليداً، **بل ستكون جوزي بحقّ. استمرارٌ واقعيٌّ لجوزي**».

- «هل تريد منّي أن أصدّق ذلك؟ هل تصدّق أنتَ ذلك؟».

- «أنا أصدّق ذلك بالفعل. أصدّقه بكلّ جوارحي. أنا سعيد لأنَّ كلارا دخلت إلى هناك وألقت نظرة. نحن بحاجةٍ إليها معنا الآن، كنّا بحاجةٍ إلى ذلك منذ وقتٍ طويل. لأنَّ كلارا هي مَن ستحدث الفرق. هي التي ستجعل الأمر مختلفاً هذه المرّة، مختلفاً جداً. عليكِ أن تحافظي على إيمانكِ يا كريسي. لا يمكنكِ أن تضعفي الآن».

- «لكن هل سأصدّق ذلك؟ هل سأصدّقه حين يأتي اليوم؟ هل سأصدّقه حقّاً؟».

- «المعذرة»، قلتُ لها. «أودُّ أن أقول إنَّ هناك احتمالية أنّكِ لن تحتاجي أبداً إلى جوزي الجديدة. قد تصبح جوزي الحالية بصحّة جيّدة. أعتقد أنَّ هناك احتمالية جيّدة لذلك. سأكون بحاجة إلى فرصةٍ بالطبع، فرصةٍ لجعل هذا يتحقّق. لكن وبما أنّكِ تشعرين بحزنٍ شديد، أودُّ أن أقول هذا الآن. إذا حدث أن جاء مثل هذا اليوم الحزين، واضطّرتْ جوزي للرحيل، فسوف أبذل قصارى جهدي للمساعدة. إنَّ السيّد كابالدي محقّ. لن تكون هذه المرّة كسابقتها مع سال لأنّني موجودة هذه المرة من أجل مساعدتكِ. فهمتُ الآن لمَ طلبتِ منّي أن أراقب جوزي وأتعلّم عنها في كلّ خطوة. آمل أنَّ اليوم الحزين جدّاً لن يأتي أبداً، لكن إذا أتى، فسوف أستخدم كلّ ما تعلّمتُه لأدرّب جوزي الجديدة هناك في الأعلى لتكون مثل جوزي السابقة قد الإمكان».

- «كلارا»، قالت الأمّ بصوتٍ أكثر حزماً، وأصبحتْ فجأةً منقسمةً داخل كثيرٍ من المربّعات، مربّعات أكثر بكثير من تلك التي كانت في شقّة الصديق لدى وصول الأب. كانت عيناها ضيّقتان في العديد من المربّعات، بينما كانتا كبيرتين ومفتوحتين على اتّساعهما في مربّعات أخرى. في أحد المربّعات، كان ثمّة مجالٌ فقط لمقلة عينٍ محدِّقة واحدة. كان يمكنني أن أرى أجزاءً من السيّد كابالدي على أطراف بعض المربّعات، لذا استطعتُ أن أعرف أنّه كان قد رفع يده في الهواء بإشارةٍ غامضة.

- «كلارا»، قالت الأمّ. «لقد عملتِ على استنتاجاتكِ بشكلٍ جيّد. وأنا ممتنّة لما قلتِه للتوّ. لكن هناك شيءٌ يجب أن تسمعيه».

- «لا كريسي، ليس بعد».

- «لمَ لا؟ لمَ لا بحقّ الجحيم؟ لقد قلتَ بنفسكَ إنّنا نحتاج كلارا معنا. وإنّها هي التي ستحدث الفرق».

خيّمتْ لحظةٌ من الصمت، ثمَّ قال السيّد كابالدي: «حسنٌ. أخبريها، إذا كان هذا ما تريدينه».

- «كلارا»، قالت الأمّ. «إنَّ السبب الرئيسي في مجيئنا إلى هنا اليوم لم يكن كي تتمكّن جوزي من الجلوس والتقاط المزيد من الصور. لقد جئنا إلى هنا بسببك».

- «أنا أفهم»، قلتُ لها. «فهمتُ من الاستطلاع. كان مصمّماً لاختبار مدى معرفتي بجوزي. لأيِّ درجةٍ أفهم كيف تتّخذ قراراتها، ولماذا تشعر بما تشعر به. أعتقد أن النتائج ستُظهر أنّني قادرة على نحوٍ جيّد على تدريب جوزي التي في الأعلى. لكنّني أعيد وأكرّر، من الخطأ فقدان الأمل».

- «ما زلتِ لا تفهمين الأمر تماماً»، قال كابالدي، ورغم أنّه كان يقف قبالتي، إلّا أنَّ صوته بدا وكأنّه يأتي من أطراف رؤيتي المحيطية، لأنَّ كلَّ ما استطعتُ رؤيته كان لا يزال عينيّ الأمّ. «اسمحي لي أن أشرح لها، يا كريسي. سيكون من الأسهل أن يصدر هذا عنّي. كلارا، نحن لا نطلب منكِ أن تدرّبي جوزي الجديدة، بل نطلب منكِ أن تصبحي هي. كما لاحظتِ فجوزي التي رأيتِها هناك في الأعلى، فارغة. إذا جاء اليوم - آمل ألّا يحدث ذلك، لكن إذا حدث - فنحن نريدكِ أن تتقمّصي جوزي تلك مع كلِّ ما تعلّمتِه».

- «تريد منّي أن أتقمّصها؟».

- «لقد اختارتكِ كريسي بعناية واضعةً ذلك بعين الاعتبار. آمنتْ أنّكِ أكثر شخصٍ مجهّزٍ ليفهم جوزي ويتعلّمها. ولا أقصد

بشكلٍ سطحي فحسب، بل بشكلٍ عميقٍ وشامل. تعلَّمي عنها إلى أن لا يعود هناك فرقٌ بين جوزي الأولى والثانية».

- «إنَّ هنري يخبركِ بهذا الآن، وكأنّه تمَّ التخطيط له بعناية»، قالت الأمّ ولم تعد منقسمةً فجأة، «لكنَّ الأمر لم يكن أبداً كذلك. لم أكن أعرف حتّى إن كان أيٌّ من هذا سيجدي نفعاً. ربّما صدّقتُ ذات يوم أنّه سينجح. لكن حين أرى ذاك البورتريه في الأعلى، لا أعود أعرف شيئاً».

- «لذا فأنتِ ترين ما هو مطلوبٌ منكِ يا كلارا»، قال السيّد كابالدي. «لن يكون مطلوباً منكِ أن تقلّدي ببساطة سلوك جوزي الظاهري. المطلوب منكِ أن تكوني بمثابة استمرارٍ لها بالنسبة لكريسي، ولكلّ من يحبُّ جوزي».

- «لكن هل سيكون ذلك ممكناً؟»، قالت الأم. «هل تستطيع حقّاً أن تكون استمراراً لجوزي بالنسبة لي؟».

- «نعم، تستطيع ذلك»، قال السيّد كابالدي. «الآن وقد أكملت كلارا الاستطلاع هناك، سيكون بوسعي أن أقدّم لكِ دليلاً علمياً على ذلك. دليلٌ يؤكّد أنّها ماضيةٌ على نحوٍ جيّد في طريقها للنفاذ بشكل كامل إلى كلِّ دوافع جوزي ورغباتها. المشكلة يا كريسي أنّكِ مثلي. كلانا عاطفيّ. لا يمكن لنا أن نكون خلاف ذلك. جيلنا لا يزال يحمل تلك المشاعر القديمة. جزءٌ منّا يرفض فكرة التخلّي عنها. ذلك الجزء الذي يريد الاستمرار في تصديق أنَّ ثمّة شيئاً لا يمكن الوصول إليه داخل كلٍّ منّا. شيءٌ فريد وغير قابل للانتقال. لكن لا يوجد شيءٌ كهذا، نحن نعرف ذلك الآن. أنتِ تعرفين ذلك. من الصعب على أشخاصٍ في سنّنا أن يتخلّوا عن هذه الفكرة. لكن علينا أن نتخلّى عنها يا كريسي. ما من شيءٍ هناك. ما من شيءٍ داخل

جوزي يتجاوز قدرة كلارا على جعله يستمرّ. لن تكون جوزي الثانية عبارةً عن نسخة. بل ستكون هي نفسها بالضبط، وسيكون لديك كلُّ الحقِّ أن تحبّينها تماماً كما تحبّين جوزي الآن. ليس الإيمان هو ما أنتِ بحاجةٍ إليه، بل العقلانية فقط. كان عليَّ القيام بذلك، وقد كان الأمر صعباً، لكنّه يجري على ما يرام بالنسبة لي الآن. وسوف يكون كذلك بالنسبة لكِ».

وقفت الأمّ، وبدأت تمشي عبر الغرفة. «قد تكون محقّاً يا هنري، لكنّني متعبةٌ جدّاً لدرجة أنّني لم أعد أقوَ على التفكير. أنا بحاجةٍ للتحدّث مع كلارا، التحدّث معها لوحدها. يؤسفني أنَّ الأمور أصبحتْ فوضويةً هنا»، قالت هذا ثم ذهبتْ إلى حيث كانت قد تركت حقيبتها معلَّقةً على أحد خطاطيف المدخل.

- «أنا سعيدٌ حقّاً لأنَّ كلارا تعرف الآن»، قال السيّد كابالدي. «في الحقيقة، أنا مرتاح». كان يلحق بالأمّ كما لو أنّه يخاف أن يُترك وحده. «كلارا، من الوارد أن تُظهر البيانات نقاطاً حيث ما تزالين بحاجةٍ إلى بذل المزيد من الجهد. لكن أنا سعيدٌ أنّه بات بوسعنا التحدّث بانفتاحٍ أكثر».

- «هيّا بنا يا كلارا. لنذهب».

- «إذاً يا كريسي، أما نزال على ما يرام بشأن كلِّ هذا؟».

- «نحن بخير. لكنّني أحتاج إلى استراحةٍ منه الآن».

لمستْ كتف السيّد كابالدي، ثمَّ غادرنا عبر المدخل الرئيسي الذي سارع بفتحه لنا. لحقَ بنا إلى المصعد، ولوّح لنا بمرحٍ قبل أن تُغلق الأبواب.

أخرجت الأمّ لوحها المستطيل من حقيبتها أثناء نزول المصعد، وأخذت تحدّق فيه. ثمَّ أعادتْه حيث كان حينَ فُتحت أبواب المصعد،

وشرعنا نمشي فوق الأرض الخرسانية المتصدّعة حيث كان الشمس يصنع أنساقه المسائية عبر السياج المعدني. كنتُ أظنُّ أنّ هناكَ احتمال أن يكون الأب وجوزي في انتظارنا، لكن لم يكن هناك أحد، فقط ظلٌّ شجرةٍ يخيّم على سيّارة الأم، وأصوات المدينة المجاورة.

- «كلارا، اركبي في الأمام عزيزتي».

لكن الأمّ، إذ جلسنا جنباً إلى جنب ننظر عبر الزجاج الأمامي إلى لافتة «ممنوع الوقوف»، لم تقم بتشغيل السيّارة. نظرتُ إلى مبنى السيّد كابالدي، كانت أنساق الشمس تغطّيه مع سلالم النجاة الخاصّة به، وفكّرتُ أنّه من الغريب أن يكون المبنى متّسخاً إلى هذه الدرجة من الخارج. كانت الأم الآن تنظر إلى لوحها المستطيل مجدّداً.

- «لقد ذهبا إلى مطعم برغر. تقول جوزي إنّها بخير. وإنّه هو أيضاً بخير».

- «آمل أنّهما يستمتعان».

- «لديَّ ما أقوله لك. لكن دعينا أوّلاً نخرج من هذا المكان».

عندما خرجنا بالسيّارة من الفناء إلى الحيّ، توجّب علينا التوقّف لسيّدة على درّاجةٍ بسلّة عبرت أمامنا. توقّفنا مرّةً أخرى بعد بضع دقائق تحت إشارة مرور طويلة الذراع رغم عدم وجود سيّارات أخرى في مرمى البصر. سرعان ما مررنا بعد تجاوزنا الإشارة بمبنىً بنّيٍّ ضخم يتراجع بعيداً عن الرصيف ولا نوافذ له على الإطلاق، لكن تتوسّطه مدخنةٌ كبيرة، ثمَّ انتقلنا عبر منطقةٍ تقع تحت جسر وتعجُّ بالظلال والبرك. خرجنا من هناك إلى أنساق الشمس قرب مبنىً مع لافتةٍ كُتب عليها «نقوم بالتوظيف الآن»، وسرعان ما كنّا نشقُّ طريقنا بين المشاة، وكان ثمّة أشجارٌ صغيرةٌ على الرصيف. أبطأتِ الأمّ

السرعة في نهاية المطاف، ثمَّ توقّفتْ بجانب لافتة كُتب عليها «نحن نطحن لحم البقر الخاصّ بنا». كان على السيّارات الأخرى أن تعبر من حولنا بصخب، لكن لم تكن هناك لافتةٌ تمنع وقوف السيّارات. كان بوسعنا أن نرى عبر الزجاج الأمامي منطقة أخرى تحت جسرٍ، والسيّارات التي تجاوزتنا كانت تشكّل صفّاً من أجل دخول هذه المنطقة.

- «هذا هو المكان. إنّهما هناك في الداخل. بول لديه وجهة نظر. يجب أن يمضيا بعض الوقت لوحدهما في بعض الأحيان. هما الاثنان فقط. إنّهما يحتاجان إلى ذلك. لا ينبغي بنا أن نكون معهما دائماً. هل تفهمين ذلك يا كلارا؟».

- «بالطبع».

- «هي تفتقد والدها، وهذا شيءٌ طبيعي. لذا دعينا نجلس هنا فحسب لبعض الوقت».

إلى الأمام منّا، تغيّر لون الإشارة وشاهدنا السيّارات تتحرّك في العتمة تحت الجسر.

- «لا بدّ أن يكون كلّ هذا بمثابة الصدمة لكِ»، قالت الأمّ. «من المؤكّد أنَّ لديكِ أسئلة».

- «أظنُّ أنّني أفهم».

- «أوه؟ أنتِ تفهمين؟ تفهمين ما أطلبه منكِ؟ وأنا هي مَن تطلب، ليس كابالدي، وليس بول. الأمر يتعلّقُ بي في النهاية، وإليَّ يؤول. أنا أطلب منكِ أن تجعلي هذا ينجح. لأنّه إذا حدثَ ذلك، إذا حدث مجدّداً، فلن تكون ثمّة وسيلةٌ أخرى لي كي أبقى على قيد الحياة. لقد مررتُ بهذا مع سال، لكن لا أستطيع فعل ذلك مرّةً أخرى. لذا أنا أطلب منك ذلك يا كلارا. ابذلي كلَّ ما في وسعكِ

لأجلي. أخبروني في المتجر أنّكِ مميّزة. ولقد راقبتكِ بما يكفي لأعرف أنَّ هذا ربّما يكون صحيحاً. إذا عقدتِ العزم، فمن يدري؟ لربّما سينجح الأمر. وسأكون قادرةً على أن أحبّكِ».

لم ننظر أحدنا إلى الآخر، بل ظللنا نحدّق خارجاً عبر الزجاج الأمامي. قريباً من نافذتي، خرج رجلٌ بمئزر من مبنى «نحن نطحن لحم البقر الخاص بنا» وأخذ يكنس الرصيف.

- «أنا لا ألوم بول، بل أتفهّم مشاعره. بعد ما حدث لسال، قال إنّه لا ينبغي بنا المخاطرة من جديد، ولا بأس في أن لا يتمَّ تعديل جوزي. الكثير من الأطفال ليسوا معدّلين. لكن لم يكن بمقدوري القبول بهذا مع جوزي. كنتُ أريد الأفضل لها. أردتُ لها أن تعيش حياةً كريمة. هل تفهمين يا كلارا؟ لقد اتخذتُ ذلك القرار، والآن جوزي مريضة بسبب قراري ذاك. هل تدركين بماذا يشعرني ذلك؟».

- «نعم، أنا آسفة».

- «الشعور بالأسف ليس ما أطلبه منكِ. أنا أطلب منكِ أن تبذلي كل ما في وسعك. وفكّري بما سوف يعنيهِ ذلك لكِ. سوف تكونين محبوبةً على نحوٍ لا يشبه أيَّ شيءٍ في هذا العالم. ربّما ذات يوم سأقترن برجلٍ آخر. مَن يدري؟ لكنّني أعدكِ أنّني لن أحبّه كما سأحبّكِ. سوف تكونين جوزي، ولسوف أحبّكِ دائماً أكثر من أيّ شيءٍ آخر. لذا افعليها من أجلي. أنا أطلب منكِ أن تفعليها من أجلي. كوني استمراراً لجوزي من أجلي. قولي شيئاً، بالله عليكِ».

- «لقد كنتُ أتساءل. إذا كنتُ سأصبح استمراراً لجوزي، إذا كنتُ سأتقمّص جوزي الجديدة، فما الذي سيحدث... لكلِّ هذا؟». رفعتُ ذراعيَّ في الهواء، ولأوّلِ مرّة نظرت الأمّ إليّ.

حدّقتْ في وجهي نزولاً إلى ساقيّ. ثمَّ أشاحت بوجهها وقالت:

- «فيمَ يهمُّ هذا؟ ذلك مجرّد قماش. اسمعي، هناك شيءٌ آخر قد تأخذينه في الاعتبار. ربّما لا يعني الكثير لكِ أن أحبّكِ. لكن هاك شيئاً آخر. ذاك الصبي، ريك. يمكنني رؤية أنّه يعني شيئاً لكِ. لا تتكلّمي، دعيني أتكلّم. ما أقوله هو أنَّ ريك يعبد جوزي، لطالما عبدها. إذا كنتِ استمراراً لجوزي، فلن يكون لديكِ أنا فقط، بل هو أيضاً. فيمَ يهمُّ إذا كان غير معدّلٍ؟ سنجد طريقةً للعيش معاً. بعيداً... عن كلِّ شيء. سوف نبقى هناك، نحن فقط، بعيداً عن كلِّ هذا. أنا، وأنتِ، وريك، ووالدته إذا أرادت. يمكن لذلك أن ينجح. لكن عليكِ أن تتمكّني من الأمر. عليكِ أن تتعلّمي جوزي بكليّتها. هل تسمعين حبيبتي؟».

- «حتّى اليوم»، قلتُ لها، «حتّى هذه اللحظة، كنتُ أؤمن أنَّ واجبي هو إنقاذ جوزي، هو جعلها تتحسّن. لكن ربّما تكون هذه طريقةً أفضل».

استدارت الأمّ في مقعدها ببطء، مدّت ذراعيها وبدأت تعانقني. كانت أجزاءٌ من السيّارة تفصل بيننا، ممّا جعل من الصعب عليها معانقتي جيّداً. لكنَّ عينيها كانتا مغمضتَين كحالهما حين كانت تتمايل مع جوزي برفقٍ أثناء عناقٍ طويل، وشعرتُ بحنانها يجرفني.

■

انزعج السائقون الراغبون في دخول منطقة تحت الجسر بسبب اضطرارهم للالتفاف حول سيّارة الأمّ. نظر كثيرون منهم إليَّ بنظراتٍ غير ودّية أثناء مرورهم، رغم رؤيتهم أنّني كنتُ مجرد راكبةً ولست مسؤولةً عن شيء.

لكن قلقي على أيّة حال لم يكن بشأن السيّارات العابرة أو السائقين غير الودودين، بل بشأن ما كان يحدث في تلك اللحظة داخل «نحن نطحن لحم البقر الخاصّ بنا». لو لم يكن عقلي مأخوذاً في تلك اللحظات بكلمات الأمّ وعناقها، لربّما كنتُ تمكّنتُ من إقناعها بعدم الذهاب إلى الداخل. لكن وما إن انتهى العناق - ورغم كلّ ملاحظاتها حول حاجة جوزي والأب لبعض الوقت لوحدهما - حتى اختفت من جانبي فجأة، وأغلقتْ باب السيّارة خلفها.

تذكّرتُ مع مرور الدقائق تلك اللحظات المتوتّرة في مبنى السيّد كابالدي، وتساءلتُ ما إذا كان وصولي شخصياً إلى «نحن نطحن لحم البقر الخاص بنا» - رغم فظاظة تصرّفٍ كهذا - قد يكون مطلوباً من أجل حَرْف الأحداث عن الوصول إلى مشهدٍ من إزعاجٍ مشابه بالنسبة لجوزي. لكن وقبل أن أتمكّن من اتّخاذ قرار، ظهر الأب على الرصيف في الجهة المقابلة لنافذتي. وجّه جهاز المفتاح نحو السيّارة، وحين لم يحدث شيء، قام بفحصه عن كثب ثمَّ ضغط عليه مجدّداً. هذه المرّة صدرت أصوات تحرير أقفال من حولي - لا بدَّ أنَّ الأمّ كانت قد حبستْني في الداخل - ودخلَ السيّارة بسرعة. استقرّ في مقعد السائق، لكنّه بالكاد نظر باتّجاهي، بل أخذ يحدّق في اتّجاه منطقة تحت الجسر. ثمَّ وضع يده على عجلة القيادة وبدأ ينقر عليها بأصابعه.

- «من المذهل أنّها لا تزال تملك هذه العربة»، قال الأب. «لقد ساعدتُها في اختيارها. كانت لفترةٍ من الوقت تتوق للحصول على سيّارةٍ ألمانية، لكنّني أخبرتُها أنّ هذه السيّارة ستكون أكثر موثوقية. حسنٌ، لم أكن مخطئاً في ذلك، لقد صمدتْ أكثر منّي على الأقل».

- «بما أنَّ السيّد بول مهندسٌ خبير، فلا بدَّ أن تكون نصيحته ثمينة حين يتعلّق الأمر باختيار السيّارات».

- «ليس صحيحاً. محرّكات السيّارات لم تكن ضمن مجال عملي أبداً». استمرَّ في لمس عجلة القيادة، لكن بشيءٍ من الحزن الآن.

- «هل جوزي والأمّ على وشكِ الخروج أيضاً؟».

- «ماذا؟ أوه، لا. ليسَتا على وشك الخروج. لا أعتقد أنّهما ستخرجان قريباً»، ثمّ تابع قائلاً: «في الواقع، لقد اقترحت كريسي أن أقود إلى مكانٍ ما. تريدني أن أكون بعيداً فيما هي تتحدّث أكثر مع جوزي». بدا أقلَّ غضباً ممّا كان عليه في مبنى كابالدي؛ في الواقع، بدا الآن أشبه بحالم. «كي أكون صريحاً، لم أكن غير سعيد حين جاءت كريسي. قد تعتقدين أنّني ما كنت لأسعد بمقاطعتها لنا على ذلك النحو. لكنَّ الحقيقة هي أنّني وجوزي لم نكن نخوض حديثاً لطيفاً في تلك اللحظة. في الواقع لقد كنتُ في مأزق. اسمعي»، نظر إليَّ أخيراً، «أنا آسفٌ إذا تصرّفتُ معكِ على نحوٍ سيء. لديَّ شعورٌ بأنّني ربّما لم أكن مهذّباً».

- «أرجوك لا تقلق بهذا الشأن. أفهم الآن جيّداً سبب إحجام السيّد بول عن الترحيب بي بحرارة».

- «أنا لم أكن يوماً بارعاً حين يتعلّق الأمر، حسنٌ... بنوعك، لذا ينبغي أن تعذريني. لا، لم أمانع اقتحام كريسي لخلوتنا، لأنَّ جوزي كانت في خضمِّ طرح بعض الأسئلة الصعبة، ولم تكن لدي أيّة فكرة على الإطلاق عن كيفية الإجابة عليها. جوزي ليست حمقاء». نظر مجدّداً صوب المنطقة تحت الجسر، وواصل النقر على عجلة القيادة. «أردتُ بعد تلك الزيارة أن نحظى بوقتٍ مريح؛ قهوةٌ

وشيءٌ لنأكله. لكنّها سألتْني بعدئذٍ: طالما أنَّ كابالدي يحاول مساعدتنا بحسب ادّعائي، فلمَ أكرهه إلى هذا الحدّ إذاً؟».

- «كيف ردَّ السيّد بول؟».

- «لطالما كنتُ عديمَ النفع في الكذب عليها. لذا أظنُّ أنّني كنتُ أراوغ وأحاول التملّص. وعرفتُ أنّها كانت قادرةً أن ترى من خلالي كما لو كنتُ شفّافاً. عندها جاءت كريسي».

- «هل تشكُّ جوزي في... في هذه الخطة؟ الخطّة في حال اضطرت للرحيل؟».

- «لا أعلم. ربّما تشكُّ فيها. لكنّها لا تجرؤ على النظر إليها مباشرةً. إلّا أنّها ليست بحمقاء. كلُّ تلك الأسئلة الصعبة من قبيل: لماذا أعارض إلى هذا الحدِّ فكرة إنجاز بورتريه خاص بها؟ حسنٌ، فلندع كريسي تتولّى مهمّة الإجابة». وضع فجأةً المفتاح في قابس التشغيل. «لدينا تعليمات أن نتسكّع لبعض الوقت؛ حتّى الساعة الخامسة وخمسٍ وأربعين دقيقة لأكون دقيقاً»، قال وهو ينظر إلى ساعته. «ثمَّ سنلتقي في مطعم السوشي ذاك. كلّنا على ما يبدو؛ جوزي، كريسي، والجاران أيضاً. لذا، ما لم تكوني ترغبين في الجلوس لساعة داخل سيّارةٍ متوقّفة، فأنا أقترح أن نقوم بجولة».

شغّلَ المحرّك، لكن صفَّ السيّارات كان قد أصبح طويلاً جدّاً لدرجة أنّه لم يعد بإمكاننا التحرّك. أحكمت حزام الأمان وانتظرت. ثمَّ تغيّرت أضواء الإشارة إلى الأمام منّا، وبدأت السيّارة تتحرّك ببطء.

■

تحرّكت أنماط الظلّ والضوء حولنا، ثمَّ خرجنا من منطقة تحت

الجسر إلى شارعٍ من المباني الشاهقة البنّية. مررنا بمخلوقٍ ضخم له العديد من الأطراف والعيون، ثمَّ ظهر صدع وسط جزئه السفليّ وأنا لا أزال أراقبه. أدركتُ بينما كان يقسِّمُ نفسه أنّه كان طوال الوقت عبارةً عن شخصين منفصلين - عدّاءٌ وامرأة كانا يتحرّكان في اتّجاهين متعاكسين وتصادف للحظةٍ سريعة أن مرَّ أحدهما بالآخر. ثمَّ ظهر متجرٌ عليه لافتةٌ كُتب عليها «كُل في الداخل أو خذه معك»، وأمامه على الرصيف كان ثمّة قبّعة بيسبول ضائعةٌ.

- «هل من مكانٍ خاصّ كنتِ تودّين الذهاب إليه؟»، سأل الأب. «ذكرتْ جوزي شيئاً عن متجركِ القديم. قالت إنّنا مررنا به في وقتٍ سابق اليوم».

أدركتُ حالما سمعتُه يقول هذا الفرصة التي يمثّلها كلامه، وهتفتُ بصوتٍ أعلى من اللازم ربّما: «أوه، نعم!»، ثمَّ سيطرتُ على نفسي وقلتُ بهدوء: «إذا كنتَ لا تمانع، سأحبُّ ذلك كثيراً».

- «كانت تقول إنّه لم يعد موجوداً هناك، وإنّه ربّما انتقل إلى مكانٍ آخر».

- «لستُ واثقةً من هذا. ومع ذلك، إذا كان بوسع السيّد بول أن يصطحبنا إلى المنطقة، فسوف يسعدني ذلك كثيراً».

- «لا بأس. إنَّ لدينا وقتاً لنضيّعه على أية حال».

انعطف نحو اليمين عند التقاطع التالي، ثمَّ قال: «أتساءل كيف تبلي كريسي. ما الذي تتحدّثان عنه الآن. ربّما نجحت في تغير الموضوع».

كانت حركة المرور أكثر اكتظاظاً الآن، فمضينا ببطء خلف المركبات الأخرى. كان يمكن رؤية الشمس في بعض الأحيان، لكنّه كان قد انخفض بالفعل، وغالباً ما حجبت المباني الشاهقة رؤيته.

اكتظّت الأرصفة بعمّال المكاتب في نهاية يوم عملهم، ومررنا برجلٍ فوق سلّم، كان يفعل شيئاً ما بلافتةٍ حمراء برّاقة كُتِب عليها «دجاجٌ على المشواة». اجتزنا ممرّات المشاة ولافتات منطقة عدم الوقوف، وشعرتُ أنّنا اقتربنا من المتجر.

- «هل يمكنني أن أسألكِ شيئاً»، قال الأب.

- «نعم، بالطبع».

- «أعتقد أنَّ جوزي ما تزال إلى حدٍّ كبير غير مدركةٍ لما يجري. لكنّني لا أعرف بشأنكِ. ما حجم تخميناتكِ السابقة؟ ما مقدار ما اكتشفتِه اليوم؟ ربّما لا تمانعين إخباري بما تعرفينه».

- «كنتُ أشكُّ في بعض الأشياء قبل زيارة السيّد كابالدي، لكنّني كنتُ أجهل الكثير من الأشياء الأخرى. الآن، وبعد هذه الزيارة، يمكنني أن أفهم تماماً سبب عدم ارتياح السيد بول. ويمكنني أن أفهم أيضاً سبب بروده تجاهي في البداية».

- «أعتذر عن ذلك مجدّداً. إذاً، لقد شرحا لكِ كلَّ شيءٍ».

- «نعم. أعتقد أنّهما أخبَراني بكلِّ شيء».

- «وما رأيكِ؟ هل تظنّين أنّكِ قادرةٌ على تحقيق ذلك؟ على لعب هذا الدور؟».

- «لن يكون الأمر سهلاً. لكن أعتقد أنّني إذا تابعتُ مراقبة جوزي بدقّة، فسيكون ذلك في حدود قدراتي».

- «دعيني إذاً أسألكِ شيئاً آخر. اسمحي لي بهذا السؤال. هل تؤمنين بالقلب البشري؟ أنا لا أتحدّث ببساطة عن القلب كعضوٍ حيوي بطبيعة الحال. أنا أتحدّث بالمعنى الشعري. القلب البشري. هل تؤمنين بشيءٍ كهذا؟ شيءٌ يجعل كلَّ واحدٍ منّا مميّزاً وفريداً؟ وإذا افترضنا جدلاً أنّه موجود، ألا تعتقدين إذاً أنّه كي تتعلّمي جوزي

بحقّ، فليس عليكِ أن تتعلّمي سلوكيّاتها فحسب، بل ما يقبع عميقاً بداخلها؟ أليس عليكِ أن تتعلّمي قلبها؟».

- «نعم، بالتأكيد».

- «وقد يكون ذلك شيئاً صعباً، أليس كذلك؟ شيءٌ يفوق قدراتكِ الرائعة. لأنَّ انتحال الشخصيّة لن يجدي نفعاً مهما كان متقَناً. ينبغي بكِ أن تتعلّمي قلبها، وأن تتعلّميه بالكامل، وإلّا لن تصبحي جوزي بأيِّ صورةٍ ذات قيمة».

توقّفتْ حافلةٌ عامّة قرب بعض صناديق الفاكهة المهمَلة. وبينما كان الأب يحاول أن يلتفَّ ويتجاوزها، أطلقت السيّارة خلفنا بوقاً غاضباً. ثم كان هناك المزيد من الأبواق الغاضبة، لكنّها أبعد ولم تكن موجّهةً إلينا.

- «قد يكون القلب الذي تحدّثتَ عنه هو بالفعل أصعب جزءٍ في جوزي ينبغي بي تعلّمه»، قلتُ له. «ربّما هو أشبه بمنزلٍ يحوي غرفاً عديدة. مع ذلك، فإنَّ ص. ا. متفانية يمكنها، إذا امتلكت الوقت، أن تدخل كلَّ غرفةٍ منها وتدرسها بعناية كبيرة، حتّى تصبح جميع الغرف مثل منزلها الخاصّ».

أطلق الأب بوق سيّارتنا على سيّارةٍ تحاول أن تدخل خطّ المرور من شارعٍ جانبيّ.

- «لكن لنفترض أنّكِ دخلتِ إحدى تلك الغرف واكتشفتِ أنَّ هناك غرفةً أخرى بداخلها. وداخل تلك الأخيرة، هناك غرفةٌ أخرى. غرفٌ داخل غرفٍ داخل غرف. أليس هذا ما قد يكون عليه الحال وأنتِ تحاولين أن تتعلّمي قلب جوزي؟ ألن يكون هناك دائماً غرفٌ لم تدخليها بعد، بغضِّ النظر كم قضيتِ من الوقت تتجوّلين في الغرف؟».

فكّرتُ في هذا للحظةٍ، ثمَّ قلت: «بالطبع. من المرجّح جدّاً أن يكون القلب البشري شيئاً معقّداً. لكن لا بدَّ أنّه محدودٌ أيضاً. سوف تكون هناك نهايةٌ لما يمكن تعلّمه، حتّى وإن كان السيّد بول يتحدّث بالمعنى الشعري. ربّما يشبه قلب جوزي منزلاً غريباً يحوي غرفاً داخل غرف. لكن إذا كانت هذه هي أفضل طريقة لإنقاذ جوزي، فسوف أبذل قصارى جهدي. وأعتقد أنَّ هناك احتمالية كبيرة أنّني سأكون قادرةً على النجاح».

- «هممم».

تابعنا طريقنا في اللحظات التالية دون أن نقول شيئاً. ثمَّ لدى مرورنا بمبنىً كُتب عليه «صالون أظافر» تلاه مباشرة صفٌّ من الملصقات الجدارية المتقشّرة، قال الأب: «بحسب جوزي، فإنَّ متجركِ القديم في هذه المنطقة».

ربّما كان ذلك صحيحاً، لكنَّ المناطق المحيطة لم تكن مألوفةً بالنسبة لي بعد. قلتُ له: «لقد تحدّث السيّد بول بصراحةٍ كبيرة. ربّما سيسمح لي الآن بدوره أن أتحدّث إليه بصراحة».

- «خذي راحتكِ».

- «إنَّ متجري القديم ليس السبب الحقيقي الذي جعلني أطلب منكَ أن تقود إلى هذه المنطقة».

- «لا؟».

- «حين عبرنا من هنا في وقتٍ سابق اليوم، وفي مكانٍ ما غير بعيد عن المتجر، مررنا بآلة يتمُّ تشغيلها واستخدامها من قِبل رجال الصيانة، وكانت تتسبّب في تلوّثٍ رهيب».

- «حسنٌ، تابعي».

- «ليس من السهل شرح ذلك. لكن من المهمّ جدّاً الآن أن

يصدّق السيّد بول ما أنا على وشك قوله. يجب تدمير هذه الآلة. هذا هو السبب الحقيقي لطلبي المجيء إلى هنا. لا بدَّ أنّها في مكانٍ قريب، من السهل التعرّف عليها إذ تحمل اسم كوتينغز على بدنها، لها ثلاثة مداخن تطلق كلٌّ منها تلوّثاً رهيباً».

- «وأنتِ تريدين العثور على هذه الآلة الآن؟».

- «نعم، أريد العثور عليها وتدميرها».

- «لأنّها تسبّب التلوّث».

- «إنّها آلة رهيبة». كنت منحنيةً إلى الأمام، أتطلّع يميناً ويساراً.

- «وكيف تنوين تدميرها بالضبط؟».

- «لستُ واثقةً من ذلك. هذا ما جعلني أرغب في أن أكون صريحةً مع السيّد بول. أنا أطلب مساعدته. السيّد بول مهندسٌ خبير، كما أنّه شخصٌ بالغ».

- «أنتِ تسألينني عن كيفية تخريب آلة؟».

- «لكن علينا العثور عليها أوّلاً. هل يمكننا مثلاً أن نغادر هذا الشارع من فضلك؟».

- «لا يمكنني الانعطاف هناك. إنّه شارعٌ باتّجاهٍ واحد. أنا لا أحبُّ التلوّث أكثر منكِ. لكن، أليس هذا أخذ الأمور بعيداً بعض الشيء؟».

- «لا يمكنني أن أشرح أكثر. لكن ينبغي بالسيّد بول أن يثق بي. هذا الأمر مهمٌّ جداً لمصلحة جوزي. لصحّتِها».

- «كيف لهذا أن يساعد جوزي؟».

- «أنا آسفة. لا يمكنني الشرح. على السيّد بول أن يثق بي. أعتقد أنّه إذا استطعنا فقط العثور على آلة كوتينغز وتدميرها، فإنَّ هذا

سيؤدي إلى تعافي جوزي على نحوٍ كامل. ولن يكون هناك من أهمّية عندئذٍ للسيّد كابالدي أو للبورتريه أو لأيِّ درجةٍ يمكنني تعلّم جوزي بشكلٍ جيّد».

فكّر الأب في هذا مليّاً، ثمَّ قال أخيراً: «حسنٌ. فلنعطِي هذا فرصة على الأقل. أين قلتِ إنّكِ رأيتِ هذا الشيء آخر مرّة؟».

واصلنا التحرّك، ورصدتُ مبنى RPO - ومبنى سلالم النجاة من الحريق بجانبه- يقتربان بسرعة نحونا. كان الشمس يهبط خلفهما بالطريقة المألوفة، ثمَّ مررنا بالمتجر. رأيتُ مجدّداً الزجاجات الملوّنة المعروضة، ولافتة «إضاءة مريحة»، لكنّني بالكاد أوليتُ ذلك أيَّ اهتمام، إذ كنتُ شديدة القلق من أنّني سوف أفقد أثر آلة كوتينغز. قال الأب لدى عبورنا فوق ممرّ المشاة: «أتساءل إن كان هذا الشارع لسيّارات الأجرة فقط. انظري إليها، إنّها في كلِّ مكان».

- «ربّما هذا المنعطف. من فضلك، إذا كان ذلك ممكناً».

لم تكن آلة كوتينغز في المكان الذي رأيتُها فيه في وقتٍ سابق من ذلك اليوم، فرحتُ أحدّق في كلِّ اتّجاه بينما أخذت الشوارع تغدو غير مألوفة من جديد. كان الشمس يشعُّ من حينٍ لآخر من خلال الفجوات بين المباني، وتساءلتُ ما إذا كان يرغب في إظهار تشجيعه، أو أنّه كان ببساطة يشاهد ويراقب تقدّمي. الأرجح أنَّ ذعري المتعاظم بات واضحاً جدّاً حين انعطفنا إلى شارع آخر ولم يكن هناك مجدّداً أيّة علامة على آلة كوتينغز، الأمر الذي جعل الأب يقول لي بنبرةٍ ألطف من أيِّ نبرةٍ كان قد استخدمها معي حتّى الآن:

- «أنتِ تؤمنين بهذا حقّاً، أليس كذلك؟ تؤمنين أنّه سيساعد جوزي».

- «نعم. نعم، أنا أؤمن بذلك بالفعل».

بدا أنَّ شيئاً ما قد تغيّر فيه. مدَّ نفسه إلى الأمام - ومن ثمَّ أخذ ينظر يميناً ويساراً مثلي بعينين ملحّتَين.

- «الأمل»، قال الأب. «هذا الشيء اللعين لا يتركُكِ وشأنكِ أبداً». هزَّ رأسه بشيء من الاستياء، لكن كان ثمّة طاقةٌ جديدة تحيط به. «حسنٌ. تقولين إنّها مركبة، من النوع الذي يستخدمه عمّال البناء».

- «لها عجلات، لكنّني لا أظنُّ أنّها مركبةٌ بالضبط. يجب أن يتمَّ قطرها إلى كلّ مكانٍ تذهب إليه. كُتب على بدنها كلمة كوتينغز ولونها أصفرُ باهت».

نظر إلى ساعته. «ربّما أنهى العمّال مناوبتهم اليوم. دعيني أجرّب بضعة أشياء».

بدأ الأب يقود بمهارة أكبر. تركْنا المركبات الأخرى وواجهات المحلّات وراءنا، ودخلنا الشوارع الأصغر المظلّلة بأبنية لا نوافذ لها، وجدران تشعُّ بكتابات الغرافيتي. كان الأب يتوقّف أحياناً ويرجع بالسيارة إلى الوراء، ثمَّ ينعطف ببطء في مساحاتٍ ضيّقة قرب أسيجة معدنية، حيث أمكننا على الجانب الآخر منها رؤية شاحناتٍ مركونة وسيّاراتٍ قذرة.

- «هل ترَين شيئاً؟».

كلّما هززتُ رأسي، كان الأب يدفع بالسيّارة مجدّداً إلى الأمام على نحوٍ جعلني أقلق من أنّنا قد نصطدم بصنبور إطفاء أو بزاوية أحد المباني فيما ننعطف حوله بشكلٍ حادّ. ألقينا نظرة على المزيد من الباحات، ودخلنا مرّةً بين بوّابتين مفتوحتَين رغم وجود لافتة تقول «ممنوع الدخول بشكلٍ قطعيّ»، وجُلنا حول ساحةٍ مكتظّة بسيّارات،

وصناديق مكدّسة، ورافعة بناء في طرفها البعيد. لكن لم يكن ثمّة آلة كوتينغز حتّى الآن، ثمَّ أخذَنا الأب إلى حيٍّ معتم بأرصفةٍ متكسّرة ومارّةٍ وحيدين. ثمَّ اتّجه إلى ممرٍّ ضيّق قرب مبنى تضيء فوقه عبارة «شققٌ للإيجار»، وخلف هذا المبنى كان ثمّة باحةٌ أخرى مسيّجة بشبكةٍ معدنية.

- «هناك! سيّد بول، ها هي هناك!».

أوقف الأب السيّارة فجأة. كانت الباحة على جهتي، لذا وضعتُ رأسي على النافذة مباشرة، وكان الأب يحاول تعديل وضعية جلوسه كي يرى بشكلٍ أفضل.

- «تلك التي هناك؟ ذات المداخن؟».

- «نعم. لقد وجدناها».

لم أُشح بنظري عن آلة كوتينغز بينما كان الأب يرجع بالسيّارة ببطء. ثمَّ توقّفنا مجدّداً.

- «ذلك المدخل الرئيسي مغلقٌ بسلسلة، لكنَّ المدخل الجانبيّ هناك...»، قال الأب.

- «نعم، المدخل الصغير مفتوح. يمكن الدخول من هناك سيراً على الأقدام».

حرّرتُ حزام الأمان وكنتُ على وشك الخروج، لكنّني شعرتُ عندئذٍ بيد الأب فوق ذراعي.

- «لن أذهب إلى هناك حتّى تقرّري بالضبط ما تنوين القيام به. إنّ كلَّ شيءٍ في هذا المكان يبدو متداعياً وآيلاً للسقوط، لكن لا يمكننا أن نتكهّن أبداً؛ قد تكون هناك أجهزة إنذار، قد تكون هناك مراقبة. ربّما لن تجدي وقتاً للوقوف هناك والتفكير».

- «نعم، أنتَ على حقّ».

- «هل أنتِ واثقة أنَّ هذه هي الآلة الصحيحة؟».

- «واثقةٌ تماماً. يمكنني رؤيتها بوضوحٍ من هنا، وليس لديَّ أدنى شكٍّ حيالها».

- «وقلتِ إن تعطيلها سوف يساعد جوزي؟».

- «نعم».

- «كيف تقترحين إذاً أن نباشر القيام بذلك؟».

حدَّقتُ في آلة كوتينغز الجاثمة في وسط الباحة بعيدةً عن المركبات المركونة الأخرى. كان الشمس يهبط بين مبنيين على مسافة تطلُّ على الباحة. لم تكن أشعّته في هذه اللحظة محجوبةً من أيٍّ من المبنيين، وكانت حوافُّ المركبات المركونة تلمع.

- «أشعر أنّني حمقاء جدّاً»، قلتُ أخيراً.

- «لا، فالأمر ليس بهذه السهولة»، قال الأب. «علاوةً على ذلك، فإنَّ ما تقترحينه يعدُّ جناية».

- «نعم. ومع ذلك، إذا حدث أن رأى أحدٌ في تلك النوافذ العالية أيّ شيء، فأنا واثقةٌ أنّه سيكون سعيداً لرؤية آلة كوتينغز وهي تُدمَّر. لا بد أنّه يعرف تماماً كم هي آلةٌ فظيعة».

- «قد يكون الأمر كذلك. ولكن كيف تقترحين القيام بذلك؟».

كان الأب مستنداً إلى مقعده، وذراعه مسترخيةٌ فوق عجلة القيادة، وراودني شعورٌ بأنّه توصّل بالفعل إلى حلٍّ محتمل، لكنّه كان يحجم لسببٍ ما عن الكشف عنه.

- «السيّد بول مهندسٌ خبير»، قلتُ وأنا أستدير لأواجهه مباشرةً. «كنتُ آمل أن يتمكّن من التفكير بشيء ما».

لكنَّ الأب ظلَّ يحدّق نحو الباحة عبر الزجاج الأمامي. «لقد

عجزتُ عن شرح الأمر لجوزي في المقهى. لم أستطع أن أفسّر لها لماذا أكره كابالدي إلى هذا الحدّ. لماذا لا أستطيع أن أكون شخصاً متحضّراً معه. لكنّني أودُّ أن أحاول شرح ذلك لكِ أنتِ يا كلارا إن كنتِ لا تمانعين».

كان تغييره للموضوع غير مرحّبٍ به على الإطلاق، لكن وحرصاً منّي على عدم فقدان لطفه ورحابة صدره تجاهي، قرّرتُ الانتظار وعدم قول أيّ شيء.

- «أعتقد أنّني أكره كابالدي لأنّني عميقاً في داخلي أظنُّ أنّه ربّما يكون محقّاً. وأنَّ ما يدّعيه صحيحٌ بالفعل. وأنَّ العلم أثبتَ الآن بما لا يدع مجالاً للشكِّ أنّه ما من شيءٍ فريدٍ ومميّز في ابنتي، وما من شيءٍ لا تستطيع أدواتنا الحديثة التنقيب عنه ونسخه ونقله. وأنَّ البشر عاشوا معاً قروناً طويلة، محبّين وكارهين بعضهم لبعض، كلُّ ذلك بناءً على فرضيةٍ خاطئة. نوعٌ من الخرافات التي ظللنا متمسّكين بها حين كانت معرفتنا محدودة. هكذا يرى كابالدي الأمر، وهناك جزءٌ منّي يخشى أنّه على حقّ. كريسي في المقابل ليست مثلي. ربّما هي لا تعرف ذلك بعد، لكنّها لن تسمح لنفسها أبداً أن تسلّم بالحقيقة. إذا جاءت اللحظة، بغض النظر كم ستؤدّين دورك جيّداً، بغضّ النظر كم ترغب أن ينجح ذلك، فإنَّ كريسي لن تكون قادرةً على تقبّله. إنّها... قديمة الطراز جدّاً. حتّى لو كانت تعرف أنّها تقف في وجه العلم والرياضيات، فهي لن تكون قادرةً على القيام بذلك. هي لن تصل إلى ذلك الحدّ فحسب. لكن أنا مختلف. لديَّ بداخلي... نوعٌ من البرود الذي تفتقر هي إليه. ربّما لأنّني مهندس خبير بحسب تعبيرك. لهذا السبب أجد صعوبةً كبيرة في أن أتصرف بتحضّرٍ مع أشخاصٍ مثل كابالدي. إذ يفعلون ما يفعلونه،

ويقولون ما يقولونه، يبدو الأمر وكأنّهم ينتزعون منّي أكثر ما أتمسّك به وأثمّنه في هذه الحياة. هل يبدو كلامي منطقياً؟».

- «نعم. أتفهّم مشاعر السيّد بول». تركتُ لبضع ثوانٍ هادئة أن تمرّ، ثمَّ تابعت: «يبدو من كلّ ما يقوله السيّد بول أنّه من المهمّ جدّاً ألّا يتمَّ اختبار ما يقترحه السيّد كابالدي أبداً. إذا استطعنا جعل جوزي بصحّة جيّدة، فإنَّ البورتريه، وتعلّمي لجوزي، لن يكون لأيٍّ منهما أهمّية عندئذٍ. لذا أسألك مجدّداً النصيحة حول كيفية تدمير آلة كوتينغز. لديَّ إحساسٌ بأنَّ السيّد بول يعرف كيفية القيام بذلك».

- «نعم، خطرت ببالي إمكانيةٌ لذلك. لكنّني كنتُ آمل أن تأتي فكرةٌ أفضل. مع الأسف، يبدو أنَّ هذا لن يحدث».

- «أخبرني بها أرجوك. قد يتغيّر شيءٌ في أيّة لحظة، وسوف نفوّت هذه الفرصة».

- «حسنٌ. إليكِ ما في الأمر. سيكون بداخل هذه الآلة وحدةُ لوح توليد من طراز سيلفستر؛ إنّه نوعٌ متوسّط الجودة، موفّرٌ للوقود بدرجة جيّدة، لكن دون حمايةٍ حقيقية. هذا يعني أنَّ الآلة يمكنها تحمّل أي كمّية من الغبار والدخان والمطر. ولكن إذا دخل نظامَها أيُّ شيءٍ يحوي تركيزاً عالياً من مادّة الأكريلاميد، محلول الـ P-E-G Nine على سبيل المثال، لن يكون النظام قادراً على التعامل معه. سيكون الأمر أشبه بوضع البنزين في محرّك ديزل، باستثناء أنَّ هذا أسوأ بكثير. إذا أدخلتِ الـ P-E-G Nine هناك، فسوف يمتزج ليشكّل مادة البوليمير. الأرجح أن ضرراً كهذا سيكون نهائياً».

- «محلول الـ P-E-G Nine».

- «نعم».

- «هل يعرف السيّد بول كيف يمكننا الآن الحصول على محلول الـ P-E-G Nine خلال وقتٍ قصير كهذا».

- «في الواقع، أنا أعرف»، واصل النظر إليَّ لثانية، ثمَّ قال: «أنتِ تحملين كمّيةً محدّدة من الـ P-E-G Nine. إنّها هناك، داخل رأسك».

- «فهمت».

- «أعتقد أنّه يوجد في العادة تجويفٌ صغير هناك بالضبط، في مؤخّرة الرأس، عند نقطة التقائه بالرقبة. هذا ليس مجال خبرتي. سيكون كابالدي أكثر درايةً منّي بذلك. لكنَّ تخميني أنّكِ تستطيعين تحمّل خسارة كمّية صغيرة من الـ P-E-G Nine دون أن يؤثّر ذلك على صحّتكِ».

- «إذا. . . إذا كان بمقدورنا استخراج هذا المحلول منّي، هل سيكون هناك ما يكفي منه لتدمير آلة كوتينغز؟».

- «حسنٌ. هذا حقّاً ليس مجالي. لكنَّ تخميني أنّكِ ربّما تحملين ما يقرب من خمسمئة مليلتر. قد تكون نصف تلك الكمّية كافية لتعطيل آلةٍ متوسّطة النوعية كتلك. لكن رغم قولي ذلك، لا بدَّ من التأكيد أنّني لا أنصح بأن نسلك هذا الطريق. إنَّ أيَّ شيءٍ يمكن أن يعرِّض قدراتكِ للخطر من شأنّه أن يعرِّض خطّة كابالدي للخطر أيضاً. وكريسي لن ترغب في ذلك».

كان يملأ ذهني الآن خوفٌ عظيم، لكنّني قلت: «لكنَّ السيّد بول يعتقد أنّه إذا استطعنا استخلاص المحلول، فسوف نتمكّن من تدمير آلة كوتينغز».

- «هذا ما أعتقده. نعم».

- «هل يمكن أن يكون السيّد بول قد اقترح هذا المسار ليس

فقط من أجل تدمير آلة كوتينغز، ولكن من أجل تدمير كلارا أيضاً؟ وبالتالي تدمير خطّة السيّد كابالدي؟».

- «لقد خطرت ببالي هذه الفكرة بالذات. لكن يا كلارا، لو أنّني أردتُ حقّاً إلحاق الضرر بكِ، فأعتقد أنَّ هناك طرقاً أبسط بكثير. الحقيقة ببساطة هي أنّكِ أحييتِ بي الأمل من جديد. الأمل بأن يكون ما تقولينه حقيقياً».

- «كيف نستخرج المحلول؟».

- «مجرّد شقٍّ صغير تحت الأذن. أيُّ واحدةٍ من الأذنين ستجدي نفعاً. سيتطلّب الأمر أداة بحافّة أو رأس مدبّب. نحتاج فقط إلى اختراق الطبقة الخارجية. علاوةً على ذلك، يجب أن يكون هناك صمّامٌ صغير يمكنني فكّه ومن ثمَّ شدّه مجدّداً باستخدام أصابعي» كان أثناء قوله ذلك يبحث داخل صندوق سيّارة الأم الأمامي، وأخرج منه زجاجة مياه بلاستيكية. «حسنٌ، هذه ستفي بالغرض من أجل سكب المحلول بداخلها. وهذا مفكّ براغٍ صغير، إنّه ليس مثالياً، لكن إذا شحذتُ نهايته أكثر قليلاً...». خفت صوته ولم يكمل كلامه بينما رفع الأداة نحو الضوء. «بعد ذلك، المسألة لا تتعدّى سوى السير إلى هناك وسكب المحلول في إحدى تلك الفوهات. يجب أن نستخدم الفوهة المركزية. من المرجّح أنّها تتّصل بوحدة سيلفستر مباشرة».

- «هل سأفقد قدراتي؟».

- «كما قلت، لا ينبغي أن يتأثر أداؤكِ العام على نحوٍ كبير. لكنَّ هذا ليس مجال خبرتي. قد تكون هناك بعض التأثيرات على قدراتكِ المعرفية. لكن، ونظراً لأنَّ مصدر طاقتكِ الأساسيّ هو الطاقة الشمسية، فمن غير المرجّح أن تتأثّري بدرجةٍ ذات أهمّية».

أنزل النافذة إلى جانبه، أمسك الزجاجة وأفرغ الماء منها على الأرض في الخارج.

- «إنّه قراركِ يا كلارا. يمكننا أن نقود مبتعدين عن هنا فحسب إذا أردتِ. ما يزال لدينا - دعيني أرى - عشرون دقيقة أخرى قبل موعدنا مع باقي جماعتنا».

حدّقتُ في الباحة مجدّداً من خلال السياج المعدني، وأنا أحاول السيطرة على خوفي. ظلّتْ رؤيتي للباحة من السيّارة غير مقسَّمة، والشمس كان لا يزال يراقب من بين المبنيين.

- «أتعرفين يا كلارا؟ أنا لا أعلم حتّى ما الذي يدور حوله هذا الأمر. لكنّني أريد الأفضل لجوزي. مثلكِ بالضبط. لذا أنا جاهزٌ لاقتناص أيّة فرصة تظهر أمامنا».

التفتُّ إليه مبتسمةً وأومأت. «نعم. دعنا نجرّب إذاً».

■

جلستُ قرب نافذة مطعم السوشي، أنظر إلى الظلال التي تتطاول شيئاً فشيئاً خارج المسرح. كان الحماس قد أخذ يعتريني حيال احتمال أنَّ الشمس قد يبدأ على الفور، عبر هذه النافذة بسكب غذائه المميّز لجوزي الجالسة الآن إلى الطاولة قبالتي. لكنّني أدركتُ كم يُفترض بالشمس أن يكون متعَباً - وأنَّ اليوم انتهى تقريباً بالنسبة له - وأنّه من غير المحترم، وغير المعقول توقّع مثل هذه الاستجابة الفورية منه. ظلَّ أملٌ صغير يداعب عقلي، فأخذتُ أراقب جوزي عن كثب، لكنّني سرعان ما تقبّلتُ حقيقة أنّني سأضطّر للانتظار حتّى صباح اليوم التالي على أقرب تقدير.

أدركتُ أيضاً أنَّ السبب في عدم قدرتي على الرؤية بوضوح عبر

نافذة مطعم السوشي هو أنّها كانت مغبرَّةً وملطّخة، وليس للأمر علاقة كبيرة بما كان قد حدث في الباحة. في الواقع، كنتُ لا أزال قادرةً على قراءة لافتة القماش المعلَّقة أعلى المسرح رغم أنّها كانت تتلاطم على نحوٍ مستمر بفعل الرياح؛ كُتب عليها «بهيجٌ ورائع!». ولم أجد صعوبةً في تمييز ملامح الأشخاص الذين يصلون لينضمّوا إلى أولئك الذين كانوا يتجوّلون خارج المسرح. في كلِّ مرّة يصل فيها المزيد من الناس، كانت هناك تحيّات وهتافات فكاهية. لم أتمكّن من سماع كلماتهم بوضوح، لكن كان ثمّة زجاجٌ سميك يفصل بيننا، لذا فإنَّ هذا الجانب أيضاً كان متوافقاً مع الظروف السائدة.

لم تؤخّرنا مهمّتنا في الباحة بشكلٍ كبير، لكن وبحلول الوقت الذي حدّدنا فيه الأب وأنا موقع مطعم السوشي الصحيح، كانت جوزي وريك والأمّ والآنسة هيلين جالسين إلى الطاولة قرب النافذة منذ بضع دقائق. حيّا الأب الجميع بمرح، كما لو أنّه لم يحدث أيُّ توتّر في منزل السيّد كابالدي، لكن بعدها بلحظات نهضت الأمّ لتنضمَّ إلى الحشد في الخارج، وهي تضع لوحها المستطيل على أذنها.

كان الأب الآن على الجهة الأخرى من الطاولة يقلّب الصفحات من دفتر ملاحظات ريك، ويصدر أصواتاً تنمُّ عن التقدير والإعجاب. لكنّني كنتُ أشعر بالقلق من حالة الهدوء غير المعهود التي كانت تخيّم على جوزي، وسرعان ما لاحظ الأب هذا أيضاً.

- «أنتِ بخير يا حيواني البرّي؟».

- «أنا بخير، يا أبي».

- «لقد كنّا في الخارج لوقتٍ طويل. هل تريدين العودة إلى الشقّة؟».

- «أنا لستُ متعبة. لستُ مريضة. أنا بخير يا أبي. دعني أجلس هنا فحسب».

كان ريك الجالس قرب جوزي ينظر إليها بقلقٍ أيضاً. «هيه، جوزي. هل ترغبين في إنهاء هذه لأجلي؟»، قال بهدوء بالقرب من أذنها بينما كان يمرّر لها ما تبقّى من كعكة الجزر. «لربّما تمنحكِ بعض الطاقة».

- «لستُ بحاجةٍ إلى الطاقة يا ريكي. أنا بخير، أريد أن أجلس هنا فحسب، هذا كلُّ شيء».

نظر الأب إلى جوزي بتمعّن، ثم عاد إلى دفتر ريك.

- «هذا مثيرٌ للاهتمام حقّاً، يا ريك».

- «ريكي، عزيزي»، قالت الآنسة هيلين. «خطر لي هذا للتوّ. لقد كانت فكرةً ممتازة أن تجلب معك مخطّطاتك ورسومك البيانية. لكن ربّما يكون من الأفضل ألّا تعرضها على فانس ما لم يطلب منكَ ذلك بالتحديد».

- «أعتقد أنّنا ناقشنا هذا يا أمي».

- «الأمر فقط أنَّ ذلك قد يبدو غير ملائم، وينمُّ عن توقٍ شديد. يُفتَرض بهذا أن يكون مجرّد جلسةٍ اجتماعية؛ لقاءٌ عفويّ فحسب».

- «أمّي، كيف يمكن لهذا أن يكون عفويّاً إذا كان قد تمَّ الإعداد له بعناية، كما أنّنا أتينا خصّيصاً لأجله».

- «حبيبي، أعني فقط أن تحاول التصرّف كما لو كان الأمر

عفويّاً. هذا سيجدي نفعاً أكثر مع فانس. فقط إذا طلب على وجه التحديد أن يرى شيئاً من عملك...».

- «فهمتُ، يا أمّي. كلُّ شيءٍ تحت السيطرة».

بدا ريك متوتّراً، وتمنّيتُ أن أفعل شيئاً يمنحه الطمأنينة، لكنّني كنتُ على الجانب الآخر من الطاولة ولم أكن قادرةً على لمسِ ذراعه أو كتفه. كان الأب ينظر إلى جوزي من جديد، لكن لم يبدُ لي أنّها لم تكن على ما يرام بقدر ما كانت تائهة في أفكارها الخاصّة.

- «لم تكن الطائرات المسيّرة ضمن مجالي أبداً»، قال الأب بعد بعض الوقت. «لكنَّ هذا مثيرٌ للإعجاب حقّاً يا ريك». ثم وجّه كلامه إلى الآنسة هيلين: «معدّلٌ أم غير معدّلٍ؛ يجب أن يتمّ الاعتراف بالموهبة الحقيقية، ما لم يكن العالم قد أصبح مجنوناً بالكامل الآن».

- «لطالما كنتَ تشجّعني، يا سيّد آرثر، منذ أن بدأتُ أخوض في كلِّ هذا. إنَّ الكثير ممّا كنتَ تعرضه عليَّ آنذاك يشكّل أساس ما تراه الآن»، قال ريك.

- «هذا لطفٌ منكَ يا ريك، لكنّني واثقٌ أنّه غير منطقيٍّ البتّة. إنَّ تكنولوجيا الطائرات المسيّرة لم تكن يوماً ضمن مجال خبرتي، وأشكُّ أنّني قدّمتُ لكَ يوماً الكثير من المساعدة. لكنّني أقدّر لك قولك ذلك».

كان يمكنني الآن عبر النافذة رؤية آخر أنساق الشمس لهذا اليوم تهبط على النساء بالبزّات السوداء وربطات العنق، وموظّفي المسرح الذين يوزّعون المنشورات، والأزواج بثيابهم المتألقة، والموسيقيين مع جيتارات صغيرة يتنقّلون وسط الحشد، وشذراتٌ من موسيقاهم تصل إليَّ عبر الزجاج.

- «هيه، يا حيواني البرّي. هل قالت والدتكِ شيئاً أزعجكِ؟ ليس من طبيعتكِ الجلوس هادئة هكذا».

- «أنا بخير، يا أبي. الأمر فقط أنّني لستُ مثل عرض ترفيهي. لا أستطيع أن أكون متألقة ومسلّية طوال اليوم. في بعض الأحيان أرغب في الجلوس والاسترخاء فحسب».

- «نحن نفتقدكَ حقّاً يا بول»، قالت الآنسة هيلين. «لقد مضت أربع سنوات، أليس كذلك؟ أوه، انظر. ما زال يصل المزيد والمزيد من الناس. أتساءل متى سيسمحون لهم بالدخول. أين هي كريسي الآن؟ هل ما تزال هناك في الخارج؟».

- «أنا أراها يا أمّي. لا تزال تتحدّث على الهاتف».

- «أنا جدُّ سعيدة لأنّها معنا اليوم، وجودها يبعث على الاطمئنان. إنّها صديقةٌ طيّبة معي. وأنا أقدّر أيضاً لكم جميعاً وجودكم هنا اليوم، وتقديمكم الدعم لي ولريك». جالت بنظرها حول الطاولة، وبدا أنّها تحاول توضيح نقطةٍ مميّزة وهي تركّز نظرتها عليّ. «لن أدّعي أنّني لا أشعر بالتّوتر. الساعة تقترب كثيراً، وليس فقط بالنسبة لريك، إذا أردتُ أن أكون صادقة. هل سبق لي أن أخبرتكَ يا بول؟ كنتُ والرجل الذي نحن على وشكِ مقابلته شغوفَين أحدنا بالآخر. لم يكن شغفاً لعطلة نهاية أسبوع فحسب، أو لبضعة أشهر، ولكن لسنوات...».

- «أمّي، أرجوكِ».

- «أعتقد أنّه إذا سنحت لكَ الفرصة للتحدّث إليه يا بول، فسوف تجد بعض القواسم المشتركة بينكما. على سبيل المثال، هو أيضاً لديه ميولٌ فاشيّة. لطالما كان كذلك رغم أنّني حاولتُ دائماً ألّا ألاحظ...».

- «أمّي، بالله عليكِ...».

- «رويدكِ الآن يا هيلين»، قال الأب. «هل تشيرين إلى أنّني...».

- «قلتُ هذا فقط بسبب ما كنتَ تحكيه عن مجتمعكَ منذ لحظة يا بول».

- «لا، هيلين، لا يمكنني القبول بذلك. وأمام الأطفال أيضاً! ما قلتُه سابقاً لا علاقة له بالفاشية. ليس لدينا أيّة أجندة عدائية أبعد من الدفاع عن أنفسنا إذا اقتضت الحاجة. حيث تعيشين يا هيلين ربّما ليس هناك من داعٍ للقلق بعد، وآمل بصدقٍ أن يبقى الوضع على هذا النحو لفترةٍ طويلة. لكن حيث أعيش، الوضع مختلفٌ تماماً».

- «لماذا إذاً يا أبي لا تخرج من هناك؟ لماذا تعيش في مكانٍ تنتشر فيه العصابات والبنادق؟».

بدا الأب مسروراً بمشاركة جوزي في الحديث أخيراً. «لأنّه مجتمعي يا جوزي. إنّه ليس سيّئاً بالقدر الذي يبدو عليه. أنا أحبُّ المكان هناك. أشارك حياتي مع بعض الأشخاص الرائعين جدّاً، ومعظمهم سلك نفس الدرب الذي سلكتُه. لقد أصبح من الواضح لنا جميعاً الآن أنَّ هناك طرقاً عديدة ومختلفة لعيش حياةٍ كريمة وكاملة».

- «هل تقول يا أبي إنّكَ سعيدٌ لكونكَ فقدتَ وظيفتك؟».

- «نعم يا جوزي، من نواحٍ كثيرة أنا سعيد بذلك. والأمر ليس كأنّني فقدتُ وظيفتي حقّاً، لقد كان كلُّ ذلك جزءاً من التغييرات فحسب، إذ كان على الجميع أن يجدوا طرقاً جديدة ليعيشوا حياتهم».

- «أعتذر لأنّي افترضتُ أنّكَ وأصدقاءكَ الجدد فاشيون يا

بول»، قالت الآنسة هيلين. «لم يجدر بي افتراض شيءٍ كهذا. الأمر فقط أنّكَ قلتَ إنّكم جميعاً من البِيض، وجميعكم من النخب المهنية السابقة. لقد قلتَ ذلك بالفعل. قلتَ أيضاً إنّكم كنتم مضطرين إلى تسليح أنفسكم على نطاق واسع ضدَّ **الأصناف** الأخرى. كلُّ هذا يبدو ذا طابعٍ فاشيٍّ قليلاً...».

- «لن أقبل بهذا يا هيلين. جوزي تعرف أنَّ الأمر ليس على هذا النحو، لكنّني لا أريد لها حتّى أن تسمعكِ وأنتِ تقولين ذلك. لا أحبُّ أن يسمع ريك ذلك أيضاً. إنّه ليس صحيحاً فحسب. هناك مجموعاتٌ مختلفة حيث أعيش، لا أنكر ذلك. لستُ أنا مَن وضع القواعد، وإنّها الطريقة التي انقسمت بها تلك المجموعات بشكلٍ طبيعي فحسب. وإذا حدث أنَّ مجموعةً أخرى لم تحترمنا ولم تحترم ما لدينا وما نحن عليه، فينبغي بهم أن يعرفوا أنّه سيكون عليهم تحمّل عبء معركة قادمة».

- «أمّي ليست على طبيعتها، وهي مخطئةٌ بالكامل» قال ريك. «إنّها تشعر بالقلق، هذا كلُّ شيء. أرجو أن تعذرها».

- «لا تقلق يا ريك. لقد عرفتُ والدتكَ لوقتٍ طويلٍ جدّاً، وأنا أحبّها كثيراً».

- «اسمه فانس»، قالت الآنسة هيلين. «الرجل الذي ننتظر أن نقابله. أنا وريك ممتنّان للغاية لوجودكم جميعاً هنا لدعمنا معنوياً، لكن من الآن فصاعداً نحن لوحدنا. دعني أخبركَ يا بول، في وقتٍ ما، كان فانس مأخوذاً بي تماماً. ريك، عزيزي، لا تعبس أرجوك. لم يسبق لريك أن قابله، فكان ذلك قبل أيّامه. أوه، كانت ثمّة مناسبة واحدة على ما أظن، لكنَّ هذا ليس مهمّاً. أراهن أنّكَ حين تراه يا بول سوف تتساءل ماذا رأيتُ فيه بحقِّ الجحيم. لكنّني أؤكّد

لكَ أنّه كان ذات يومٍ أكثر وسامة منك حتّى. الغريب في الأمر أنّه كلّما حقّق نجاحاً أكبر في الحياة أصبح أقلَّ وسامة. هو الآن ثريٌّ ونافذ، كما أنّه يبدو مروّعاً. مع ذلك، سوف أحاول أن أرى الشاب الوسيم الذي كان عليه ذات يومٍ بين كلِّ طيّات وتغضّنات اللحم تلك. أتساءل إن كان سيفعل ذات الشيء معي».

- «ماذا يحدث في الخارج يا حيواني البري؟ هل تستطيعين رؤية أمّك؟».

- «لا تزال تتحدّث على الهاتف».

- «أعتقد أنّها غاضبةٌ منّي. الأرجح أنّها لن تعود طالما أنا جالسٌ هنا».

ربّما كان الأب يأمل أنَّ أحداً سوف يعارض فرضيّته، لكنَّ ذلك لم يحدث. حتّى أنَّ الآنسة هيلين رفعت حاجبيها وضحكتْ ضحكةً صغيرة، ثمَّ قالت:

- «لقد حان الوقت تقريباً، يا عزيزي ريك. أفترض أنّه ينبغي بنا أن نذهب إلى هناك الآن».

اعتراني الخوف إذ سمعتُها تقول ذلك؛ ولم أعد متأكّدة أنَّ النتائج المرتبطة بما حدث في الفناء لم تكن آخذةً في التكشّف مع مرور الدقائق، وأنَّ حالتي الجديدة لن تغدو واضحةً للجميع إذا ما جرّبتُ التعامل مع التضاريس غير المألوفة في الخارج.

- «أتساءل حقّاً إذا كان فانس يدرك، حين اقترح أن نلتقي خارج مسرحٍ، أنّه قد يكون هناك عرضٌ على وشك أن يبدأ مع ما يرافق ذلك من حشدٍ جماهيريّ. يجدر بنا الذهاب إلى هناك، قد يصل مبكّراً ويرتبك بسبب الحشد»، قالت الأمّ.

وضع ريك يده على كتف جوزي وسأل بهدوء: «هل أنتِ متأكّدةٌ من أنّكِ بخير يا جوزي؟».

- «أقسم أنّني بخير. لذا اذهب وابذل قصارى جهدك يا ريكي. هذا هو ما أريده أكثر من أيّ شيء».

- «هذا صحيح»، قال الأب، «وتذكَّر أنّكَ موهوب. حسنٌ، ربّما ينبغي بنا جميعاً أن نغادر الآن».

نهض واقفاً على قدميه، نظر إليَّ أثناء ذلك، وراح يتفحّصني بعناية أكبر من أن تكون ضمن الحدود الطبيعية. شعرتُ على الفور بالقلق من أنَّ الآخرين سوف ينتبهون، رغم أنَّ الشقّ كان مخفيّاً على نحوٍ جيّد تحت شعري. انتقل الأب بنظره عندئذٍ إلى جوزي.

- «يجب أن نعيدكِ يا حيواني البري. دعينا نذهب ونبحث عن والدتكِ».

■

حين خرجنا من مطعم السوشي، كان الشمس ينتج أنساقه الأخيرة لذلك اليوم، وتخلّيت عن آخر أمل صغير في أنّه قد يرسل مساعَدته الخاصّة في الوقت القليل المتبقّي. كان بإمكاني الآن سماع أصوات الناس والموسيقى دون عائق، وانتبهتُ كيف أصبح ضوء الشارع خارج مدخل المسرح مصدر الضوء الرئيسي. في الواقع، ظننتُ للحظة أنَّ قوم المسرح هؤلاء كانوا يحاولون الطواف حول ضوء الشارع في تشكيلٍ متَّفَقٍ عليه مسبقاً، لكن النمط الخاص تلاشى سريعاً ورأيتُ أنَّ شكل الحشد كان يتغير عشوائياً.

كان الأب والآنسة هيلين يتقدّمان أمامي بخطوات قليلة باتّجاه

الحشد، بينما كان ريك وجوزي خلفي، قريبان منّي جدّاً لدرجة أنّني إذا اضطررتُ للتوقّف فجأة لاصطدما بي. كان بإمكاني سماع جوزي تقول:

- «لا يا ريك، لاحقاً. سأخبركَ عن الأمر عندئذٍ. فلنقل فقط الآن أنَّ أمّي تمرُّ بأحد أيّامها الغريبة».

- «لكن ماذا قالت؟ ما الذي يحدث؟».

- «اسمع يا ريكي، ليس هذا ما يهمّ الآن. ما يهمُّ فعلاً هو هذا الرجل الذي أنت على وشك أن تقابله، وما سوف تقوله له».

- «لكن يمكنني أن أرى أنّكِ مستاءة. . .».

- «أنا لستُ مستاءة. لكنّني **سأكون** مستاءة، مستاءةً جدّاً، إذا لم تبذل قصارى جهدك مع هذا الرجل. هذا مهمٌّ يا ريك. مهمٌّ لكَ ومهمٌّ لنا».

كنتُ أظنُّ أنّه حالما أصبحتُ لا أراقب قوم المسرح من خلال الزجاج، فسوف تغدو أشكالهم أكثر تمييزاً ووضوحاً. لكنّني إذ كنتُ الآن في وسطهم، فقد أصبحتْ أشكالهم أكثر بساطة، كما لو أنّهم شُكِّلوا على هيئة أقماعٍ وأسطوانات من أوراق ملساء. كانت ملابسهم على سبيل المثال خاليةً من التجاعيد والطيّات المعتادة، وحتّى وجوههم بدت تحت ضوء الشارع وكأنّها أُنشئتْ عبر وضع أسطحٍ مستوية في تشكيلات معقّدة لإضفاء إحساسٍ بخطوط الوجه والمعالم.

واصلنا السير إلى أن صار الضجيج يحاصرنا من كلِّ الجهات. في لحظةٍ ما، توقّفتُ ومددتُ يدي لأمسك بذراع جوزي، لكنّها لم تعد ورائي. ورغم أنّني استطعتُ سماع صوتها وهي تقول لريك: «ها هي أمّي هناك»، إلّا أنّني حين استدرتُ باتّجاه الصوت، لم أرَ

جوزي ولا ريك، بل جبهةً ملساء تتّجه صوب وجهي. دفعني أحدهم في ظهري، لكنّها لم تكن دفعةً عنيفة، ثمَّ سمعتُ صوت الأب، فاستدرتُ مجدّداً، ورأيتُه والآنسة هيلين يقفان بالقرب من شخصٍ غريب. واستطعتُ سماع الأب يقول:

- «لم أُرد أن أقول هذا أمام الولدين. لكن اسمعي يا هيلين، ليس عندي مشكلة أبداً في أن تصفيني بالفاشيّ. نادني كيفما شئتِ. لكن ضعي في حسبانك أنّ المكان حيث تعيشين الآن قد لا يظلّ آمناً دائماً. سمعتِ ما حدث في هذه المدينة بالذات الأسبوع الماضي؟ أنا لا أقول إنّكِ في خطرٍ داهمٍ الآن، لكن يجدر بكِ أن تفكّري في المستقبل. حين أتحدّث مع كريسي في هذا، هي تهزُّ كتفيها فحسب. لكن ينبغي بكِ أن تفكّري في هذا الأمر. فكّري أبعد، في ريك، وفي نفسك بذات القدْر».

- «أوه، لكنّني أفكّر في المستقبل يا بول. لمَ تظنّنا هنا اليوم؟ لماذا برأيكَ بحثتُ في كلِّ مكانٍ عن حبيبٍ مفقود منذ زمن بعيد؟ أنا أفكّر في المستقبل وأخطّط له، وإذا فعلتُ هذا على نحوٍ صحيح، فسرعان ما سيصبح ريك في مكانٍ آخر. وآمل أنّ ذلك لن يكون ضمن مجتمعٍ يحصِّن نفسه بالأسلحة. أعني أنَّ ريك يبلي حسناً، ولهذا السبب أحتاج إلى مساعدة فانس. أوه، أين يمكن أن يكون؟ ربّما ذهب إلى المسرح الخطأ».

- «لقد كبر ريك ليصبح شابّاً طيّباً. آمل أنّه سيتمكّن من العثور على طريقه وسط هذه الفوضى التي أورثناها لجيله. لكن إذا لم تسر الأمور على ما يرام يا هيلين، سواءً بالنسبة لكِ أو له، فأريد منكِ أن تتواصلي معي. يمكنني أن أجد لكما مكاناً أنتما الاثنين داخل مجتمعنا».

- «هذا لطفٌ منكَ يا بول. وأنا آسفة إذا كنتُ فظّةً قبل قليل. قد يفاجئكَ ذلك، لكنّني في الواقع لستُ غاضبةً ممّا أصبحنا عليه. إن كان لدى أحد الأطفال قدرات أكثر من طفلٍ آخر، فمن الصائب أن يحصل الطفل الألمعيّ على الفرص، وعلى المسؤوليات أيضاً. أنا أقبل ذلك. لكن ما لن أقبله هو أن لا يستطيع ريك أن يحظى بحياةٍ كريمة. أرفض تقبّل فكرة أنَّ هذا العالم أصبح متوحّشاً إلى هذه الدرجة. لم يتمَّ تعديل ريك، لكن لا يزال بوسعه الذهاب بعيداً، والنجاح في حياته».

- «أتمنّى له كلَّ التوفيق. ما أحاول قوله هو أنَّ هناك أساليب كثيرة لعيش حياةٍ ناجحة».

كثيرٌ من الوجوه كانت تندفع من حولي، لكن الآن كان ثمّة واحدٌ جديد يتقدّم الوجوه الأخرى، وما فتئ يقترب منّي حتّى كاد يلامسني. عندها فقط ميّزتُ أنّه ريك وأصدرتُ صوتاً ينمُّ عن المفاجأة.

- «كلارا، هل تعرفين ما خطب جوزي؟»، سألني ريك. «هل حدث شيءٌ ما؟».

- «لا أعرف ما الذي قيل بين جوزي والأمّ. لكن عندي أخبارٌ جيّدة جدّاً. لقد أُنجزت المهمّة، تلك التي أوكِلتْ إليَّ في ذلك المساء حين ساعدتْني في الوصول إلى حظيرة السيّد ماكبين. كانت مهمّةً رغبتُ جدّاً في إتمامها، لكنّني لم أتمكّن لوقتٍ طويل من تبيان كيفية القيام بذلك. ريك، لقد أُنجِزت المهمّة حقّاً».

- «هذا رائعٌ. لكنّني لستُ متأكّداً أنّني أعرف ما الذي تتحدّثين عنه».

- «لا يمكنني أن أشرح بعد. ولقد اضطررتُ للتخلّي عن شيء

ما في سبيل إنجاز المهمّة، لكن هذا لا يهمُّ على الإطلاق، لأنَّ في وسعنا الآن أن نحظى بأملٍ جديد».

المزيد والمزيد من المخاريط والأسطوانات - أو ما بدا أنّها كِسراتٌ منها - كانت تنحشر مضغوطةً داخل أيِّ فراغ متبقٍّ حولي. أدركتُ بعدها أنَّ إحدى تلك الكِسرات؛ والتي كانت عبارةٌ عن شكلٍ يتحرّك ليحلَّ محلَّ ريك، لم تكن في الواقع سوى جوزي. أصبحتْ أكثر وضوحاً وتمكّنتُ من تمييزها على نحوٍ أفضل حالما تعرّفتُ عليها، ولم أجد صعوبةً بعد ذلك في الاحتفاظ بها داخل ذهني.

- «هيه، كلارا، هذه سيندي. لقد كانت نادلة طاولتنا في المطعم. هي تعرف بأمر متجركِ القديم».

كانت ثمّة لمسة على ذراعي، وسمعتُ أحدهم يعلن بحماس: «هيه، لقد كنتُ أحبُّ متجركِ!». رأيتُ عندما استدرتُ باتّجاه الصوت قمعين طويلين وقد أُدخل أحدهما في الآخر، وكان القمع العلوي يميل إلى الأمام قليلاً باتّجاهي. ابتسمتُ وقلتُ: «كيف حالك؟»، فتابع القمعان:

- «كنتُ أخبر مالكتكِ بأنني مررتُ به الأسبوع الماضي، وقد تحوّل إلى متجر أثاث. هيه، أتعلمين، أنا متأكّدةٌ أنّني رأيتكِ في تلك النافذة مرّة».

- «تريد كلارا أن تعرف إلى أين انتقل المتجر. هل تعرفين يا سيندي؟».

- «أوه، لستُ متأكّدةً ممّا إذا كان قد انتقل...».

أحدٌ ما كان يشدُّ ذراعي، لكن إلى الأمام منّي الآن كانت هناك الكثير من الكِسرات التي بدتْ وكأنّها جدارٌ صلب. بدأتُ أشكُّ أيضاً أنَّ العديد من هذه الأشكال لم تكن في الحقيقة ثلاثية الأبعاد

حتّى، بل رُسمت فوق أسطحٍ مستوية باستخدام تقنيّات تظليل لإضفاء الوهم بالتدوير والعمق. أدركتُ بعدها أنَّ الهيئة التي كانت بجانبي الآن هي الأم. اقتادتني بعيداً وهي تقول في أذني تقريباً:

- «كلارا، أعلم أنّنا قلنا الكثير من الأشياء باكراً اليوم. أقصد في السيارة. لكن يجب أن تفهمي أنّني كنتُ أفكّر في ثلاثة أو أربعة أشياء في الوقت نفسه. كلُّ ما أحاول قوله هو ألّا تأخذي أيّاً ممّا قلناه على محمل الجدّ بشكلٍ مفرط. أنتِ تفهمين، أليس كذلك؟».

- «تقصدين حين كنّا في السيارة لوحدنا؟ حين ركنّا السيّارة قرب الجسر؟».

- «نعم، هذا ما أتحدّثُ عنه. أنا لا أقول إنّنا تراجعنا عن أيّ شيء. لكنّني أقول هذا فقط كي تعرفي، اتّفقنا؟ أوه، أصبح هذا الأمر برمّته مربكاً للغاية. وبول ليس مساعِداً أبداً. انظري إليه، ما الذي يقوله لها الآن؟».

ليس بعيداً عنّا، كان الأب ينحني إلى الأمام ووجهه قريب من جوزي فيما هو يقول لها شيئاً جدّياً.

- «إنّه عبارةٌ عن كومةٌ من الهراء هذه الأيّام»، قالت الأمّ، وبدأتْ تغذُّ السير نحوهما. لكنَّ ذراعاً برزت من الحشد وأمسكت بمعصمها قبل أن تتمكّن من الوصول إليهما.

- «كريسي»، قال صوت الآنسة هيلين، «اتركيهما وشأنهما لدقيقةٍ أخرى. لا يتسنّى لهما أن يجتمعا كثيراً هذه الأيّام».

- «يبدو لي أنَّ بول قد وزّع ما يكفي من حكمته المميّزة ليومٍ واحد»، قالت الأمّ. «والآن انظري. إنّهما يتشاجران».

- «إنّهما لا يتشاجران يا كريسي. أؤكّد لكِ أنّهما لا يتشاجران. لذا دعيهما يتحدّثان».

- «هيلين، أنا حقّاً لا أحتاج منكِ أن تفسّري لي ما يحدث. ما زلتُ أستطيع قراءة ابنتي وزوجي».

- «زوجك السابق يا كريسي. وكلُّ سابقٍ مبهَم، وهو ما تأكّد لي في هذه اللحظة بالذات. لقد أقسم فانس أنّه لن يجعلنا ننتظر، وانظري إلينا الآن. نحن لم نكن متزوّجَين مثلكما أنتِ وبول، لذا فإنَّ للمرارة نكهة مختلفة. لكن لا تقلّلي من شأن هذا يا كريسي. أنا لم أره منذ أربعة عشر عاماً، وكانت المرّة الأخيرة بالصدفة ولوقتٍ قصيرٍ جدّاً. هل يُعقَل أنّنا مررنا ببعضنا وسط هذا الحشد ولم يميّز أحدنا الآخر؟».

- «هل أنتِ نادمةٌ يا هيلين؟»، سألت الأمّ بشكلٍ مفاجئ. «تعرفين ما الذي أتكلّم عنه. هل أنتِ نادمةٌ على ذلك؟ على كونكِ لم تمضِ قدماً في الأمر مع ريك؟».

واصلت الآنسة هيلين للحظة النظر إلى حيث كان الأب وجوزي واقفين يتحادثان، ثمَّ قالت: «لأكون صادقة، نعم يا كريسي، الجواب هو نعم. حتّى بعد رؤية ما جلبه ذلك لكِ. أشعر... أشعر أنّني لم أبذل قصارى جهدي من أجله. أشعر أنّني لم أفكّر في الأمر مليّاً حتّى، مثلما فعلتِ أنتِ وبول. لقد كنتُ في مكانٍ آخر على الصعيد الذهني، وقد تركتُ لتلك اللحظة أن تمضي فحسب. ربّما يكون هذا هو أكثر ما أندم عليه؛ أنّني لم أحبّه بما يكفي كي أتّخذ قراراً ملائماً في هذا الاتّجاه أو ذاك».

- «لا بأس». وضعتِ الأمّ يدها بلطفٍ على ذراع الآنسة هيلين. «لا بأس. هذا صعب، أنا أعرف ذلك».

- «لكنّني أبذل قصارى جهدي الآن. هذه المرّة أنا أفعل كلَّ ما بوسعي لأجله. أحتاج فقط أن يظهر العاشق السابق. أوه! ها هو ذا هناك. فانس! فانس! المعذرة...».

- «هل أنتِ مهتمّةٌ بالتوقيع على عريضتنا؟»، قال الرجل الذي

ظهر أمام الأمّ بوجهٍ مطليٍّ بالأبيض وشعرٍ أسود. أخذت الأمّ خطوةً سريعة إلى الوراء، كما لو أنَّ المادّة البيضاء التي طُلِي بها الوجه ستقع عليها، ثمَّ قالت: «عريضةٌ بشأن ماذا؟».

- «نحن نحتجُّ على اقتراح إخلاء مبنى أوكسفورد، الذي تقطنه حالياً عائلات العاطلين من العمل. إنَّ عدد سكّان المبنى أربعمئة وثلاثة وعشرون شخصاً، ستّةٌ وثمانون منهم من الأطفال. لم تقدّم سلطات المدينة أيَّ خطّةٍ معقولة فيما يتعلّق بنقلهم».

لم أعد أستطيع سماع ما يقوله الرجل الأسود والأبيض للأمّ لأنَّ الأب تحرّك إلى الأمام منّي وقال لها:

- «يا إلهي، كريسي! ما الذي قلتِه لابنتنا؟».

حافظ على صوته منخفضاً، لكنَّ الانزعاج كان بادياً عليه. «إنّها حقّاً تتصرّف بغرابةٍ. هل يمكن أن تكوني قد أخبرتِها بشيء؟».

- «لا يا بول، لم أخبرها». كانت نبرة الأمّ تفتقر للثقة على غير العادة. «على الأقل... ليس كلَّ شيء».

- «ماذا بالضبط...».

- «تحدّثنا عن البورتريه فحسب، هذا كلُّ شيء. لا يمكننا إخفاء كلّ شيءٍ عنها. إنّها تشكُّ في الكثير من الأشياء، وإذا لم نتحدّث بشأن أيٍّ منها فسوف نفقد ثقتها».

- «هل أخبرتِها بشأن البورتريه؟».

- «أخبرتُها فقط أنّه ليس عبارةً عن لوحة. بل شيءٌ أقرب لمنحوتة. هي تتذكّر دمية سال، بالطبع...».

- «يا يسوع المسيح، ظننتُ أنّنا اتّفقنا...».

- «جوزي ليست بطفلةٍ صغيرة يا بول. يمكنها إدراك الأشياء، وهي محقّةٌ إذ تتوقّع منّا التحدّث معها بصدق...».

- «ريك!». ميّزتُ صوت الآنسة هيلين خلفي. «ريك! هيّا بنا! فانس هنا، لقد عثرتُ عليه. تعال وقل مرحباً. أوه، كريسي، أريد منكِ أن تقابلي فانس. هو صديقٌ قديمٌ وعزيز. ها هو ذا!».

كان السيّد فانس يرتدي بذلةً راقية مع قميصٍ أبيض بأزرار وربطة عنقٍ زرقاء. كان أصلعَ مثل السيّد كابالدي وأقلَّ طولاً من الآنسة هيلين. كان ينظر حوله وكأنّه في حيرةٍ من أمره.

- «مرحباً، سُررتُ بلقائكِ»، قال للأمّ. ثمَّ توجّه للآنسة هيلين. «ما الذي يحدث هنا؟ هل سيحضر الجميع هذا العرض؟».

- «ريك وأنا كنّا ننتظرك هنا يا فانس، كما أخبرتنا بالضبط. كم من الرائع رؤيتكَ مجدّداً! أنتَ بالكاد تغيّرت».

- «أنتِ أيضاً تبدين بحالٍ جيدةٍ جدّاً يا هيلين. لكن ما الذي يحدث هنا؟ أين هو ابنكِ؟».

- «ريكي، تعال إلى هنا!».

استطعتُ الآن أن أرى ريك الذي كان يقف بعيداً قليلاً، وقد رفع يده استجابةً لنداء والدته. ثمَّ شرع يتحرّكُ نحونا عبر الكِسرات. لم أتبيّن ما إذا كان السيد فانس - والذي كان ينظر في الاتّجاه الصحيح - قد تعرّف على ريك أم لا. على أيّة حال، فقد أتى في تلك اللحظة أحد موظّفي المسرح الذين يرتدون صدرية ووقف بين السيّد فانس وريك الذي يقترب شيئاً فشيئاً.

- «هل تحمل تذكرةً لهذا العرض؟»، سأل الموظّف ذو الصدرية. «أو ربّما تريد تعديل حجزك؟».

حدّق السيّد فانس في وجهه دون أن يقول شيئاً. ثمَّ وصل ريك متجاوزاً الموظف ذي الصدرية، فقال السيّد فانس: «هيه! هذا هو ابنكِ؟ يبدو رائعاً بحقّ».

- «شكراً لكَ، يا فانس»، قالت الآنسة هيلين بهدوء.

- «مرحباً سيّدي»، قال ريك وعلى وجهه ابتسامة مثل التي ارتسمتْ حين ألقى التحيّة على السيّدات أوّلاً في اجتماع جوزي التفاعلي.

- «مرحباً، ريك. حسنٌ، أنا فانس صديقٌ قديم جدّاً لوالدتك. لقد سمعتُ الكثير عنك».

- «لطفٌ منكَ أن تلتقي بنا، سيّدي».

- «ها أنتِ ذي!». فجأةً، ملأت جوزي الفراغ أمامي. كان بجانبها فتاةٌ في الثامنة عشرة، أدركتُ أنّها سيندي النادلة وقد أصبحت هيئتها الآن أقلَّ بساطةً بكثير ممّا كانت عليه حين رأيتُها آخر مرة.

- «نعم، أنا لا أعتقد أنَّ متجركِ القديم قد انتقل في الواقع»، قالت سيندي. «لكن ثمّة متجرٌ جديد تمَّ افتتاحه في ديلانسي، وربّما نُقِل بعض الص. ا. من متجركِ القديم إليه».

- «المعذرة». مرّت أمامي سيّدةٌ ترتدي فستاناً راقياً أزرق اللون، قدّرتُ عمرها بستّةٍ وأربعين عاماً. وقفتْ قبالة جوزي وسيدني: «كنّا نتساءل للتوّ إن كنتما تنويان إدخال هذه الآلة إلى المسرح».

- «هيه، ما علاقتكِ إن كنّا ننوي ذلك؟»، قالت سيندي.

- «هذه المقاعد مطلوبةٌ بشدّة»، قالت السيّدة، «لا ينبغي بالآلات أن تشغَلها. إذا أدخلتما هذه الآلة إلى المسرح، فسوف يتوجّب علينا أن نرفع اعتراضاً».

- «لا أفهم لِمَ قد يكون هذا من شأنك...».

- «لا بأس»، قالت جوزي، «لن تدخل كلارا إلى العرض، وأنا كذلك لن أفعل...».

- «هذا لا يمتُّ للموضوع بِصلة»، قالت سيندي. «أنا غاضبةٌ حقّاً حيال ذلك»، ثمَّ وجّهتْ كلامها للسيّدة: «أنا لا أعرفكِ! من أنت؟ تأتين ببساطة وتتحدّثين إلينا بهذه الطريقة...».

- «هذه آلتكِ إذاً؟»، وجّهت السيّدة سؤالها لجوزي.

- «كلارا هي الص. ا. خاصّتي، إن كان هذا ما تسألين عنه».

- «يأخذون الوظائف في البداية، ثمَّ يأخذون المقاعد في المسرح؟».

- «كلارا؟». كان وجه الأب قريباً من وجهي. «هل ما تزالين على ما يرام؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

- «نعم، أنا بخير».

- «هل أنتِ متأكّدة؟».

- «ربّما كنتُ منذ قليل مرتبكةً بعض الشيء، لكنّني بخير الآن».

- «هذا جيّد. اسمعي، ينبغي بي أن أغادر قريباً جدّاً. لذا أنا أتساءل ما إذا كنتِ سوف تخبرينني الآن ما الذي فعلناه هناك بالضبط؟ وما الذي يمكننا أن نأمل به كنتيجةٍ لذلك».

- «لقد وثق بي السيّد بول، وكان ذلك رائعاً منه. لكن مع الأسف، كما قلتُ سابقاً، لا يمكنني إخبارك بأيِّ شيء آخر دون تعريض ما أنجزناه للخطر. لكنّني أؤمن أنَّ ثمّة أملٌ حقيقيٌّ الآن. أرجو منكَ أن تتحلّى بالصبر وتنتظر الأخبار الطيّبة».

- «كما تشائين. سأحضر صباحاً إلى الشقّة كي أودّع جوزي. ربّما سوف أراكِ عندئذٍ».

قال صوت الأمّ من مكانٍ ورائي: «سنتحدّث عن هذا لدى عودتنا إلى الشقّة. لا يمكننا التحدّث هنا».

- «لكن هذا كلّ ما أردتُ قوله»، قال صوت جوزي. «أنا بالتأكيد لا أريدكِ أن تقفليها كما فعلتِ بغرفة سال. أريد أن تتمكّن كلارا من استخدام غرفتي بمفردها وأن تروح وتجيء كما يحلو لها».

- «لكن لماذا نحن نتحدّث عن ذلك حتّى؟ سوف تتحسّنين يا حبيبتي. ما من سبب يدفعكِ للتفكير في أيٍّ من هذا...».

- «أوه، كلارا، ها أنتِ ذا». ظهرت الآنسة هيلين بقربي. «اسمعي كلارا، كنتُ أتحدّث للتوّ مع كريسي، سوف تذهبين معنا الآن».

- «معكم؟».

- «تريد كريسي أن ترجع بجوزي إلى الشقّة وتتحدّث معها بهدوء، هما الاثنتان فقط. لذا ابقَي معنا الآن. سوف تحضر كريسي لاصطحابك بعد نصف ساعة». ثم مالت إلى الأمام وهمست في أذني: «هل ترَين؟ ريك وفانس منسجمان حقّاً! مع ذلك يا عزيزتي، سوف يقدّر ريك كثيراً وجودكِ بجانبه أثناء خوضه في هذا. من الوارد أنّه لا يزال يشعر بهذا على أنّه أشبه بمحنة».

- «نعم بالطبع. لكنَّ الأمّ...».

- «سوف تأتي وتصطحبك بعد وقتٍ قصير، لا تقلقي. هي تحتاج فقط لبضع دقائق لوحدها مع جوزي».

- «إن أكثر ما أريده الآن هو الخروج من هذا الحشد»، قال فانس ضاحكاً وهو يقترب منّا. «ذلك المطعم هناك، إنّه يبدو جيّداً. أيُّ مكان نستطيع الجلوس فيه بحيث نتمكن من النظر بعضنا إلى بعض والتحدّث بحرّية».

كانت ثمّة ذراعان قد أحاطتا بي، وأدركتُ أنَّ جوزي كانت تحضنني في عناقٍ حميمٍ، كان يشبه كثيراً ذاك العناق في المتجر في

ذلك اليوم بعد اتّخاذ القرار الكبير. لكنّها همست في أذني هذه المرّة، بحيث لا يسمعها أحدٌ سواي:

- «لا تقلقي. لن أسمح أبداً لأيّ شيءٍ سيّئ أن يحدث لكِ. سوف أتحدّث إلى أمّي. اذهبي الآن مع ريك، ثقي بي».

ثم أفلتتني، وشرعتِ الآنسة هيلين تسحبني بعيداً برفق.

- «تعالي معي كلارا، تعالي عزيزتي».

خرجنا من حشد المسرح، كان السيّد فانس يتقدّم الطريق إلى المطعم، والآنسة هيلين تحثُّ الخطى لتمشي بجانبه. لحقتُ أنا وريك بالبالغَين على بعد بضع خطوات، وشعرتُ أنَّ إحساسي بالاتّجاه يعود إليَّ مع عودة الفراغ والهواء البارد ليحيطا بنا. حين نظرتُ إلى الوراء، فوجئتُ لرؤية كم كان الشارع في الواقع معتماً وهادئاً، بصرف النظر عن كتلة البشر المكتظّة حول ضوء الشارع. مع ابتعادنا أكثر، بدا هذا الحشد - الذي كنتُ منذ لحظاتٍ فقط جزءاً منه - في الواقع أشبه بواحدة من غيوم الحشرات التي تحوم في السماء، والتي اعتدتُ أن أراها في حقل المساء، حيث كلُّ كائنٍ داخل الغيمة منشغلٌ بتغيير موقعه، توّاقٌ للحصول على واحدٍ أفضل، لكنّه لا ينحرف بعيداً عن حدود الشكل الذي جسّدوه معاً أبداً. رأيتُ جوزي عند طرف الحشد تلوّح لي بإيحاءٍ مربكٍ، والأمّ واقفةٌ خلفها، يداها على كتفيّ جوزي، تراقبنا بعينين فارغتين.

■

عمَّ الظلام، وخفتت ضوضاء حشد المسرح، لكنّني عرفتُ أنَّ قدراتي على الملاحظة لم تتضرّر كثيراً لأنّني ظللتُ قادرةً على رؤية المطعم المضاء الذي كنّا نتّجه إليه، إلى الأمام منّي وبوضوحٍ.

استطعتُ أن أرى أنه على شكل قطعةِ فطيرة، طرفها المدبّب يشير باتجاهنا. وكيف يتفرَّع الشارع مثل شوكة عند طرفَيه، وكيف كانت نوافذ المطعم تمتدُّ قرب الرصيفَين المتباعدَين عند كلِّ جانبٍ منه، لذا وبغض النظر عن الطريق الذي يسلكه المارّة، سيكون بوسعهم النظر إلى الداخل المضاء - المقاعد الجلدية اللامعة، الطاولات المصقولة، المنضدة ذات الزجاج الفاصل الشفّاف التي كان مدير المطعم ينتظر وراءها الزبائن بمئزره الأبيض وقبّعته البيضاء.

في غياب سيّارات تقترب منّا، وكون المباني المحيطة مظلمة بالكامل، فقد كان المطعم هو مصدر الضوء الوحيد لهذه المنطقة، يلقي بأشكالٍ مائلة فوق أحجار الرصيف. تساءلتُ أيَّ جهةٍ من الشوكة سيختار السيد فانس، لكنّني لاحظتُ لدى اقترابنا وجود بابٍ عند الزاوية المدبّبة بالذات. افترضتُ أنَّ السبب الوحيد لعدم رصدي له سابقاً كان أنَّ الباب يشبه إلى حدٍّ بعيد نوافذ المطعم - إذ كان مصنوعاً بمعظمه من الزجاج مع بعض الكتابات عليه. فتح السيّد فانس الباب جانبياً كي يسمح للآنسة هيلين بالدخول أوّلاً.

حين دخلتُ خلف ريك بعد لحظة، ألفيتُ الإضاءة قويّةً جدّاً وصفراء ولم أستطع التكيّف معها على الفور. بالتدريج فقط، أخذتُ أميّز شرائح فطيرة الفاكهة وقد شُكّلت كلٌّ منها لتكون على شكل المطعم نفسه، معروضةً داخل المنضدة ذات الزجاج الشفّاف، ومدير المطعم - وهو رجلٌ ضخم أسود البشرة - يقف بثباتٍ خلفها، مشيحاً بوجهه عنّي. أدركتُ بعدها أنّه كان يراقب السيّد فانس والآنسة هيلين وهما يختاران مقصورتهما ويستقرّان فيها أحدهما قبالة الآخر.

رأيتُ هيئة ريك تعبر فوق الأرضية اللامعة وتستقر جالسةً قرب

والدته. استذكرتُ عندها كلمات جوزي الوداعية، وتساءلتُ ما هو الأمر المهمّ الذي ترغب الأمّ في مناقشته معها في شقّة الصديق، ولماذا كان غيابي ضرورياً.

واصلت الأنسة هيلين والسيّد فانس التحديق أحدهما بالآخر في صمتٍ طوال الوقت الذي استغرقتُه للوصول إليهم. لم أشعر أنّني أعرف السيد فانس بما يكفي كي أجلس بجانبه. كما أنّه كان جالساً في منتصف المقعد المخصّص لشخصين، وأدركتُ أنّني لن أتمكّن من شغل مقعدي دون إقلاق راحته. لذا جلستُ في المقصورة المجاورة على الجهة الأخرى من الممرّ بدلاً من ذلك.

توقّف السيّد فانس أخيراً عن التحديق في الآنسة هيلين، استدار في مقعده، ونادى بالتعليمات لمدير المطعم. خطر لي عندها فقط أنّه ورغم عدم وجود زبائن غيرنا، إلّا أنَّ كلّ الطاولات والمقاعد كانت مجهَّزةً بعناية في حال وصول زبائن آخرين. فكّرتُ أنَّ مدير المطعم هذا قد يكون وحيداً، أو على الأقل كان وحيداً أثناء وجوده في مطعمه الذي يشعُّ الضوء من جانبيه لأيِّ شخصٍ يمرُّ به في الليل.

- «سيّدي، أنا ممتنٌّ جدّاً لأنّكَ ضحّيتَ بوقتكَ من أجلي، ولمجرّد أنّكَ تفكّر في مساعدتي»، قال ريك.

- «أتعرف يا ريك»، قال السيّد فانس حالماً، «أنا لم أرَ أمّكَ هذه منذ وقتٍ ليس بالقليل».

- «أقدّر ذلك، سيّدي. وأنتَ لم تلتقِ بي من قبل أبداً، باستثناء مناسبةٍ عابرة حين كنتُ في الثانية أو شيء من هذا القبيل. وذلك يجعل من وجودنا هنا، وموافقتكَ على رؤيتي بهذه الطريقة كرماً عظيماً منك. لكن بطبيعة الحال فإنَّ أمّي لطالما تحدّثت عن كونك شخصاً كريماً».

- «يريحني أنَّ والدتك تتحدّثُ بالخير عنّي. ربّما أخبرتكَ أيضاً بشيءٍ سلبيّ أو اثنين؟».

- «أوه، لا. لقد تحدّثت أمّي عنكَ على نحوٍ إيجابيٍّ فقط».

- «هل هذا صحيح؟ وطوال هذه السنوات فكّرتُ... حسنٌ، لا تلقِ بالاً. هيلين، لقد أثار فتاكِ هذا إعجابي حقّاً».

كانت الآنسة هيلين تراقب السيّد فانس بإمعان. «لا أحتاج أن أخبرك كم أنا ممتنّةٌ أيضاً يا فانس. كنتُ لأشكركَ مطوّلاً، لكنَّ هذه فرصة ريك ولا أودُّ التحدّث نيابةً عنه».

- «أحسنتِ القول، يا هيلين. إذاً يا ريك، لمَ لا تخبرني ما الأمر؟».

- «حسنٌ، لستُ متأكّداً من أين أبدأ. لديَّ اهتمامٌ كبير بتكنولوجيا الطائرات المسيّرة. يمكنكَ القول إنّه شغفٌ حقيقيّ. عملتُ على تطوير نظامي الخاص، والآن لديّ فريقي الخاص من الطيور المسيَّرة...».

- «لحظة فقط يا ريك، حين تقول «نظامي الخاص» هل تقصد أنّكَ ذهبتَ أبعد ممّا وصل إليه أيُّ أحدٍ آخر؟».

عبَر الذعر ملامح ريك، ونظر باتّجاهي. ابتسمتُ له محاوِلةً أن أوحي أنّها لم تكن ابتسامتي فحسب، بل هي ابتسامةٌ بالنيابة عن جوزي أيضاً. وسواءً فهم هذا أم لا، فقد بدا أنّه تلقّى التشجيع.

ضحكَ ضحكةً سريعة. «لا سيّدي، بالكاد. أنا لا أدّعي أنّني عبقريّ. لكن سأقول إنَّ نظامي للطائرات المسيّرة هو نظامٌ ابتكرتُه بنفسي، دون مساعدة من أيّ معلّمين. استخدمتُ مصادر متنوّعة للمعلومات التي وجدتها على شبكة الإنترنت. كما كانت والدتي عنصراً داعماً جدّاً، إذ تحمّلت عبء طلب بعض الكتب باهظة

الثمن. في الواقع، لقد أحضرتُ معي بعض الرسومات، فقط في حال رغبتَ بأخذ فكرةٍ عامّة. ها هي ذي. لكن لا، أنا لا أعتقد أنّني أقوم بفعل شيءٍ لم يسبقني إليه أحدٌ. وأعرف أنّني لن أكون في الغالب قادراً على شيءٍ كهذا دون توجيهٍ وإرشادات من الخبراء».

- «أنا أفهم ما تقول. لذا أنتَ تضع نصب عينيكَ الآن هدف الالتحاق بكلّيةٍ جيدة، كي تعامَل موهبتك بالإنصاف الذي تستحقّه».

- «شيءٌ من هذا القبيل. أنا وأمّي نعتقد أنَّ أطلس بروكينغز يمكن أن تكون كلّية معطاءة وليبيرالية...».

- «معطاءة وليبرالية بما يكفي لتكون مفتوحةً لجميع الطلاب من أصحاب الكفاءات العالية، حتى البعض من أولئك الذين لم يستفيدوا من التعديل الجيني».

- «بالضبط، سيّدي».

- «طبعاً أنتَ تدرك يا ريك، لأنَّ والدتكَ ستكون قد أخبرتكَ، أنّني أرأس حالياً لجنة مؤسّسي الكلّية. وهذا يعني الهيئة التي تتحكّم في المنح الدراسيّة».

- «نعم سيّدي. هذا ما قالته لي».

- «والآن يا ريك. آمل أنَّ والدتكَ لم تكن تلمّح أنَّ إجراءات القبول في أطلس بروكينغز يمكن أن تخضع لأيِّ نوعٍ من المحسوبية».

- «لا أنا ولا والدتي سوف نطلب منكَ مساعدتي بدافع المحسوبية، سيّدي. أنا أطلب منكَ المساعدة فقط في حال اعتقدتَ أنّني أستحقُّ مكاناً في أطلس بروكينغز».

- «أحسنتَ القول. دعنا نلقي نظرةً على ما لديكَ هنا».

كان ريك قد وضع بالفعل دفتر ملاحظاته على الطاولة، فقام السيّد فانس الآن بفتحه. حدّق في المخطّط الذي انفتح الدفتر عليه،

ثمَّ بدا أنّه مستغرقٌ تماماً حين قلَب الصفحة ووجد مخطّطاً آخر. واصل تصفّح الدفتر ببطء، وكان في بعض الأحيان يرجع إلى صفحةٍ سابقة. ثمَّ تمتم في لحظةٍ ما دون أن يرفع عينيه عن الدفتر:

- «كلُّ هذه مخطّطاتٌ لما تنوي العمل عليه مستقبلاً؟».

- «في الغالب نعم. رغم أنّني أنجزتُ بالفعل بعضاً من هذه التصميمات. مثل ذاك الذي في الصفحة التالية».

كانت الآنسة هيلين تراقب بصمت، مع ابتسامةٍ لطيفة على وجهها، وهي تنقل نظرها بين السيّد فانس ودفتر ريك. في تلك اللحظة، شعرتُ مجدّداً على نحوٍ خاطف لكنّه غامر؛ شعرتُ بيد الأب تمسك رأسي بالزاوية المطلوبة، وسمعتُ صوت تقطّر السائل لدى دخوله في الزجاجة البلاستيكية التي كان يحملها قريباً من وجهي بيده الأخرى.

- «حسنٌ، يا ريك»، قال السيّد فانس. «أنا جاهلٌ جدّاً بهذه المسائل. مع ذلك، لديَّ انطباعٌ بأنَّ طائراتكَ المسيّرة تتمتّع بقدرات مراقبة عالية».

- «الطيور هي جامعةُ بيانات، هذا صحيح. لكن هذا لا يعني بالضرورة أن تُستخدم في أنشطةٍ تنتهك الخصوصية. هناك العديد من التطبيقات المحتملة لها. الأمن، وحتّى مجالسة الأطفال. وقد يكون هناك أشخاص نحتاج أن نبقي أعيننا عليهم».

- «مثل المجرمين، هذا ما تعنيه؟».

- «أو الميليشيات، أو الطوائف الغريبة».

- «أنا مصغٍ لكَ جيّداً. نعم، كلُّ هذا مثيرٌ للاهتمام. ألا ترى أيَّ مسائل أخلاقية حقيقية هنا؟».

- «سيّدي، أنا متأكدٌ أنّ هناك مسائل أخلاقية عديدة، لكن في

النهاية، الأمر متروكٌ للمشرّعين وليس لأشخاص مثلي لتقرير كيفية تنظيم هذه الأمور. بالنسبة لي، جُلُّ ما أريده في الوقت الحالي هو أن أتعلّم بقدر ما أستطيع، كي أتمكّن من الانتقال بإدراكي إلى المستوى التالي».

- «أحسنتَ القول». أومأ السيّد فانس واستأنف تفحّص دفتر ملاحظات ريك.

جاء مدير المطعم الوحيد، وشرع يضع المشروبات على الطاولة أمام الآنسة هيلين والسيّد فانس وريك. شكره كلٌّ منهم بصوتٍ خافت، ثمَّ استدار ومضى مبتعداً.

«أنتَ تدرك تماماً أنّني لا أحاول أن أجعلك تقضي وقتاً عصيباً»، قال السيّد فانس، «كلُّ ما في الأمر، حسنٌ، أنا أختبركَ قليلاً كي أتبيّن معدنك». ثمَّ قال للآنسة هيلين: «وحتّى الآن كلُّ شيءٍ يدلُّ أنّه مثيرٌ للإعجاب حقّاً».

- «فانس، عزيزي. هل ترغب بشيءٍ ما مع هذه القهوة؟ ربّما واحدةٌ من كعكات الدونات التي أراها هناك؟ لطالما كنتَ مولعاً بالدونات».

- «شكراً لكِ هيلين، لكنّني سألتقي بعض الأشخاص على العشاء». نظر إلى ساعته، ثمَّ إلى ريك. «الآن، فكّر في هذا يا ريك. تؤمن أطلس بروكينغز أنَّ هناك الكثير من الأولاد الموهوبين مثلك تماماً، والذين لأسباب اقتصادية أو غير ذلك لم يتسنَّ لهم أبداً الاستفادة من مزايا برنامج AGE. تؤمن الكلّية أيضاً أنَّ المجتمع يرتكب في الوقت الحالي خطأً فادحاً بعدم السماح لتلك المواهب أن تؤتي أُكلها بالكامل. المؤسف أنَّ معظم المؤسّسات الأخرى لا تفكّر بهذه الطريقة، وهو ما يعني أنّنا نتلقّى عدداً من الطلبات من

أشخاصٍ مثلك أكبر بكثير ممّا يمكننا استيعابه. لا يمكننا ببساطة استبعاد أيٍّ من الحالمين، لكن بعد هذا فإنَّ الأمر يصبح بصراحة أشبه باليانصيب. والآن يا ريك، لقد قلت منذ لحظات أنّك لا تسعى إلى أيّ نوعٍ من المحسوبية. دعني إذاً أطرح عليك هذا السؤال: إذا كنتَ فعلاً كذلك، **فلماذا أنا جالس هنا أمامكَ الآن؟**».

غيّر السيّد فانس بهذه الكلمات المزاج العام على نحوٍ مفاجئٍ جدّاً لدرجة أنَّ صرخة المفاجأة كادت تفلت منّي. بدا ريك مذهولاً أيضاً. فقط الآنسة هيلين لم تبدُ عليها المفاجأة، بل بدت كما لو أنَّ شيئاً كانت تخشى حدوثه طوال الوقت قد حدث أخيراً. ابتسمت وقالت:

- «سأجيب بالنيابة عن ريك على هذا السؤال. نعم يا فانس، نحن نطلب منكَ خدمة، ونعرف أنّها ضمن صلاحياتك. لذا نحن نطلب منك مساعدتنا. سوف أعيد صياغة ذلك. **أنا** أطلب منك. أطلب منك مساعدة ابني في الحصول على فرصةٍ للقتال في هذا العالم».

- «أمي...».

- «حبيبي ريكي، هذا صحيح. إنَّ الطلب من فانس مسألةٌ تتعلّق بي وليس بك. ونحن نطلب منه أن يمارس المحسوبية لأجلنا. بالطبع نحن نطلب ذلك».

كنتُ مخطئةً في اعتقادي أنّنا زبائن مدير المطعم الوحيدون. أدركتُ أنّ ثمّة سيّدة في الثانية والأربعين من عمرها كانت تجلس بمفردها على بعد ثلاث مقصورات إلى الأمام منّي. لم أرها من قبل لأنّها كانت قد حشرت نفسها في النافذة وجبينها ملتصقٌ بالزجاج، فيما هي تحدّق خارجاً في الظلام. تساءلتُ إن كان مدير المطعم قد

فشل في ملاحظتها أيضاً، وإن كان شعورها بالوحدة قد تعاظم لاعتقادها أنَّ مدير المطعم كان يتجاهلها عمداً.

- «أتدرين يا هيلين»، قال السيّد فانس، «إنّه تكتيكٌ غريب هذا الذي تتبنّينه هنا. إنَّ المحسوبية، مثلها مثل أيِّ شكلٍ آخر من أشكال الفساد، تعمل على نحوٍ أفضل حين تبقى متجاهَلَةً وغير معترَفٍ بوجودها، لكن لنترك هذا جانباً». انحنى السيّد فانس إلى الأمام. «كان الأمر مختلفاً حين ظننتُ أنَّ ريك هو الذي يطلب. إنّه ولدٌ ساحر ومثيرٌ للإعجاب. كان كلّ شيءٍ يسير على ما يرام. لكن انظري إلى ما فعلتِه للتوّ. لقد قلتِ لي أنّ كلَّ هذا يتمحور حول تقديمي خدمةً لكِ - لكِ أنتِ يا هيلين. بعد كلّ هذه السنوات. كلّ هذه السنوات من عدم الردّ على رسائلي. كل تلك الدقائق والساعات والأيام والشهور والسنوات التي قضيتُها وأنا أفكّر فيكِ».

- «كان يجب أن تقول هذا هنا؟ أمام ريك؟». كانت الآنسة هيلين لا تزال تبتسم بلطف، لكنَّ صوتها بات مرتعشاً.

- «ريك شابٌّ ذكيّ. وهو الطرف الذي سيفوز أو يخسر في النهاية. فلماذا تخفين الأشياء عنه؟ دعيه يرى الصورة كاملة. دعيه يفهم حول ماذا يدور هذا الأمر».

مجدّداً، نظر ريك إليَّ، فحاولتُ مجدّداً تشجيعه بابتسامةٍ كانت منّي ومن جوزي.

- «لكن حول ماذا يدور الأمر يا فانس؟»، قالت الآنسة هيلين. «هل هو أمرٌ معقّدٌ لهذه الدرجة حقّاً؟ أنا أسألك ببساطة أن تساعد ابني. إذا لم تكن مستعدّاً للقيام بذلك، يمكن لكلٍّ منّا الذهاب في حال سبيله بكل تهذيب، وسيكون هذا كلّ شيء».

- «مَن قال إنّني لا أرغب في مساعدة ريك؟ يمكنني أن أرى

كم هو شابٌّ موهوب. هذه المخطّطات واعدةٌ جدّاً. لديَّ كلُّ الأسباب للاعتقاد بأنّه سوف يبلي حسناً في أطلس بروكينغز. المشكلة تكمن في كونكِ أنتِ التي تطلبين منّي يا هيلين».

- «إذاً ما كان يجدر بي أن أتكلّم. كان الأمر يسير على ما يرام قبل أن أتكلّم. رأيتُ كيف انسجمتما معاً، وكيف تحدّث ريك إليكَ باحترام صادق. لكنّني بعد ذلك تدخّلتُ، والآن لدينا مشكلة».

- «هناك مشكلةٌ بالفعل يا هيلين. مشكلةُ سبعة وعشرين عاماً. سبعةٌ وعشرون عاماً وأنتِ ترفضين أي شكلٍ من التواصل معي. أنا لم أكن أضايق والدتكَ خلال تلك الفترة يا ريك. لا أريدكَ أن تعتقد ذلك. حسنٌ، دعنا نقل إنّني كنتُ في البداية منفعلاً عاطفياً. لكنّني لم أضايقها قطّ، لم أهدّدها ولم أَلُمها قطّ. لقد توسّلتُ فحسب. هل هذا توصيفٌ منصفٌ، يا هيلين؟».

- «منصفٌ تماماً. كنتَ مثابراً، لكن لم يكن هناك أبداً أيُّ نوعٍ من المضايقة. لكن فانس، هل يجب قول هذا أمام ريك؟».

- «لا بأس. أحترمُ ذلك. ربّما يجدر بي التوقّف عن الكلام. ربّما حان الوقت كي يصدر بعض الكلام عنكِ بدلاً من ذلك».

- «سيّدي؟ أنا لا أعرف ما الذي حدث في الماضي. لكن إن كنتَ تشعر أنّه من غير اللائق أن نطلب منكَ...».

- «دقيقة فقط يا ريك»، قال السيّد فانس، «أنا راغبٌ في مساعدتك، لكنّني أعتقد أنَّ الوقت حان كي نمنح والدتكَ فرصةً لشرح موقفها».

لم يقل أحدٌ منهم شيئاً لعدّة ثوانٍ. نظرتُ إلى مدير المطعم وتساءلتُ ما إذا كان يستمع للحديث، لكنّه كان يحدّقُ في الظلمة خلف نوافذه، دون أدنى علامةٍ تدلُّ على أنّه سمع شيئاً يثير اهتمامه.

- «أعترف أنّني تصرّفتُ بشكلٍ سيّئ معك يا فانس. أقرُّ بذلك»، قالت الآنسة هيلين، «لكنّني تصرّفتُ بعد ذلك بشكلٍ سيّئ مع نفسي ومع الجميع. لا ينبغي بكَ أن تشعر وكأنّه تمَّ تخصيصك بذلك. لقد تمَّ توزيع فظاعتي على مستوىً واسع».

- «قد يكون الأمر كذلك. لكنّني لم أكن مجرّد أي أحد. لقد تشاركنا حياةً لخمس سنوات. . .».

- «نعم. وأرغبُ حقّاً في الاعتذار. أحياناً يا فانس - وأنت أيضاً يا ريك، لا أمانع في قول ذلك أمامك - أتمنّى لو أتمكّن من جعل كلِّ مَن تعاملتُ معهم بحقارة يصطفّون في طابورٍ طويل. ثم سأشقُّ طريقي على طول الطابور، كما يفعل الملك مثلاً. أصافح يد كلِّ شخص، وأنظر في عينيّ كلِّ واحدٍ منهم وأقول: أنا آسفة، لقد كنتُ شخصاً فظيعاً».

- «رائع. عليَّ الآن أن أقف في الطابور، كي أحظى بشرف تلقّي اعتذار من جلالتها».

- «أوه، عزيزي. لقد خرج هذا منّي على نحوٍ سيّئ. أنا فقط أحاول التعبير. . . عن شعوري. أعرف أنّ الأمر يبدو مروّعاً حين تعبّر عنه على هذا النحو. لكن حين أعود بالزمن وألقي نظرةً على الأشياء، يكون الأمر مربكاً وغامراً، وأفكّر ما إذا كان حلٌّ ما متاحاً. لو كنتُ ملكة، عندئذٍ كنتُ لأستطيع. . .».

- «أمّي، أنا أعرف ما الذي تحاولين قوله. لكنّها ربّما ليست الطريقة المثلى. . .».

- «لقد كنتِ ذات يوم بمثابة ملكة، يا هيلين. ملكة جميلة. واعتقدتِ أنّه بوسعكِ فعل ما تريدين مع حصانةٍ كاملة. أنا حزينٌ نوعاً ما، لكنّني سعيدٌ نوعاً ما كذلك لرؤيتي أنّكِ لم تفلتي من العقاب،

وأنّكِ واجهتِ العواقبِ واضطررتِ لدفع الثمن بعد كلِّ شيء».

- «وما الثمن الذي دفعتُه يا فانس؟ هل تشير إلى كوني فقيرة؟ لأنّني لا أمانع ذلك كثيراً كما تعلم».

- «قد لا تمانعين كونكِ فقيرة يا هيلين. لكنّكِ أصبحتِ هشّة وضعيفة. وأعتقد أنّكِ تمانعين ذلك أكثر بكثير».

بقيت الآنسة هيلين صامتةً لعدّة ثوانٍ بينما ظلَّ السيّد فانس يحدّق بها بعينين واسعتين. ثمَّ قالت أخيراً: «نعم. أنتَ محقّ. لقد أصبحتُ... هشّة مقارنةً بتلك الأيّام التي كنتَ تعرفني فيها. هشّة جدّاً لدرجة أنّني قد أتكسّرُ متناثرةً إلى قطعٍ صغيرة من هبّة ريحٍ واحدة. لقد فقدتُ جمالي، ليس بسبب السنين بل بسبب هذه الهشاشة. لكن يا فانس يا عزيزي، أفلا تسامحني الآن ولو جزئياً على الأقلّ؟ ألا تساعد ولدي؟ فانس. سأقدّم لكَ كلَّ شيء، أيَّ شيء، لكن في الحقيقة لا يمكنني التفكير في شيءٍ أستطيع تقديمه لك. لا شيء على الإطلاق عدا تضرّعي هذا. لذا أنا أتوسّل إليك يا فانس أن تساعده».

- «أمّي، أرجوكِ أوقفي هذا. ما مِن طريقة...».

- «هل ترى الصعوبة التي أواجهها، يا ريك؟ لا أعلم تماماً ما الذي تشير إليه والدتكَ هنا. هي تقول إنّها تريد الاعتذار، لكن عن ماذا بالضبط؟ هذا فضفاضٌ جدّاً. أعتقد أنّ هذا ربّما سوف يعمل بشكلٍ أفضل يا هيلين إذا انتقلنا إلى التفاصيل».

- «أنا أطلب منكَ مساعدة ابني فحسب يا فانس. أليس هذا تفصيلياً بما يكفي؟».

- «تفاصيلٌ، يا هيلين. مثل تلك الأمسية في منزل مايلز مارتن. أنتِ تعرفين الأمسية التي أشير إليها».

- «نعم، نعم. عندما قلتُ للجميع إنّكَ لم تقرأ تقرير جينكينز بعد...».

- «لقد حصدتِ الكثير من الضحكات على حسابي بسبب ذلك، يا هيلين. وكنتِ تعرفين تماماً ما الذي تفعلينه...».

- «إذاً أنا أعتذر يا فانس عن تلك الأمسية. كنتُ فاقدةً للسيطرة، وانتقامية. أتمنّى...».

- «تفصيلٌ آخر. ليس هناك ترتيبٌ محدّد لهذا، أنا أختار من القائمة عشوائياً. ذلك البريد الصوتي الذي تركتِهِ لي في ذاك الفندق، في بورتلاند، أوريغون. هل تظنّين أنّه لم يكن مؤلماً؟».

- «كان مؤلماً للغاية. كانت رسالة حقيرة لم أنسَها قطّ. أنا... ما زلتُ أسمعها في رأسي حتّى الآن، تلك الرسالة تغزوني عندما لا أتوقّعها. يحدث أنّني أحظى بلحظة هدوءٍ مع نفسي، ثم يبدأ الأمر في ذهني، ألتقط الهاتف وأترك لك تلك الرسالة من جديد، إلّا أنّني أقوم بتغييرها هذه المرّة. أعدّلها بحيث لا تكون فظيعةً إلى هذا الحدّ. لأنّني في الواقع لم أسمعها بنفسي مطلقاً، بل سمعتُ نفسي أقولها فحسب، وأحياناً أشعر أنّه لم يفت الأوان بعد لتحسينها. لا يمكنني منع نفسي عن التفكير في ذلك، إنّها حيلةٌ يمارسها ذهني فيجتاحني ذلك الشعور الرهيب من جديد. صدّقني يا فانس، لقد عاقبتُ نفسي كثيراً بشأن تلك الرسالة. وهناك نقطةٌ ينبغي أن تضعها في حسبانك، في تلك الأيّام لم أكن أعرف من الناحية التقنية كيف تمسح رسالة بعد أن تتركها...».

- «أمّي، توقّفي. سيّدي؟ لا أعتقد أنَّ هذا يفيد والدتي كثيراً. لقد كانت رائعةً في الفترة الأخيرة، لكن...».

لمست الآنسة هيلين ذراعه مسكِتةً إيّاه، ومضتْ قائلة: «فانس،

أنا أعتذر. أنا أتوسّل إليك. أقرّ بأنّ سلوكي معك كان سيّئاً، وإذا كنتَ ترغب، فسوف أتعهّد لك بأنّني سأعاقب نفسي، وسأواصل معاقبة نفسي حتّى أعوّضكَ».

- «أمّي، دعينا نذهب. هذا ليس جيّداً لكِ».

- «يمكننا إذا أردتَ يا فانس أن نرتّب للّقاء ثانيةً. لنقل بعد عامين في هذا المكان بالذات. يمكنكَ عندئذٍ أن تتحقّق وترى أنّني أوفيتُ بوعدي. يمكنكَ أن تنظر إليَّ وتتأكّد من أنّني كنتُ أعاقب نفسي كما يجب...».

- «هذا يكفي، هيلين. لو لم يكن ريك هنا كنتُ لأقول لكِ رأيي في كلِّ هذا».

- «سيّدي؟ أنا لا أتمنّى منكَ فِعل أيّ شيءٍ على الإطلاق لمساعدتي. لم أعد أريد شيئاً من هذا الآن».

- «لا، يا ريك. أنتَ لا تعرف ماذا تقول»، قالت الآنسة هيلين. «لا تستمع إليه يا فانس».

نهض السيّد فانس على قدميه وقال: «عليَّ أن أذهب».

- «أمّي، اهدئي من فضلك. لا شيءَ من هذا بذي أهمّية».

- «أنتَ لا تعرف ماذا تقول يا ريك! فانس، لا تذهب الآن! دعنا لا نفترق على هذا النحو. لقد كنتَ تحبُّ الدونات. ألا ترغب في واحدة الآن؟».

- «أنا أتّفقُ مع ريك. لا شيءَ من هذا مفيدٌ لكِ يا هيلين. أفضل ما يمكنني فعله هو أن أغادر. ريك؟ تلك المخططات تعجبني، وأنتَ أيضاً تعجبني. اعتنِ بنفسكَ جيّداً. وداعاً هيلين».

مشى السيّد فانس في الممرّ بين المقصورات، دون أن يلقي نظرةً أخيرة على أيّة منّا، ثمَّ خرج عبر الباب الزجاجي إلى الظلام.

جلست الآنسة هيلين وريك جنباً إلى جنب ينظران إلى الأسفل، إلى الفراغ على سطح الطاولة. ثمَّ قال ريك: «كلارا، تعالي واجلسي معنا هنا».

- «أنا أتساءل»، قالت الآنسة هيلين.

اقترب ريك منها أكثر، ووضع ذراعه على كتفيها. «عمَّ تتساءلين يا أمّي؟».

- «أتساءل إن كان ذلك كافياً، إن كان سيرضيه».

- «بصدقٍ يا أمّي، لو كنتُ أعرف أنَّ الأمر سيجري على نصف النحو الذي جرى عليه، لكنتُ قلت: أبداً، ليس بعد مليون سنة».

دلفتُ في المقعد الذي أخلاه السيّد فانس، لكنَّ أيّاً منهما - الآنسة هيلين وريك - لم يرفع رأسه لينظر إليّ. نظرتُ إلى الآنسة هيلين، وفكّرتُ كيف كانت والسيّد فانس مغرمَين أحدهما بالآخر. وتساءلتُ إن كان هناك وقتٌ حيث كان السيّد فانس والآنسة هيلين لطيفين أحدهما تجاه الآخر كحال ريك وجوزي الآن. وإن كان من الوارد أن يبدي ريك وجوزي مثل هذه الفظاظة أحدهما تجاه الآخر. وتذكّرتُ الأب وهو يتحدّث في السيّارة عن قلب الإنسان، ومدى تعقيده، ورأيتُه يقف في الباحة، قبالة الشمس الخفيض مباشرة، وقد انجدلت هيئته مع ظلّه المسائي في شكلٍ واحدٍ ممطوط وهو يمدُّ يده ويفكُّ غطاء الحماية عن فوهة آلة كوتينغز، بينما كنتُ أقف خلفه بقلقٍ ممسكةً بزجاجة المياه البلاستيكية التي تحتوي على المحلول الثمين.

- «ما الذي حدث للتوّ؟»، سألت الآنسة هيلين. «ماذا سيفعل فانس؟ هل سيساعد ريك؟ كان يمكنه بطريقة أو بأخرى أن يخبرنا بذلك على الأقل».

- «المعذرة»، قلتُ لها. «لا أريد أن أبعث أملاً غير مضمون

هنا. لكن وممّا لاحظتُه، أعتقد أنَّ السيّد فانس سيقرّر مساعدة ريك».

- «هل تعتقدين ذلك حقّاً؟»، سألتْ الآنسة هيلين. «لماذا؟».

- «قد أكون مخطئة. لكنّني أعتقد أنَّ السيّد فانس لا يزال مولعاً بالآنسة هيلين وسوف يقرر مساعدة ريك».

- «أوه، أيّتها الروبوت العزيزة! كلّي أملٌ أن تكوني محقّة. لا أعرف ما الذي يمكنني فعله غير ذلك».

- «أمّي، فليذهب إلى الجحيم. سأكون بخير في كلّ الأحوال».

- «لم يكن قبيحاً بالقدر الذي توقعت»، قالت الآنسة هيلين ونظرتْ إلى الشارع الخالي المظلم. «في الواقع، لم يكن مظهره سيّئاً على الإطلاق. أتمنّى فقط لو أنّه أخبرنا، بطريقة أو بأخرى».

■

لا بدَّ أنَّ مقصورتنا كانت مرئيةً بوضوح للأمّ بينما هي تركن قرب الرصيف على جهتنا من المطعم. لكنّها أطفأت الأضواء وبقيتْ في السيّارة، ربّما كانت ترغب في توفير الخصوصية، رغم رؤيتها أنَّ السيّد فانس كان قد رحل.

لكن حين خرجنا من المطعم ودلَفنا في السيّارة، وبدأنا نتحرّك في عتمة الليل، رأيتُ أنّها كانت قلقةً بشأن ترك جوزي وحدها في شقّة الصديق، وحريصةً على إيصالي إلى هناك بأسرع ما يمكن قبل أن تصطحب ريك والآنسة هيلين إلى فندقهما ذي الكلفة المعقولة.

«كيف سار الأمر؟»، سألت الأمّ حالما ركبنا في السيّارة، لكن بعد أن أجابت الآنسة هيلين بـ «ليس جيّداً جدّاً، سيتعيّن علينا أن ننتظر

ونرى»، كان ثمّة حديثٌ قصيرٌ جدّاً في السيّارة، ثمَّ أصبح كلُّ شخصٍ سارحاً بأفكاره الخاصّة.

كان تمييز شقّة الصديق عن جاراتها أكثر صعوبةً في الليل. قادتني الأمّ إلى السلالم الصحيحة، ومن أعلى الدرج نظرتُ إلى السيّارة التي تنتظر تحت ضوء الشارع. استطعتُ أن أرى بداخلها هيئتي ريك والآنسة هيلين، وتساءلتُ عمّا قد يقولانه أحدهما للآخر وقد أصبحا لوحدهما في السيارة الآن.

كانت شقّة الصديق كما تركناها تماماً لدى انطلاقنا لمقابلة السيّد كابالدي، إلّا أنَّ الظلام كان الآن يلفّها بالطبع. استطعتُ من ردهة المدخل أن أرى الصالة الرئيسية، وكانت أنساق الليل تتساقط فوق الأريكة التي انتظرت عليها جوزي وصول الأب. كان كتابها لا يزال على السجّادة حيث تركتْه يسقط.

أشارت الأمّ عبر القاعة وقالت بهدوء: «لا بدّ أن تكون قد نامت بسرعة، لذا ادخلي بهدوء، واتّصلي بي إن أثار أيّ شيءٍ قلقك. سأكون هنا خلال عشرين دقيقة».

كانت الأمّ على وشك الخروج، ولم أكن أرغب في أن أؤخّر عودة ريك والآنسة هيلين إلى الفندق ذي الكلفة المعقولة، لكنّني قلتُ مع ذلك:

- «يمكننا الآن أن نأمل».

- «ماذا تقصدين؟».

- «حين يعود الشمس في الصباح. يمكننا عندئذٍ أن نأمل».

- «حسنٌ. أرى أسلوبكِ في البقاء متفائلةً دائماً أمراً مفيداً».

مدّت يدها إلى قبضة الباب. «لا تشعلي أيَّ أضواء، يمكن أن تنزعج

منها حتّى وهي هناك في الداخل». ثمَّ أصبحت الأمّ ساكنةً على نحوٍ غريب، وهي تقف هناك في شبه ظلمة وأنفها يكاد يلمس سطح الباب. قالت دون أن تستدير إليّ: «لقد تحدّثتُ مع جوزي قبل قليل. لقد أخذ الحديث بعض المنعرجات الغريبة. أظنُّ أنّنا كنّا نحن الاثنتين نشعر بالتعب. إذا استيقظت وقالت لكِ أيّ شيءٍ غريب، فلا تولي الأمر الكثير من الاهتمام. أوه، وتذكّري أن تتركي هذه السلسلة خارج السكّة وإلّا لن أستطيع الدخول مجدّداً. تصبحين على خير».

■

دخلتُ غرفة النوم الثانية بحذر، ووجدتُ جوزي نائمةً نوماً عميقاً. كانت هذه الغرفة أضيق من غرفة النوم في المنزل، لكن السقف كان أكثر ارتفاعاً، وحيث إنَّ جوزي تركتْ الستارة نصف مفتوحة فقد كان ثمّة أشكالٌ تتساقط على خزانة الملابس والجدار المجاور لها. ذهبتُ إلى النافذة ونظرت خارجاً في الظلمة كي أحدّد المسار الذي قد يتّخذه الشمس في الصباح، وكم سيكون من السهل عليه النظر إلى الداخل. كانت النافذة طويلةً وضيّقة مثل الغرفة نفسها. كانت واجهتان خلفيّتان لمبنيين تبدوان قريبتَين من النافذة على نحوٍ غريب، واستطعتُ أن أخمّن شبكة أنابيب صرف تحدّد خطوطاً عمودية، ونوافذ متكرّرة كانت فارغةً بمعظمها أو مغطّاةً بالستائر. كان يمكنني أن أرى من بين المبنيين الشارع الذي خلفهما، الذي توقّعتُ أنّه سيكون مزدحماً بحلول الصباح. حتّى الآن وفي مثل هذا الوقت المتأخر، كان هناك تدفّقٌ ثابت من المركبات تعبر الفجوة بين المبنيين. فوق تلك القطعة من الشارع كان ثمّة عمودٌ طويل من سماء الليل، وقدّرتُ أنَّ الشمس لن يجد صعوبة في سكب غذائه المميّز من

خلال ذلك العمود رغم كونه ضيّقاً. أدركتُ أيضاً كم من المهمّ أن أظلَّ يقظة وجاهزةً عند أوّل إشارة لرفع الستارة بالكامل.

- «كلارا؟». تحرّكت جوزي ورائي. «هل عادتْ أمّي أيضاً؟».

- «لن تتأخّر في العودة. هي فقط تقوم بتوصيل ريك والآنسة هيلين إلى فندقهما».

بدا أنّها عادت لتغطَّ في النوم. لكنّني سمعتُ أغطية السرير تتحرّكُ مجدّداً بعد بضع لحظات.

- «لن أسمح بأن يصيبكِ أي مكروه». أصبحت أنفاسها أطول وظننتُ أنّها غطّت في النوم. ثمَّ قالت بصوتٍ أوضح: «لا شيء يتغيّر».

أصبحتِ الآن صاحية، لذا قلتُ لها: «هل ناقشتكِ الأمّ بفكرةٍ جديدة؟».

- «حسنٌ، لا أعتقد أنّها كانت فكرة. أخبرتُها أنَّ شيئاً كهذا لا يمكن أن يحدث».

- «أتساءل ماذا اقترحت الأمّ».

- «ألم تتحدّث إليكِ بالفعل؟ لم يكن بشيءٍ ذي أهمّية. بعض الأفكار الغامضة التي تتقافز في رأسها».

تساءلتُ إن كانت ستقول المزيد. تحرّك اللحاف مجدّداً.

- «أظنُّ أنّها كانت تحاول أن. . . تعرض عليَّ شيئاً على ما أظنّ. قالت إنّ بوسعها التخلّي عن وظيفتها والبقاء معي طوال الوقت إذا كنتُ أريد ذلك. قالت إنّها تستطيع أن تصبح شخصاً يبقى معي دائماً. سوف تفعل ذلك إن كنتُ أريده حقّاً، سوف تترك وظيفتها، لكنّني قلتُ؛ ما الذي سيحدث لكلارا؟ وكان لسان حالها وكأنّه يقول

إنّنا لن نكون بحاجةٍ إلى كلارا بعد ذلك لأنّها ستكون هي معي طوال الوقت. بدا واضحاً أنّه لم يكن ذلك شيئاً قد فكّرت فيه حقّاً. لكنّها ظلّت تسأل كما لو أنَّ عليَّ أن أقرّر، لذا قلتُ لها في النهاية؛ اسمعي يا أمّي، سوف لن ينجح ذلك. أنتِ لا تريدين أن تتخلّي عن وظيفتك، وأنا لا أريد أن أتخلّى عن كلارا. كان هذا كلّ شيءٍ تقريباً. لن يحدث ذلك، وأمّي وافقت».

كنّا صامتتَين لبعض الوقت بعد ذلك، اختبأتْ جوزي في الظلال بينما بقيتُ أنا واقفةً عند النافذة.

أخيراً قلتُ لها: «ربّما تعتقد الأمّ أنّها إذا بقيتْ مع جوزي طوال الوقت، فإنَّ جوزي ستمسي أقلَّ وحدة».

- «مَن قال إنّني وحيدة؟».

- «إن كان هذا صحيحاً، إن كانت جوزي حقّاً ستصبح أقلَّ وحدة مع الأمّ، فسوف أرحل عندئذٍ بكلِّ سرور».

- «لكن مَن قال إنّني وحيدة؟ أنا لستُ وحيدة».

- «ربّما كلُّ البشر وحيدون، ولو بعد حين على أقلِّ تقدير».

- «اسمعي يا كلارا، تلك كانت مجرّد فكرةٍ غبية راودت أمّي. كنتُ قبل ذلك أسألها حول البورتريه، فعلقتْ في عقدةٍ متشابكة من التفسيرات ثمَّ خرجتْ بهذه الفكرة. إلّا أنّها لم تكن فكرة؛ لم تكن شيئاً في الحقيقة. لذا، هل يمكننا أن ننسى ذلك تماماً من فضلك؟».

صمتتْ جوزي مجدّداً، ثمَّ غطّت في النوم. قرَّرتُ أنّه إذا استيقظت ثانيةً، سينبغي عليَّ أن أقول شيئاً ما كي أحضّرها لِما قد يحدث في الصباح، كي أتأكّد على الأقلّ أنّها لم تفعل شيئاً يعيق

وصول مساعَدته المميّزة. لكنّ نومها أصبح أعمق فأعمق؛ ربّما لأنّني كنتُ معها في الغرفة، فتركتُ النافذة أخيراً كي أقف قرب خزانة الملابس، حيث كنتُ أعرف أنّني سأرى العلامات الأولى لعودة الشمس.

■

جلسنا في نفس المواقع التي كنّا فيها أثناء رحلة قدومنا إلى المدينة. كان ارتفاع ظهرَي المقعدين الأماميين يعني أنّني استطعتُ رؤية الأمّ على نحوٍ جزئيٍ فقط أثناء قيادتها السيّارة، وكنتُ غير قادرةٍ أبداً على رؤية الآنسة هيلين، إلّا عندما كانت تلتفتُ محدّقةً من طرف المقعد تأكيداً على ما كانت تقوله. في إحدى هذه المناسبات - كنّا لا نزال نخوض في حركة المرور البطيئة في المدينة صباحاً - التفتت الآنسة هيلين إلينا على هذا النحو وقالت:

- «لا، عزيزي ريكي، لا أريدكَ أن تقول أيَّ شيءٍ بغيضٍ عنه. أنتَ لا تعرفه على الإطلاق ولا تفهمه. كيف يمكنكَ ذلك؟». ثمَّ اختفى وجهها، لكنَّ صوتها تابع قائلاً: «أفترض أنّني قلتُ بنفسي الكثير من الأشياء الليلة الماضية. لكنّني هذا الصباح أدركتُ كم كان هذا غير منصف. ما الذي يعطيني الحقّ في أن أتوقّع أيَّ شيءٍ منه؟».

بدا أنَّ الآنسة هيلين توجّه هذا السؤال الأخير إلى الأمّ، لكنَّ الأمّ بدت بعيدةً جدّاً. وبينما كانت الأمّ تقود بنا عبر تقاطعٍ آخر، همهمت قائلة: «بول ليس سيّئاً. أعتقد أحياناً أنّني أقسو عليه كثيراً. إنّه ليس برجلٍ سيّئ. أشعر بالأسف عليه اليوم».

- «هذا مضحك»، قالت الآنسة هيلين. «لكنّني استيقظتُ هذا الصباح مع مزيدٍ من الأمل. شعرتُ أنّه من الوارد جدّاً أنَّ فانس

سيقدّم المساعدة رغم كل شيء. لقد أصيب بالتوتّر نوعاً ما الليلة الماضية، لكنّ وبمجرّد أن يهدأ ويتأمّل في الأمر، ربّما سيقرّر أنّه يريد أن يكون محترماً. هو يحبّ أن يسوّق لنفسه صورة الرجل المحترم جدّاً».

تململ ريك بجانبي. «لقد أخبرتكِ يا أمّي. لن يكون لديَّ أيُّ شأنٍ آخر بذلك الرجل. وينبغي ألّا يكون لكِ شأنٌ به أيضاً».

– «هيلين»، قالت الأمّ. «هل سيصل بكِ هذا إلى أيِّ مكانٍ حقّاً؟ هل أنَّ الاستمرار في الدوران حول الأمر على هذا النحو سيؤدّي إلى أيّة نتيجة؟ لمَ لا تنتظرين وترين فحسب؟ لماذا تعذّبين نفسك؟ أنتما الاثنين فعلتما كلَّ ما بوسعكما».

على الجانب الآخر من ريك، أخذتْ جوزي يد ريك وشابكت أصابعها بأصابعه. ابتسمت له ابتسامةً مشجِّعة، لكنّي اعتقدتُ أنّها حزينةٌ بعض الشيء أيضاً. ابتسم لها ريك بالمقابل، وتساءلتُ ما إذا كانا يتبادلان رسائل سرّية عبر نظراتهما فحسب.

عدتُ إلى النافذة المجاورة لي، وأرحتُ جبهتي على الزجاج. كنتُ منذ أولى بوادر الفجر أراقب وأنتظر. لكن ورغم أنَّ أشعّة الشمس الأولى كانت قد دخلت مباشرةً إلى غرفة النوم الثانية عبر الفجوة بين المبنيَين، إلّا أنَّ الأمر لم يلتبس عليَّ لثانيةٍ واحدة وعرفتُ على الفور أنَّ هذا لم يكن غذاءه المميّز. تذكّرتُ بالطبع أنّه ينبغي بي أن أكون ممتنّة كحالي دائماً، لكنّني لم أقدر على إخراج خيبة الأمل من ذهني. بعدها، وطوال فترة الإفطار المبكّر وحزم الحقائب، وأثناء تجوال الأمّ في شقّة الصديق كي تتحقّق من الإجراءات الأمنية، بقيتُ أراقب وأنتظر. والآن، وإذ أنحني إلى الأمام وأنظر أبعد من ريك وجوزي، كان بإمكاني رؤية الشمس وهو

لا يزال في منحنى صعوده الصباحي يومض من بين الأبنية الشاهقة لدى مرورنا متجاوزين إيّاها. فكّرتُ حينها في الأب وهو يغلق باب هذه السيّارة بالذات، وينظر أبعد منّي باتّجاه الباحة وآلة كوتينغز، ويقول: «لا تقلقي، لقد سمعتُ ذلك الصوت، ذاك الأزيز الخافت. تلك هي العلامة الأكيدة. لن تقوم لذلك الوحش قائمة بعد اليوم». ثمَّ بعد لحظة، ارتسمت ملامح وجهه على نحوٍ ضبابي أمامي، فيما سألني صوته: «هل أنتِ بخير؟ هل يمكنكِ رؤية أصابعي؟ كم واحداً ترَين؟» وانتابتني مجدّداً - كحالي طوال الصباح - موجة قلق من ألّا يفي الشمس بالوعد الذي قطعه في حظيرة السيّد ماكبين.

- «اسمع يا ريك»، قالت الأمّ. «بغض النظر عن أيِّ شيءٍ آخر حدث الليلة الماضية، فقد نال عملكَ وملفّكَ الشخصي الثناء والإعجاب. يجب أن تشعر بالتشجيع جرّاء ذلك. هذا سببٌ إضافيٌّ كي تؤمن بنفسك».

- «أرجوكِ يا أمّي»، قالت جوزي. «ريك ليس في حاجةٍ إلى محاضراتٍ كبيرة الآن». لم تستطع السيّدتان البالغتان رؤية ذلك، لكنَّ جوزي شدّت قبضتها على يد ريك، وابتسمت له مجدّداً. نظر إليها، ثمَّ قال:

- «أقدّر لكِ هذا يا سيّدة آرثر. لطالما كنتِ لطيفةً معي. شكراً لكِ».

- «لا يمكن التخمين»، قالت الآنسة هيلين، «لا يمكن التخمين مع فانس».

كنتُ واعيةً منذ بضع لحظات للمبنى المرتفع الذي كان يقترب الآن من جهتي. كان يتشارك بعض الخصائص مع مبنى RPO، إلّا

أنه كان أكثر ارتفاعاً حتّى، ولأن حركة السير كانت قد تباطأت تماماً، فقد أمكنني تفحّصه بعناية. كان الشمس يلقي بأشعّته على واجهته الأمامية، وتَحَوَّل جزءٌ من هذه الواجهة إلى ما يشبه مرآةً للشمس، تلقي بانعكاسٍ حادٍّ وشديد لضوء الصباح. نُظِّمتْ نوافذ المبنى الكثيرة في صفوف عمودية وأفقية، ومع ذلك كانت النتيجة عبارةً عن فوضى، إذ غالباً ما تراصفت الصفوف تصاعدياً بصورةٍ ملتوية، حتّى أنّها كانت في بعض الأحيان تتداخل بعضها ببعض. رأيتُ عمّال مكاتب يتنقلون داخل المبنى، وفي بعض الأحيان يقتربون وصولاً إلى الزجاج كي ينظروا إلى الشارع. لكن كان من الصعب تماماً رؤية الكثير من نوافذ المبنى بسبب سحابة ضباب رمادية كانت تنجرف أمامها، وبعد ذلك بلحظة، وإذ تقدّمت الأمّ بالسيّارة أكثر قليلاً، رأيتُ عبر فجوة بين المركبات المجاورة، رأيتُ الآلة، تحتلُّ حيّزها الخاص ومحميّة من حركة المرور بحواجز رجال الصيانة. كانت الآلة تنفث التلوّث من مداخنها الثلاث، وكانت أحرف اسمها الأولى - C-O-O - هناك على هيكلها. حتّى حين اجتاحت خيبة الأمل ذهني، استطعتُ أن ألاحظ أنَّ تلك لم تكن نفس الآلة التي دمّرتُها والأب في الباحة. كان لهيكلها درجةٌ مختلفة من اللون الأصفر، وحجمها أكبر قليلاً - وقدرتها على إحداث التلوّث أكبر على نحوٍ ملحوظ من آلة كوتينغز الأولى.

- «انتظري الآن، وترقّبي فحسب يا هيلين»، قالت الأمّ. «ربّما تكون هناك خياراتٌ أخرى لريك على أيّة حال». اجتزنا آلة كوتينغز الجديدة، وانجرف ضباب التلوّث الرمادي على سطح الزجاج الأمامي، حتّى أنَّ الأمّ تمتمت لدى رؤيتها ذلك: «انظري إلى ذلك، كيف يفلتون بفعلتهم؟».

- «حتّى إن كان هناك خيارات يا أمّي»، قالت جوزي، «هل ستكون تلك كليّات ستسمحين لي بالذهاب إليها؟».

- «لا أفهم لمَ يجب أن تذهبي أنتِ وريك إلى نفس الكلّية؟»، قالت الأم. «ماذا؟ هل تزوّجتما بالفعل؟ يذهب الشباب إلى شتّى الأماكن، ويظلُّ بوسعهم البقاء على اتّصال».

- «أمّي، هل علينا حقّاً أن نتحدّث عن هذا الآن؟ ريك لا يحتاج إلى هذا الآن».

استدرتُ لأنظر عبر الزجاج الخلفي. كان المبنى الشاهق لا يزال مرئياً، لكن آلة كوتينغز الجديدة باتت محجوبة بالمركبات الأخرى. كنتُ الآن أعرف لماذا لم يفعل الشمس شيئاً، وللحظةٍ تركتُ ربّما لجسدي أن يرتخي بشكلٍ مفاجئ ورأسي أن يتدلّى للأسفل. جوزي التي كانت منحنية إلى الأمام في مقعدها، نظرتْ إليّ.

- «انظري يا أمّي»، قالت جوزي، «ها قد أزعجتِ كلارا أيضاً. وقد كانت منزعجةً بما يكفي بسبب انتقال متجرها. إنّنا بحاجة إلى حديثٍ باعثٍ على السعادة الآن».

القسم الخامس

بدأت جوزي تفقد قواها بعد أحدَ عشر يوماً من عودتنا من المدينة. في بداية الأمر، بدا أنَّ هذه المرحلة لم تكن أسوأ من سابقاتها، لكن ظهرت بعدئذٍ علاماتٌ جديدة، مثل التنفّس الغريب، وما كان أقرب إلى شبه استيقاظ في الصباح، حيث تكون عيناها مفتوحتين لكنّهما فارغتان. إذا تحدّثتُ إليها أثناء إحدى حالات الدوخة هذه، فهي لم تكن تستجيب، وأخذت الأم تصعد إلى غرفة النوم باكراً كلَّ صباح. وإذا كانت جوزي في حالتها هذه من شبه الاستيقاظ، فإنَّ الأمّ كانت تقف فوق السرير وتردّد بصوتٍ مكتوم: «جوزي، جوزي، جوزي»، كما لو أنَّ هذا جزءٌ من أغنيةٍ كانت تحفظها.

كان ثمّة أيّامٌ أفضل حين كانت جوزي تجلس في السرير وتتحدّث، حتّى أنّها كانت تتلقّى دروسها عبر لوحها المستطيل، لكن كانت هناك أيّامٌ أخرى حيث كانت تنام فحسب ساعةً تلو الأخرى. بدأ الدكتور رايان يأتي كلّ يوم، ولم تعد الابتسامة ترتسم على ملامحه. صارت الأمّ تتأخر في الذهاب إلى عملها أكثر فأكثر كلّ صباح، وكانت تخوض أحاديث طويلة في الردهة المفتوحة خلف أبوابٍ مغلقة.

تمَّ الاتّفاق في الأيام الأفضل التي تلت زيارتنا إلى المدينة مباشرة على أن أساعد ريك في دراسته، لذا فقد كان يأتي إلى المنزل كثيراً خلال هذه الفترة. لكنّه فقد الاهتمام بالدروس مع تدهور حالة جوزي، واعتاد أن يذرع القاعة جيئة وذهاباً في انتظار أن يتمَّ استدعاؤه إلى غرفة النوم من قبل الأمّ أو المدبّرة ميلانيا. حتّى لو حدث ذلك، لم يُسمح له بأكثر من الوقوف لبضع دقائق عند باب الغرفة، والنظر إلى هيئة جوزي المستغرقة في النوم. ذات مرّةٍ، وبينما هو يراقبها على هذا النحو، فتحتْ جوزي عينيها وابتسمت.

- «مرحباً ريك. آسفة، أنا متعبةٌ جدّاً كي أتمكّن من رسم الصور اليوم».

- «لا بأس. ابقَي مرتاحةً فقط، وسوف تكونين بخير».

- «كيف حال طيورك يا ريك؟».

- «طيوري بخير، جوزي. إنّها تتقدّم بصورةٍ جيّدة».

كان ذلك كلَّ ما استطاعا قوله قبل أن تُغمض عينا جوزي مجدّداً.

مشيتُ بعد تلك المناسبة مع ريك لأنّه بدا محبطاً للغاية، نزلتُ معه السلالم وخرجنا من الباب الأمامي. وقفنا معاً فوق الأحجار الرخوة ننظر إلى السماء الرمادية. كان يمكنني رؤية أنّه أراد التحدّث أكثر، لكنّه أدرك ربّما أن صوتنا يمكن أن يُسمع من غرفة النوم، لذا ظلَّ صامتاً فيما هو يلكز الأحجار بطرف حذائه الرياضيّ. ومن ثمّ سألتُه: «هلّا تمشّى ريك معي قليلاً؟» وأشرتُ نحو بوّابة إطار الصورة.

رأيتُ لدى دخولنا الحقل الأوّل أنَّ العشب كان أكثر اصفراراً

ممّا كان عليه في ذلك المساء حين عبرنا إلى حظيرة السيّد ماكبين. مشينا ببطء على طول الدرب الضيّق، بينما الرياح تفرّقُ العشب بصورةٍ غير منتظمة لتسمح برؤية لمحاتٍ من منزل ريك في البعيد.

وصلنا إلى بقعة حيث بات الدرب الضيّق أكثر اتّساعاً، وصولاً إلى ما يشبه مصطبةً في الخلاء، وهناك توقّف ريك واستدار ليقف قبالتي، فيما العشب يخشخش حولنا من كلِّ الاتّجاهات.

- «لم تكن حالة جوزي بهذا السوء أبداً من قبل»، قال وهو ينظر إلى الأرض. «ظللتِ تقولين إنَّ ثمّة سبباً للأمل، ظللتِ تقولين ذلك كما لو أنَّ هناك سبباً مميّزاً حقّاً. لذا فقد جعلتِني أعقد الآمال أيضاً».

- «أنا آسفة. ربّما يكون ريك غاضباً. الحقيقة أنّني أُصبت بخيبة أملٍ أيضاً. رغم ذلك، أعتقد أنّه لا يزال هناك سببٌ للأمل».

- «بالله عليكِ يا كلارا. إنَّ حالتها تزداد سوءاً فحسب. يمكنكِ رؤية أنَّ الطبيب والسيّدة آرثر على وشكِ أن يستسلما ويفقدا الأمل نهائياً».

- «رغم ذلك، أعتقد أنّه لا يزال هناك أمل. أعتقد أنَّ المساعدة يمكن أن تأتي من مكان لم يأخذه البالغون بعد بعين الاعتبار. لكنّنا نحتاج لفعل شيءٍ ما الآن وبسرعة». - «لا أعرف ما الذي تتحدّثين عنه هنا يا كلارا. أخمّن أنَّ له علاقة بتلك الصفقة الكبيرة التي لا يمكنكِ تشاركُها مع أيِّ أحد».

- «كي أكون صادقة، منذُ عودتنا من المدينة كنتُ غير واثقة. كنتُ أنتظر وأتردّد، على أمل أن تأتي المساعدة المميّزة في جميع الأحوال. لكنّني الآن أعتقد أنَّ المسار الصحيح الوحيد لي هو أن أذهب من جديد وأشرح. إذا تقدّمتُ بالتماسٍ خاص.. لكن لا

ينبغي بي التحدّث أكثر عن ذلك. أحتاج أن يثق بي ريك ثانيةً. أحتاج أن أذهب إلى حظيرة السيّد ماكبين مرّةً أخرى».

- «إذاً تريدين منّي أن أحملكِ مجدّداً؟».

- «ينبغي بي أن أذهب إلى هناك في أقرب وقت. إن لم يكن ريك قادراً على أخذي إلى هناك فسوف أحاول بمفردي».

- «مهلكِ لحظة. بالطبع سوف أساعد. أنا لا أفهم كيف لهذا أن يساعد جوزي، لكن طالما أنّكِ تقولين إنّه كذلك، إذاً بالطبع سوف أساعد».

- «شكراً لك! إذاً ينبغي بنا الذهاب دون تأخير، هذا المساء. وعلينا مثل المرة الماضية أن نصل هناك تماماً أثناء نزول الشمس إلى مقرّ راحته. ينبغي بريك أن يقابلني هنا، في نفس هذه البقعة تمام الساعة السابعة والربع مساءً. هلّا فعلتَ ذلك رجاءً؟».

- «مئةً في المئة سأفعل».

- «شكراً لك. هناك أمرٌ آخر؛ حين أصلُ إلى الحظيرة، سوف أقدّم اعتذاراتي بالطبع. كان ذلك خطئي، لقد قلّلتُ من شأن مهمّتي. لكن يجب أن يكون لديَّ شيءٌ آخر، شيءٌ إضافي يمكنني أن أتضرّع به. لذا يتوجّب عليّ أن أسأل ريك، رغم أنَّ هذا السؤال ينتهك الخصوصية. يجب أن تخبرني ما إذا كان الحبّ بين ريك وجوزي حقيقيّاً، ما إذا كان صادقاً ودائماً. يجب أن أعرف ذلك. لأنّه إن كانت الإجابة بنعم، سيكون لديَّ عندئذٍ شيءٌ لأتفاوض به بغضّ النظر عمّا حدث في المدينة. لذا أرجو منكَ أن تفكّر بإمعان يا ريك، وأن تخبرني بالحقيقة».

- «لستُ بحاجةٍ إلى التفكير. لقد ترعرعنا معاً أنا وجوزي،

نحن الاثنان جزءٌ من أحدنا الآخر. ولدينا خطّتنا الخاصّة. بالطبع حبّنا حقيقيّ وإلى الأبد. ولم يشكّل أيَّ فرقٍ بالنسبة لنا أنَّ أحدنا تمّ تعديله والآخر لا. هذه هي إجابتكِ يا كلارا، ولن يكون هناك غيرها».

- «شكراً لك. لديَّ الآن شيءٌ مميّزٌ جدّاً. لذا، لا تنسى رجاءً، لاقِني هنا مجدداً في السابعة والربع. في نفس هذا المكان الذي نقف فيه».

■

كنتُ الآن أكثر اعتياداً على الركوب فوق ظهر ريك، وغالباً ما كنتُ أمدُّ يدي للمساعدة في تفريق العشب. لم يكن العشب أكثر اصفراراً ممّا كان عليه في رحلتنا السابقة فحسب، بل كان أيضاً أكثر نعومة ومرونة، حتّى غيوم حشرات المساء كانت تنفرط برفق على وجهي لدى مرورنا عبرها. لم تتقسَّم الحقول هذه المرّة أبداً، وحالما أصبحت بوابة إطار الصورة الثالثة خلفنا، بات لديَّ رؤيةٌ واضحة لحظيرة السيّد ماكبين في الأمام، والسماء البرتقالية الواسعة فوقها - والشمس قد أصبح قريباً بالفعل من أعلى مثلّث السقف.

حين وصلنا إلى منطقة العشب المجزوز، طلبتُ من ريك أن يتوقّف وينزلني. ثمَّ، وبينما وقفنا نشاهد الشمس يهبط إلى الأسفل شيئاً فشيئاً، جاء ظلُّ الحظيرة نحونا متطاولاً عبر العشب المتماوج في أنماط عشوائية كما حدث في المرّة الماضية. تذكّرتُ حالما ذهب الشمس خلف هيكل سقف الحظيرة كم من المهمّ عدم سلب أيّ قدرٍ زائد من الخصوصية، فطلبتُ من ريك أن يتركني ويغادر.

- «ما الذي يحدث هناك في الداخل؟» سألني ريك، لكنّه لمس

كتفي برفق قبل أن أتمكّن من إعطاء أيٍّ إجابة وقال: «سأكون بانتظارك في نفس المكان حيث كنتُ المرّة الماضية».

ثمّ رحل، وبتُّ وحدي أنتظر أن يعاود الشمس الظهور تحت مستوى السقف ويرسل لي أشعّته الأخيرة عبر الحظيرة. خطر لي عندها أنَّ الأمر ليس فقط أنّ الشمس قد يكون غاضباً بسبب فشلي في المدينة، ولكن أيضاً أنَّ هذه قد تكون فرصتي الأخيرة للتوسّل من أجل الحصول على مساعدته المميّزة - وفكّرتُ ما الذي سيعنيه فشلي بالنسبة إلى جوزي. تسلّل الخوف إلى ذهني، لكنّني تذكّرت عندئذٍ لطفه وكرمه العظيمين، وسرتُ دون مزيدٍ من التردد نحو حظيرة السيّد ماكبين.

■

كما من قبل، كان الضوء البرتقالي يغمر الحظيرة، وكان من الصعب عليَّ في البداية رؤية محيطي. لكنّني سرعان ما ميّزتُ كتل القشّ المكدّسة إلى يساري، واستطعتُ رؤية أنَّ الجدار الواطئ الذي كانت تشكّله قد أصبح أكثر انخفاضاً حتّى. نفس نثرات القش كانت هناك محبوسةً داخل أشعّة الشمس، لكنّها وبدلاً من أن تنجرف مع الهواء كانت تتحرّك الآن بانفعال كما لو أنَّ إحدى كتل القش قد سقطت مؤخّراً لتصطدم بالأرضية الخشبية الصلبة وتتفكّك. لاحظتُ إذ مددتُ يدي لألمس هذه النثرات المتحرّكة كيف تلقي أصابعي بظلالٍ تمتدُّ حتى مدخل الحظيرة.

كان الجدار الحقيقي للحظيرة خلف كتل القش، وسررتُ لرؤية أنَّ الرفوف الحمراء من متجرنا القديم لا تزال مثبّتةً عليه، رغم أنّها كانت قد أصبحت معوّجةً هذا المساء، وتنحرف على نحوٍ ملحوظ

باتّجاه الجهة الخلفية من المبنى. حافظت أكواب القهوة الخزفية على صفّها المنتظم، لكن كانت ثمّة إشاراتٌ مربكة أيضاً: على سبيل المثال، استطعتُ أن أرى على نفس الصفّ غرضاً كان بلا أدنى شكّ خلّاط الطعام الخاصّ بالمدبّرة ميلانيا.

تذكّرتُ كيف جلستُ المرّة الماضية على كرسيٍّ معدنيّ قابلٍ للطيّ، فاستدرت نحو الجانب الآخر من الحظيرة على أمل أن أرى مجدّداً ليس فقط الكرسي، ولكن الكوّة الأمامية لمتجرنا أيضاً - وربّما حتّى ص. ا. يقف بداخلها بفخر. في الواقع ما رأيتُه كان أشعة الشمس وهي تتدفّق أمامي في مسارٍ شبه أفقيّ يمتدُّ من المدخل الخلفيّ للحظيرة وصولاً إلى المدخل الأمامي. بدا ذلك وكأنّني أراقب حركة المرور في شارعٍ مزدحم، وحين تدبّرتُ أن أنقل نظري إلى الجانب البعيد، وجدتُ أنّه بات مقسّماً إلى العديد من المربّعات غير متساوية الأحجام. انتبهتُ بعد بضع ثوانٍ فقط إلى وجود الكرسيّ المعدنيّ القابل للطيّ - أو أجزاء مختلفة منه بالأحرى موزّعة داخل مربّعات عديدة - واستذكرتُ كم أراحني ذاك الكرسيّ في المرّة الماضية، فبدأتُ أتحرّك باتّجاهه. لكن خطر لي حالما خطوتُ داخل أشعّة الشمس أنّني إذا كنتُ أريدُ لفتَ انتباهه قبل أن يرحل، فسيكون عليَّ أن أفعل ذلك دون تأخير. لذا بدأتُ أصوغ الكلمات في ذهني حتّى وأنا أقف هناك عالقةً في النور الكثيف.

- «لا بدَّ أنّكَ متعَبٌ جدّاً، وأنا آسفةٌ جدّاً لإزعاجك. سوف تتذكّرُ أنّني جئتُ مرّةً من قبل إلى هنا في الصيف، وقد كنتَ لطيفاً جدّاً ومنحتني بضع دقائق من وقتك. الآن أتجرّأُ على العودة إلى هنا هذا المساء كي أناقش نفس المسألة شديدة الأهمّية».

كانت هذه الكلمات بالكاد قد شكّلتْ نفسها حين خطرت لي

الذكرى من ذلك اليوم في اجتماع جوزي التفاعلي، والأمّ الغاضبة تقتحم الردهة المفتوحة وهي تصرخ: «داني على حقّ! لا ينبغي بك أن تكون هنا على الإطلاق!». لاحظتُ في نفس الوقت تقريباً داخل أحد المربّعات إلى يميني كتاباتٍ غاضبة مثل تلك التي رأيتُها من السيارة مكتوبةً على أحد المباني في المدينة. بصرف النظر عن كلِّ ما كان يدور في رأسي، تركتُ للمزيد من الكلمات التي لم تتشكّل على نحو كامل أن تندفع عبر ذهني.

– «أعلم أنْ ليس لدي الحق في المجيء إلى هنا بهذه الطريقة. وأعلم أنَّ الشمس لا بدَّ أن يكون غاضباً منّي. لقد خذلتُه، فشلتُ تماماً في إيقاف التلوّث. في الحقيقة، أرى الآن كم كنتُ حمقاء لأنّي لم أضع في اعتباري وجود آلةٍ رهيبة أخرى تسمح للتلوّث بالاستمرار دون توقّف. لكن الشمس كان يشاهد ما حدث في الفناء ذلك اليوم، لذا فهو يعرف كم حاولتُ بجدّ، ويعرف كيف قدّمتُ تضحيتي التي كنتُ سعيدةً جدّاً بتقديمها، رغم أنَّ قدراتي الآن ليست كما كانت من قبل ربّما. ولا بدَّ أنّكَ رأيتَ أيضاً كيف قدّمَ الأب المساعدة وبذل قصارى جهده، وذلك رغم أنّه لا يعرف شيئاً عن الاتّفاق الكريم الذي وافق الشمس عليه، كلُّ ما الأمر أنّه رأى أملي ووضع إيمانه في هذا الأمل. أنا أعتذر بكلِّ صدق عن التقليل من شأن مهمّتي. لقد كان ذلك خطئي وليس خطأ أيِّ أحدٍ آخر، ورغم أنَّ لدى الشمس كلّ الحق في أن يغضب منّي، فأنا أطلب منه أن يقبل حقيقة أنَّ جوزي نفسها بريئةٌ تماماً. حالها كحال الأب، هي لم تعرف أيَّ شيءٍ عن اتّفاقي مع الشمس، ولا تزال كذلك. وهي الآن تغدو أضعف فأضعف كلّ يوم. جئتُ إلى هنا هذا المساء على هذه الشاكلة لأنّني لم أنسَ أبداً كم يمكن للشمس أن يكون عطوفاً

وكريماً. لو أنّه فقط يظهر عطفه العظيم لجوزي، كما فعل مع الرجل المتسوّل وكلبه. لو أنّه فقط يرسل لجوزي غذاءه المميّز الذي تحتاج إليه لأقصى حدّ».

فكّرتُ فيما كانت هذه الكلمات تجتاح ذهني بالثور الرهيب في الطريق إلى شلّالات مورغان، فكّرتُ في قرنيه وعينيه الباردتين، وفي الشعور الذي انتابني في تلك اللحظة حيال الخطأ العظيم المرتكَب بالسماح لمخلوقٍ مشحونٍ بالغضب هكذا أن يقف على العشب المشمس دون قيود. سمعتُ صوت الأمّ من مكان ما يصرخ ورائي: «لا يا بول، ليس الآن، وليس في هذه السيّارة اللعينة!» ورأيتُ المرأة الوحيدة جالسةً وحدها في مطعم السيّد فانس، لا أحد يلاحظ وجودها حتّى مدير المطعم؛ تضغط بجبهتها على زجاج النافذة نحو الشارع المعتم في الخارج، وخطر لي كم أنَّ تلك المرأة تشبه روزا. ثمَّ أدركتُ أنّه لا يمكنني أن أسمح لنفسي بأن أصبح مشتّتة الذهن، وأنَّ الشمس قد يغادر في أيّة لحظةٍ الآن، لذا سمحتُ للمزيد من الأفكار أن تتدفّق في ذهني دون أن أقوم بصياغتها على شكل كلماتٍ رسمية.

- «أنا لا أمانع كوني خسرتُ السائل الثمين. كنتُ لأقدّم المزيد عن طيب خاطر، كنتُ لأقدّمه بالكامل، إن كان ذلك يعني تزويد جوزي بالمساعَدة المميّزة. لقد اكتشفتُ - كما تعلم - منذ أن كنتُ هنا آخر مرّة الطريقة الأخرى لإنقاذ جوزي، وإن كان ذلك هو كلُّ ما تبقّى، فسوف أبذل كلَّ ما لديّ. لكنّني لستُ متأكّدة بعد أنَّ الطريقة الأخرى سوف تنجح، مهما حاولت جاهدة، لذا فإنَّ أمنيتي العميقة والصادقة الآن هي أنَّ الشمس سوف يُظهر عطفه وكرمه العظيمين مرّةً أخرى».

لامست اليد التي كنتُ أمدّها وأنا أعبر أشعة الشمس شيئاً صلباً، وأدركتُ أنّني كنتُ أمسك بهيكل الكرسيّ المعدنيّ القابل للطيّ. شعرتُ بالسعادة لعثوري عليه مجدّداً، لكنّني لم أجلس خشيةَ أن يبدو ذلك سلوكاً غير محترم. وقفتُ بدلاً من ذلك ثابتةً خلفه، ممسكةً ظهره بكلتا يديّ.

كانت أشعة الشمس القادمة من الجهة الخلفية للحظيرة كثيفةً جدّاً بحيث لا يمكن مواجهتها بشكلٍ مباشر، لذا ورغم أنَّ ذلك قد يبدو فظاً، فقد أشحتُ بنظري نحو الأشكال المنجرفة إلى يميني، أملاً ربّما في أن ألمح روزا جالسةً في مقصورة المطعم المنعزلة. لكن نسق الشمس كان قد سقط الآن في الكوّة الأمامية، فأضاءها للحظاتٍ لم أرَ خلالها أيَّ ص. ا. داخل الكوّة، بل رأيتُ صورةً فوتوغرافية بيضوية الشكل مثبّتةً على الحائط. أظهرت الصورة حقلاً أخضر في يوم مشمس تنتشر فيه الأغنام، حيث تعرّفتُ في المقدّمة على الخراف الأربعة المميّزة التي لمحتُها من سيّارة الأمّ في طريق عودتنا من شلّالات مورغان. بدت الخراف أكثر لطفاً حتّى ممّا أتذكّر، وكانت مصطفَّة في صفٍّ أنيق، مُخفِضةً رؤوسها لتتشارك العشب. كانت هذه المخلوقات قد غمرتني بالسعادة في ذلك اليوم، الأمر الذي ساعدني على محو ذكرى الثور الرهيب، وكنتُ مسرورةً لرؤيتها مجدّداً حتّى لو في هذه الصورة البيضوية فقط. لكن كان هناك خطأٌ ما: إذ ورغم أنَّ الخراف كانت متوضّعةً بنفس التشكيل الذي رأيتُه من السيّارة، إلّا أنّها بدت هنا معلّقة على نحوٍ غريب، فبدت وكأنّها لا تقف على سطح الأرض. ونتيجةً لذلك، فإنَّ أفواه الخراف كانت لا تصل إلى العشب حين تمطُّ رقابها للأسفل كي تأكل، وهو ما وسمَ الخراف التي كانت سعيدةً في ذلك اليوم بمسحةٍ من الحزن.

- «أرجوك لا ترحل الآن»، قلت له. «أرجوك امنحني لحظة قصيرة أخرى. أعرف أنّني فشلتُ في تأدية الخدمة التي وعدتكَ بتأديتها في المدينة، وأنّه لا يحق لي أن أطلب أيَّ شيءٍ آخر منك. لكنّني أتذكّر كم كنتَ سعيداً في ذلك اليوم حين عثر الرجل ذو المعطف المطري وسيّدة كوب القهوة أحدهما على الآخر من جديد. كنتَ مسروراً ولم تستطع منع نفسك من إظهار ذلك. لذا فأنا أعلم تماماً كم تهتمُّ للمّ شمل الأشخاص الذين يحبّون بعضهم بعضاً، حتّى لو بعد سنواتٍ عديدة. أعرف أنَّ الشمس يتمنّى لهم الخير دائماً، وربّما حتّى يساعدهم في إيجاد أحدهم الآخر. أرجوك، ضع جوزي وريك في اعتبارك. هما لا يزالان صغيرين. إذا ماتت جوزي الآن، فسوف يفترقان إلى الأبد. إذا أمكنكَ فقط أن تمنحها غذاءً مميّزاً، كما رأيتكَ تفعل مع الرجل المتسوّل وكلبه، فيمكن لجوزي وريك عندئذٍ أن يمضيا قدماً في حياتهما كبالغَين تماماً كما تمنَّيا في ذلك الرسم اللطيف من لعبة الفقاعات. يمكنني الجزم أنَّ حبّهما قويٌّ ودائم، تماماً كحبِّ سيّدة كوب القهوة والرجل ذي المعطف المطري».

لاحظتُ الآن، على بعد خطوات قليلة أمام الكوّة، جسماً صغيراً مثلث الشكل متروكاً على الأرض. ظننتُ للحظة أنّه كان إحدى قطع الفطيرة المدبّبة التي كان مدير المطعم يعرضها في المنضدة الزجاجية. وتذكّرتُ صوت السيد فانس الفظّ وهو يقول: «إذا كنتَ لا تسعى إلى المحسوبية، فلماذا أنا جالس هنا أمامكَ الآن؟» والآنسة هيلين تقول بسرعة: «نحن نطلب منه أن يمارس المحسوبية. بالطبع نحن نطلب ذلك». عندها فقط أدركتُ أنَّ المثلّث على الأرض لم يكن قطعة فطيرة، بل زاويةً من كتاب جوزي الذي تركتْه يسقط من الأريكة في شقّة الصديق أثناء انتظار الأب. في

الحقيقة، هو لم يكن مثلّث الشكل على الإطلاق، لكنّه بدا على هذا النحو فقط لأنّ زاوية الكتاب لوحدها كانت تبرز من الظلال. على يسار الكوّة الأمامية، كانت المربّعات تنجرف وتتداخل كما لو أنَّ ريح المساء تعبث بها. رأيتُ في العديد منها وميضاً بألوان برّاقة، ولاحظتُ أنّها تحتوي - وإن كان في الخلفية فحسب - الزجاجات المعروضة التي لمحتُها في نافذة المتجر الجديد. كانت الزجاجات مضاءة بألوان متباينة، كما رصدتُ في بعض المربّعات أجزاء من اللافتة التي كُتب عليها «إضاءةٌ مريحة». عرفتُ عندها أنَّ وقتي ينفذ، لذا تابعتُ بسرعة.

- «أعلم أنَّ المحسوبية أمرٌ غير مرغوب. لكن إذا كان الشمس يقدّم أيّة استثناءات، فمن المؤكّد أنَّ الأكثر استحقاقاً لها هم الشباب الذين سيحبّ أحدهم الآخر طوال حياتهم. قد يسأل الشمس «كيف نتأكّد؟ ما الذي يمكن للأطفال أن يعرفوه عن الحبّ الحقيقيّ؟»، لكنّني كنتُ أراقبهما بعناية وانتباهٍ كبيرين، وأنا واثقةٌ تمام الثقة أنَّ حبّهما حقيقيّ. لقد ترعرعا معاً، وأصبح كلٌّ منهما جزءاً من الآخر. لقد قال لي ريك ذلك بنفسه. أعلم أنّني فشلتُ في المدينة، لكنّني أرجوك أن تظهر عطفك وكرمك ثانيةً وتمنح جوزي مساعدتك المميّزة. أرجوك انظر إليها، غداً أو في اليوم الذي يليه، وأعطِها نوع الغذاء الذي أعطيتَه للرجل المتسوّل. أطلب منكَ ذلك، رغم أنّ الأمر قد يتّسم بالمحسوبية، ورغم أنّني فشلتُ في مهمّتي».

بدأتْ أشعّة الشمس المسائية تبهت وتتلاشى، تاركةً لأوّل الظلمة أن تتسرّب إلى داخل الحظيرة. رغم أنّني حاولت البقاء في مواجهة الفتحة الخلفية للحظيرة والتي كان الضوء يأتي من خلالها، إلّا أنّني كنتُ مدركةً لوجود مصدر ضوء منفصل خلفي، أعلى كتفي الأيمن.

في البداية افترضتُ أنّه تجلٍّ آخر لعرض الزجاجات الملوّنة، لكن ومع استمرار ضوء الشمس في الانحسار داخل الحظيرة، أصبح من الصعب تجاهل مصدر الضوء الجديد هذا. استدرتُ كي ألقي نظرةً عليه، ففوجئتُ لرؤية أن الشمس بنفسه - أبعد عن أن يكون في طريقه للمغادرة - قد جاء مباشرةً إلى داخل حظيرة السيّد ماكبين ونصّب نفسه عند مستوى الأرض تقريباً بين الكوّة الأمامية ومدخل الحظيرة الأمامي. كان هذا الاكتشاف غير متوقَّعٍ بالمرّة - كان حضور الشمس في تلك الزاوية المنخفضة مبهراً للغاية - لدرجة أنّني للحظة كنتُ في خطر أن أصبح فاقدةً لحس الاتّجاه. تعدّلتْ رؤيتي بعدها، واتّسقت أفكاري، فأدركتُ أنَّ الشمس لم يكن في الحظيرة على الإطلاق، لكن كان ثمّة جسمٌ عاكس متروكٌ هناك بالصدفة، وقد كان الآن يلتقط انعكاس ضوء الشمس خلال لحظات هبوطه الأخيرة. بعبارةٍ أخرى، كان ثمّة شيءٌ يتصرّف مثل مرآةٍ للشمس على نفس الشاكلة التي تصرّفت فيها نوافذ مبنى RPO ومبانٍ أخرى في بعض الأحيان. بينما أخذتُ أمشي باتّجاه السطح العاكس، أصبح الضوء أقلَّ حدّة رغم أنّه ظلَّ متوهجّاً وبرتقالياً وسط الظلال المحيطة.

أصبحت ماهيّة الجسم العاكس واضحةً فقط عندما وقفتُ فوقه. كان السيّد ماكبين - أو أحد أصدقائه - قد ترك عدّة ألواح زجاجية متّكئة على الحائط، ومكدّسةٍ بعضها فوق بعض. ربّما كان السيّد ماكبين يخطّط أخيراً لفعل شيءٍ ما حيال جدرانه المفقودة، وربّما كان يأمل في تركيب نوافذ. على أيّة حال، كان يمكنني رؤية انعكاس وجه الشمس المسائي داخل المستطيلات الزجاجية، التي قدّرتُ عددها بسبعة، وكانت مُسنَدةً في وضعٍ عموديٍّ تقريباً. اقتربتُ أكثر، وكدتُ أنطق الكلمات بصوتٍ مسموع.

- «أرجوك، أظهر عطفك المميّز لجوزي».

حدّقتُ في الألواح الزجاجية. لم يعد انعكاس الشمس مُعمياً، رغم أنّه كان لا يزال حادّاً وبرتقالياً، وبدأتُ أدرك بينما كنتُ أتفحّص بعناية وجه الشمس المؤطَّر داخل المستطيل الخارجي أنّني لم أكن أنظر إلى صورةٍ واحدة فحسب، بل كانت هناك في الواقع نسخةٌ مختلفة من وجه الشمس على سطح كلٍّ واحدٍ من الأسطح الزجاجية، وما كنتُ قد ظننتُه في البداية صورةً موّحدة كان في حقيقة الأمر سبع صورٍ منفصلة تتراكب واحدة فوق الأخرى وأنا أخترقها بنظري من اللوح الأول حتى الأخير. رغم أنَّ وجهه على لوح الزجاج الخارجي كان بغيضاً ومتحفظاً، وعلى اللوح الذي يليه مباشرة كان أكثر بغضاً حتّى، إلّا أنّه كان في اللوحين التاليين أكثر رقّةً ولطفاً. كانت هناك ثلاثة ألواح أخرى، ورغم أنّه كان من الصعب أن أرى الكثير من هذه الألواح الأخيرة بسبب تواجدها أبعد إلى الخلف، إلّا أنّني لم أستطع أن أمنع نفسي من تقدير أنَّ هذه الوجوه ستكون ذات تعابير لطيفة ومرحة. على أيّة حال، أيّاً كانت طبيعة الصورة على كلّ لوح زجاجي، حين كنتُ أنظر إلى كل الألواح مجتمعة، كان التأثير يبدو لوجهٍ واحد لكن مع مجموعة متنوّعة من التعابير والعواطف.

واصلتُ التحديق بعناية، ومن ثمَّ بدأت كلّ وجوه الشمس تبهت وتتلاشى معاً، وأصبح الضوء داخل حظيرة السيّد ماكبين خافتاً، ولم أعد قادرةً حتّى على رؤية مثلّث كتاب جوزي، أو الخراف التي تمطُّ أفواهها للأسفل نحو العشب الذي يتعذّر الوصول إليه. قلتُ: «أشكركَ لاستقبالي مجدّداً. وأنا آسفةٌ جدّاً لأنّني لم أستطع تأدية المهمة التي وعدتكَ بها. أرجوك أن تنظر في طلبي». لكن حتّى في

ذهني، فقد قلتُ هذه الكلمات بهدوءٍ ورويّة لأنّني عرفتُ أنَّ الشمس كان قد غادر.

■

في الأيّام التي تلت ذلك، غالباً ما دار الجدل بين الدكتور رايان والأمّ في الردهة المفتوحة حول ما إذا كان ينبغي نقل جوزي إلى المستشفى أم لا، ورغم تداخل وتعارض أصواتهما - كان يمكنني سماعهما عبر الأبواب المنزلقة - إلّا أنّهما بدَوا دائماً في النهاية متَّفقَين أنَّ مكاناً كالمستشفى من شأنه فقط أن يساهم في زيادة بؤسها. وعلى الرغم من هذا الاتّفاق، فقد كانا في كلِّ مرّةٍ أتى فيها الدكتور رايان يذهبان إلى الردهة المفتوحة ويخوضان ذات النقاش مجدّداً.

جاء ريك كلَّ يوم، وأخذ دوره في الجلوس داخل غرفة النوم، ليراقب جوزي بينما تستريح الأمّ والمدبّرة ميلانيا. كانت كلتاهما قد توقّفتا في هذه المرحلة عن الالتزام بساعات حياتهما المعتادة، ونامتا فقط حين كان التعب يغلبهما. ورغم أنّه كان يحظى بالتقدير، إلّا أنَّ حضوري الشخصي لم يكن يعتبر بحدّ ذاته كافياً لسببٍ ما، وذلك رغم أنَّ الأمّ كانت تعلم جيّداً أنّه يُحتمل أن ألاحظ إشارات الخطر قبل أيِّ شخصٍ آخر. على أيّة حال، مع مرور الأيام، أصبحت الأمّ والمدبّرة ميلانيا متعبتَين للغاية لدرجة أنَّ ذلك كان ظاهراً عليهما في كلِّ حركة.

من ثمّ، وبعد ستّة أيّام من زيارتي الثانية إلى حظيرة السيّد ماكبين، أظلمت السماء بعد الإفطار على نحوٍ غير معتاد. أقول «بعد الإفطار» رغم أنّه بحلول تلك الأيّام كان كل ما يتعلّق بروتين المنزل

اليومي قد تعطّل بالكامل لدرجة أنّه لم يعد هناك وجبات إفطار أو أيٌّ وجباتٍ أخرى يتمّ تناولها في أوقاتها الطبيعية. تفاقم الشعور بالتشوّش والارتباك في ذلك الصباح بالذات بسبب تعتيم السماء، وكان وصول ريك أحد الأشياء القليلة التي ذكّرتنا أنَّ الليل لم يحلّ بعد.

أصبحت السماء أكثر قتامة مع مضيّ ساعات الصباح، وباتت الغيوم أكثر كثافة، ومن ثمَّ ازدادت شدّة الرياح كثيراً. بدأت قطعةٌ طليقةٌ ما في المبنى ترتطم بالجهة الخلفية من المنزل، وحين نظرتُ من النافذة الأمامية لغرفة النوم، كانت الأشجار عند منحنى الطريق الصاعد تنحني وتتمايل.

لكنَّ جوزي ظلّت نائمة، غافلة عمّا حولها، أنفاسها سطحيّةٌ وسريعة. وبينما كنتُ وريك نراقب جوزي منتصف تلك الفترة الصباحية المعتمة، ظهرتْ المدبّرة ميلانيا، عيناها نصف مغمضتَين والتعب بادٍ عليهما، وقالت إنّه قد جاء دورها لتتولّى المسؤولية. ثمَّ راقبتُ ريك وهو ينزل السلالم أمامي وكتفاه مثقلتان بالحزن، ويجلس على الدرْجة السفلى. قرّرتُ أنّه من الأفضل أن أمنحه بعض الخصوصية لبضع لحظات، فمررتُ متجاوزةً إيّاه ودخلتُ الرواق بينما كانت الأمّ تخرج من الردهة المفتوحة. كانت ترتدي الثوب الأسود الرقيق الذي ارتدتْه طوال الليل، والذي أظهر هزال رقبتها بوضوح. هرعتْ أمامي مسرعة وكأنّها تحتاج إلى قهوتها، لكنّها استدارت عند مدخل المطبخ لدى ملاحظتها أنَّ ريك جالسٌ على الدرجة السفلية، ووقفت تحدّق فيه. استغرق الأمر من ريك بضع لحظات ليدرك أنَّ الأمّ كانت تنظر إليه، لكنّه إذ أدرك ذلك ابتسم ابتسامةً شجاعة.

- «كيف حالكِ سيّدة آرثر؟».

واصلت الأمّ التحديق به ثمَّ قالت: «تعال إلى هنا»، واختفت داخل المطبخ. رمقني ريك بنظرةٍ مرتبكة بينما كان ينهض واقفاً على قدميه. فكّرتُ أنّه من الأفضل أن ألحقَ به، رغم أنَّ الأمّ لم تقم بدعوتي.

بدا المطبخ مختلفاً بسبب السماء المظلمة في الخارج. لم تكن الأمّ قد أشعلت أيّة أضواء، وكانت تحدّق من النوافذ الكبيرة نحو الطريق الذي تسلكه إلى عملها في العادة. توقّفَ ريك قرب الجزيرة متردّداً، أمّا أنا فانتظرت عند الثلّاجة كي أوفّر لهما الخصوصية. أمكنني من موقعي هذا أن أرى النوافذ الكبيرة، وفي البعيد وراء هيئة الأمّ كان الطريق السريع يرتفع صعوداً والأشجار تتماوج.

- «أردتُ أن أسألكَ شيئاً»، قالت الأمّ. «أنتَ لا تمانع، أليس كذلك يا ريك؟».

- «رجاءً، خذي راحتكَ سيّدة آرثر».

- «أتساءل إذا ما كنتَ تشعر وكأنّكَ الفائز الآن، أنّكَ ربّما انتصرت».

- «أنا لا أفهم سيّدة آرثر».

- «لطالما عاملتكَ برفق، ألم أفعل يا ريك؟ آمل أنّني فعلت».

- «لقد فعلتِ بالتأكيد. لطالما كنتِ لطيفةً جدّاً معي، وصديقةً رائعةً لأمّي».

- «لذا أنا أسألكَ الآن يا ريك. أسألكَ إن كنتَ تشعر أنّكَ خرجتَ فائزاً. لقد قامرتْ جوزي وقامت بالمخاطرة. حسنٌ، لقد رجحتُ النرد لها، لكنَّ الأمر كان أنّها هي دائماً التي كانت سوف تفوز أو تخسر وليس أنا. لقد وضعتْ رهاناً عالياً، وإن كان الدكتور

رايان محقّاً، فهي على وشك أن تخسر قريباً. لكن أنتَ يا ريك، لقد لعبتَ بطريقةٍ آمنة. ولهذا السبب أسألك. كيف يجعلكَ هذا تشعر الآن؟ هل تشعر حقّاً بأنّكَ فائز؟».

قالت الأمّ كلَّ هذا وهي تحدّق في السماء المظلمة، لكنّها استدارت الآن وواجهت ريك.

- «لأنّكَ إن كنت تشعر بأنك الفائز يا ريك، فأودُّ منكَ عندئذٍ أن تفكّر في هذا. أوّلاً، ما الذي تعتقد أنّكَ فزتَ به بالضبط هنا؟ أنا أسأل لأنَّ كلَّ شيءٍ حول جوزي منذ أول لحظةٍ حملتُها فيها، كلُّ شيءٍ كان يخبرني أنّها توّاقةٌ للحياة. كان العالم بكلِّ ما فيه يثير حماستها. هكذا عرفتُ منذ البداية أنّه لا يمكنني حرمانها من هذه الفرصة. كانت تطالب بمستقبل يليق بروحها الوثّابة. هذا ما قصدتُه حين قلتُ إنّها لعبت برهانات عالية. والآن، ماذا عنك يا ريك؟ هل تعتقد حقّاً أنّكَ كنتَ ذكيّاً جدّاً؟ هل تعتقد أنّه حين يتعلّق الأمر بكما أنتما الاثنين، فأنتَ هو مَن خرج فائزاً؟ لأنّه إن كان هذا هو الحال، فأرجو منكَ أن تسأل نفسك هذا السؤال. ما الذي فزتَ به بالضبط؟ ألقِ نظرة. ألقِ نظرةً على مستقبلك». لوّحتْ بيدها أمام النافذة. «لقد لعبتَ على رهاناتٍ منخفضة، وما فزتَ به كان صغيراً ووضيعاً. قد يكون الغرور يتملّكك الآن، لكنّني هنا لأخبركَ أنّه ما مِن سببٍ لديكَ كي تشعر على هذا النحو. ما من سببٍ على الإطلاق».

اشتعل شيءٌ ما في ملامح ريك بينما كانت الأمّ تتكلّم، شيءٌ خطير، حتّى أصبح يبدو إلى حدٍّ بعيد كما بدا خلال الاجتماع التفاعلي حين تحدّى الصبية الذين أرادوا رميي عبر الغرفة. أخذ خطوةً باتّجاه الأمّ، وفجأةً بدا أنّها هي أيضاً تشعر بالهلع.

- «سيّدة آرثر»، قال ريك، «لم تكن جوزي بحالةٍ جيّدةٍ بما

يكفي كي تتمكّن من الكلام في معظم المرّات التي جئتُ فيها إلى هنا مؤخّراً. لكنّها حظيتْ بيوم، جيّد الخميس الماضي، فجلستُ قرب السرير بحيث لا يفوتني أيّ شيء. وما قالته كان أنّها ترغب في إعطائي رسالة. رسالةٌ لكِ سيّدة آرثر، لكنّها رسالة لم تكن جاهزة لجعلك تسمعيها. ما أعنيه، هنا هو أنّها طلبتْ منّي الاحتفاظ بهذه الرسالة إلى الوقت المناسب. حسنٌ، أعتقد أنَّ هذا هو الوقت المناسب».

اتّسعتْ عينا الأمّ وامتلأتا بالخوف، لكنّها لم تقل شيئاً.

- «كانت رسالة جوزي، شيئاً من هذا القبيل»، تابع ريك. «قالت إنّه بغض النظر عمّا يحدث الآن، وأيّاً كان ما سيؤول إليه الأمر، فهي تحبّك ولسوفَ تحبّكِ دائماً. هي ممتنّةٌ جدّاً لكونكِ أمّها ولم يحدث مرّة أن تمنّت أمّاً أخرى. هذا ما قالته. وكان هناك المزيد. حول مسألة التعديل. هي تريدكِ أن تعرفي أنّها ما كانت لتتمنّى طريقةً أخرى. وقالت إنّها إذا امتلكت القدرة على فعل ذلك مجدّداً، وكان الأمر متروكاً لها هذه المرّة، فسوف تفعل ما فعلتِه بالضبط، وإنّكِ ستكونين دائماً أفضل أمٍّ يمكن أن تحظى بها. هذه هي الرسالة. وكما قلت، هي لم تُرد منّي أن أنقلها حتّى الوقت المناسب. لذا آمل أن يكون تقديري صحيحاً بإخباركِ بها الآن سيّدة آرثر».

حدّقت الأمّ في ريك بوجهٍ خالٍ من التعابير، لكنّني كنتُ قد رصدتُ عبر النوافذ خلفها بينما كان هو يتحدّث، رصدتُ شيئاً قد يكون شديد الأهمّية. لذا رفعتُ يدي، مستفيدةً من توقّف ريك الآن، لكنَّ الأمّ تجاهلتني، وواصلت التحديق في ريك.

- «يا لها من رسالة»، قالت أخيراً.

- «المعذرة»، قلت لها.

- «يا يسوع المسيح»، قالت الأمّ وتنهّدت بهدوء. «يا لها من رسالة».

- «المعذرة»، كدتُ أصرخ هذه المرّة، فاستدار كلاهما نحوي. «آسفةٌ على المقاطعة، لكنَّ شيئاً ما يحدث في الخارج. إنَّ الشمس يخرج!».

نظرتْ الأمّ إلى النوافذ الكبيرة، ثمَّ عادت إليّ. «بالطبع، ماذا في ذلك؟ ما مشكلتكِ عزيزتي؟».

- «يجب أن نصعد إلى الطابق العلوي. يجب أن نذهب إلى جوزي في الحال».

كانت الأمّ وريك ينظران إليَّ بملامح تشوبها الحيرة، لكن حين قلتُ هذه الجملة الأخيرة بدَا عليهما الذعر، ولم أكد أستدر نحو الرواق حتّى اندفعا مسرعَين أمامي إلى أن وجدتُ نفسي أسارع في صعود السلالم خلفهما.

قد لا يكونا فهما سبب ندائي هذا، ولربّما اعتقدا أنّ جوزي في خطرٍ مفاجئ. لذا لا بدَّ أنّهما شعرا بالارتياح حين اقتحما غرفة النوم ووجداها نائمة وتتنفّس بثبات كما كانت من قبل. كانت تستلقي على جنبها كحالها في أغلب الأوقات، ووجهها محجوبٌ بالشعر المنسدِل فوقه. لم يكن هناك من شيءٍ غير متوقّع يتعلّق بجوزي نفسها، لكنَّ الغرفة كانت مسألةً أخرى. تساقطت أنساق الشمس بكثافة غير عادية فوق أجزاء مختلفة من الجدران والأرضية والسقف - مثلّثٌ برتقاليّ غامق فوق الخزانة، خطٌّ منحنٍ متوهّج يقطع أريكة الأزرار، وخطوطٌ برّاقة عبر السجّادة. لكنَّ جوزي نفسها كانت في الظلال وهي داخل سريرها، حالها كحال الكثير من أجزاء الغرفة الأخرى. ثم بدأت الظلال تتحرّك وأدركتُ لدى ضبط رؤيتي أنّها

كانت ظلالاً تخلقها المدبّرة ميلانيا التي كانت تقف عند النافذة الأمامية وتقوم بإسدال وسحب الستائر. كانت الستارة الداخلية قد أُسدِلت بالفعل، وكانت المدبّرة ميلانيا تسحب الستارة الخارجية فوقها لتشكيل طبقةٍ مزدوجة، لكن الضوء الثاقب كان ينفذ مع ذلك بطريقة ما من الأطراف ليخلق تلك الأشكال في أرجاء الغرفة.

- «الشمس اللعين!»، صاحت المدبّرة ميلانيا. «ارحل بعيداً أيّها الشمس اللعين!».

- «لا، لا!». ذهبتُ بسرعة إلى المدبّرة ميلانيا. «يجب أن نفتحها، يجب أن نفتح كلّ شيء! علينا أن ندع الشمس يبذل كلّ ما بوسعه».

حاولت أن أنتزع الستارة منها، ورغم أنّها لم تفلتها في البداية، إلّا أنّها فعلت في نهاية الأمر مع نظرةٍ تنمّ عن المفاجأة. كان ريك قد ظهر بقربي عندئذٍ وقد تبع حدسه على ما يبدو، فمدّ يده أيضاً ليرفع الستارة الداخلية ويسحب الخارجية.

ثمَّ دخل غذاء الشمس إلى الغرفة غزيراً وفيراً، فترنّحتُ وريك متراجعَين إلى الوراء حتى كدنا نفقد توازننا. قالت المدبّرة ميلانيا مجدّداً وهي تغطّي وجهها:

- «الشمس اللعين!» لكنّها لم تقم بمحاولة جديدة لحجب غذائه.

ابتعدتُ عن النافذة، لكن ليس قبل أن ألاحظ أنَّ الرياح كانت قويّة كما لم تكن من قبل، وأنّه ليست الأشجار فقط هي التي تموج وتتمايل، بل أيضاً الكثير من الأقماع والأهرامات الصغيرة التي كانت الريح تعصف بها بشدّة عبر السماء. لكنَّ الشمس اخترقت الغيوم المظلمة رغم ذلك، فالتفتنا جميعاً في الحال كي ننظر إلى

جوزي - كما لو أنَّ كلّ واحدٍ منّا في تلك الغرفة قد تلقّى في تلك اللحظة رسالةً سرّية.

كان الشمس ينير جوزي والسرير بالكامل بنصف دائرة من ضوءٍ برتقاليٍّ شديد، وكان على الأمّ الواقفة قرب السرير أن ترفع يديها إلى وجهها. بدا أنَّ ريك قد خمّن الآن بطريقةٍ ما الذي كان يحدث، لكنّني كنتُ مهتمّة بمراقبة كيف بدا أنَّ كلّاً من الأمّ والمدبّرة ميلانيا فهمتا جوهر الأمر. وهكذا بقينا جميعاً في اللحظات القليلة التالية في مواقعنا الثابتة بينما ركّز الشمس على جوزي على نحوٍ أكثر سطوعاً حتّى. راقبنا وانتظرنا، ولم يفعل أيٌّ منّا شيئاً حتّى عندما بدت نصف الدائرة البرتقالية وكأنّها سوف تشتعل. ثمَّ تململت جوزي، ورفعت يدها في الهواء بعينين مغمضتين.

- «هيه، ما مشكلة هذا الضوء؟»، قالت جوزي.

واصل الشمس سطوعه عليها بلا هوادة، وتحرّكت جوزي حتّى أصبحت مستلقيةً على ظهرها مدعومةً بالوسائد ولوح السرير.

- «ما الذي يحدث؟».

- «كيف تشعرين يا حبيبتي؟»، سألتْ الأمّ هامسةً وهي تحدّق في جوزي كما لو أنّ الخوف يعتريها.

أنزلت جوزي نفسها عن الوسائد حتى أصبحت عيناها موجَّهتين نحو السقف تقريباً. لكن كان ثمّة قوةٌ جديدة بدت جليّةً في الطريقة التي كانت تتحرّك وتناور بها.

- «هيه»، قالت جوزي. «هل الستارة عالقةٌ أو ما شابه؟».

كانت القطعة السائبة من المنزل لا تزال ترتطم بمكانٍ ما، وإذ ألقيتُ نظرةً سريعة من النافذة، رأيتُ العتمة تنتشر مجدّداً عبر

السماء. ثمَّ وبينما كنّا نراقب، تلاشتْ أنساق الشمس فوق جوزي حتّى باتت مستلقيةً هناك وسط اللون الرمادي لصباحٍ ملبّدٍ بالغيوم.

- «كيف تشعرين يا جوزي؟»، قالت الأمّ.

نظرتْ جوزي إليها بملامح متعبة وهي تزيح نفسها كي تواجهنا على نحوٍ أفضل. تقدّمت الأمّ لدى رؤيتها ذلك، ربّما كي تجعل جوزي تستلقي مجدّداً. لكن بدا وكأنّها غيّرت رأيها حين وصلتْ إلى جوزي، إذ بدأت تساعدها في الوصول إلى وضعية جلوسٍ أكثر راحة.

- «تبدين أفضل يا حبيبتي»، قالت الأمّ.

- «اسمعي، ما الذي يحدث هنا؟»، سألتْ جوزي. «لمَ الجميع هنا؟ إلامَ تحدّقون جميعاً؟».

- «مرحباً، جوزي»، قال ريك فجأةً بصوتٍ مفعمٍ بالإثارة. «تبدين بحالٍ مزرية».

- «شكراً. أنتَ تبدو بحالٍ جيدةٍ تماماً» ثمّ أكملت: «لكن أتعرف؟ أشعر أنّني أفضل بالفعل. رغم أنّني أحسُّ بدوّارٍ خفيف».

- «هذا يكفي»، قالت الأمّ. «هوّني عليكِ فحسب. هل تريدين أن تشربي شيئاً؟».

- «ماءٌ ربما».

- «حسنٌ، دعونا لا نفترض شيئاً»، قالت الأمّ. «علينا أن نتعامل مع هذا خطوةً خطوة».

مكتبة
t.me/soramnqraa

القسم السادس

أثبتَ غذاء الشمس المميّز فعاليّته مع جوزي كما فعل مع الرجل المتسوّل، ومن بعد صباح السماء المظلمة، جوزي لم تزدد قوّةً فحسب، بل كبُرت لتتحوّل من طفلةٍ إلى امرأةٍ بالغة.

كانت آليّات السيّد ماكبين بمرور المواسم - والسنين - تقوم بقطع العشب الطويل في الحقول الثلاثة، تاركةً إيّاها بنّيةً شاحبة اللون. بدت الحظيرة الآن أطول وخطوطها الخارجية أكثر تحديداً، لكنّها لا تزال بلا جدران إضافية، إذ لم يبنِ السيّد ماكبين أيّاً منها، وكنتُ في الأمسيات الصافية حين يتّجه الشمس نحو مكان راحته لا أزال قادرةً على رؤيته وهو يغوص عند الجهة البعيدة من الحظيرة قبل أن يختفي داخل الأرض.

اجتهدت جوزي في العمل على دروسها، وكانت هناك الكثير من النقاشات حول الكلّية التي قد تذهب إليها. كان لدى كلٍّ من جوزي والأمّ وجهات نظرٍ قويّة حول الموضوع، ولكن قلّما ذُكِرت أطلس بروكينغز، إذ لم يعد ريك الآن يرغب في الذهاب إلى هناك. بدا أنَّ الأب لا يتّفق مع أفكار أيٍّ من جوزي أو الأمّ، وقد ظهر في المنزل ذات يوم ليوضّح آراءه على نحوٍ أفضل. كانت تلك هي المرّة الوحيدة

التي رأيتُه فيها يأتي إلى المنزل، ورغم أنّني كنتُ بنفسي سعيدةً لرؤيته مجدّداً، فقد فهمنا جميعنا أنّه خرق قاعدةً ما بمجيئه إلى هنا.

كانت جوزي نفسها تبتعد عن المنزل أكثر فأكثر خلال هذه الفترة، وأحياناً لعدّة أيّام في كلِّ مرّة، وذلك بغرض القيام بزيارات لبالغين شباب آخرين، أو للمشاركة في مُعْتَكفات. عرفتُ أنَّ هذه الرحلات كانت جزءاً هامّاً من استعداداتها للكلّية، لكنَّ جوزي فضّلت عدم التحدّث عنها إلّا فيما ندر، لذا فقد ظلَّت معرفتي بهذا الجانب محدودة.

واظب ريك على القدوم بانتظام في الأيّام الأولى بعد تعافي جوزي، لكن مع مرور الوقت، وبعد أن قام السيّد ماكبين بقطع العشب الطويل، أصبحت زيارات ريك أقلَّ بكثير. كان هذا بسبب غياب جوزي عن المنزل كثيراً من جهة، ومن جهة أخرى لأنَّ ريك أيضاً أصبح مشغولاً بمشاريعه الخاصّة. كان قد اشترى سيّارة أسماها «الدمار»، وكان يقودها إلى المدينة بانتظام للقاء أصدقائه الجدد. كان ريك يفضّل ترك «الدمار» في منطقة الأحجار الرخوة، إذ كان من الأسهل عليه بحسب تعبيره أن يبدأ رحلته من هناك بدلاً من المعاناة على الدرب الضيّق والمتعرّج الذي يتفرّع خارجاً من منزله. لذا فقد كان حضور «الدمار» المتزايد أمام المنزل وليس جوزي هو ما يجلب ريك إلينا، وهناك فوق الأحجار الرخوة خضتُ حديثي الأخير معه.

لم تكن الأمّ أو جوزي في المنزل ذاك الصباح، لذا لم أر مانعاً من الخروج وإلقاء التحيّة حين سمعتُ وقع خطاه بالخارج. لم يكن على عجلةٍ من أمره كحاله عادةً، فاستطعنا أن نتحدّث لبضع دقائق، مع نسيمٍ خفيف يتغلغل بيننا، حيث اتّكأ ريك على هيكل «الدمار»

بينما وقفتُ أبعد قليلاً. كانت السماء ملبّدةً بالغيوم في ذلك الصباح، وربّما كان هذا هو السبب الذي جعل ريك يتذكّر ذلك اليوم.

- «هل تتذكّرين يا كلارا؟»، سألني ريك. «في ذلك الصباح أصبح الطقس غريباً حقّاً، ودخل الشمس مباشرةً إلى غرفة جوزي».

- «بالطبع، لن أنسى ذلك الصباح أبداً».

- «كثيراً ما أفكّر في الأمر الآن. يبدو وكأنّ ذلك تزامن مع بداية تعافي جوزي. قد أكون أربط هذه الأشياء بطريقةٍ خاطئة. لكن حين أرجع إلى الوراء، يبدو الأمر على هذا النحو».

- «أتّفق معك».

- «هل تذكرين ذلك اليوم؟ كنّا جميعاً مرهقين. وفي حالةٍ من اليأس. ثمَّ انقلب كلُّ شيءٍ رأساً على عقب. لطالما أردتُ أن أسألكِ، إلا أنّك بدوتِ متكتّمةً ومنغلقةً جدّاً حيال ذلك. لطالما أردتُ أن أسألكِ إن كان ما حدث في ذلك الصباح - كلُّ ذلك الطقس الغريب، وكلُّ شيءٍ آخر - له علاقةٌ بالأمور الأخرى. أنتِ تفهمين ما أقصد. حملي لكِ عبر الحقول، وعقدكِ لصفقةٍ سرّيةٍ ما. اعتقدتُ في ذلك الوقت أنَّ الأمر برمّته عبارةٌ عن خرافاتٍ تخصُّ الص. ا. شيءٌ لجلب الحظّ السعيد لنا فحسب. لكنّني لا أنفكُّ أتساءل في هذه الأيّام إن كان ما فعلتِه أكثر من مجرّد خرافة أو تعويذةٍ لجلب الحظّ».

كان يراقبني بإمعا، لكنّني لم أقل شيئاً لوقتٍ طويل.

- «مع الأسف، أنا لا أجرؤ على الحديث عن هذا الأمر حتّى يومنا هذا» قلتُ أخيراً. «لقد كان معروفاً مميّزاً جدّاً، وإن تحدّثتُ عنه لأيِّ أحد، حتّى لو لريك فقط، فأخشى أن تُسترجع المساعدة التي تلقّتْها جوزي».

- «توقّفي عند هذا الحدّ إذاً. لا تقولي شيئاً. لا أريد أن يُفتح ولو بابٌ صغير لاحتمال إصابتها بالمرض ثانيةً. رغم أن الأطباء يقولون دائماً إنّه بمجرّد أن تتجاوزي المرحلة التي تجاوزتْها جوزي فستكونين بأمان».

- «مع ذلك، علينا أن نكون حذرين، لأنَّ جوزي كانت حالة خاصّة جدّاً. لكن، ونظراً لأنَّ ريك فتح هذا الموضوع الآن، فربّما أعرِّج على شيءٍ متعلّقٍ به يثير قلقي».

- «ما هو يا كلارا؟».

- «ما زال ريك وجوزي يبديان اللطف تجاه أحدهما الآخر. مع ذلك، فهما الآن يحضّران لمستقبلَين مختلفَين تماماً».

استدار نحو الطريق، ويده تعبث بمرآة «الدمار» الجانبية. «أعتقد أنّي فهمتكِ»، قال لي. «أتذكّر ذلك اليوم حين ذهبنا إلى الحظيرة للمرّة الثانية. أتذكّر كيف أنّكِ قبل ذهابنا أصبحتِ جدّيةً جدّاً وسألتِني ما إذا كان حبّنا حقيقيّاً. الحبُّ الذي بيني وبين جوزي. وأعتقد أنّني أخبرتكِ بأنّه حقيقيّ. حقيقيٌّ ودائم. لذا أظنُّ أنَّ هذا هو ما يقلقكِ الآن».

- «ريك محقّ. تقلقني رؤية أنَّ خطط ريك وجوزي متباعدةٌ إلى هذا الحدّ».

لكَزَ الأحجار الرخوة أمامه بقدمه، ثمّ قال: «اسمعي. لا أريد أن تقولي أيَّ شيءٍ قد يضع صحّة جوزي في خطر من جديد. لكن دعيني أقول بهذا القدر. حين طرحتِ ذلك السؤال، كنّا أنا وجوزي نحبُّ أحدنا الآخر حقّاً، تلك كانت الحقيقة في ذلك الوقت. لا يمكن لأحدٍ أن يدّعي أنّكِ قمتِ بتضليله أو خداعه. لكنّنا لم نعد أطفالاً الآن، فيجدر بنا أن نتمنّى الأفضل لأحدنا الآخر ونمضي

قدماً في طريقَينا المختلفَين. لم يكن الأمر لينجح، أن أذهب إلى الكلّية وأحاول التنافس مع كلِّ أولئكِ الأولاد الذين تمّ تعديلهم. لديَّ خططي الخاصّة الآن، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الأمر. لكن تلك لم تكن كذبة يا كلارا. وعلى نحوٍ مضحك، إنّها ليست كذلك حتّى الآن».

- «أتساءل ماذا يمكن أن يقصد ريك بذلك؟».

- «أفترض أنَّ ما أقوله هو أنّنا سنكون دائماً معاً على مستوىً ما، مستوى أكثر عمقاً، حتّى لو تباعدت دروبنا ولم يعد يرَ أحدنا الآخر. لا يمكنني أن أتحدّث بالنيابة عنها، لكنني بمجرّد أن أبتعد، فأنا أعرف أنّني سأظلُّ أبحثُ دائماً عن شخصٍ مثلها تماماً. على الأقل مثل جوزي التي كنتُ أعرفها يوماً. لذا فإنَّ جوابي لكِ لم يكن خداعاً أبداً يا كلارا. أيّاً كان مَن تعاملتِ معه في ذلك الوقت، إذا أمكنه وقتها أن يرى مباشرةً ما بداخل قلبي، وما بداخل قلب جوزي فقد عرف أنّنا لم نكن نحاول أن نمارس حيلةً ما بغرض تضليله».

وقفنا بعد ذلك فوق الأحجار الرخوة دون أن نقول شيئاً لبعض الوقت. فكّرت أنّه سوف ينتصب واقفاً في أيّة لحظة ويدلف في «الدمار». لكنّه سألني بصوتٍ أرقّ:

- «هل سمعتِ أيّ شيءٍ عن ميلانيا؟ أحدهم قال إنّها ذهبت إلى إنديانا».

- «نعتقد أنّها في كاليفورنيا الآن. كانت تأمل في آخر مرّةٍ تواصلت معنا أن يتمَّ قبولها في مجتمع هناك».

- «كنتُ أخاف تلك السيّدة، لكنّني اعتدتُ عليها نوعاً ما. آمل أن تكون بخير، وأنّها عثرت على مكانٍ آمن. وماذا عنكِ يا كلارا؟ هل ستكونين بخير؟ أعني حالما تغادر جوزي إلى الكلّية».

- «الأمّ لطيفةٌ جدّاً معي على الدوام».

- «اسمعي، إذا احتجت مساعدتي في أي وقتٍ، فاطلبيها بلا تردّد. اتّفقنا؟».

- «نعم، شكراً لك».

وأنا أجلس هنا على هذه الأرض الصلبة، فكّرتُ ثانيةً في كلمات ريك في ذلك الصباح، وكنتُ واثقةً أنّه على صواب. لم أعد أخشى أنَّ الشمس سوف يشعر بالخداع أو التضليل، أو أنّه قد يفكّر في فرض عقابٍ ما. بل ربّما كان يعلم بالفعل حتّى وأنا أتقدّم بالتماسي إليه أنّه من المقدَّر لجوزي وريك أن يمضيا في طريقين منفصلين، ومع ذلك فقد فهم أنّه رغم كلّ شيء فإنَّ حبّهما سوف يستمرّ. أعتقد أنّه حين طرح سؤاله - حول إن كان الأطفال يفهمون حقّاً معنى الحب - أعتقد أنّه كان متأكّداً من الإجابة، وكان يطرح السؤال من أجلي فقط. حتّى أنّني أعتقد أنّه كان في تلك اللحظة يفكّر في سيّدة كوب القهوة والرجل ذي المعطف المطري، إذ كنّا نتحدّث عنهما قبل لحظةٍ فقط. لربّما كان الشمس يفترض أنّه بعد سنين كثيرة، وتحوّلات كثيرة، سوف يلتقي ريك وجوزي مجدّداً كما التقى الرجل ذو المعطف المطري وسيّدة كوب القهوة.

■

مع اقتراب ذهاب جوزي إلى الكلّية، كانت هناك زياراتٌ متكرّرة إلى المنزل من بالغين شباب آخرين. جميع الزوّار كانوا من الإناث، وكانت كلُّ واحدةٍ منهنَّ تأتي لوحدها في الغالب، وفي مناسباتٍ قليلة كنّ يصلن أزواجاً. قد يأتين عبر استئجار سائق، أو في أحيان أخرى عبر قيادة سيّاراتهنَّ الخاصّة، لكنَّ تلك البالغات الشابّات لم يكنَّ الآن

بصحبة أهاليهنّ. كان متوسط مدّة الزيارة يتراوح بين ليلتين وثلاث ليالٍ، وكنتُ أستطيع أن أعرف أنَّ مثل هذه الزيارة متوقَّعةٌ قريباً لأنَّه قبل يومٍ أو اثنين من حدوثها كانت المدبّرة الجديدة تقوم بنقل مَرتبةٍ قابلةٍ للفّ، أو كيس نومٍ إلى غرفة نوم جوزي.

وبسبب الزائرات الشابّات اكتشفتُ غرفة المَنافع. لم تكن هناك بطبيعة الحال مساحةٌ كافيةٌ لي أثناء هذه الزيارات كي أبقى في غرفة النوم، كما أنّني فهمتُ على أيّة حال أن وجودي لم يعد ملائماً كما كان من قبل. أعتقد أنّه لو كانت المدبّرة ميلانيا لا تزال معنا لكانت ستضع خطّةً فيما يتعلّق بالمكان الذي قد أذهب إليه، لكنَّ ميلانيا لم تعد معنا، لذا عثرتُ على الغرفة بنفسي في الطابق العلوي. «لا أحد يقول إنّه يجدر بكِ الاختباء»، كانت جوزي قد قالت، لكن دون أن تقدّم أيَّ حلٍّ بديل، وهكذا انتهى بي الأمر بأن أشغل غرفة المَنافع.

كانت تلك أسابيع مزدحمة بالانشغالات، وحتى حين لم يكن لدى جوزي أيّ زائرة، فقد كنتُ أسمعها تتنقّل مسرعةً في أرجاء المنزل وهي تصرخ في الأمّ أو المدبّرة الجديدة. ثمَّ، فُتح باب غرفة المنافع بعد ظهر أحد الأيّام، وكانت جوزي تنظر إلى الداخل مع ابتسامةٍ تعلو وجهها.

- «إذاً»، قالت لي، «ها هنا كنتِ تتسكّعين. كيف هي الأمور؟».

- «كلُّ شيءٍ على ما يرام، شكراً لكِ».

بسطت جوزي ذراعيها، وأسندتْ يداً على كلا عمودَي إطار الباب. كانت تنظر إلى الغرفة وهي منحنية كما لو أنّها تخشى أن يرتطم رأسها عرَضاً بالسقف المنحدر. جالت بنظرها سريعاً على مختلف الأغراض المخزَّنة، وتوقّفتْ عند نافذة الغرفة الصغيرة العالية.

- «هل سبق لكِ أن نظرتِ من تلك النافذةِ هناك؟»، سألتني جوزي.

- «إنّها عاليةٌ جدّاً للأسف. الغرض منها هو توفير التهوية وليس المنظر والإطلالة».

- «سنرى بهذا الشأن».

تقدّمتْ جوزي أكثر داخل الغرفة، ورأسها لا يزال منحنياً، وعيناها تمشّطان كلّ ركن فيها. ثمَّ شرعتْ في العمل، ترفع غرضاً هنا، وتدفع آخر هناك، وتخلق أكواماً جديدة لم تكن موجودةً من قبل. كدتُ مرّةً أن أصطدمَ بها بعد فشلي في توقّع حركاتها السريعة، فأخذت تضحكُ بصوتٍ عال.

- «كلارا! ابقي هناك فحسب. هناك بالضبط. أنا أحاول فعل شيءٍ ما».

لم يمضِ وقتٌ طويل حتّى كانت قد أخلتْ مساحةً أسفل النافذة الصغيرة العالية مباشرةً، ثمَّ دفعتْ صندوقاً خشبياً إلى تلك المساحة. حملتْ بعدها صندوقاً بلاستيكياً محكم الإغلاق ووضعته بعنايةٍ فوق الصندوق الخشبي.

- «ها نحن أولاء». أخذتْ خطوة إلى الوراء، مسرورةً بما أنجزتْه، رغم أنّ باقي الغرفة صار في حالة فوضى كبيرة. «جرّبي هذا يا كلارا. لكن كوني حذرة. الدرْجة الثانية عاليةٌ على نحوٍ واضح. هيّا، أريد منكِ أن تجربّي».

خرجتُ من الزاوية وتمكّنتُ دون صعوبةٍ تُذكر أن أصعد الدرجتين اللتين صنعتْهما جوزي، ووقفتُ مستقرّةً فوق غطاء الصندوق البلاستيكي.

- «لا تقلقي، هذه الأشياء قويّةٌ حقّاً»، قالت لي. «تعاملي معها وكأنّها الأرض تماماً. ثقي بي، إنّها آمنة».

ضحكتْ مجدّداً، وواصلتِ النظر إليّ، فابتسمتُ لها ونظرتُ من النافذة الصغيرة العالية. كان المنظر شبيهاً بالمنظر القديم من النافذة الخلفية لغرفة جوزي طابقين إلى الأسفل. تغيّر مسار الرؤية بالطبع، وكان جزءٌ من السقف يتطفّل على يمين مجال رؤيتي، لكنّني استطعتُ أن أرى السماء الرمادية تمتدُّ فوق الحقول مقطوعة العشب وصولاً إلى حظيرة السيّد ماكبين.

- «كان ينبغي بكِ أن تخبريني من قبل. أعرف كم تحبّين النظر إلى الخارج»، قالت جوزي.

- «شكراً لكِ. شكراً جزيلاً».

تبادلنا النظرات والابتسامات للحظة. ثمَّ ألقت نظرةً حولها على الأغراض المتناثرة فوق أرض الغرفة.

- «يا لها من فوضى! حسنٌ، أعدكِ أن أعيد ترتيب كلَّ شيء. لكن عليَّ أن أذهب لحضور شيءٍ ما الآن. لا تحاولي القيام بأيٍّ شيءٍ لوحدك بشأن هذه الفوضى. اتّفقنا؟».

■

مثل جوزي، لم تكن الأمّ على علاقةٍ وطيدة بي خلال هذه الفترة، وفي بعض الأحيان كانت لا تنظر إليَّ حتّى إذا التقتْ بي في أرجاء المنزل. فهمتُ أنّها كانت أوقاتاً مزدحمة بالانشغالات بالنسبة إليها، ومن الوارد أيضاً أنَّ وجودي كان يستحضر ذكريات قاسية. لكنّها منحتني مع ذلك اهتماماً خاصّاً في مناسبةٍ واحدة.

لم تكن جوزي في المنزل في ذلك اليوم، وحيث إنّه تصادف

في عطلة نهاية الأسبوع، فقد كانت الأمّ في المنزل. كنتُ في الطابق العلوي داخل غرفة المَنافع معظم الفترة الصباحية، لكنّني حين سمعتُ الأصوات في الأسفل، خرجتُ من الغرفة إلى ردهة الطابق العلوي. أدركتُ سريعاً أنَّ الذي كانت تتحدّثُ إليه الأم هو السيّد كابالدي.

كنتُ متفاجئة، إذ لم يأتِ أحدٌ على ذكر السيّد كابالدي منذ وقتٍ طويل. كان هو والأمّ يتحدّثان بنبرةٍ مسترخية، لكن مع مرور الوقت بدأتُ أسمع التوتّر يدخل إلى صوت الأمّ. ثمَّ سُمع وقع خطاها، وإذ بي أراها تنظر إليّ من على مسافة ثلاثة طوابق في الأسفل.

- «كلارا»، نادت عليَّ الأمّ. «السيّد كابالدي هنا. سوف تتذكّرينه بالتأكيد. انزلي إلى هنا وألقِ التحيّة».

ثمَّ سمعتُ الأمّ تقول بينما كنتُ أنزل السلالم بحذر: «هذا لم يكن الاتّفاق يا هنري. هذا ليس ما قلتَه»، وهو ما ردَّ عليه السيّد كابالدي بـ: «أريد فقط أن أعرضه عليها. هذا كلُّ شيء».

كان السيّد كابالدي أكثر بدانة ممّا كان عليه حين رأيتُه آخر مرّةٍ في مبناه في ذلك اليوم، والشَعر حول أذنيه أصبح رمادياً فاتحاً. استقبلني بحرارة، وانطلقَ أمامي إلى الردهة المفتوحة وهو يقول: «أريد أن أعرض عليك بعض الأمور يا كلارا. يمكنكِ أن تكوني عوناً كبيراً لنا».

لم تقل الأمّ شيئاً وهي تلحق بنا إلى الداخل. جلس السيّد كابالدي على الأريكة المعياريّة متّكئاً على الوسائد، وقد ذكّرتني وضعيته المسترخية بالصبيّ داني من اللقاء التفاعلي، جالساً فوق نفس الأريكة وساقه ممدودةٌ على طولها. على عكس السيّد

كابالدي، ظلّت الأمّ واقفةً بانتصاب وسط الغرفة، ثمَّ قالت حين دعاني السيّد كابالدي للجلوس:

- «أعتقد أنَّ كلارا أكثر سعادة وهي واقفة. دعنا ننتهي من هذا الأمر، يا هنري».

- «بالله عليكِ يا كريسي، ليس هذا بشيءٍ يستحقُّ أن نتوتّر بسببه».

تركَ عندئذٍ وضعيته المسترخية، وانحنى إلى الأمام باتّجاهي.

- «قد تتذكّرين يا كلارا أنّني لطالما كنتُ مفتوناً بالص. ا. لطالما نظرتُ إليكم كأصدقاء لنا. كمصدرٍ حيويّ للتعليم والتنوير. لكن هناك كما تعلمين أناسٌ يساورهم القلق بشأنكم. أناسٌ يشعرون بالخوف والامتعاض».

- «هنري»، قالت الأمّ. «ادخل في صلب الموضوع من فضلك».

- «حسنٌ، إليكِ ما في الأمر. في الحقيقة يا كلارا، هناك الآن قلق متزايدٌ وآخذٌ بالانتشار على نطاقٍ واسع بشأن الص. ا. الناس يتحدّثون كم أصبحتم أذكياء. هم خائفون لأنّهم باتوا عاجزين عن مواكبة ما يجري بداخلكم. هم يرون ما تفعلونه، ويقبلون أنَّ قراراتكم وتوصياتكم تبدو سليمةً ويمكن الاعتماد عليها وغالباً ما تكون صحيحةً تماماً. لكن لا يعجبهم أنّهم لا يعرفون كيف تتوصّلون إليها. من هنا يأتي هذا التعصّب وردُّ الفعل العنيف تجاهكم. لذا ينبغي بنا أن نقاوم. علينا أن نقول لهم؛ لا بأس، أنتم قلقون لأنّكم لا تعرفون كيف يفكّر الص. ا. حسنٌ، دعونا إذاً نلقي نظرةً تحت الغطاء. دعونا نمارس الهندسة العكسية. أنتم لا تحبّون تلك الصناديق السوداء المغلقة. حسنٌ، فلنفتحها إذاً. وحالما نرى ماذا

يوجد في الداخل، فإنَّ الأشياء لن تصبح أقلَّ إثارةً للخوف فحسب، بل سوف نتعلّم أيضاً. وهنا يأتي دورك يا كلارا. أولئك الذين يقفون في صفّكم منّا يبحثون عن المساعدة، نحن بحاجةٍ إلى متطوّعين. لقد نجحنا في فتح عددٍ من الصناديق السوداء، لكنّنا نحتاج إلى فتح المزيد والمزيد منها. أنتم معشر الص. ا. رائعون بحقّ. نحن نكتشف أشياء ما كنّا نعتقد أنّها ممكنة أصلاً. لهذا السبب أنا هنا اليوم. أنا لم أنسكِ يوماً يا كلارا. أعلم تماماً أنّكِ ستكونين ذات فائدةٍ عظيمةٍ لنا. أرجوكِ، هلّا ساعدتِنا؟».

كان يحدّق بي، فقلتُ له: «أنا أودُّ المساعدة طالما أنَّ هذا لا يسبّب إزعاجاً لجوزي أو لوالدتها...».

- «مهلاً لحظة». اندفعت الأمّ مسرعةً حول طاولة القهوة حتّى أصبحتْ تقف بقربي. «ليس هذا ما ناقشناه عبر الهاتف يا هنري».

- «أردتُ أن أسأل كلارا فحسب، هذا كلُّ ما في الأمر. هذه فرصتها لتقدّم مساهمةً أبدية...».

- «تستحقُّ كلارا ما هو أفضل من هذا».

- «ربّما أنتِ محقّةٌ يا كريسي. وقد أكون أسأتُ الحكم على كلِّ هذا. ومع ذلك، أنا الآن هنا، وكلارا واقفةٌ أمامي، هل تمنحينني الإذن في أن أسألها فحسب؟».

- «لا يا هنري. أنا لا أمنحك الإذن. كلارا تستحقُّ ما هو أفضل. هي تستحقُّ أن تذوي ببطءٍ وسلام...».

- «لكن لدينا عملٌ يجب أن نقوم به هنا. ينبغي بنا أن نقاوم ردّ الفعل العنيف هذا...».

- «اذهب وقاومه في مكان آخر إذاً. جِد صناديق سوداء أخرى

تحصل منها على الجائزة. دع كلارا خاصّتنا وشأنها. دعها تحظى بفرصة أن تذوي ببطء وسلام».

كانت الأمّ قد تحرّكت ووقفتْ أمامي كما لو أنّها تحميني من السيّد كابالدي، ولأنّها تموضعتْ على عجَلٍ نتيجة غضبها، فقد كاد كتفها من الخلف أن يلامس وجهي. لم أصبح نتيجة ذلك منتبهةً للنسيج الأملس الذي صُنعت منه سترتها الغامقة فحسب، بل وتذكّرتُ أيضاً اللحظة في سيّارتها حين مدّت ذراعيها وعانقتني في ذلك اليوم حين كنا نركن بالقرب من مطعم «نحن نطحن لحم البقر الخاص بنا». اختلستُ النظر من وراء الأمّ، ورأيتُ السيّد كابالدي يهزُّ رأسه ويرجع إلى الخلف ليتّكئ على الوسائد مجدّداً.

- «لا يسعني ألّا أشعر بأنّكِ لا تزالين غاضبةً منّي يا كريسي. بأنّكِ كنتِ غاضبةً منّي لوقتٍ طويل، وهذا ليس عدلاً. في ذلك الوقت، كنتِ **أنتِ** التي أتيتِ **إلي**. هل تذكرين؟ ولقد بذلتُ كلَّ ما بوسعي لمساعدتك. أنا سعيدٌ لأنَّ الأمور سارت على ما يرام مع جوزي في النهاية. أنا حقّاً كذلك. لكنَّ هذا ليس سبباً يجعلكِ غاضبةً منّي طوال الوقت».

■

كانت الأيّام الأخيرة قبل رحيل جوزي مفعمةً بالتوتر والإثارة معاً. لو كانت المدبّرة ميلانيا لا تزال معنا، لربّما كان الوضع أكثر هدوءاً. لكنَّ المدبّرة الجديدة غالباً ما كانت تترك المهام غير منجزَةٍ حتّى اللحظة الأخيرة ثمّ تحاول إنجاز العديد منها في وقتٍ واحد، الأمر الذي زاد من حدّة التوتّر في الأجواء. شعرتُ أنّه من المهمّ ألّا أشكّل عائقاً، فبقيتُ في غرفة المَنافع لفتراتٍ طويلة واقفةً على

المنصّة التي بنتْها لي جوزي، أنظر من النافذة الصغيرة العالية إلى الحقول، وأستمع إلى الضوضاء في أرجاء المنزل. من ثمَّ، وقبل يومين من مغادرتها، سمعتُ وقع خطوات جوزي عند أعلى السلالم في الطابق العلوي، ثمَّ ظهرتْ عند باب الغرفة.

- «مرحباً، كلارا. لمَ لا تنزلين إلى غرفة النوم لبعض الوقت. أعني إن لم تكوني مشغولة».

وهكذا نزلتُ معها لأجد نفسي في الغرفة القديمة مجدّداً. الكثير من التفاصيل كانت قد تغيّرت، فإلى جانب سرير جوزي بات هناك سريرٌ ثانٍ ثابتٌ من أجل زوّارها، بينما أزيلت أريكة الأزرار من الغرفة بالكامل. الكثير من التفاصيل الصغيرة كانت قد تغيّرت أيضاً - فعلى سبيل المثال كانت جوزي الآن تجلس على كرسيٍّ مع عجلاتٍ على سيقانه، بحيث يمكنها، إذا أرادت، أن تتنقّل وهي لا تزال جالسةً عليه. لكنَّ أنساق الشمس على الحائط كانت كما أتذكّرها بالضبط في الكثير من فترات بعد الظهر التي قضيناها سويّاً هناك. جلستُ على طرف سريرها، ولبعض الوقت كنّا نتحدّث بسعادة.

- «كلُّ مَن تتحدّثين إليهم يقولون إنّهم غير خائفين من الكليّة»، قالت جوزي في مرحلة ما. «لكنّكِ لن تصدّقي يا كلارا مدى الخوف الحقيقيّ لدى البعض منهم. أنا أيضاً خائفةٌ نوعاً ما، لن أتظاهر بعكس ذلك. لكن أتعلمين؟ لن أسمح للخوف أن يقف عائقاً في طريقي. لقد أخذتُ على نفسي عهداً رسمياً بهذا الشأن. هيه، هل أخبرتكِ بذلك من قبل؟ يُفترض بنا جميعاً أن نضع هذه الأهداف الرسمية؛ هدفان في كلِّ فئةٍ من أصل خمس فئات. كان عليَّ أن أملأ استمارةً بهذا الخصوص، لكنّني غَششتُ لأنّني اكتشفتُ أنَّ أهدافي السرّية لا علاقة لها بتلك الموجودة في الاستمارة. يا للهول، هم ما

كانوا ليحبّوا قائمة أهدافي **الحقيقية**! ومن المستحيل أيضاً أن تسمع أمّي عنها بأيِّ حالٍ من الأحوال!». ضحكتْ جوزي بمرح. «حتّى أنتِ يا كلارا ما كنتُ لأتشاركَ معكِ أهدافي السرّية. لكن إن كنتِ لا تزالين هنا عندما أعود في عطلة عيد الميلاد، فسوف أخبركِ بكم هدف تجاوزت».

كان ذلك واحداً من التلميحات القليلة التي أعطتها جوزي خلال تلك الفترة حول مغادرتي المحتمَلة. كما أشارتْ إلى ذلك مجدّداً في الصباح حيث سافرتْ أخيراً برفقة الأمّ.

أعرف أنّها كانت تأمل أن يأتي ريك ليودّعها، لكن اتّضح أنّه كان في ذلك اليوم على بعد أميالٍ كثيرة يلتقي بأصدقائه الجدد كي يتحدّثوا عن أجهزته لجمع البيانات العصيّة على الكشف. لذا وقفنا أنا والمدبّرة الجديدة فقط في منطقة الأحجار الرخوة نراقب جوزي والأمّ وهما تضعان آخر أمتعتها في سيّارة الأم.

ثمَّ وبمجرّد أن أصبحت الأمّ جاهزةً خلف عجلة القيادة، عادت جوزي إليّ؛ لم يغادر الحذرُ مشيتَها يوماً، وهو ما جعل قدميها تغوصان في الحصى مع كلّ خطوة. بدتْ قويّةً ومتحمّسة، وقبل أن تصل إليّ رفعتْ ذراعيها كما لو كانت تحاول أن تشكّل بهما أكبر حرف Y تستطيع تشكيله. ثمَّ حضنتني في عناقٍ دام لحظاتٍ عديدة. كانت قد أصبحت أطول منّي الآن، لذا كان عليها أن تنحني قليلاً وتسند ذقنها على كتفي الأيسر فيما انهمر شعرها الطويل الكثيف ليحجب جزءاً من مجال رؤيتي. كانت تبتسم حين أفلتتني، لكنّني استطعتُ أن أرى أيضاً بعض الحزن في ابتسامتها. قالت عندئذٍ:

- «أظنُّ أنّكِ قد لا تكونين هنا عندما أعود. لقد كنتِ عظيمةً يا كلارا، كنتِ عظيمةً حقّاً».

- «شكراً لك لأنّكِ اخترتِني»، قلتُ لها.

- «لم يتطلّب ذلك منّي الكثير من التفكير». ثمَّ عانقتني ثانيةً عناقاً وجيزاً، وانتصبتْ واقفةً مجدّداً. «الوداع، يا كلارا. كوني بخير».

- «الوداع، يا جوزي».

لوّحتْ مرّةً أخرى بمرحٍ وهي تدلف في السيّارة - كانت التلويحة موجّهة إليّ أكثر من المدبّرة الجديدة. تحرّكت السيّارة بعدئذٍ على الطريق صعوداً متجاوزةً الأشجار المتمايلة وصولاً إلى التلّ تماماً كما اعتدنا أنا وجوزي لمرّاتٍ عديدة أن نراقبها وهي تتحرّك على نفس الشاكلة.

■

بدأتْ بعض ذكرياتي خلال الأيّام القليلة الماضية تتداخل بطرائق مثيرة للفضول. مثلاً، صباح السماء المظلمة حين أنقذ الشمس جوزي، والرحلة إلى شلّالات مورغان، والمطعم المضيء الذي اختاره السيّد فانس، اندمجت كلُّ هذه الذكريات في خلفيةٍ واحدة. إذ تكون الأمّ واقفة وظهرها إليَّ، تتفرّج على الضباب المنبعث من الشلّال، لكنّني لم أكن أنظر إليها من مقعد النزهة الخشبيّ، بل من مقصورتي في مطعم السيّد فانس. ورغم أنَّ السيّد فانس لم يكن مرئيّاً، فقد أمكنني سماع كلماته غير اللطيفة تصل إليَّ عبر الممرّ بين المقصورات. في هذه الأثناء، كانت الغيوم الداكنة قد تجمّعت فوق الأمّ والشلّال، السحب الداكنة نفسها التي تجمّعت في صباح إنقاذ جوزي، مع أقماعٍ وأهرامات صغيرة تتطاير في الريح.

كنتُ أعلم أنَّ هذا لم يكن التباساً، لأنّه كان يمكنني دائماً إذا

أردتُ أن أميّز بين ذكرى وأخرى، وأن أعيد كلَّ واحدةٍ منها إلى سياقها الحقيقي. علاوةً على ذلك، فإنّه حتّى حين يحدث أن تتبادر إلى ذهني مثل هذه الذكريات المركّبة، أظلُّ مدركةً لحدودها الخشنة - كما لو أنّها مزِّقتْ تمزيقاً بأصابع طفلةٍ نزقة بدلاً من تشكيلها بالمقصّ - التي تفصل على سبيل المثال الأمّ عند الشلّال عن مقصورة العشاء الخاصّة بي. وإن نظرتُ عن كثبٍ إلى الغيوم الداكنة، فسوف ألاحظ أنّها ليست على علاقةٍ في الواقع بالأمّ أو بالشلّال. ومع ذلك، فإنَّ مثل هذه الذكريات المركَّبة كانت في بعض الأحيان تعصف بذهني على نحوٍ شديد الوضوح، لدرجةٍ كنت أنسى معها للحظات طويلة أنّني في الواقع أجلس هنا في الفناء فوق هذه الأرض الصلبة.

الفناء رحبٌ وواسع، ومن مكاني الخاص هنا كان الشيء الشاهق الوحيد الذي يمكنني رؤيته هو رافعة البناء على مسافةٍ بعيدة. السماء واسعةٌ جدّاً ومفتوحة، ولو كنتُ أعبر مع ريك حقول السيّد ماكبين مجدّداً - خاصّةً أنَّ العشب قد تمَّ جزّه الآن - فإنَّ السماء قد تبدو لنا هكذا بالضبط. السماء الواسعة تعني أنّني قادرةٌ على مراقبة رحلات الشمس بلا عوائق، وحتّى في الأيّام الملبّدة بالغيوم أكون على درايةٍ تامّة بموقعه فوقي طوال الوقت.

اعتقدتُ حين جئتُ إلى هنا أوّل مرّة أنَّ الفناء كان غير مرتّب، لكنّني أصبحتُ الآن أقدّر ترتيبه الجيّد. أدركتُ أنَّ انطباعي الأولي كان يرجع إلى أنَّ العديد من العناصر هنا تحمل بحد ذاتها هويّة غير مرتّبة - مع بقايا كابلات مقطوعة بارزة، أو ألواح شبكية مبعوجة. لكن بعد المراقبة الدقيقة اتّضح كم بذل عمّال الفناء جهداً لوضع كلّ جزءٍ من آلةٍ أو صندوق أو رزمة في صفوفٍ منظّمة، بحيث أنَّ الزائر

الذي يسير في الممرّات الطويلة التي أُنشئت على هذا النحو سيكون قادراً على استيعاب العناصر واحداً تلو الآخر - حتّى لو كان ينبغي بهذا الزائر توخّي الحذر كي لا يتعثر بقضيبٍ هنا أو شريطٍ معدنيٍّ هناك.

بسبب اتّساع السماء وقلّة العناصر الشاهقة، أصبحتُ سريعاً أعرف بوجود أيّ زائرٍ في الفناء. أرصد هيئاتهم حتّى لو كانوا على مسافةٍ بعيدة ولا يتعدّون كونهم أشكالاً صغيرة تتحرّكُ بين الصفوف. لكنَّ الزوّار لا يأتون كثيراً، والأصوات البشرية التي أسمعها غالباً ما تكون لعمّال الفناء ينادون بعضهم بعضاً.

أحياناً تهبط الطيور من السماء، لكنّها سرعان ما تكتشف أنَّ هناك القليل جدّاً في الفناء ممّا يمكن أن يثير اهتمامها. هبطتْ منذ فترةٍ ليست ببعيدة مجموعة من الطيور غامقة اللون في تشكيلٍ أنيق وحطّت على بعض قطع الآلات غير بعيدةٍ عنّي، وظننتُ للحظةٍ أنّها ربّما تكون طيور ريك قد أُرسِلت لترصدني. هي لم تكن بالطبع طيور ريك، بل طيوراً طبيعية، وقد بقيت جاثمةً بهدوءٍ فوق الآلات لبعض الوقت، دون أن تأتي بأيِّ حركة حتّى حين أخذت الرياح تجعّد معاطفها. ومن ثمَّ طارت جميعها في وقتٍ واحد.

في ذات الوقت تقريباً، توقّف عامل فناءٍ لطيف أمامي وأخبرني بأنَّ هناك ثلاثاً من الص. ا. في الجهة الجنوبية، واثنين في الحلبة. وقال إنّه يستطيع نقلي إلى إحدى هاتين المنطقتين إن كنتُ أرغب في ذلك، لكنّني أخبرتُه بأنّني راضيةٌ ببقعتي الخاصة هذه، فأومأ برأسه ومضى في طريقه.

قبل عدّة أيّام، كان ثمّة حدثٌ مميّزٌ جداً.

رغم كوني عاجزةً عن التنقّل من مكانٍ إلى آخر، إلّا أنّني أستطيع أن أدير رأسي بسهولة كي أرى كلَّ شيءٍ حولي. لذا فقد كنتُ على درايةٍ منذ بعض الوقت بالزائر ذي المعطف الطويل الذي يتحرّك ورائي. وحين التفتُّ في مرحلة ما، كانت هيئة الزائر على مسافةٍ متوسّطة منّي، ورأيتُ أنّها كانت لامرأة تحمل حقيبة تشبه الجعبة تتدلّى من طرف طوق. كانت الحقيبة تتأرجح أمامها كلّما انحنت لتفحص عنصراً ما على الأرض. وحيث إنّها كانت ورائي، لم أتمكّن من الاستمرار في مراقبتها عن كثب، وتوقّفتُ بعد ذلك عن التفكير فيها تماماً لبعض الوقت - ربّما لأنَّ إحدى الذكريات قفزت إلى رأسي. ثمَّ سمعتُ صوتاً، وكانت الزائرة ذات المعطف الطويل تقف هناك أمامي. غمرتْني السعادة إذ تعرّفتُ على المديرة قبل حتّى أن تجلس القرفصاء كي تنظر إلى وجهي.

- «كلارا. أنتِ كلارا، أليس كذلك؟».

- «نعم بالتأكيد»، قلتُ وأنا أبتسم لها.

- «كلارا، كم هذا رائع! لحظة، دعيني أحضر شيئاً ما لأجلس عليه».

عادت وهي تجرّ صندوقاً معدنياً صغيراً كان يصدر ضجيجاً مزعجاً على طول الأرض الخشنة. تمكّنتُ من رؤية وجهها بوضوح حين وضعتْهُ أمامي وجلستْ، رغم اتّساع السماء خلفها.

- «كنتُ آمل أنّني سوف أجدكِ هنا. أوه، وجدتُ ذات مرّة منذ حوالي السنة شيئاً في هذا الفناء، واعتقدتُ للحظة أنّه أنتِ يا كلارا. لكنّه لم يكن كذلك. أمّا اليوم فهذه أنتِ بالتأكيد. أنا مسرورةٌ جدّاً».

- «أنا سعيدةٌ لرؤية المديرة مجدداً».

واظبتْ على الابتسام، ثمَّ قالت: «أتساءل بمَ يمكنكِ التفكير الآن. لا بدَّ أنّه من المربك جدّاً أن تريني بعد كلِّ هذا الوقت».

- «أشعر بالسعادة فقط لرؤية المديرة مجدّداً».

- «أخبريني إذاً يا كلارا. هل كنتِ طوال هذا الوقت، إلى أن جئتِ إلى هنا، هل كنتِ مع أولئك الذين غادرتِ معهم المتجر؟ اعذريني على السؤال، لكن لم يعد لديّ وسيلة سهلة للوصول إلى مثل هذه المعلومات».

- «نعم، بالتأكيد. لقد كنتُ مع جوزي طوال الوقت حتّى ذهبتْ إلى الكلّية».

- «كان ذلك بيتاً ناجحاً إذاً».

- «نعم. أعتقد أنّني أدّيتُ خدمةً طيّبة، وحميتُ جوزي من الشعور بالوحدة».

- «أنا واثقةٌ أنَّ هذا ما فعلتِه. أنا متأكّدة أنّها بالكاد عرفتْ معنى الوحدة بوجودك هناك معها».

- «آمل أنّها لم تعرفها بالفعل».

- «أتعرفين يا كلارا؟ من بين جميع الص. ا. الذين اعتنيتُ بهم وكنتُ مسؤولة عنهم، كنتِ من أبرزهم على الإطلاق. كان لديكِ نوعٌ من البصيرة غير العادية. وقدرة هائلة على المراقبة. لقد لاحظتُ تمتّعكِ بهذه الصفات على الفور. أنا سعيدةٌ جدّاً لسماع أنَّ كلَّ شيءٍ سار بشكلٍ جيّد معك. لأنّه لا يمكن للمرء أن يعرف أبداً ما يمكن أن يحدث حتّى مع قدراتٍ مميّزة كالتي تمتلكينها».

- «هل ما زالت المديرة تعتني بالص. ا.؟».

- «أوه، لا. لقد انتهى ذلك منذ بعض الوقت». جالت بنظرها حول الفناء، ثمَّ ابتسمتْ ثانيةً. «لهذا السبب أحبُّ المجيء إلى هنا

من وقتٍ لآخر. في بعض الأحيان أذهب إلى الفناء في جسر ميموريال، لكنّني أحبُّ هذا المكان أكثر».

- «هل تأتي المديرة... فقط كي تبحث عن ص. ا. من متجرها؟».

- «ليس من أجل ذلك فحسب. أنا أحبُّ جمع التذكارات الصغيرة». أشارت إلى حقيبتها. «هم لا يسمحون لنا بأخذ أيّ شيءٍ مهمّ، لكنّهم يتغاضون عن الأشياء الصغيرة. العمّال هنا يعرفونني. لكنّكِ محقّة، في كلِّ مرّةٍ آتي إلى هنا، يراودني الأمل أن ألتقي أحد الص. ا. خاصّتي».

- «هل سبق لكِ أن صادفتِ روزا؟».

- «روزا؟ نعم، في الحقيقة لقد صادفتُها. عثرتُ عليها هنا. أوه، لا بدَّ أنَّ هذا حدث منذ سنتين على أقلِّ تقدير. لم تسِر الأمور مع روزا جيداً كما حصل معكِ».

- «هي لم تحبّ مالكتها المراهقة إذاً؟».

- «لم يكن الأمر هكذا بالضبط. لكن ليس عليكِ أن تقلقي. دعينا من روزا. أخبريني عنكِ. كانت لديكِ قدرات مميّزة بحقّ. آمل أن طفلتكِ عرفتْ كيف تقدّرها».

- «أعتقدُ أنّها فعلتْ. كان كلُّ مَن في المنزل لطيفين جدّاً معي. واستطعتُ أن أتعلّم الكثير من الأشياء».

- «أتذكّر اليوم الذي جاءتا فيه واختارتاكِ. وكيف قامت السيّدة باختبارك أوّلاً، بحيث طلبتْ منك أن تمشي مثل الابنة. لقد أقلقني ذلك. ظللتُ أفكّر في الأمر بعد مغادرتك».

- «لم يكن هناك من داعٍ لقلقِ المديرة. لقد كان أفضل منزلٍ لي، وجوزي كانت أفضل مراهقة».

بقيتْ المديرة صامتةً للحظة، تحدّق بي وتبتسم. لذا تابعتُ:

- «بذلتُ كلَّ ما بوسعي لفعل ما هو أفضل لجوزي. لقد أعدتُ التفكير في الأمر مراراً وتكراراً الآن. وأنا واثقةٌ أنّه كان بمقدوري أن أكون استمراراً لجوزي لو أصبح ذلك ضرورياً. لكنَّ مآل الأمور كان أفضل بكثير، حتى على الرغم من أنَّ ريك وجوزي ليسا معاً».

- «أنا واثقةٌ بأنّكِ على حقّ يا كلارا. لكن ماذا تعنين بقولك «أكون استمراراً لجوزي»؟ ما معنى هذا؟».

- «أيّتها المديرة، لقد بذلتُ قصارى جهدي كي أتعلّم جوزي، ولو أخذت الأمور منحىً آخر وأصبح من الضروري القيام بذلك، كنتُ لاستعملت كلَّ قدراتي. لكنّني لا أعتقد أنَّ هذا كان سينجح حقّاً. ليس لأنّني ما كنتُ لأتمكّن من إنجاز المهمّة بدقّةٍ، بل لأنّني أعتقد الآن أنّني مهما حاولتُ جاهدة، فإنَّ شيئاً ما كان سيبقى دائماً بعيداً عن متناولي. الأمّ، ريك، المدبّرة ميلانيا، الأب. ما كنتُ لأصل أبداً إلى جوهر ما كانوا يشعرون به في أعماق قلوبهم تجاه جوزي. أنا الآن واثقةٌ من هذا تمام الثقة أيّتها المديرة».

- «حسنٌ، يا كلارا، يسعدني شعوركِ أنَّ الأمور سارت بأفضل ما يمكن».

- «اعتقدَ السيّد كابالدي أنْ ليس ثمّة شيءٌ مميّزٌ داخل جوزي لا يمكن جعله يستمر. أخبر الأمّ أنّه بحث كثيراً ولم يجد شيئاً كهذا. لكنّني أؤمن الآن أنّه كان يبحث في المكان الخطأ. كان ثمّة شيءٌ مميّزٌ للغاية، لكنَّ هذا الشيء لم يكن بداخل جوزي، بل بداخل كلّ مَن أحبّها. لهذا السبب أعتقد الآن أنَّ السيّد كابالدي كان مخطئاً وأنّني ما كنتُ لأنجح. لذا أنا سعيدةٌ لأنّني اتّخذتُ القرار الذي اتّخذتُه».

- «أنا متأكّدةٌ من أنَّ كلَّ هذا صحيح يا كلارا. لطالما كان هذا ما أرغب في سماعه حين أصادف الص. ا. خاصّتي من جديد، أن أسمع أنّكم مسرورون بما آلت إليه الأمور، وأنّه ليس لديكم ما تندمون عليه. هل تعرفين أنّه يوجد بعض الـ B3 هناك على الطرف البعيد من الفناء؟ هم ليسوا من متجرنا، لكن إذا كنتِ ترغبين ببعض الصحبة، فيمكنني أن أطلب من الرجال أن يقوموا بنقلكِ إلى هناك».

- «لا، شكراً لكِ أيّتها المديرة. أنتِ لطيفةٌ كعهدي بكِ دوماً. لكنّني أحبُّ هذه البقعة. كما أنَّ لديَّ ذكرياتي التي ينبغي بي استعراضها ووضعها بالترتيب الصحيح».

- «إنّه خيارٌ حكيم على الأرجح. ما كنتُ لأقول هذا في المتجر، لكنّني لم أستطع يوماً أن أشعر تجاه الـ B3 كما كنتُ أشعر تجاه جيلكم. أفكّر غالباً أنَّ الزبائن شاطروني هذا الشعور. هم لم يحبّوا الـ B3 حقّاً، رغم كلِّ القفزات التقنية التي تميّز بها هذا الجيل. أنا جدُّ سعيدةٍ لأنّني صادفتكِ اليوم، يا كلارا. لطالما فكّرتُ فيك. لقد كنتِ مِن أفضل مَن حظيتُ بهم».

نهضتْ واقفةً على قدميها، وراحت حقيبتها تتأرجح أمامها مجدّداً.

- «ينبغي بي أن أبلغك شيئاً آخر قبل أن ترحلي أيّتها المديرة. لقد كان الشمس لطيفاً جدّاً معي. لطالما كان لطيفاً معي منذ البداية. لكنّه ذات يوم، حين كنتُ مع جوزي، كان لطيفاً على نحوٍ خاصٍّ جدّاً. أردتُ أن تعرف المديرة ذلك».

- «نعم. أنا واثقةٌ أنَّ الشمس لطالما كان طيّباً معك يا كلارا».

مع قولها هذا، استدارت المديرة نحو السماء الواسعة خلفها، رفعتْ يدها إلى عينيها، وللحظةٍ كنّا ننظر سويّاً إلى الشمس. ثمَّ

عادت لتستدير إليّ وتقول: «يجب أن أمضي في طريقي. حسنٌ، يا كلارا. الوداع».

- «الوداع أيّتها المديرة. شكراً لكِ».

مدّتْ يدها إلى الصندوق المعدني الذي كانت تجلس عليه، وراحت تجرّه إلى موضعه الأصلي، فأخذ يصدر نفس الضجيج المزعج. ثمَّ مشتْ مبتعدةً عبر الممرّ الطويل بين الصفوف، وكان من الملاحَظ كيف أنّها تمشي بطريقةٍ تختلف عن التي كانت تمشي بها في المتجر. فقد كانت مع كلِّ خطوةٍ ثانية تميل إلى يسارها على نحوٍ جعلني أقلق من أنَّ معطفها الطويل سوف يلامس الأرض. حين أصبحت عند منتصف المسافة، توقّفت واستدارت، فظننتُ أنّها قد تلقي عليَّ نظرةً أخيرة. إلّا أنّها كانت تحدّق بعيداً في اتّجاه رافعة البناء. ثمَّ تابعت المشي ومضت في طريقها مبتعدة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

كازو إيشيغورو

كلارا والشمس

«اعتقدَ السيّد كابالدي أنْ ليس ثمّة شيءٌ مميّزٌ داخل جوزي لا يمكن جعله يستمر. أخبر الأمّ أنّه بحث كثيراً ولم يجد شيئاً كهذا. لكنّني أؤمن الآن أنّه كان يبحث في المكان الخطأ. كان ثمّة شيءٌ مميّزٌ للغاية، لكنَّ هذا الشيء لم يكن بداخل جوزي، بل بداخل كلّ مَن أحبّها».

تحكي رواية **كلارا والشمس** قصّة كلارا، صديقة اصطناعية تتمتّع بقدرة فائقة على الملاحظة. من موقعها في المتجر، بينما تستمتع بأشعّة الشمس النافعة، تراقب بدقة وعناية سلوك الزبائن والمارّة. تأمل أن يدخل شخصٌ ويختارها، لكن عندما تلوح الفرصة أخيراً، تُحذَّر بألّا تعقد آمالاً كبيرةً على وعود البشر...

في هذه التحفة الفنّية، وهي روايته الأولى منذ حصوله على جائزة نوبل للآداب، ينظر كازو إيشيغورو إلى عالمنا المعاصر المتغيّر بوتيرةٍ متسارعة من خلال عينَيْ راوية استثنائية، ويستكشف بأسلوب رائع عزلة واقعنا الإنساني والمعنى الحقيقيّ للحبّ. يحدّثنا عن الأخلاق والتضحية والغيريّة والقدر، وهي مواضيع أثيرة له، كما يطرح سؤالاً إشكالياً: إلى أيِّ حدٍّ نحن غير قابلين للاستبدال؟

«نظرة مفعمة بالشاعرية والفطنة إلى عالم يمرّ بتحوّلات هائلة. أسلوب فريد وجمال آسر».

مينه تران هوي، **مجلة مدام فيغارو**

مكتبة
t.me/soramnqraa

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
markaz.casablanca@gmail.com